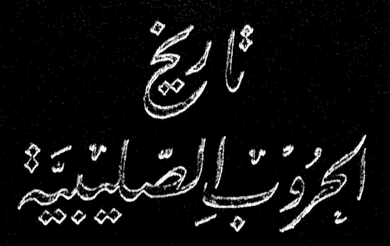
ستيفن رنسيمان



نقله إلى اللغة العربية

الدكتور السيد الباز العريني

الجزء الثالث

القسم الأول

دار الثقافة

بيروت - لبنان



تاريخ الحروب الصليبية

ستيفن رنسيمان



المجلد الثالث

القسم الاول

مملكة عكا

والحملات الصليبية المتأخرة

نقله الى اللغة العربية

الدكتور السيد الباز العريني

استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

دار الثقافة

بيروت - لبنان

مقدمة

هذا هو المجلد الثالث والأخير من تاريخ الحروب الصليبية الذي ألفه ستيفن رنسيمان ونقلته الى اللغة العربية ، فصدرت ترجمة المجلد الاول سنة ١٩٦٧، والمجلد الثاني سنة ١٩٦٨ . ويتناول هذا المجلد دراسة الحركة الصليبية منذ وقعة حطين سنة ١١٨٧ الى ان تداعت في القرن الخامس عشر الميلادي. والواقع ان معركة حطين تعتبر نقطة تحوّل في تاريخ الحروب الصليبية ، فالمعروف ان الفرنج استطاعوا في المائة سنة الاولى من هذه الحركة ، ان يقيموا لهم إمارات في الشرق الأدنى ، وحرصوا على ان يجعلوا لها من نظم الحكم والقضاء والجيش والمالية والإدارة، ما اعتقدوا انها تهيء لهم الاستقرار. فما عقدوه من معاهدات مع المدن الايطالية ، وما اجروه من علاقات مع البابوية والدول الاوربية ، لم يقصد منها سوى توطيد سلطانهم في الشرق الادنى. على ان كل هذه الاجراءات حملت في طياتها بذور التداعي والانهيار، إذ ان ما حققه الفرنج من أهداف بإقامة إمارات لهم في الشرق الادنى ، لم يرجع فحسب الى قوتهم وتوالى الامداد والهجرات ، بل يعود أيضاً الى ما أصاب العالم الاسلامي في مستهل الحروب الصليبية من شقاق ونزاع. فماحدث من العداء بين الخلافتين العباسية والفاطمية ، وما جرى من انقسام الشام بين اسرات متنازعة، وما كان من تفكك وتداعي السلطنة السلجوقية ، كل ذلك هيأ للصليبيين الفرصة لتحقيق مآربهم في الشرق الادنى . على ان المسلمين لم يلبثوا ان ادركوا الخطر الصليبي ، إذ انه منذ مطلع القرن الثاني عشر

الميلادي ، ظهرت نتائج عزمهم ومقاومتهم ، بمـــا حدث من إلحاق الهزيمة ببوهمند امير انطاكية وأسره، وتدمير الحملة الصليبية التيقدمت سنة ١١٠١ ، وتبع ذلك انبعاث حركة الجهاد الديني التي دعـــا اليها الخليفة العباسي في بغداد، وتوالى على تنفيذها أتابكة الموصل وحلب، أمثال مودود، وايلغازي، وعماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود ، فتحقق لهم توحيد الجبهة الاسلامية ، فزالت الخلافـــة الفاطمية ، وخضع للأسرة الزنكية البلاد الممتدة من اقليم الجزيرة ، الى مصر ، واشتد التضييق على الفرنج . وإذ استقر صلاح الدين وأسرته في حكم مصر ، حرص على المحافظة على التقاليد الزنكية ، فلم يشأ مهاجمة الصليبيين إلا بعد ان أعـــاد الوحدة الى دولة نور الدين ، التي كادت تتفكك بعد وفاتـه ، فأفاد من جهود الزعماء المسلمين السابقين ، ومن الولاء للخلافة العباسية ، ومن إدراكه لما دبّ من عوامل الضعف عند الفرنج، ومن توطيد علاقاتـه بالقوى المسيحية المناوءة للفرنج في الشرق الادنى ، كالدولة البيزنطية والمدن الايطالية ، كل ذلك هيأ له سبيل النصر في معركة حطين ، التي قررت مصير الفرنج في هذه المنطقة .

وما جرى بعد حطين من الحروب الصليبيـة ، يقع في مرحلتين ، تنتهي المرحلة الأولى سنة ١٢٩١ ، بسقوط عكا التي كانت عاصمة مملكة بيت المقدس الثانية ، بينما امتدت المرحلة الثانية ، التي تعالج الحملات الصليبية المتأخرة ، الى القرن الخامس عشر .

أفرد رنسيمان للمرحلة الأولى معظم الكتاب ، ولم يخص الحملات المتأخرة إلا بفصل واحد في خاتمة الكتـاب ، فشملت المرحلة الاولى ، الحملة الصليبية الثالثة ، ومـــا اطلق عليه رنسيمان الحملات المنحرفة التي تمثلت في الحملات الرابعة والخامسة والسادسة ، وما كان للمغول والمماليك من اهميـة في مصير الشرق الفرنجي ، الذي اختفى بسقوط عكا سنة ١٢٩١ ، وحرص المؤلف على ان يجعل للحضارة نصيباً في كتابه القيّم، فاستعرض ما كان للتجارة والفنون والحياة العقلية من أهمية عند الفرنج بالشرق الأدنى .

وما اقامه الفرنج من امارات ، وما نعموا به من الرخاء ، وما توافر لهم من اسباب الدعة ، وما جرى من النشاط التجاري ، كل ذلك تعرّض للانهيار في معركة حطين ، فلم يبق لهم الا انطاكية وطرابلس وصور ، وذلك بفضل اسطول صقلية ، وانصراف صلاح الدين الى الاستيلاء على معـــاقل الفرنج الداخلية ، مما دعا المؤرخين الى ان يلقوا على صلاح الدين مسؤولية الابقاء على صور التي اضحت معقل اللاجئين ، وما اتسمت به الحملة الصليبية الثالثة من الصفة العلمانية ، وضخامة حجمها ، اذ لم يتوجه بعدهـا الى الشرق حملة في هذه الكثرة العددية ، فضلاً عن اتحاد اوروبا واشتراكها فيها ، كل ذلك لم يؤد الا الى نتائج ضئيلة ، وما حققته من اهداف لم يتجاوز الاستيلاء على المدن الساحلية من عكا حتى يافا ، وانتزاع جزيرة قبرص من سيدها المسيحي (البيزنطي) ، والمحافظة على انطاكية وطرابلس وبعض الحصون التي حازها الداوية والاسبتارية . وما نشب من مشاكل بين الامبراطور البيزنطي اسحاق انجيلوس وبين فردريك بربروسه انطوت على جراثيم الحملة الصليبية الرابعة ، وما حدث بين رتشرد وصلاح الدين من مفاوضات ، حوت ايضاً بذور الحملة الصليبية السادسة ، وترتب على اجتماع الامم في حملة عامـــة ، ان ازدادت المنافسات القومية ، وبرزت الاختلافات الوطنية . على أنـه من جهة اخرى حدث في هذه الحملة من العلاقات الودية ما لم يحدث اثناء حملة صليبية اخرى . غير ان اقوى ما أسفرت عنه الحملة الصليبية الثالثة ، هو ما حدث من ان الحركة الصليبية أفلتت من يـــد البابوية ، وأضحت داخلة في نطاق الدولة الدنيوية، إذ تتولى الحكومة تنظيمها على اساس ما وضعته من نظام للضرائب، وتقوم الدولة بتوجيهها وفقاً لما اتخذته من طريق المفـاوضات ، ويعتبر ذلك من أهم التغييرات ، فلم تستطع عبقرية البابا انوسنت الثالث ان تنقض ما تم ابرامه ، بل حدث عكس ذلك . فمـا وقع ظلّ جارياً ، وسوف تتخـــذ الدولة اسم الحرب الصليبية لتخفي ما لها من اغراض ومطامع دنيوية، وتعمل تحت هذا الغطاء على تحقيقها .

على ان مملكة بيت المقدس في عكا لم يبق عليها لمدة قرن آخر من الزمان، سوى ما تعرضت له الدولة الايوبية من الانهيار ، وتهديد المغول والخوارزمية لأطراف الدولة ، وتوالي قدوم الامداد من الغرب برغم ضآلتها .

لما مات صلاح الدين سنة ١١٩٣ ، تمزّقت الوحدة التي أقامها بفضل قوة شخصيته وسلطانه ، فاستقلت كل الأقاليم باستثناء الكرك ، فأصاب سوريا من الانقسام والتفكك ما اتصفت به زمن السلاجقة . وما حدث من الاضطرابات التي اثارتها المنازعات والخصومات في البيت الايوبي ، وأطماع بعض أفراده ، وحرص اميريّ حلب ودمشق على المحافظة على استقلالهما ، وشدّة حذرهما من اطماع اميريّ مصر والجزيرة ، كل ذلك جعل هذه المرحلة التي امتدت الى نهاية زمن الأيوبيين في مصر والشام ، تطفح بالفوضى والاضطراب .

والواقع انه لم يبقَ على سلطان الأيوبيين في هذه المرحلة ، إلا ما اتصفت به هذه الاسرة اصلاً من الترابط ، الذي زاده قوة وصلابة ما حدث من مصاهرات بين أفراد الاسرة ، وما كان للادارة المدنية ، وما اتسمت به من الروح الدينية ، من تأثير قوي بفضل تمسكها بتقاليد نور الدين وصلاح الدين . ومن عوامل الاستقرار ايضاً ما كان يحدث في كل جيل من الأجيال من ظهور زعيم قوي في الاسرة الأيوبية ، يفرض سلطانه على سائر الأمراء ، برغم ما كان يتعرض له في بعض الاحوال من مقاومة عنيفة .

ففي الجيل الاول كان العادل شقيق صلاح الدين هو المسؤول عن المحافظة على كيان الأيوبيين ، إذ كان اعظم مستشاري صلاح الدين وأقوى افراد الاسرة وأكثرهم كفاية وأشدّهم دراية بأحوال الامارات الداخلية ، نظراً لأنه تولى في أزمنة مختلفة حكم حلب ومصر والكرك والجزيرة ، واستطاع العادل آخر الامر ان يفيد من المنازعات التي نشبت بين أبناء صلاح الدين والأمراء الأيوبيين ، ويفرض نفسه سلطاناً اعترف به سائر الأمراء الأيوبيين ، وأن يعيد الوحدة للدولة الأيوبية، فعهد بإدارة أقاليمها الى أبنائه . وتصدّر الجيل

الثاني الكامل بن العادل ، وفي الجيل الاخير للدولة كان الصالح ايوب حريصاً على وحدة الدولة وسلامة أراضيها .

الواقع انه لم يكن ثمة من الاسباب والدواعي مـــا يدعو الى الصدام بين المسلمين والفرنج في الشرق الأدنى في الفترة التي تلت وفـاة صلاح الدين ، واغتيـال كنراد مونتفيرات ، إذ انصرف الأمراء الأيوبيون الى منازعاتهم الداخلية ، وأفـاد الملوك الذين تعاقبوا على ولاية حكومة بيت المقـدس بعكا من هـذه المنازعات ، ونزوع الأمراء المسلمين الى الهدوء والسكينة في توطيد سلطانهم . ففي زمن السلطان العـادل ، انعقدت الهدنات بين المسلمين والفرنج في السنوات : ١١٩٨ – ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ – ١٢١٠ ، ١٢١١ – ١٢١٧ ، كما حرص البنادقة والبيازنة على الحصول على امتيازات تجارية من الأمراء الأيوبيين في مصر والشام . ومـــا تكرّر من صدور أوامر البـابا انوسنت الثالث بمنع التجارة مع المسلمين ، يدلّ على ان هذه التجارة لم تتوقف بتاتاً .

وبينما ساد السلام على هـذا النحو في الأراضي المقدسة ، صرف الصليبيين الى جهات اخرى ، ما حدث من تغيير في الحركة الصليبية ، إذ ان البواعث الاقتصادية والسياسية والشخصية لم تلبث ان تحكمت فيما يعرف بالحمـــلات المنحرفة ، فيعتبر تاريخ الحملة الصليبية الرابعة تاريخاً لتسلط النزعة العلمانية ، ومحاولة البابوية التخلص من تلك السيطرة ، ومواصلة ما اشتهرت به من قبل من توجيه الحملات الصليبية ، وما حاق بهذه المحاولة من الفشل الذريـع .

كان يمثل الحافز الدنيوي هـنري السادس اكبر وأعظم رجال السياسة في زمنه ، بـل يعتبر في نواحي عديدة اعظم امبراطور منذ شارلمان . ومع ان هنري كان حريصاً على مواصلة الحملة الصليبية التي توقفت بسبب وفاة والده ، فإنـــه باعتباره خليفة فردريك بربروسة ووريث الملوك النرمنديين في صقلية الذين دأبو المرة بعد المرة على مهاجمة الامبراطورية البيزنطية ، كان يود تسوية حسابه مع اباطرة القسطنطينية ، وبذا اقترن مشروع الحـملة الصليبية بمهاجمـــة القسطنطينية . فأرسل هنري السادس الى الامبراطور البيزنطي ،

اسحاق انجيلوس يطلب منه التعويض عـن الخسائر التي لحقت أباه فردريك أثناء اجتيازه الاراضي البيزنطية ، والتنازل عما كان لبيزنطة من ممتلكات في ايطاليا ثم استولى عليها النرمان ، واعداد اسطول للمعاونة في حرب صليبية. ولكن حدث ان جرت الإطاحة بإسحاق من العرش ، وتمت مصاهرة بـــين البيت الملكي في المانيا والبيت الامبراطوري في بيزنطة، بزواج فيليب السوابي من اميرة بيزنطية ، وبذا اضحى لهنري مـا يبرر تدخله في شؤون بيزنطة . ومع ان هنري مات سنة ١١٩٧ ، فإنــه كان للألمان بعض النفوذ في الاراضي المقدسة، وتألفت طائفة الفرسان التيوتون، وحاز الألمان بعض المدن والقلاع.

وتهيأت الفرصة لأنوسنت الثالث لأن يحقق ما كان يصبو اليه من اغراض ، بأن يحرص على سمو سلطة البابوية ، واعتبار ملوك بيت المقدس أتباعاً له ، والتحكم في توجيه الحرب المقدسة ، ومع انـه جرى الاتفاق على ان تكون مصر هي هدف الحملة ، نظراً لمـــا لها من أهمية استراتيجية وتجارية فضلاً عن الحرص على المحافظة على الهدنة في الشام ، فإن الاغراض السياسية لم تلبث ان تغلبت ، ووجهت الحـملة لمهاجمة القسطنطينية ، ومن هـــذه الاسباب السياسية كراهية الغرب لبيزنطة نظراً لاصرارها على حيازة كل ما يستولي عليه الصليبيون من ممتلكات في الشرق الادنى، باعتبارها من الاقاليم التي فقدتها ، يضاف الى ذلـك مسؤولية بيزنطة عن فشل الحملات الصليبية السابقة ، أما السبب الثاني فيتعلق بالبندقية ومـــا تحمله من ضغينة لبيزنطة، وإلحاحها في زيادة ما حصلت عليه من امتيازات تجارية ، وإنكارها لما اقدم الامبراطور الكسيوس الثالث من انتقاص هذه الامتيازات ، ولمـا حـدث من تدمير حي البنادقة بالقسطنطينية . ولعل من أهم الاسباب التي أدت الى تحول الحملة الى القسطنطينية ، هو ما بيّته النرمان لبيزنطة من ثـأر قديم، ازداد حدة بعد استيلاء النرمان على الثغور اليونانية في جنوب ايطاليا. وإذ تعتبر اسرة الهوهنشتاوفن وريثة للملوك النرمان ، أعـدّ هنري السادس حملته الصليبية لمهاجمة القسطنطينية ، هـــذه السياسة كانت الفرصة الوحيدة

لتحول الحملة وانحرافها ولا سيا بعد ان اشتبك فيليب دوق سوابيا في نضال مع البابوية . ولم تلبث البابوية ان أقرت الأمر الواقع بعد ان راودها الأمل في خضوع المنشقين ، وفي اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية ، وفي مساعدة بيزنطة للحركة الصليبية ، على ان البندقية كانت اكثر مـا افاد من سقوط القسطنطينية بما حازته من نصيب كبير في المدينة والممتلكات البيزنطية . أما الامبراطورية اللاتينية التي قامت سنة ١٢٠٤ فاستنزفت نشاط المغامرين الاقوياء الذين قـدموا من الغرب لمساعدتها ، بينما هلكت الارض المقدسة جوعاً ، كما توفر الغذاء لأرض أقل قداسة وأكثر شراهة للرجال ، فلن يجد البـابا في الامبراطورية اللاتينية في الشرق أساساً للحرب الصليبيـة ، ولذا اضطر سنة ١٢٠٨ الى ان يفكر من جديد في اعداد حمـلة تسير مباشرة من الغرب الى الشرق .

الواقع ان ما اشتهرت به الحروب الصليبية من حماس وصيت اختفى بمـا جرى من تحوُّل الحملة الصليبية الرابعة ، برغم مـا اقترنت بـه حملات لويس التاسع فيما بعد من روح دينية . وقد ادرك البابا انوسنت الثالث هذه الحقيقة ، برغم اصراره على توجيه حملة جديدة الى مصر ، فلم يكن سلوك رجال الدين فوق الشبهات ، ولم تكن اخلاقهم لتؤدي الى احسن النتائج ، نظراً لما ساد بينهم من الأحقاد ، والتماس السبيل للوصول الى المناصب التي تهيىء لهم حياة ناعمة . يضاف الى ذلك ضعف الروح الدينية ، فان من الذين وعدوا بالاشتراك في الحروب الصليبية ، من نقض عهده ، ومنهم من اتخذ الصليب في نوبة حماس طارئة ، ومنهم من لم يقصد بذلك سوى الشهرة او الحصول على امتيازات ، كأن يؤجل تسديد ما عليه من ديون ، او يتخلص من ارباحها ، او يعفى من الضرائب المحلية ، او الالتزامات الاقطاعية ، او يظفر بحق جبـاية الاموال مقابل رهن اقطاعاتهم . ولم يكن الاغنياء راغبين في أن يشتركوا بأشخاصهم في الحرب الصليبية ، بل انهم لم يفكروا في ان يعدّوا من يحل مكانهم . كما ان ما للمدن الايطالية من مصالح ونزعة تجارية كانت اقوى من عاطفتها الدينية .

ولقيت الروح الحربية في الغرب منفذاً جديداً فيا أضحى سائداً وقتذاك من منازلات الفروسية ، وما ساد من عداوات وحروب اهلية هيأت للفارس المغامر الطموح مجالاً سهلاً ليمارس فيه القتال ويشبع رغبته .

والواقع ان ايام الحروب الصليبية قد ولّت ، إذ كانت الحملات التالية تعتبر فشلاً ذريعاً برغم ما اصابته من بعض النجاح .

لم يؤد سقوط عكا بأيدي المسلمين الى اثارة دول اوربا للقيام بأي مجهود حربي جديد ، إذ ان فرنسا التي تعتبر الموطن الطبيعي للحروب الصليبية ، بلغ من شدة انصرافها الى الحروب مع انجلترا ، ثم النضال مع البابوية ، انها لم تستطع توجيه جهودها نحو الشرق . لم تكن البابوية وحدها مسئولة عن انهيار الحروب الصليبية لاتخاذها الحرب الصليبية لتحقيق مصالحها الخاصة ومناوءة خصومها . إذ أن امراء اوروبا يعتبرون ايضاً مسؤولين عما أصاب الحركة الصليبية من الفشل، لأنهم اتخذوها وسيلة للحصول على اغراض دنيوية، وبذا اسهموا في اخماد الحماس الديني ، الذي اشتهرت به الحرب المقدسة .

وحملت المصالح التجارية المدن الايطالية الى اشتداد التنافس بينها ، ووقوع المنازعات المريرة في الشرق التي أدّت الى وقوع معارك حربية وبحرية ، والتسابق لعقد معاهدات تجارية مع الأمراء المسلمين في مصر والشام .

يضاف الى ذلك ما وقع من نزاع بين الطوائف الدينية العسكرية ، وما درجت عليه من اتخاذ سياسة تتصف بالأنانية لتحقيق مآربها .

أشار رنسيمان في خلاصته الى ما أصاب الحركة الصليبية من ضعف الادراك وتضاؤل الشرف ، واشتداد التعصب ، فلم تعد الحرب المقدسة اكثر من اجراء طويل من التعصب باسم الله .

الواقع ان الحركة الصليبية التي امتدت منذ اواخر القرن الحادي عشر الى أواسط القرن الخامس عشر ، اشتد تأثيرها في اوروبا والعالم العربي فضلاً عن الشرق الأقصى ، وما دأب عليه رنسيمان من تتبع ما حدث من تطورات

في هذه الأرجاء الشاسعة في هذه الفترة الطويلة ، من النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية التي تتصل من قريب او بعيد بالحركة الصليبية ، وحرصه على أن يعرضها في اسلوب شيّق رائع ، هيأ لدارس تاريخ هذه المرحلة الفرصة لأن يدرك ما للعلاقات بين الشرق والغرب من اهمية ، وأثار من القضايا والمسائل ما يدعو المؤرخين في الشرق والغرب الى التعاون في استجلاء ما جرى إغفاله ، ولا سيما ما يتعلق بالنظم المختلفة ، والأحوال الاقتصادية والاجتماعية .

حرص رنسيمان على ان يضيف الى الكتاب ملحقين ، احدهما عن المصادر الاساسية لتاريخ الحملات الصليبية المتأخرة ، والآخر عن الحياة العقلية في الشرق . على انني استكمالاً لجهد المؤلف ، افدت مما اورده عن أنساب الأسرات الحاكمة فجعلت منها ملحقاً ثالثاً ، بينما شمل الملحق الرابع أسماء ملوك وأمراء الاسرات الحاكمة والأباطرة البيزنطيين والبابوات ، وأمراء الفرنج ، والأمراء المسلمين والمغول والأرمن ، ومقدمي الطوائف الدينية العسكرية .

وإذ أورد المؤلف في مواضع عديدة اسماء المدن والمواقع كما جاءت في الكتب المقدسة والمصادر الأساسية ، حاولت ان اثبت ما يقابلها من الأسماء العربية ، وحرصت على أن اجعل في الحواشي من النصوص الواردة في المصادر العربية ما يشرح بالدقة ما جاء في المتن من عبارات .

وأود قبل ان اختتم هذه المقدمة ان ازجي الشكر الى دار الثقافة ببيروت لما بذلته من جهد كبير في اصدار هذه الترجمة لكتاب تاريخ الحروب الصليبية ، ولا بد من التنويه بما بذله القائمون على مطبعة دار النجوى من عناية مشكورة .

والله ولي التوفيق

بيروت : ١٩٦٩ — السيد الباز العريني

١٣٨٩

تصدير

المقصود من هذا المجلد، ان يعالج تاريخ الشرق الفرنجي والحروب الصليبية منذ إحياء مملكة الفرنج زمن الحرب الصليبية الثالثة حتى انهيارها بعد ان مضى على إحيائها قرن من الزمان، فضلاً عن خاتمة عن الظواهر الاخيرة للروح الصليبية . والواقع ان الكتاب يعرض قصة تشابكت فيها أغراضها العديدة، فما أصاب الشرق الفرنجي من انهيار اقترن بيأس بالغة التعقيد برغم قلتها ، واعترضته من حين الى آخر حروب صليبية ضخمة انتهت جميعها، بعد الحرب الصليبية الثالثة ، بالانحراف عن وجهتها الاصلية ، او بما حلّ بها من كارثة . ففي اوربا ، ومع انه أضحى من الامور المعروفة ان كل امير قوي لم يبذل للحركة الصليبية مساعدة صادقة، بل ان ما اشتهر به القديس لويس من تقوى متأججة لم يوقف انهيار الحركة الصليبية ، كان العداء المتزايد بين العالمين المسيحيين في الشرق والغرب قد بلغ الذروة في أعظم مأساة وقعت في العصور الوسطى ، وهي تدمير المدينة البيزنطية باسم المسيح . اما العالم الاسلامي فان ما جرى فيه من باعث متصل للجهاد أدّى الى ان يحلّ مكان الايوبيين المعروفين بالرحمة والتهذيب ، المماليك الذين يفوقونهم في الكفاية ، ويقصرون عنهم في الشفقة، والذين كان لزاماً على سلاطينهم ان يستأصلوا شأفة الفرنج من سوريا. يضاف الى ذلك ما حدث آخر الامر من الانبثاق المطلق المغول الذين تراءى

اول الامر انهم لم يقدموا إلا لتخليص العالم المسيحي في الشرق، غير ان نفوذهم لم ينجم عنه آخر الامر سوى التدمير والتخريب، نظراً لما اتصف به حلفاؤهم من الملوك والأمراء من قصور في التصرف والإدراك . فأضحت القصة بأكملها خليطاً من الإيمان الحـاقة ، ومن الشجاعة والنهم ، والأمل والخداع .

ضمنت هذا المجلد فصولاً موجزة عن التجارة والفنون في الشرق الفرنجي . والواضح ان هذه المعالجة اقتضتها الضرورة، إذ لا يصحّ انتزاع تاريخ التجارة والفنون من التاريخ العام لتجارة ومدنية العصور الوسطى . ولذا حاولت ان ألتزم منه بالحدود التي لها صلة وثيقة بدراسة الشرق الفرنجي .

فالمعروف ان تاريخ الحروب الصليبية موضوع ضخم ، ليست له حدود معينة ، وما جريت عليه من معالجة لهذا الموضوع ، ليست سوى ما اخترته لنفسي من خطة. فإذا أدرك القراء خطأ ما بذلته من تأكيد لمظاهره المختلفة، فلا أدافع عن ذلك إلا بأن للمؤلف ان يختـار لنفسه الطريقة التي يضع بهـا كتابه. يضاف الى ذلك ما يتهيأ للنقاد من ان يجأروا بالشكوى من ان المؤلف لم يصنف الكتاب الذي كانوا يأملون ان يكتبوه لو تناولوا موضوع الكتاب. على انني آمل ألا اكون اغفلت كل ما يعتبر جوهرياً لفهمه وإدراكه .

وما أدين به من افضال كبيرة لعلماء كثيرين ، الأموات منهم والأحياء ، تظهر جلية، فيما اعتقد، في حواشي الكتاب. فما وضعه السير جورج هيل من مؤلف ضخم عن تاريخ جزيرة قبرص، وما ألفه الاستاذ عطيه من تاريخ مسهب عن الحروب الصليبية المتأخرة، يعتبران جوهريين لدراسة هذه الفترة، وينبغي على الدارسين ان يبذلوا دائماً الشكر والعرفان للاستاذ كلوذ كاهن ، لما حوته مؤلفاته من معلومات بالغـة القيمة والثقة . على انني ينبغي ان اذكر بالأسى والحزن وفاة الاستاذ جروسيه ، فيما اشتهر به من بصيرة نافذة ، وما اتصفت

به كتابته من الحيوية ، أسهمت الى حد كبير في استجلاء ما ساد من سياسات في الشرق الفرنجي ، وأصول السياسة الاسيوية . واستندت الى حد كبير الى دراسة المؤرخين الامريكيين ، أمثـال المرحوم لامونت ، و ب. ا. تروب .

وينبغي ايضاً ان اشكر اصدقائي في الشرق الأدنى ، الذين بذلوا لي كل مساعدة اثناء رحلاتي بـه ، وأخص بالشكر شركة بترول العراق ، وكذا الاوصياء على مطبعة جامعة كمبردج لما اولوني به من عطف .

ستيفن رنسيمان

لندن : ١٩٥٤ .

الكتاب الاول

الحرب الصليبية الثالثة

الفصل الاول

يقظة ضمير الغرب

ما أسرع ما ينتقل النبأ السيء . فما كاد القتال ينتهي في معركة حطين ، وتتحقق خسارة الفرنج لها ، حتى هرعت الرسل صوب الغرب لينهوا خبرها الى أمراء اوربا ، ولم يلبث رسل آخرون أن اقتفوا أثرهم ، ينبئون بسقوط بيت المقدس ، وذعر العالم المسيحي في الغرب لما علمه عن الكارثتين . فما من أحد في الغرب ، باستثناء المجلس البابوي فيما يبدو ، كان يفطن الى إلحاح الخطر ، على الرغم من الاستغاثات التي جاءت من مملكة بيت المقدس في السنوات الأخيرة . إذ أن الفرسان والحجاج الذين ارتحلوا نحو الشرق صادفوا في إمارات الفرنج من الحيـــاة ما تفوق في الأبهة والمرح ، ما لم تعرفه حياتهم في أوطانهم بالغرب . سمعوا الحكايات عن البسالة العسكرية ، وشهدوا ما أصاب التجارة من ازدهار ، ولم يدركوا ما يتعرض له كل هذا الرخاء من خطر . على أنه حدث فجأة أن سمعوا أن كل ذلك قـــد زال ، إذ تحطم الجيش المسيحي ، وأضحى صليب الصلبوت ، الذي يعتبر أقدس المخلفات الدينية ، في أيدي المسلمين ، بل إن

بيت المقدس ذاتها أخذها المسلمون ، وفي خلال بضعة شهور انهار كل البناء الذى أقامه الفرنج في الشرق ، فإذا كان لشيء أن ينجو من هذه الخرائب ، فلا بدّ من إرسال نجدة ، والتعجيل بإنفاذها .

على أن اللاجئين الذين بقوا على قيد الحياة بعد الكارثة ، احتشدوا سوياً خلف أسوار صور ، وأبقى على شجاعتهم ما اشتهر بـه كنراد مونتفيرات من نشاط لا يكلّ ولا يرحم . والواقع أنه لم ينقذ مدينة صور من التسليم إلا ما واتاها من حظ طيب بقدومه اليها ؛ وكل من أفلت من قبضة صلاح الدين من السادة ، أخذوا ينحازون اليه بهـا الواحد بعد الآخر ، وقبلوا عن طيب خاطر قيادته وزعامته . على أنهم جميعاً أدركوا أنه ما لم تصلهم مساعدة من الغرب ، تضاءلت الفرص للابقاء على صور في أيديهم ، وضاعت كل فرصة لاسترداد البلاد التي فقدوها . وفي فترة الهدوء التي أعقبت اول هجوم شنّه صلاح الدين على صور ، عند مضيّه للاستيلاء على شمال الشام ، أنفذ السادة الذين حلّوا بصور أشد رفاقهم ورعاً ، وهو جوسياس رئيس اساقفة صور ليخطر البابا وملوك الغرب بأشخاصهم ان الحاجة ماسة الى مساعدتهم . وحوالي ذلك الوقت كتب من بقي على قيد الحياة من الفرسان الرهبان الى اخوانهم في الغرب هذه القصة المثيرة [١] .

---

(١) انظر ، عن رحلة جوسياس Ernoul, pp. 247 - 248 .
اما تقرير تيرنيس ، من الداوية ، الى اخوانه في الغرب ، فانه اورده :
Benedict of Petersborough, II, pp. 13 - 14 .
وأثبت تقرير الاسبتارية Ansbert, Expeditio Friderici. pp. 2 - 4 .
وكتب تيرنيس ايضاً الى هنري الثاني ملك انجلترا ، انظر :
Benedict of Petersborough. II. pp. 40 - 41 .

سفارة جوسياس ، رئيس اساقفة صور ، الى الغرب سنة ١١٨٧ :

أبحر رئيس الأساقفة من صور في اواخر صيف سنة ١١٨٧ ، وبلغ بلاط وليم الثاني ملك صقلية بعد رحلة سريعة ، فألفى الملك شديد الأسى لما بلغه من شائعات عن الكارثة . فلما علم وليم الثاني بتفاصيلها كاملة ، ارتدى ثوباً من الخيش ، والتمس مكاناً اعتزل فيه لمدة اربعة ايام . ثم كتب الى رفاقه الملوك يحثهم على أن يشاركوا في حرب صليبية ، بينما تجهّز لأن يوجّه ، في اسرع ما يتهيأ له الوقت ، حملة الى الشرق ، إذ كان فعلاً قد اشتبك مع بيزنطة في قتال ، ذلك أن عساكره حاولوا سنة ١١٨٥ أن يستولوا على سالونيك ، غير أنه حاقت بهم هزيمة ساحقة ، ولكن اسطوله ما زال يتحرك في مياه جزيرة قبرص ، يبذل لمغتصبها اسحاق كومنينوس المساعدة في تمرده على الامبراطور اسحاق انجيلوس . فعجّل وليم الثاني بعقد الصلح مع الامبراطور البيزنطي ، وتقرر استدعاء امير البحر الصقلي ، مرجريتوس البرنديزي للعودة الى البلاد ، لتجهيز سفنه ، التي أبحرت الى طرابلس تقل ثلثمائة فارس . وفي تلك الاثناء اتخذ جوسياس رئيس اساقفة صور طريقه الى روما ترافقه بعثة من صقلية [١] .

وأدرك القوم في روما ما تنطوي عليه أنباء جوسياس من خطورة ، لأن الجنويين سبق ان ارسلوا فعلاً تقريراً الى المجلس البابوي [٢] . ولكن البابا الهرم ، اربان الثالث كان وقتذاك مريضاً ، وكانت الصدمة شديدة

---

(١) انظر : Ernoul, loc. cit.

(٢) انظر : Benedict of Petersborough, II. pp. 11 - 13.

عليه ، فمـات كمداً في ٢٠ اكتوبر سنة ١١٨٧ [١] . على أن جريجوري الثامن الذي خلفه في البابوية بادر على الفور الى ارسال كتاب دوري الى جميع المؤمنين بالغرب ، أورد فيه القصة الخطيرة عن ضياع الارض المقدسة وصليب الصلبوت . وحرص على ان يذكّر الذين يقرأون كتابه ، بأن ما حدث منذ اربعين سنة كان نذيراً بذلك . أضحت الحاجة ماسّة الى بذل جهود ضخمة . فليكفر كل انسان عن خطاياه ، وليدخر لنفسه كنزاً في السماء بأن يتخذ الصليب ، ووعد جميع الصليبيين بقدر وفير من غفران الذنوب ، فينبغي ان ينعموا بالحياة الأبدية في السماء ، بينما تصير امتعتهم الدنيا في حماية المقر المقدس . واختتم كتابه بالدعوة الى الصيام كل يوم جمعة ، لمدة خمس سنوات ، والامتناع عن تناول اللحم يومي الاربعـاء والسبت . وسوف يصوم ايضاً يوم الاثنين اهل بيته وأسرات الكرادلة . وتقرر ايضاً ان يتوجّه من روما مبعوثون آخرون ، ليفرضوا على جميع امراء العالم المسيحي الهدنة لمدة سبع سنوات . وترددت الرواية أن جميع الكرادلة اقسموا انهم سوف يكونون من اوائل الذين يتخذون الصليب ، وسوف يقودون الجيوش المسيحية الى فلسطين باعتبارهم مبشرين متسولين [٢].

ولم يعش البابا جريجوري الثامن ليشهد نتيجة جهوده ، إذ مـات في

---

(١) انظر : Annales Romani in Watterich, Pontificum. Romanorum Vitae, II. pp. 682 - 683.

(٢) انظر : Benedict of Petersbôrough, II. pp. 15 - 19.

الذي اثبت نصوص رسائل البابا . ومع ذلك فان الشاعر البروفنسالي جيرو اعتبر ان البـــابا لم يكن بالغ النشاط . انظر :

Throop, Criticism of the Crusades, pp. 29 - 30.

بيزا في ١٧ ديسمبر سنة ١١٨٧ ، ولم يمض على بابويته سوى شهرين ، بعد أن ترك الأمر الى أسقف براينيست الذي تمّ اختياره بعد يومين بابا باسم كليمنت الثالث . وإذ بادر البابا كليمنت الثالث الى الاتصال بكبار ملوك الغرب ، كان الامبراطور فردريك بربروسه وجوسياس رئيس اساقفة صور يجتازان جبال الألب للاجتماع بملكي فرنسا وانجلترا [١] .

على أن أنباء بعثة بطريرك انطاكية قد تقدمته وسبقته ، ذلك ان ايمري الكهل ، بطريرك انطاكية كتب في سبتمبر سنة ١١٨٧ الى هنري الثاني ملك انجلترا يخطره بما يعانيه الشرق من محن ، وأرسل هذا الكتاب مع أسقف بانياس [٢] ، وكان رتشرد كونت بواتو أكبر من بقي على قيد الحياة من أبناء هنري الثاني ، قد اتخذ الصليب [٣] قبل قدوم جوسياس ، رئيس أساقفة صور ، الى فرنسا ، بينما ظلّ هنري الثاني نفسه سنوات عديدة يشن حرباً سجالاً على فيليب اغسطس ملك فرنسا . وفي يناير سنة ١١٨٧ التقى جوسياس بالملكين في جيزورز على الحد الذي يفصل بين نرمنديا والبلاد الفرنسية ، حيث اجتمع الملكان للمناقشة في عقد هدنة بينهما . واستطاع جوسياس بفصاحته ان يحملها على عقد الصلح ، لم يعدا بالتوجه ، ببالغ السرعة ، الى حرب صليبية . وعجل فيليب كونت فلاندر

---

(١) انظر : Annales Romani in Watterich, op. cit. II. pp. 36 - 38 .

(٢) انظر : Benedict of Petersborough, II. pp. 36 - 38 .

(٣) انظر : Ambroise, l'Estoire de la Guerre Sainte, col. 8.
Itinerarium Regis Ricardi, p. 32 .
Rigord, pp. 83 - 84 .
الواقع ان المؤتمر الذي انعقد في جيزورز لم يحقق نجاحاً سياسياً .

باحتذاء مثلهما ، ولعل السر في ذلــك يرجع الى ما شعر به من الخجل لحملته الفاشلة التي قام بها منذ عشر سنوات . وأقسم عدد كبير من كبار النبلاء بالمملكتين (فرنسا وانجلترا) على ان يصحبوا الملكين . وتقرر ان يسير الجيشان معاً ، فاتخذ العساكر الفرنسيون الصليب الاحمر على أرديتهم ، بينما اتخــذ العساكر الانجليز الصليب الابيض واختار الفلمنكيون الصليب الاخضر . وللاتفاق على الحملة فرض الملكان ضرائب خاصة [١] ، إذ اجتمع في نهاية يناير سنة ١١٨٨ ، مجلس الملك هنري في لى مانز ، وقرر أن تؤدى الضريبة المعروفة بعُشْر صلاح الدين ، التي تقدر بعشرة في المائة من ضريبة الدخل والأموال المنقولة ، ويقتضي جبايتهــا من الرعايا العلمانيين للملك هنري الثاني ، في كل من انجلترا وفرنسا . ثم اجتاز هنري الثــاني البحر الى انجلترا ليعدّ تدابير اخرى للحرب الصليبية التي دعا لهــا في حماس بلدوين رئيس اساقفة كنتربري . واستأنف جوسياس رئيس اساقفة صور رحلة العودة الى بلاده وقد أفعم بالأمل [٢] .

ولم يلبث الملك هنري الثاني ان كتب عقب انفضاض مؤتمر جيزورز ، الى بطريرك انطاكية يرد على رسالته ، يقول ان المساعدة سوف تصل اليه عاجلاً [٣] ، والواقع انه ليس لتفاؤله ما يبرره ، إذ أن ضريبة عُشر

---

(١) انظر : Benedict of Petersborough, II. p. 30 .
Anbroise, cole 3 - 4 .
Itinerarium, pp. 32 - 33 .

(٢) انظر : Benedict of Petersborough, II. pp. 30 - 32 .

(٣) انظر : Benedict of Petersborough, II. pp. 38 - 39 .

صلاح الدين صارت تؤدي على نحو يدعو للارتياح ، على الرغم من محاولة جيلبرت هوكستون ، من فرسان الداوية ، بأن يحتجز لنفسه قدراً من المال الذي جباه ، بينما لم يستطع وليم الأسد ملك الاسكتلنديين ، والذي يعتبر تابعاً لهنري ، أن يحمل باروناته الأشحاء على ان يسهموا بشيء من مالهم . وتقررت الخطط لإدارة البلاد اثناء تغيب هنري وولي عهده في الشرق [1].

غير ان الحرب اندلعت في فرنسا من جديد ، قبل زمن طويل من اجتماع العساكر . ذلك ان بعض اتباع رتشرد تمردوا عليه في بواتو ، ثم حدث في يونيه سنة ١١٨٨ أن انغمس رتشرد في نضال مع كونت تولوز . وإذ غضب ملك فرنسا للاعتداء على تابعه (كونت تولوز) لم يسعه إلا أن يرد على ذلك بالإغارة على بيري . فغزا بدوره بلاد فيليب أغسطس ، وظلت الحرب مستعرة طوال الصيف والخريف . وفي يناير سنة ١١٨٩ انحاز رتشرد ، الذي لم يتأصل فيه ولاء البنوّة ، الى جانب فيليب في مهاجمة هنري . وارتاع معظم المسيحيين الاتقياء لهذا القتال المستطير ، فرفض كونت فلاندر وكونت بلوا من أتباع فيليب أغسطس ، أن يحملا السلاح إلا بعد قيام الحملة الصليبية [2] . وفي خريف سنة ١١٨٨ أرسل البابا الى الملكين ، أسقف ألبانو ، ثم أنفذ اليهما عقب وفاة الأسقف في الربيع التالي ، الكاردينال يوحنا أناجني يطلب منهما عقد الصلح ، ولكن مساعيه ذهبت سُدى . كما أن بلدوين رئيس أساقفة كنتربري لم يكن

---

(١) انظر : Ibid, pp. 44, 47 - 48 .

(٢) انظر : Benedict of Petersborough, II.pp.34 - 36, 39 - 40, 44 - 49. Rigord, pp. 90 - 93 .

أكثر منه حظاً في النجاح ، بينما حالف الحظ فيليب ورتشرد في توغلهما في أوائل الصيف في داخل أملاك هنري الفرنسية . ففي ٣ يوليو سنة ١١٨٩ استولى فيليب على حصن تور الضخم ، وفي اليوم التالي وافق هنري الذي اشتدت به العلة ، على شروط صلح مهين ، ثم قضى نحبه بعد يومين في شينون في ٦ يوليو ، قبل التصديق على شروط الصلح[١] .

ورتشرد يعتلي عرش انجلترا سنة ١١٨٩ :

تحسن الموقف بعد وفاة الملك الكهل هنري . وما يدعو للارتياب ما اذا كان جاداً في عزمه على الخروج الى الحرب الصليبية ، غير ان ولي عهده رتشرد توافر عنده القصد والنية للوفاء بنذره ، ومع انه ورث عن ابيه النضال مع الملك فيليب اغسطس ، فإنـــه كان مستعداً لعقد كل تسوية تجعـله حراً في المضي الى الشرق ولا سيما اذا اشترك فيليب اغسطس في الحرب الصليبية . وما كان يشعر بـه فيليب من الخوف من رتشرد ليقل كثيراً عما كان يخشاه من هنري ، وأدرك فيليب انه ليس من حسن السياسة ارجاء توجيه الحملة لمـــا هو اطول زمناً من ذلك . تقرر التعجيل بعقد معاهدة ، وعبر رتشرد البحر الى انجلترا حيث جرى تتويجه وتقلد زمام الحكم[٢] .

---

(١) انظر : Benedict of Petersborough, II.pp.50 - 51, 59 - 61, 66 - 71.
Rigord, pp. 94 - 97 .

(٢) انظر : Benedict of Petersborough, II. pp. 74 - 75 .
Roger of Wendover , I. pp. 162 - 163 .

تمّ تتويجه في وستمنستر في ٣ سبتمبر سنة ١١٨٩ ، وأعقب ذلك اضطهاد عنيف لليهود في لندن ويورك . حقد السكان على ما حبا الملك الراحل به اليهود من افضال ، والواقع ان الحماس الصليبي كان دائماً يهيء العذر لقتل اعداء الله . وأنزل رتشرد العقاب بالثائرين ، وأجاز ليهودي تحول الى المسيحية ليتجنب الموت ، بأن يعود الى دينه . وارتاع المؤرخون لما علموه عن تعليق بلدوين رئيس اساقفة كنتربري على هذا الحادث بأنه لو لم يكن من رجال الله لآثر ان يكون من حزب الشيطان . مكث الملك رتشرد بانجلترا طوال الخريف ، ليعيد تنظيم ادارة البلاد . فتقرّر شغل الاسقفيات الشاغرة ، وبعد اتخاذ تدابير اولية جديدة ، اضحى وليم لونشان ، اسقف ايلي ، رئيساً لديوان الوثائق وحاكماً على جنوب انجلترا ، بينما صار هيو اسقف درام حاكماً على شمال انجلترا ، فضلاً عن تعيينه كندسطبلاً لقلعة وندسور . أما الملكة الوالدة اليانور فصارت لها سلطات نائب الملك ، غير انها لم تكن تنوي البقاء في انجلترا . وتقرر منح يوحنا شقيق الملك ضياعاً شاسعة ، على سبيل الاقطاع ، في الجنوب الغربي لانجلترا ، ومــا اقتضته الحكمة من فرض الحظر عليه بألا يدخل انجلترا لمدة ثلاث سنوات ، قضى التهور والاندفاع بسحب هذا القرار . وتقرر بيع الضياع الملكية للحصول على المال . وما تحصل من الاموال ، فضلاً عن المنح وعشر صلاح الدين ، أمدّ الملك بثروة ضخمة . فأرسل وليم ملك اسكتلنده عشرة آلاف جنيه مقابل التحلل من الولاء للتاج البريطاني ، واسترداد مدينتي برويك وروكسبره اللتين فقدهما زمن هنري الثاني[1] .

---

(١) انظر : Benedict of Petersborough, II. pp. 80 - 88, 97 - 101.
Roger of Wendover, I. pp. 164 - 167.
Ambroise, cols, 6 - 7.

وفي نوفمبر سنة ١١٨٩ قدم من فرنسا روثرود كونت بيرش ، فأشار الى ان الملك فيليب أتمّ استعداداته للحرب الصليبية ، وأنه يودّ ان يجتمع بالملك رتشرد في فيزيلاي في اول ابريل سنة ١١٩٠ ليتناقشا في امر اشتراكهما معاً في الرحيل [١] . وحدث في نهـاية سنة ١١٨٨ ان وصل الى البلاط الفرنسي من عملائه بالقسطنطينية رسالة تشير الى نبوءة اذاعها دانيال الزاهد المقدّس ، بأن الفرنج سوف يستعيدون الارض المقدّسة في السنة التي يحل فيها عيد البشارة في يوم احد القيامة . وسوف يحدث اقتران العيدين في سنة ١١٩٠ . وأضافت هذه الرسالة ان صلاح الدين يواجه متاعب بسبب ما شجر من منازعات بين افراد اسرته وحلفائه ، على الرغم من ان الامبراطور البيزنطي كان يبذل المساعدة لصلاح الدين ، دون اكتراث بدينه ، وأشارت هذه الرسالة الى ما تردّد من شائعة بـأن صلاح الدين تعرّض لهزيمة ساحقة قرب انطاكية [٢] . على ان مـا وصل الى فرنسا في السنة التالية من أنباء لم تكن تدعو الى التفاؤل ، بل اضحى معروفاً ان الفرنج لم يتخذوا خطة الهجوم إلا بفضل مساعدة الصقليين [٣] . يضاف الى ذلك ان امبراطور الغرب فردريك بربروسه كان في طريقه فعلاً الى الشرق [٤] ، وحان الوقت لملكي فرنسا وانجلترا ان يسيرا بحملتهما .

وافق الملك رتشرد ، بعد ان حصل على مشورة مجلسه ، على ان يحضر

---

(١) انظر : Benedict of Petersborough, II. pp. 92 - 93 .

(٢) انظر : Ibid, II. pp. 51 - 53 .

(٣) انظر : Ibid, II. p. 93 .

(٤) انظر ما يلي ص ٣٢ .

الاجتماع في فيزيلاي . فعاد الى نورمنديا ، يوم عيد الميلاد ، وتجهّز للخروج الى فلسطين في اواخر فصل الربيع . على انـه حدث في اللحظة الاخيرة ما حتم ارجاء كل شيء ، نظراً للموت المفاجيء الذي بغت ايزابيللا هينولت ملكة فرنسا ، في اوائل شهر مارس [١] . فـلم يجتمع الملكان في فيزيلاي إلا في ٤ يوليه ، بفرسانهم ورجالتهم ، وقد استعدوا للمضي في حملتهم المقدّسة [٢] .

اقلاع الاسطول الانجليزي سنة ١١٨٩ :

انقضت ثلاث سنوات منذ ان حلت الكارثة بمملكة بيت المقدس في حطين ، وكان من الخير للفرنج ان الصليبيين لم يتوانوا عن القدوم ، إذ أن مبادرة وليم الثاني ملك صقلية الى بذل المساعدة أبقت على صور وطرابلس للعالم المسيحي . على ان وليم الثاني مات في ١٨ نوفمبر سنة ١١٨٩ وكان لزاماً على خليفته تانكرد ان يواجه المتاعب في وطنه [٣] . على أنه حدث فعلاً في سبتمبر سنة ١١٨٩ ان وصل تجـاه ساحل الشام اسطول ضخم

---

(١) انظر : Benedict of Petersborough, II. p. 108.
Itinerarium, p. 146.
Rigord, pp. 96 - 98.

(٢) انظر : Benedict of Petersborough, II. p. 111.
Itinerarium, pp. 147 - 149.
Ambroise, cols. 8 - 9.
Rigord, pp. 98 - 99.

(٣) انظر : Chalandon, Domination Normande en Italie, II. pp. 416 - 418.
اشارت التواريخ الانجليزية النرمندية والفرنسية الى ان وفاة وليم الثاني تعتبر كارثة .

مؤلف من سفن دانمركية وفلمنكية، يبلغ عددها عند المؤرخين المتفائلين نحو خمسمائة سفينة . وحوالي ذلك الوقت قـدم جيمس سيد أفيسنيز ، وأشجع فرسان الفلاندر [1] . بل ان الانجليز انفسهم لم ينتظروا بأجمعهم ملكهم حتى يتحركوا معاً . إذ أن اسطولاً انجليزياً صغيراً يسيّره بحارة من لندن غادر نهر التيمس في اغسطس سنة ١١٨٩ ، وبلغ البرتغال في الشهر التالي . وفي البرتغال وافقوا مثلما وافق مواطنوهم قبل اربعين سنة ، على ان يدخلوا مؤقتاً في خدمة ملك البرتغال ، وبفضل مساعدتهم استطاع سانكو ملك البرتغال ان ينتزع من المسلمين حصن شلب الواقع الى الشرق من رأس القديس فنسان ، وفي يوم عيد القديس ميخائيل (٢٩ سبتمبر) ، اجتاز البحارة اللندنيون بوغاز جبل طارق [2] . على ان جيش الامبراطور فردريك بربروسه كان اقوى جيش خرج فعلاً الى الارض المقدّسة .

الامبراطور فردريك بربروسه يغادر المانيا سنة ١١٨٩ :

اشتد تأثر فردريك لما سمعه عن الكوارث التي وقعت بفلسطين . إذ انه ظل منذ عاد مع عمه كنراد من الحرب الصليبية الثانية المنكودة منذ البداية ، يتطلع الى العودة لقتال المسلمين . اضحى فردريك رجلاً متقدماً

---

(١) انظر : Benedict of Petersborough, II. p. 94 .
Itineratum, p. 65 .
Ambroise, cols. 77 - 78 .

(٢) انظر : Benedict of Petersborough, II. pp. 116 - 122 .
Ralph of Diceto, II. pp. 65 - 66 .
Narratio Itineris Navolis ad Terram Sanctam, passim .

في السن ، في السبعينات من عمره ، وظلّ يحكم المانيا خمسة وثلاثين عاماً. على ان تقدمه في العمر لم يضعف من فروسيته ولم يقلل من جاذبيته ، ولكن ما صادفه من تجارب كثيرة مريرة علمته الفطنة والتعقل . لم يربطه بفلسطين إلا صلات شخصية قليلة ، إذ لم يكن بفلسطين إلا عدد قليل من النزلاء الذين ينتمون الى اصل الماني ، وما وقع بينه وبين البابوية من نزاع طويل الأمد جعل حكومة الفرنج تخجل من إلتماس مساعدته . غير ان بيت مونتفيرات كان دائماً من انصاره ومؤيديه . ولعلّ الذي أثاره هو ما بلغه من الانباء عن استبسال كنراد مونتفيرات في الدفاع عن صور . وما حدث منذ زمن قريب من زواج ابنه وولي عهده هنري من الاميرة الصقلية ، كونستانس ، جعله وثيق الصلة بنرمان الجنوب . وترتب على وفاة البابا اربان الثالث في خريف سنة ١١٨٧ ، ان اضحى بوسع فردريك بربروسه ان يعقد الصلح مع روما . وحرص البابا جريجوري الثامن على ان يرحب بحليف بالغ القيمة لإنقاذ العالم المسيحي ، كما ان البابا كليمنت الثالث يكن له المودة والصداقة (١) .

---

(١) انظر عن ترجمة فردريك Prutz, Kaiser Friedrick .

اما حملته فأوردها بالتفصيل :

Ansbert, Espeditio Friderici .
Historia Peregrinorum .
Epistola de Morte Friderici Imperatoris .

وكل هذه المصادر منشورة في :

Chroust, Quellen zur Geschichte des Kreuzzuges Kaiser Friedrichs I .

تلقى فردريك الصليب من يد الكاردينال البـاو ، في ماينز ، في ٢٧ مارس سنة ١١٨٨ ، الذي يوافق الأحد الرابع في الصيام الكبير، كما يستدل من النشيد الذي يسبق قداس بيت المقدس (Laetare Hierusalem) [١] . على ان فردريك بربروسه لم يستعد للتوجه الى الشرق إلا بعد ان مضى على اتخاذه الصليب ما يزيد على عام . فعهد بالوصاية على بلاده الى ابنه ، الذي صار مستقبلاً الامبراطور هنري السادس . امـا منافسه القوي في المانيا ، وهو هنري الاسد ، دوق سكسونيا ، فقد امره فردريك إما ان يتنازل عن حقوقه في شطر من بلاده ، وإما أن يرافقه على نفقته الخاصة في الحروب الصليبية ، او يقبل النفي لمـدة ثلاث سنوات . فاختار هنري الاسد العرض الاخير، بأن لجأ الى بلاط صهره هنري الثاني ملك انجلترا [٢]. وبفضل رضى البابا وعطفه ساد الهدوء الكنيسة الالمانية بعد سلسلة طويلة من المنازعات . ودعّم الطرف الغربي لألمانيـــا ، إنشاء حكومة أطراف جديدة [٣] . وبينما كان فردريك منصرفاً الى جمع جيشه ؛ كتب الى السادة الذين سوف يجتاز بلادهم ، أمثال ملك المجر ، والامبراطور البيزنطي اسحاق انجيلوس ، والسلطان السلجوقي ، قلج ارسلان ، كما أنفذ الى صلاح الدين سفيراً اسمه هنري ديتز يحمل رسالة زاخرة بالمباهاة والتيه ، يطلب فيها ان يعيد صلاح الدين للمسيحيين كل فلسطين ، ويتحداه للنزال في ساحة صوعن ،

---

(١) انظر : Hefele - Leclerc, Histoire des Conciles,V.2,pp. 1143-1144.

(٢) انظر : Benedict of Petersborough, II. pp. 55 - 56 .

(٣) انظر : Hefele - Leclerc, op. cit. p. 1144.

في نوفمبر سنة ١١٨٩ [١] ، ورد ملك المجر وسلطان السلاجقة على فردريك بعدائه بالمساعدة . والمعروف انـه في اثناء سنة ١١٨٨ ، قدمت سفارة بيزنطية الى نورمبرج لإعـداد التدابير اللازمة للصليبيين لاجتيـــاز بلاد الامبراطور اسحاق انجيلوس [٢] . أما رد صلاح الدين فإنه اتسم بالتعالي برغم ما ينطوي عليه من الدماثة . إذ عرض صلاح الدين أن يطلق سراح أسرى الفرنج ، وأن يعيد الأديرة اللاتينية بفلسطين الى أربابها ، ولا شيء سوى ذلك ، وإلا تحتم نشوب الحرب .

وسار فردريك من راتيزبون في أوائل مايو سنة ١١٨٩ ، وصحبه ثاني أبنائه ، فردريك دوق سوابيا ، وعدد كبير من كبار أتباعه ؛ أما جيشه الذي يعتبر اضخم جيش مستقل خرج الى حرب صليبية ، فاشتهر بجودة سلاحه ، وحسن نظامه [٣] . فاستقبله بيلا ملك المجر بالترحيب والمودة ، وهيأ له كل وسيلة لتيسير اجتيازه بلاد المجر . وفي ٢٣ يونيه عبر فردريك

---

(١) صوعن (Soan) : هي المعروفة الآن بصان الحجر في شرقي دلتـا النيل ، وهي التي التقى بها فرعون مع موسى عليه السلام . انظر :
John D. Davis, Dictionary of the Bible.
Ansbert, Expeditio Friderici, p. 16.
على ان صورة اخرى ليست اصلية من كتاب الامبراطور فردريك الى صلاح الدين، وردت في:
Benedict of Petersborough, II. pp. 62 - 63.

(٢) انظر : Ansbert, Expeditio Friderici, p. 15.
Hefel - Leclerc, loc. cit.

(٣) قدر ارنولد لوبيك أنه بناء على الاحصاء الذي جرى عند اجتياز الجيش لنهر السافه، أن الجيش كان يبلغ خمسين الف فارس ومائة الف من الرجالة (انظر: Arnold of Lubeck, pp. 130 - 131) بينما جعل المؤرخون الالمان عدد كل الجيش مائة الف رجل .

نهر الدانوب عند بلغراد ، ونفذ الى داخل الأراضي البيزنطية [1] . وهنا بدأت المتاعب والمنازعات فلم يكن الامبراطور انجيلوس بالرجل الذي يستطيع معالجة موقف يقتضي اللباقة والكياسة ، والصبر ، والشجاعة . وبرغم ما اشتهر به من المهارة والبراعة ، فإنه لم يكن من رجال البلاط المعروفين بقوة الإرادة ، فلم يصل الى العرش إلا بمحض الصدفة ، وكان دائماً يدرك أن له بممتلكاته عدداً كبيراً من المنافسين الأقوياء . وبرغم ما يساوره من شكوك في موظفيه ، لم يكن حازماً في ضبطهم . كما أن القوات المسلحة للامبراطورية وماليتها لم تنهض من الشدة التي فرضها عليها المجد الكاذب الذي اشتهر بـه عصر الامبراطور يوحنا كومنينوس . وما حاوله الامبراطور اندرونيقوس من إصلاح للنظام الإداري لم يعش بعـد سقوطه . فازدادت الادارة فساداً عما كانت عليه ، وما تقرر فرضه من ضرائب مرتفعة وجائرة أثار الاضطراب في البلقـان . وشبّت الفتنة في قبرص زمن اسحاق كومنينوس ، وأضاع الأرمن قليقية وأخـذ الترك يتطاولون على الأقاليم الامبراطورية في جوف بلاد الأناضول وفي جنوبيها الغربي . وقـام النرمان بهجوم كبير على ابيروس ومقدونيا ، وما حلّ بالنرمان من هزيمة تعتبر الانتصار العسكري الوحيد الذي جرى زمن الامبراطور انجيلوس . وفيما عدا ذلك ، ركن الى استخدام الدبلوماسية ، فعقد تحالفاً وثيقاً مع صلاح الدين ، جزع له الفرنج في الشرق . ولم يكن الباعث له على هذا التحالف ، أن يلحق الضرر بمصالحهم ، بل كان يقصد انتقاص قوة السلاجقة ، غير أن ما حققه من عمل باهر ، بعودة الأماكن

---

(١) انظر : Ansbert, Expeditio Friderici, p. 26.

المقدسة الى رعاية الأرثوذكس يعتبر وحده صدمة للغرب . ولكي يزيد من قوة قبضته على البلقان عقد صداقة مع بيلا ملك المجريين ، بأن تزوج من مرجريت ابنته الصغرى ، في سنة ١١٨٥ . غير ان ما جباه من ضرائب استثنائية ، بسبب الزواج ، كان الشرارة التي ألهبت الصربيين والبلغاريين ودفعتهم الى الثورة الصريحة . ولم يستطع قادة الامبراطور اسحاق انجيلوس ان يسحقوا الثوار ، على الرغم مما ظفروا به اول الامر من انتصارات . ولما ظهر فردريك في بلغراد ، صادف دولة صربية مستقلة قامت فعلاً في التلال الواقعة الى الشمال الغربي من شبه جزيرة البلقان . وعلى الرغم من ان القوات البيزنطية ما زالت تحتفظ بالحصون الواقعة على امتداد الطريق الرئيسي الى القسطنطينية فما زال المغيرون البلغاريون يسيطرون على القرى [١] .

فردريك في شبه جزيرة البلقان سنة ١١٨٩ :

ولم يكد الالمان يعبرون نهر الدانوب ، حتى صادفهم الاضطراب ، إذ أن قطّاع الطرق من الصربيين والبلغاريين هاجموا العساكر الضالّين ، وجزع سكان الريف وأظهروا العداء للألمان . فبادر الألمان الى اتهام البيزنطيين بإثارة هذه العداوة ، ورفضوا ان يدركوا انه لم يكن للأمبراطور اسحاق انجيلوس حول ولا قوة لمنع هذا العداء . على ان

---

(١) عن اسحاق انجيلوس ، انظر :

Cognasso : « Un Imperatore Bizantino della Decadenza, Isacco II, Angelo », in Bessarione, vol. XXXI, pp. 29 ff, 246 ff.

انظر ايضاً : Bohmer, Acta Imperii Selecta, p. 152.

حيث ورد به الكتاب الموجه من فردريك الاول الى هنري .

الامبراطور فردريك كان حكيماً في التماس صداقة الزعماء المتمردين ، فحينما اجتاز مدينة نيش في يوليه سنة ١١٨٩ قدم لتحيته ستيفن نيمانيا امير الصرب مع اخيه ميراسمير ، كما ان الاخوين الافلاخيين ايفان أصن وبطرس ، قائدي الثورة البلغارية ، أنفذا الى فردريك الرسائل يعدّان فيها ببذل المساعدة له . ومن الطبيعي ان تثير انباء هذه المفاوضات اهتماماً خاصاً في بلاط القسطنطينية . إذ أن الامبراطور اسحاق انجيلوس ارتاب فعلاً في نوايا فردريك . فالسفيران اللذان سبق ان انفذهما الى البلاط الالماني ، وهما يوحنا دوكاس وقنسطنطين كانتا كوزينوس ، ارسلهما من جديد لتقديم التحية للامبراطور فردريك عند دخوله الاراضي البيزنطية ، غير انهما أفادا من سفارتهما ؛ بأن اثارا فردريك على اسحاق ، الذي لم يلبث ان وقف على مؤامراتهما ، على ان تصرفهما ازعج صديقهما القديم المؤرخ نكيتاس خونياتس . وبينما خفّت حدّة ما كان يضمره فردريك من سوء الظن في بيزنطة ، الذي يرجع تاريخه الى تجربته اثناء الحرب الصليبية الثانية ، بفضل ما أعده رفاقه البيزنطيون من خطط ، تخلى عن اسحاق ما اشتهر به من ادراك سليم . فما اشتهر بـه الجيش الألماني من التزام النظام حتى وقتذاك ، وما أعدته السلطات البيزنطية من تدابير كافية لتموين الجيش ، حال دون وقوع احداث سيئة ، غير انه لمـا احتل فردريك مدينة فيليبوبوليس ، وأنفذ منها الرسل الى القسطنطينية لتنظيم امر انتقال عساكره الى آسيا ، ألقى بهم اسحاق في السجن ، وقصد ان يجعلهم رهائن حتى يهدىء فريدريك دوق سوابيا سلوكه . والواقع ان اسحاق اساء الحكم على فردريك ، الذي بادر الى ارسال ابنـه فيليب دوق سوابيا للاستيلاء على مدينة ديديموتيكوم في تراقيا ، واتخاذها رهينة رداً على تصرف اسحاق ، وكتب الى ابنه هنري بألمانيا يطلب اليه إعداد اسطول

ليستخدمه في قتـال بيزنطة ، والحصول على رضى البـابا وموافقته على الدعوة الى حرب صليبية على اليونانيين . قال فردريك انه ما لم يستول الفرنج على البوغازين (الدردنيل والبوسفور) ، فلن تظفر الحركة الصليبية بالنجاح . وإذ واجه اسحاق توقع انحياز اسطول غربي الى الجيش الالماني ، والمبادرة الى مهاجمة القسطنطينية ، لم يسعه آخر الأمر إلا أن يتنـازل فيطلق سراح القصاد الالمان ، بعد ان راوغ بضعة شهور . وانعقد الصلح في أدرنة ، وأعاد اسحاق الرهائن الى فردريك ووعد بتموين السفن اذا اجتاز فردريك الدردنيل لا البوسفور ، وببذل المؤن للجيش أثناء اجتياز الأناضول . وإذ لم يكن لفردريك رغبة إلا في المضي الى فلسطين ، كظم غيظه ، وقبل الشروط .

التزم الجيش الالماني البطء الشديد في سيره عند اجتياز البلقان ، وبلغ الحذر بفردريك ما منعه من محاولة اجتياز الأناضول زمن الشتاء ، فأمضى شهور الشتاء في أدرنة ، بينما ارتعد سكان القسطنطينية خوفاً من ان فردريك يرفض ما بذله اسحاق من أعذار ، فيزحف على مدينتهم . ثم حدث آخر الامر في مارس سنة ١١٩٠ ان تحركت الحملة بأسرها الى غاليبولي الواقعة على الدردنيل ، الذي اجتازته الى آسيا بفضل مساعدة السفن البيزنطية ، وبذا هدأ روع اسحاق واطمأن رعاياه [١] .

(١) انظر : Nicetas Choniates, pp. 527 - 537.
Ansbert, Expeditio Friderici, pp. 27 - 66.
Gesta Friderici in Expeditione Sacra, pp 80 - 84.
Otto of St. Blaise, pp. 66 - 67.
Itinerarium, pp. 47 - 49.
Hefel - Leclerc, op. cit. pp. 1147 - 1149.
Vasiliev, History of the Byzantine Empire, pp. 445 - 447.

ولـمـا غادر فردريك الشاطىء الآسيوي للدردنيل ، إلتزم على وجه التقريب الطريق الذي سبق ان سلكه الاسكندر الكبير قبل خمسة عشر قرناً ، فعبر نهر غرانيقوس ، واجتاز نهر انجيلو كوميتس الذي فاضت مياهه ، حتى بلغ الطريق البيزنطي الرئيسي المرصوف حالياً ، الممتد من مليتوبوليس الى باليكسر الحالية ، فسلك هذا الطريق من قلاموس الى فيلادلفيا ، حيث اظهر له سكانها اول الأمر المودة ، غـــير انهم حاولوا بعدئذ ان يسلبوا مؤخرة الجيش ، فحلّ بهم العقاب . وبلغ فردريك لأوديقا في ٢٧ ابريل سنة ١١٩٠ ، بعد مضي ثلاثين يوماً على اجتياز الدردنيل . ومن لأوديقا نفذ الى الداخل بعد ان اتخذ الطريق الذي سبق ان سلكه الامبراطور مانويل في سيره المفجع الى ميريوكيفالوم ، وفي ٣ مايو سنة ١١٩٠ اجتاز فردريك بُعد مناوشة مع الترك ، موضع ساحة المعركة التي ما زالت عظام الضحايا ظاهرة للعيان . اضحى فردريك في بلاد يسيطر عليها السلطان السلجوقي . والواضح ان قلج ارسلان ، السلطان السلجوقي ، لم يكن ينوي ، برغم مـا بذله من وعود ، ان يسمح للصليبيين باجتياز بلاده في هدوء . وحينما راعه ضخامة الجيش الالماني ، لم يفعل اكثر من ان يطوّف بأطراف الجيش الالماني ، فيختطف الشاردين ، ويعترض طريق الذين يلتمسون المؤونة . والواقع ان هذه الخطط كانت بالغـة الأثر ، إذ اخذ الجوع والظمأ فضلاً عن سهام الترك يسبب الكوارث . وبلغ فردريك قونية في ١٧ مايو سنة ١١٩٠ ، بعد ان سار حول طرف جبل سلطان داغ ، واتخذ الطريق القديم الذي يسير من فيلوميليوم صوب الشرق . على ان السلطان السلجوقي مع بلاطه انسحب امامه . واستطاع فردريك في اليوم التالي أن يشق له طريقاً الى داخل المدينة (قونية) بعد ان نشبت معركة حادة بينه وبين قطب الدين ابن السلطان السلجوقي . غير ان فردريك لم يمكث طويلاً في داخل اسوار

المدينة ، ولكنه أجاز لجيشه ان يخلد الى الراحة .فترة من الزمن في حدائق ميرام الواقعة بالارباض الجنوبية للمدينة ، ثم تحرك بعد ستة ايام الى قرمان ، التي بلغها في ٣٠ مايو ، ومنها قاد الجيش عبر دروب جبال طوروس ، دون ان يصادف مقاومة ، نحو الساحل الجنوبي ، الى سلوقية . وكان ميناء سلوقية وقتذاك بأيدي الارمن ، فعجل جاثليقهم بانفاذ رسالة الى صلاح الدين . والواقع ان الطريق كان يجتاز اقليماً وعراً ، شح فيه الطعام ، واشتدت به حرارة الصيف [١] .

وفاة الامبراطور فردريك بربروسة سنة ١١٩٠ :

هبط الجيش الالماني الضخم الى سهل سلوقية في ١٠ يونيو سنة ١١٩٠ ، وتجهز لعبور نهر كاليكادنوس (Calycadnus) ، كيما يدخل المدينة ، وسبق الجيش في المسير الامبراطور في حرسه ، فنزلوا الى حافة ماء النهر ، وما حدث عندئذ ليس معروفاً على وجه التأكيد ، فإما ان يكون الامبراطور قد وثب عن حصانه الى الماء البارد ليستعيد نشاطه ، ولكن تيار النهر فاق في القوة

---

(١) انظر :
Nicetas Choniates, pp. 538 - 544.
Ansbert, Expeditio Friderici, pp. 67 - 90.
Gesta Friderici, pp. 84 - 97.
Epistola de Morte Friderici, pp. 172 - 177.
Itinerarium, pp. 49 - 53.

والطريق الذي سلكه فردريك ناقشه :
Ramsay : Historical Geography of Asia Minor, pp. 129 - 130.

وأورد ابن شداد ما قام به جاثليق الارمن من انذار صلاح الدين ، انظر :
Beha ed - Din, pp. 185 - 189 (P. P. T. S.).

ما كان يعتقده ، وإما ان جسمه الهرم لم يستطع ان يقاوم الصدمة المفاجئة ، او زلّت قدما فرسه ، فقذف به الى الماء ، فغرق بسبب ثقل اسلحته . فلما بلغ الجيش النهر ، خلّص جيفته ، وجعلها على شاطىء النهر [1] .

لم تكن وفاة الامبراطور المظيم ضربة عنيفة لأتباعه فحسب ، بل أيضاً لجميع عالم الفرنج . إذ أن انباء قدومه على رأس جيش ضخم زاد في رفع الروح المعنوية عند الفرسان الذين يقاتلون على الساحل السوري ، وكان جيشه وحده كافياً فيما يبدو لردّ المسلمين ، فاذا اجتمع هذا الجيش بقوات ملكي فرنسا وانجلترا ، اللذين بادرا فيما هو معروف بالمسير الى الشرق ، فمن المحقق ان يسترد العالم المسيحي الارض المقدسة . وخشي صلاح الدين اجتماع هذه الجيوش فلا يستطيع ان يناهضها . فحينما سمع بسير فردريك الى القسطنطينية ، أنفذ كاتبه ومؤرخ حياته فيما بعد ، بهاء الدين (ابن شداد) الى بغداد لينذر الخليفة الناصر لدين الله بأنه لا بدّ للمؤمنين ان يجتمعوا لمواجهة الخطر ، ودعا كل اتباعه للحاق به ، والتقط الاخبار عن كل مرحلة في سير الجيش الالماني ، غير أنه اخطأ في

---

(١) انظر :

Nicetas Choniates, p. 545.
Ansbert, Expeditio Friderici, pp. 90 - 92.
Epistola de Morte Friderici, pp. 177 - 178.
Gesta Friderici, pp. 97 - 98.
Otto of St. Blaise, p. 51.
Itinerarium, pp. 54 - 55.
Ibn al - Athir, II, p. 5.
Beha ed - Din, P. P. T. S. pp. 183 - 184.

اعتقاده بأن قلج ارسلان كان يساعد الغزاة في الخفاء . ولما علم المسلمون بوفاة فردريك ، تراءى لهم ان الله صنع معجزة من اجل الدين ، فما حشده صلاح الدين من جيش لوقف تقدم الألمان في شمال سوريا ، يصح الاطمئنان الى تخفيض عدده ، وإلى ارسال كتائب للحاق بقواته المرابطة على ساحل فلسطين [1] .

كان الخطر شديداً على المسلمين ، وصدق صلاح الدين حين ادرك ان في وفاة الامبراطور خلاصه ونجاته . على ان جيش الامبراطور ما زال يثير الخوف ، على الرغم من ان عدداً من الجنود الالمان لقوا حتفهم ، وأن جانباً من العتاد قد تبدد اثناء السير الشاق عبر الاناضول . على أن الالمان ، برغم تعلقهم الشديد بعبادة القائد ، تنهار عادة روحهم المعنوية اذا اختفى قائدهم ، فلم يلبث عساكر فردريك ان فقدوا اعصابهم . وتولى القيادة فردريك دوق سوابيا ، غير انه ، برغم ما اشتهر به من الفروسية ، كان يفتقر الى ما اتصف به والده من شخصية ، فقرر بعض الأمراء ان يعودوا بأتباعهم الى اوربا ، واستقل أمراء آخرون سفينة من سيلوقية او طرسوس، الى صور . اما دوق سوابيا فانه مضى بجيشه الذي تضاءل عدد عساكره ،

---

(١) انظر :

Ernoul, pp. 250 - 251.
Estoire d'Eracles, II, p. 140.
Itinerarium, pp. 56 - 57.
Ambroise, col. 87.
Ibn al - Athir, loc. cit.
Abu Shama, pp. 34 - 35.
Beha ed - Din, P. P. T. S. pp. 189 - 191.
Bar Hebraeus, pp 332 - 334.

ليجتاز سهل قليقية بحرارة صيفه ورطوبته ، وقد حمل معه جثة والده التي حفظها في الخل . وقام ليو امير ارمينية (قليقية) بعد شيء من التردد بزيارة المعسكر الالماني . على ان القادة الالمان لم يتخذوا التدابير الكافية لإطعام عساكرهم . وإذ افتقد الجند ما كان لأمبراطورهم من سيطرة ، أخلوا بالنظام . فاستبد الجوع بعدد كبير منهم ، وتفشى المرض في كثير منهم ، غير انهم جميعاً اعلنوا التمرد . وكان لزاماً على الدوق أن يتأخر في قليقية بعد ان حلّ به المرض الشديد ، فمضى جيشه في طريقه من دونه ، فتعرّض لهجوم ألحق به خسائر فادحة اثناء اجتياز الدروب السورية . فلم يصل الى انطاكية في ٢١ يونيه سوى جماعة بائسة من الرعاع . ولما استرد فردريك عافيته لحق بهم بعد ايام (١) .

الالمان في انطاكية :

استقبل بوهمند امير انطاكية الألمان بالحفاوة والترحيب وكان ذلك دماراً لهم . وإذ اضحوا دون قائد ، فقدوا حماسهم ، ولم يودوا التخلي عن الحياة الرغدة في انطاكية ، بعد ان عانوا الشدائد في رحلتهم . على ان انغماسهم في المباذل لم يفد صحتهم ، وحرص فردريك دوق سوابيا على ان يمضي في رحيله بعد ان ارتاح لما بذله بوهمند امير انطاكية له من يمين الولاء ، وبعد ان تشجع بالزيارة التي أداها له من صور ابن عمه كنراد

---

(١) انظر :
Sicard of Cremona, p. 610.
Otto of St. Blaise, p. 52.
Abu Shama, pp. 458 - 459.
Beha ed - Din, P. P. T. S. pp. 207 - 209.

مونتفيرات . غير انه لما غادر انطاكية في نهاية شهر اغسطس ، كان جيشه قد ازداد عدده نقصاناً ، كما ان جهده لم يلقَ التقدير عند عدد كبير من الفرنج ، الذين لم يقدم إلا من اجل مساعدتهم . وإذ علم خصوم كنراد بأن فريدريك ابن عمه وصديقه ، اشاعوا ان صلاح الدين نقد كنراد ستين الف دينار (بيزنت) ليحمله على مغادرة انطاكية ، حيث قد يكون بها اكثر نفعاً لمصلحة المسيحيين . وجرى الرد على ذلك بأن جثة الامبراطور العجوز قد تحللت ، فلم يكن للخل تأثير قوي فيتقرر التعجيل بمواراة بقاياها المتعفنة في الكاتدرائية بأنطاكية . غير انه بعض العظام جرى انتزاعها من الجثة ، وتقرّر حملها مع الجيش في رحيله ، يحدوه الأمل الكاذب في ان شطراً على الاقل من فردريك بربروسة سوف ينتظر يوم القيامة في بيت المقدس [1] .

ومـا اصاب حملة الامبراطور الصليبية من فشل ذريع جعل الحاجة أشد ضرورة من كل زمن مضى ، الى ان يصل الى الشرق ملكا فرنسا وانجلترا ، ليسهما في النزاع المرير الحاسم الناشب على الساحل الشمالي لفلسطين .

---

(١) انظر : Abu Shama, pp. 458 - 460.
Beha ed - Din, P. P. T. S. pp. 212 - 214.
Ernoul, p. 259.

الفصل الثاني

عـــكا

ارتكب صلاح الدين في غمرة الانتصار غلطة شنيعة ، حينما أحبطت همته ، وثبطت عزمه استحكامات مدينة صور . فلو أنه بادر بالزحف على صور عقب استيلائه على عكا ، في يوليو سنة ١١٨٧ لأضحت في يده ، غير أنه اعتقد ان إذعان صور واستسلامها سبق ان تمّ تدبيره ، فتمهل بضعة ايام . فلما وصل صلاح الدين الى صور كان بها فعلاً كنراد مونتفيرات ، ورفض ان يفكر في التسليم . ولم يتوافر لصلاح الدين وقتذاك من العتاد ما يجعله يفرض حصاراً منتظماً على مدينة صور ، فانصرف الى فتوح أكثر سهولة ويسراً . ولم يقم صلاح الدين بالهجوم الثاني على صور إلا بعد ان سقطت في يـده مدينة بيت المقدس ، في اكتوبر سنة ١١٨٧ ، فاستخدم في هجومه جيشاً كثيفاً ، وكل ما لديه من ادوات الحصار . غير ان الأسوار الواقعة عبر البرزخ الضيق قد عززها وقتئذ كنراد مونتفيرات الذي خصّ كل ما جلبه معه من القسطنطينية من أموال للانفاق على عمـارة اسباب الدفاع . على ان صلاح الدين رفع الحصار للمرة الثانيـة ، وأمر بتسريح

معظم عساكره ، بعد ان ثبت عجز الأدوات التي استخدمها في الحصار ، وحاق باسطوله الدمار في معركة دارت عنـــد مدخل المرفأ . وقدمت المساعدة من وراء البحار ، قبل ان ينهض صلاح الدين مرة اخرى لاستكمال فتح الساحل [١] .

وما أرسله وليم الثاني ملك صقلية من قوات في اواخر خريف سنة ١١٨٨ ، لم تكن وفيرة العدد ، غير انها تألفت من اسطول قوي التسليح ، يقوده امير البحر مرجريتوس ، ويقل مائتين من خيرة الفرسان تدريباً وإعداداً . وترتب على قدوم هـذه الأمداد ان رفع صلاح الدين الحصار عن حصن الأكراد في يوليو سنة ١١٨٨ ، وامتنع عن مهاجمة طرابلس [٢] . وكان صلاح الدين وقتذاك يسرّه ان يدخل في مفاوضات من أجل الصلح . ووصل الى صور في الوقت المناسب فارس ، قادم من اسبانيا ، ليسهم في الدفاع عنها . ولم يكن اسمه معروفاً ، إنما أطلق عليه الناس اسم الفارس الاخضر ، لأنه اتخـــذ ترساً اخضر اللون . وما اشتهر به من البسالة والاقدام ، أثار اهتمام صلاح الدين ، الذي اجتمع به في صيف سنة ١١٨٨ قرب طرابلس ، وكان يأمل في ان يقنعه بتدبير امر المدنة ، وأن يدخل

---

(١) انظر ما سبق ، المجلد الثاني ص ٧٦٢ — ٧٦٣ .

(٢) انظر : Itinerarium, pp. 27 - 28.

Benedict of Petersborough, *II*, p. 54.

Estoire d'Eracles, *II*, pp. 114, 119 - 120.

Abu Shama, pp. 362 - 363.

Ibn al - Athir, pp. 718, 720 - 721.

أشار تاريخ هرقل والمؤرخون المسلمون الى ان مرجريتوس اجتمع بصلاح الدين في اللاذقية .

في خدمة المسلمين . غير ان الفارس الاخضر اجاب ان الفرنج لن يفكروا فيما لا يقل عن استعادة بلادهم ، ولا سيما ان النجدة في طريقها اليهم من الغرب . فليتخل صلاح الدين عن فلسطين ، وعندئذ سوف يلقى الفرنج أخلص حلفاء له (١) .

اطلاق سراح الملك جاي لوزجنان سنة ١١٨٨ :

على الرغم من أنـــه لم ينعقد الصلح ، فإن صلاح الدين أظهر نواياه الودية ، بأن أطلق سراح جماعة من الأسرى البارزين . ودرج صلاح الدين على ان يغري الأسرى من سادة الفرنج بأنهم سوف ينالون حريتهم متى أمروا باستسلام قلاعهم له . وكان ذلك من الوسائل السهلة الرخيصة في الاستحواذ على الحصون ، بل ان فروسيته تجاوزت هذا الحد ، فحينما فشلت ستيفاني سيدة اقطاع ما وراء الاردن في اقناع حامياتها بالكرك والشوبك بالإذعان ، حتى يتيسر إطلاق سراح ابنها همفري سيد تبنين ، ردّه صلاح الدين اليها ، قبل ان يستولي على الحصنين عنوة . وجعل ثمن اطلاق سراح الملك جاي لوزجنان الاستيلاء على عسقلان . وإذ خجل سكانها لاثرة الملك جاي ، رفضوا إقرار تصرفه . ولمـــا سقطت عسقلان في يد صلاح الدين كتبت الملكة سبيللا اليه المرة بعد الاخرى ، تتوسل اليه أن يعيد اليها زوجها ، فاستجاب صلاح الدين الى طلبها في يوليو سنة ١١٨٨ . وبعد ان أقسم الملك جاي لوزجنان بأنه سوف يبحر عائداً الى بلاده ، وأنه لن يشهر السلاح على المسلمين مرة اخرى ، تقرر إرساله مع عشرة من كبار

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 251 - 252.

أتباعه ، منهم الكندسطبل أماريك ، الى طرابلس حيث لحق بالملكة . وتقرر في نفس الوقت الإفراج عن ماركيز مونتفيرات الشيخ ، فلحق بابنه في طرابلس [١] .

على ان سخاء صلاح الدين أثار قلق مواطنيه ، فلم يكتف بالسماح للفرنج في كل مدينة أذعنت له ، بأن يرحلوا ويلحقوا برفاقهم في صور او طرابلس بل انه اسهم في تعزيز حاميتي هذين الحصنين المسيحيين الأخيرين ، بما لجأ اليه من إطلاق سراح عدد كبير من السادة الذين كانوا في اسره . غير ان صلاح الدين ادرك مـــا كان يفعله ، إذ ان المنازعات الحزبية التي أثارت الانقسام في السنوات الاخيرة لملكة بيت المقدس ، لم تتم تسويتها إلا قبل بضعة اسابيع من معركة حطين ، بفضل لباقة وكياسة باليان ابلين ، ثم اندلعت من جديد عشية المعركة . وأسهمت كارثـــة حطين في اشتداد أوارها . وألقى انصار لوزجنان وكورتيناي اللوم على عاتق ريموند كونت طرابلس ، واعتبروه مسئولاً عن هذه الكارثة (حطين) ، بينما وجه اصدقاء ريموند ، من بيت ابلين ، وبيت جارنييه ومعظم النبلاء المحليين ، اللوم لأسباب معقولة الى الملك جاي وما اشتهر به من الضعف والى ما كان

---

(١) عن مسألة تحديد المكان والزمان اللذين جرى فيهما اطلاق سراح جاي لوزجنان ، انظر المجلد الثاني ص ٧٤٦ ، حاشية ٤ ومـــا ورد فيها من مراجع . وأشار ارنول (ص ٢٥٣) ، وتاريخ هرقل (ص ١٢١) ، وابن شداد (في متون جمعية حجاج فلسطين ، ص ١٤٣) ، الى يمين جاي بأنه لن يحمل السلاح لقتال المسلمين . وورد في (Itinerarium, p. 25) ان الملك جاي وعد بـــأن يغادر المملكة ، بينما قـــال (Ambroise, col. 70) ان جاي سوف يسير بحراً الى بلاده . وقال الملك فيما بعـــد انه اوفى بوعده ، بأن توجه من انطرطوس الى جزيرة ارواد . انظر : (Estoire d'Eracles, *II*, p. 181).

للداوية ورينالد شاتيون من سلطان عليه . ومع ان ريموند ورينالد اضحيا في عداد الموتى ، فإن مرارة المنازعات ظلت مستمرة . وإذ ازدحم اللاجئون وراء اسوار صور ، لم يتبقّ للنبلاء الذين تجرّدوا من الاقطاعات إلا ان يكيل كل منهم التهم للآخر . ذلك ان باليان وأصدقاءه الذين لم يتعرضوا للأسر ، رضوا بكنراد مونتفيرات قائداً لهم ، بعد ان رأوا انه وحده هو الذي انقذ صور . اما انصار جاي لوزيجنان الذين خرجوا من الحبس بعد ان فاتت اسوأ مـا صادفوه من الازمات ، فإنهم اعتبروا كنراد دخيلاً ، ومنافساً قوياً للملك جاي لوزيجنان . وما حدث من إطلاق سراح جاي زاد النزاع حدة ، ولم يؤد الى ازدياد قوة الفرنج[1] .

التنافس بين جاي لوزجنان وكنراد مونتفيرات سنة ١١٨٨ :

لجأت الملكة سبيللا الى طرابلس ، كيما تفر فيما يبدو من الجو الطافح بالعداء لزوجها . ولما مات ريموند في خريف سنة ١١٨٧ ، انتقلت طرابلس الى بوهمند امير انطاكية ، وهو ابن صغير ، لابن عم ريموند . ولعلّ السر في ان بوهمند لم يعترض على التفاف انصار لوزيجنان حول الملكة سبيللا بطرابلس ، يرجع الى ما اشتهر به بوهمند من التراخي او الكسل ، او الى امتنانه ، فـيما يبدو لتعزيز الحامية في طرابلس . ولم يكد يطلق سراح جاي حتى لحق بها في طرابلس . ولم يلبث ان عثر على احد رجال الدين ،

---

(١) انظر : Ibn al - Athir, pp. 707 - 711.
اشتد ابن الاثير في نقد سياسة صلاح الدين .

فأجاز له التحلل من اليمين التي بذلها لصلاح الدين ، إذ جرى اخذها منه تحت الضغط والشدة ، ولأنها قد بذلت لغير مسيحي . ولذا تعتبر في نظر الكنيسة يميناً باطلة . فغضب صلاح الدين حينما سمع بذلك ، غير انــه لم يدهش كثيراً ، وبعد ان قام جاي بزيارة انطاكية حيث لم يبذل له بوهمند إلا وعــداً غامضاً بالمساعدة ، ارتحل مع انصاره من طرابلس الى صور ، وقد عزم على ان يتولى حكومة مـا تبقى من مملكته السابقة . غير ان كنراد اغلق في وجهه الابواب . إذ ان من رأى حزب كنراد ان جاي فقد مملكته في حطين وفي اثناء اسره ، لأنه تركها دون حكومة ، وكادت تضيع بأجمعها لولا تدخل كنراد . وردّ كنراد على طلب جاي بأن يستقبله على انه ملك ، انه تولى صور نيابة عن الملوك الصليبيين القادمين لإنقاذ الارض المقدّسة ، وينبغي على الامبراطور فردريك ، وملكي فرنسا وانجلترا ان يقرروا ايهما ينبغي ان يعهد اليه امر الحكومة ، كانت ذلـك دعوى عادلة ، تلائم كنراد . وإذا صحّ لرتشرد ملك انجلترا ، باعتباره السيد الأعلى لبيت لوزيجنان في جبين ، ان يلتصر لدعوى جـــاي ، فإن الامبراطور فردريك وفيليب ملك فرنسا كانا من ابناء عمومة كنراد وأصدقائه . عاد جاي مع انصاره حزيناً الى طرابلس [1] . وتحسنت احوال الفرنج بما حدث وقتذاك من انصراف صلاح الدين ، بعد ان تفرق شطر من عساكره ، الى إخضاع القلاع الواقعــة بشمال سوريا ، وبأنه ارسل في يناير سنة ١١٨٩

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 256 - 257.
Estoire d'Eracles, *II*, pp. 123 - 124.
Ambroise, cols. 71 - 73.
Itinerarium, pp. 59 - 60.

كتائب اخرى الى اوطانها . ثم سار صلاح الدين في مارس سنة ١١٨٩ عائداً الى حاضرة ملكه دمشق ، بعد ان أمضى الشهور الاولى من هذه السنة في بيت المقدس وعكا كيما يعيد تنظيم ادارة فلسطين [١] .

على ان جاي قدم للمرة الثانية مع سبيللا الى صور في ابريل سنة ١١٨٩ ، وطلب ايضاً ان يتولى حكومة المدينة . وإذ صادف في كنراد ما سبق ان لمسه فيه من العناد ، عسكر امام اسوارها . وحوالي ذلك الوقت وصلت من الغرب أمداد بالغة القيمة . والمعروف ان البيازنة والجنوبيين اشتبكوا ، عند سقوط بيت المقدس ، في يدي صلاح الدين ، في احدى الحروب التي درجوا عليها . غير ان من الانتصارات التي احرزها البابا جريجوري الثامن ، اثناء الفترة القصيرة التي تولى فيها البابوية ، ما دار من مفاوضات لعقد هدنة بينهم ، وبذل البيازنة الوعد بارسال اسطول للاشتراك في الحرب الصليبية . وخرج البيازنة فعلاً قبل نهاية السنة (١١٨٩) ، غير انهم امضوا الشتاء في مسينا ، ووصل اسطولهم المؤلف من اثنين وخمسين سفينة بقيادة يبالدو رئيس اساقفة بيزا ، تجاه صور في ٦ ابريل سنة ١١٨٩ ، غير ان يبالدو لم يلبث فيما يبدو ان تشاجر مع كنراد ، فلما ظهر جاي ، انحاز اليه البيازنة . وظفر جاي ايضاً بمساعدة العساكر الصقلية . ووقع في اوائل الصيف اشتباك خفيف بين الفرنج والمسلمين ، غير ان صلاح الدين لا زال يؤثر لجيوشه الراحة ، كما ان

---

(١) انظر : Abu Shama, pp. 380 - 381.
Beha ed - Din, P. P. T. S. pp. 140 - 141.

المسيحيين توقعوا قدوم امداد اخرى من الغرب . وحدث فجأة في نهاية اغسطس سنة ١١٨٩ ان رفع جاي معسكره ، وشرع في السير بأتباعه صوب الجنوب ، ملتزماً الطريق الساحلي ، كيما يهاجم عكا ، بينما اقلعت سفن البيازنة والصقليين ، لمصاحبته اثناء السير .

والواقع ان هذه كانت حركة تهور يائسة ، وقراراً لرجل شجاع ، غير انه شديد الحماقة . وإذ لم تتحقق رغبته في ان يحكم في صور ، اضحى جاي في حاجة ماسة الى مدينة ، يستطيع منها ان يعيد بناء مملكته . واشتدت العلة بكنراد وقتذاك ، فتراءى لجاي ان فرصة طيبة سنحت له كيما يظهر على انه الزعيم القوي للفرنج . غير ان الخطر كان جسيماً . إذ ان مقدار الحامية الاسلامية بعكا يزيد على ضعف كل جيش جاي . كما ان قوات صلاح الدين النظامية ، كانت ظاهرة للعيان عند قدومها من البحر . ولم يكن بوسع احد ان يتكهن بأن مغامرة جاي سوف تنجح ، غير ان للتاريخ مفاجآته . فإذا كان النشاط الفائق لكنراد حفظ للعالم المسيحي ما تبقى من فلسطين ، فإن حماقة جاي الرائعة هي التي حولت المد ، واستهلت فترة استعادة الارض المقدسة [١] .

لما بلغ صلاح الدين نبأ حملة جاي لوزجنان ، كان ينزل بالتلال الواقعة

---

(١) انظر :
Ernoul, p. 257.
Estoire d'Eracles, II, pp. 124 - 125.
Ambroise, cols. 73 - 74.
Itinerarium, pp. 60 - 62.
Beha ed - Din, P.P.T.S, pp. 143 - 144.

خلف صيدا ، يحاصر قلعة شقيف ارنون . وهذه القلعة التي تقع على صخرة مرتفعة تطل على نهر الليطاني كانت بحوزة رينـــالد سيد صيدا ، الذي استطاع بفضل دهائه ان يحافظ عليها حتى وقتذاك ، إذ توجه الى مقر صلاح الدين فحاز اعجاب السلطان وحاشيته ، بما ابداه من التقدير العميق للآداب العربية ، وميله الى الاسلام ، وألمع الى انه يود الإقامة بدمشق بعد اعتناق الاسلام ، بعد امهالة فترة وجيزة . غـير ان الشهور انقضت دون ان يحدث من الأمور سوى تدعيم استحكامات قلعة شقيف ارنون . ثم حدث آخر الأمر ، في اوائل شهر اغسطس ، ان صرح صلاح الدين ان الوقت حان للتأكد من نوايا رينالد بإذعان حصن شقيف ارنون . وتقرر نقل رينالد تحت الحراسة الى باب القلعة ، حيث اصدر امره باللغة العربية الى قائد الحامية بتسليم القلعة ، غير انـــه طلب اليه باللغة الفرنسية ان يقاوم ويمتنع عن التسليم . وأدرك العرب الحيلة ، غير انهم لم يكونوا من القوّة ما يجعلهم يستولون عنوة على القلعة ، وبينما توجه صلاح الدين بقواته لمنازلة القلعة ، تقرر إلقاء رينالد في الحبس بدمشق[1] . اعتقد صلاح الدين اول الأمر ان جاي لم يقصد بمسيره سوى ان يصرف الجيش الاسلامي عن قلعة شقيف ارنون ، غير ان جواسيسه لم يلبثوا ان انهوا اليه ان عكا هي هدف جاي لوزجنان . وعندئذ اراد صلاح الدين ان يهاجم الفرنج عند تسلقهم درج صور او ارتقائهم رأس الناقورة ، غير ان مجلسه لم يوافق ، إذ أشار رجاله انه لخير من ذلــك ان يتركوهم حتى يبلغوا عكا ، ثم

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P.P.T.S, pp. 140 - 143, 150 - 151 .

يدركونهم بعد حصرهم بين حامية عكا والجيش الرئيسي للسلطان . وإذ تعرّض صلاح الدين وقتذاك لوعكة ، لم يسعه إلا النزول على رأيهم [1] .

وصول جاي لوزجنان الى عكا سنة ١١٨٩ :

وصل جاي لوزجنان الى ظاهر عكا في ٢٨ اغسطس ، فأقام معسكره على تل تيرون ، المعروف حالياً باسم تل الفخار ، الذي يقع على مسافة ميل الى الشرق من المدينة ، قرب نهر بيلوس ، الذي امد رجاله بالماء . ولما فشل جاي في اول محاولة قام بها ، بعد مضي ثلاثة ايام على وصوله، في الاستيلاء على المدينة (عكا) عنوة ، اقام منتظراً قدوم الامداد [2] . وكانت عكا تقع على شبه جزيرة صغيرة تمتد جنوباً الى داخل خليج حيفا ، يحميها البحر من الجنوب والغرب ، وسور متين يقع على ساحل البحر . ويمتد حاجز للأمواج متقطع صوب الجنوب الغربي الى صخرة يعلوها برج اشتهر باسم برج الذباب . ومن وراء الحاجز تقع الميناء التي تحتمي من كل شيء ما عدا الرياح التي تهب من جهة البحر . أما شمال المدينة وشرقيها فكان يحميها سوران ضخمان يلتقيان في زاوية قائمة عند حصن صغير اشتهر باسم البرج الملعون ، في الطرف الشمالي الشرقي . وعند كل طرف للسورين ، قرب الشاطىء ، يقع على البر بابان ، وللمدينة باب ضخم من جهة

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P.P.T.S, pp. 154, 175.
Ibn al - Athir, II, p. 6.
Ambroise, cols. 74 - 75.

(٢) انظر : Ernoul, pp. 358 - 359.
Estoir d'Eracles, II, pp. 125 - 126.

البحر ، ويفتح على الميناء ، بينما يطل باب آخر على مرسى السفن الذي يتعرّض للرياح الغربية السائدة . وكانت عكا ، زمن ملوك الفرنج تعتبر اغنى مدينة بالمملكة ، والمقر الأثير عندهم . ودرج صلاح الدين على التردّد عليها وتفقدها في الشهور الأخيرة ، واهتم بإصلاح ما انزله بهـــا عساكره من ضرر حينما استولى عليها (سنة ١١٨٧) . فأضحت حصناً منيعاً ، ترابـط به حامية قوية ، وتتوافر به المؤن ، وغدا من القدرة ما يحمله على المقاومة زمناً طويلاً [1] .

اخذت الامداد تصل من الغرب منذ اوائل شهر سبتمبر سنة ١١٨٩ ، فكان اول ما قدم منها ، اسطول ضخم للدانيين والفريزيان ، يقل عسكراً ينقصهم التدريب ، غير ان بحارته اشتهروا بالمهارة ، وكان لا غنى عن سفنهم عند إلقاء الحصار على المدينة من جهة البحر ، ولا سيا بعد ان أدت وفـاة وليم الثاني ملك صقلية الى انسحاب الاسطول الصقلي [2] . وبعد بضعة ايام ، قدمت سفن من ايطاليا تقل وحدة من العساكر الفلمكية

---

(١) انظر وصف عكا في :

Enlart : Les Monuments des Croisés, vol, II, pp. 2 - 9.

Itinerarium, pp. 75 - 76.

Estoire d'Eracles, II, pp. 127 - 128.

(٢) انظر :

اشار أمبرواز الى البحارة القادمين من لامارش وكرنوال .

Ambroise, col. 77.

Itinerarium, pp. 64 - 65.

Riant : Expeditions des Scandinaves, pp. 277 - 283.

والفرنسية ، بقيادة الفارس النابه جيمس افيسنيز [١] ، وكونتات بار وبريين ودريه ، وفيليب اسقف بوفيه . ووصل قبل نهاية الشهر جماعة من الالمان بقيادة لويس سيد ثورنجيا الذي آثر ان يسير بحراً بأتباعه ، على ان يصحب الامبراطور فردريك بربروسه . وقدم معه كونت جيلدر وجماعة من الايطاليين بقيادة جيرار ، رئيس اساقفة رافنا ، وأسقف فيرونا .

صلاح الدين يتحرك الى عكا سنة ١١٨٩ :

انزعج صلاح الدين لوصول الامداد ، فشرع في حشد اتباعه مرة اخرى ، وقـدم من شقيف ارنون في شطر من الجيش ، بعد ان ترك فصائل قليلة لتستكمل اخضاع القلعة . على ان هجومه على معسكر جاي لوزجنان في ١٥ سبتمبر باء بالفشل ، بينما استطاع تقي الدين عمر ، ابن اخيه ، ان يخترق خطوط الفرنج وأن يوطد الاتصال بالباب الذي يقع بشمال المدينة ، وأقام صلاح الدين معسكره على مسافة صغيرة الى الشرق من المعسكر المسيحي ، ولم يلبث الفرنج ان احسوا ان بوسعهم ان يشنوا هجومـاً على المدينة . واستطاع لويس سيد ثورنجيا ، عند اجتيازه صور ، ان يقنع كنراد مونتفيرات باللحاق بجيش الفرنج ، طالما لم يلتزم بالخضوع لقيادة جاي لوزجنان . وفي ٤ اكتوبر سنة ١١٨٩ قام الفرنج بهجوم كبير على خطوط صلاح الدين ،

---

(١) انظر :

Ambroise, loc. cit.
Benedict of Petersborough, II, pp. 94 - 95.
Itinerarium, pp. 67 - 68, 73 - 74.

اشار الى اسقف بوفيه وأتباعه ، والى الايطاليين ، والألمان الثورنجيين .

بعد ان حصنوا معسكرهم وتركوا قيادته لجفري شقيق جاي . كانت معركة حامية الوطيس ، إذ لجـأ تقي الدين ، الذي قاد ميمنة الجيش الاسلامي ، الى استدراج الداوية الذين كانوا يواجهونه ، غير ان صلاح الدين نفسه خدعته هـذه المناورة فأضعف قلب الجيش كيما ينجد تقي الدين . وترتب على ذلـك ان عساكر الميمنة والقلب لاذوا بالفرار ، وتكبدوا خسائر فادحة ، وأطلق بعض عساكره العنان لخيولهم حتى بلغوا طبرية . بـل ان كونت بريين توغل في سيره حتى خيمة صلاح الدين . غير ان ميسرة الجيش الاسلامي ظلت سليمة متماسكة ، ولما اخترق المسيحيون صفوف هذه الميسرة لمطاردة الفارين ، حمل صلاح الدين عليهم ، وردهم الى معسكرهم ، وقـد اضطرب نظامهم ، وفي نفس الوقت تعرّض معسكرهم لهجوم من قبل الحامية الاسلامية بعكا . وصمد جفري لوزجنان بالمعسكر ، ولم يلبث الجانب الاكبر من الجيش المسيحي ان استقر وراء استحكاماته ، التي لم يخاطر صلاح الدين بشن الهجوم عليها . ولقى عدد كبير من فرسان الفرنج ، ومن بينهم اندرو بريين ، مصارعهم على ساحـة المعركة . واشتد ذعر العساكر الالمانية ، وحلت بهـم خسائر فادحة ، وازدادت خسائر الداوية . إذ ان مقدم الداوية ، جيرار ريدفورت الذي كان مستشار السوء للملك جاي في الايام السابقة على معركة حطين ، وقع في الأسر ، ودفع ثمن حماقاته بوفاتـه . ولم يفلت كنراد نفسه من الاسر إلا بفضل مروءة منافسه ، الملك جاي [1] .

---

(١) انظر : Ambroise, cols, 78 - 81.
Itinerarium, pp. 68 - 72.

كان النصر حليف المسلمين ، غير انه لم يكن نصراً كاملاً ، لأن المسيحيين لم يطردوا من مواضعهم ، كما انه قدمت لهم اثناء الخريف مساعدة اضافية من الغرب ، إذ وصل في نوفمبر اسطول اللندنيين ، الذين شجعهم ما احرزوه من نجاح في البرتغال [1] . ويشير المؤرخون الى ان اعداداً كبيرة اخرى من الصليبيين جاءت من نبلاء فرنسا والفلاندر وايطاليا ، بل من المجر والدانمرقة [2] ورفض عدد كبير من فرسان الغرب ان ينتظروا ملوكهم الذين نزعوا الى التمهل والإبطاء . وبفضل هذه القوة المحتشدة ، استطاع الفرنج ان يتموا حصار عكا من جهة البر . على ان صلاح الدين كان يتلقى ايضاً امداداً . ومـــا تردد من نبأ رحلة الامبراطور فردريك الذي بعث الشجاعة عند المسيحيين ، حمل صلاح الدين على استدعاء اتباعه من جميع انحاء آسيا .

=

Ralph of Diceto, II, p. 70.
Estoire d'Eracles, II, p. 129.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 162 - 169.

اورد ابن شداد وصفاً حياً لما حدث ، غير ان روايته لم تطابق ما ورد في Itinerarium ، اذ لم يشر ابن شداد الى ما قامت به حامية عكا من هجوم . غير أنه وصف مـــا سبق وقوعه من اشتباكات . انظر :

Beha ed - Din, pp. 154 - 162.
Abu Shama, pp. 415 - 422.

(١) جعل سبتمبر تاريخ وصول الاسطول الانجليزي Itinerarium, p. 65. على انه اذا كانت التواريخ التي اثبتها بيانزبره ورالف ديكتو صحيحة . انظر ما سبق ص٣٠ حاشية ٢ ، فيعتبر شهر نوفمبر اسبق ميعاد يصح أن تصل فيه السفن الى سوريا .

(٢) انظر : Itinerarium, pp. 73 - 74.
Ambroise, col, 84.

لم يرد ذكر لتاريخ وصول كل من هذه الفئات .

بل انه كتب الى المسلمين في مراكش واسبانيا يخطرهم انه اذا كان العالم المسيحي بالغرب يرسل بفرسانه للقتال من اجل الارض المقدّسة ، فلا بد للعالم الاسلامي ان يفعل ذلك . فردوا عليه يبدون عطفهم ، غير انهم لم يبذلوا مساعدة ايجابية [١] . ومع ذلك فإن جيش صلاح الدين اضحى من الضخامة مـا يكفي لفرض الحصار على المسيحيين ، إذ ألقى الحصار على المسيحيين الذين حصروا عكا من جهة البر . وفي ٣١ اكتوبر سنة ١١٨٩ استطاعت خمسون سفينة اسلامية ان تشق طريقاً لها بين اسطول الفرنج وأن تجلب الى عـكا المؤن والذخائر ، برغم التضحية ببعض السفن ، وفي ٢٦ ديسمبر سنة ١١٨٩ نجح اسطول مصري ضخم في إعادة الاتصال بالميناء [٢].

هدوء الموقف سنة ١١٩٠ :

ظلّ الجيشان الاسلامي والمسيحي ، يواجه أحدهما الآخر طوال فصل الشتاء ، دون ان يجسر كل منهما ان يشتبك في قتال خطير . وقعت بعض المناوشات والمبارزات ، غير انـه في الوقت ذاته أخذت روابط الاخوّة تزداد نمواً ، إذ صار الفرسان من كلا الجانبين يعرف كل منهما الآخر ويجلّه ويحترمه ، فيتوقف القتال ريثما يتبادل القادة عبارات التحية والمودة ، وقد يدعى جنود العدو ليشهدوا الحفلات والملاهي في كلا المعسكرين . وحدث ان خرج الصبيان في المعسكر الاسلامي لمنـازلة الصبيان المسيحيين على

(١) انظر : Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 171, 175 - 178.
Abu Shama, pp. 497 - 506.

(٢) انظر : Itinerarium, pp. 77 - 79.
Ambroise , cols . 84 - 85 .
Abu Shama, pp. 430 - 431.

سبيل الفكاهة والمرح . واشتهر صلاح الدين بمـا كان يبديه من العطف والرفق بالمسيحيين الأسرى ، وبما كان يوجهه من رسائل دمثة وهدايا الى الأمراء المسيحيين . ودهش المتشددون في الدين من أتباعه لما أصاب الجهاد الديني الذي سبق ان توسل للخليفة ان يجهر به ، كما ان الفرسان القادمين حديثاً من الغرب لم يلقوا ما ييسر لهم إدراك الموقف وفهمه . فالمرارة المجابت في الظاهر عن الحرب ، غير ان كلا الجانبين ما زالا يصرّان على تحقيق النصر (١) .

وعلى الرغم من هذه العلاقات الدمثة ، فإن الحياة في المعسكر المسيحي كانت في ذلك الشتاء بالغة القسوة ، إذ تضاءلت المؤن ولا سيا بعد ان فقد الفرنج السيطرة على البحر . وكلما أخذ الطقس يزداد دفئاً ، أضحت المياه مشكلة ، وتداعت التدابير الصحية . فتفشى المرض بين العساكر ، ولإصلاح ما تعرّض له رجالهما من متاعب ، أجرى جاي وكنراد اتفاقاً ، يقضي بأن يكون لكنراد صور فضلاً عن بيروت وصيدا بعد استردادهما ، على ان يعترف بجاي ملكاً ، ولما استقرّ الصلح بينهما على هذا النحو ، غادر كنراد المعسكر في مارس سنة ١١٩٠ ، ثم عـاد من صور في نهاية الشهر بسفن تحمل مؤناً وأسلحة . على ان اسطول صلاح الدين أقلع من ميناء عكا ليعترض طريقها ، ودارت معركة حامية ارتدّت بعدها السفن الاسلامية على أعقابها برغم استخدامها النيران الاغريقية ، فاستطاع كنراد ان يُنزل الى البر ما جلبه من سلع . وبفضل المساعدة الناجمة عن مؤن ومواد التي جلبها كنراد ، شيّد الفرنج أبراجاً خشبية للحصار ، حاولوا في ه

---

(١) انظر : Abu Shama, pp. 412 - 438.
Ibn al - Athir, II, pp. 6, 9.

مايو سنة ١١٩٠ ان يجربوها في مهاجمة المدينة ، غير انهـا احترقت [١] .
ولم تلبث المجاعة والمرض ان ظهرا من جديد في المعسكر المسيحي ، ولم
يلقوا العزاء إلا في أنهم علموا ان كان بعكا ايضاً مجاعة ، على الرغم من
ان السفن الاسلامية جاهدت من حين الى آخر في شق طريقها الى الميناء ،
لجلب مؤنـاً جديدة الى عكا [٢] : والمحـاز الى جيش صلاح الدين طوال
فصل الربيع امداد اسلامية . وفي ١٩ مايو الموافق سبت النور ، اخذ
يوجّه هجومه الى المعسكر ولم يرتدّ عنه إلا بعد قتال استمر ثمانية ايام[٣].
ودارت المعركة الشاملة التالية يوم عيد القديس يعقوب ، ٢٥ يوليه سنة
١١٩٠ ، حين قـام عساكر الفرنج يقودهم السرجندارية ، وعلى كره من
قادتهم ، بهجوم جرىء على معسكر تقي الدين على ميمنة صـلاح الدين ،
فحلّت بهم هزيمة ساحقة ، وهلك عدد كبير منهم ، وحينما هرع لنجدتهم
فارس انجليزي كبير ، اسمه رالف التا ريبا ، رئيس شمامسة كولشستر ،
لقي مصرعه [٤] .

---

(١) انظر :
Itinerarium, pp. 79 - 85.
Ambroise, cols. 85 - 92.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 178 - 180.
Ibn al - Athir, II, pp. 18 - 21.

(٢) انظر :
Itinerarium, pp. 85 - 86, 88.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 181 - 182.

(٣) انظر :
Itinerarium, pp. 87 - 88.

(٤) انظر :
Itinerarium, pp. 89 - 91.
Ambroise, cols, 93 - 94 .

أخطأ امبرواز في جعل عيد القديس يوحنا بدلاً من عيد القديس يعقوب هو التاريخ الذي
وقعت فيه المعركة . انظر :
Estoire d'Eracles, II, p. 151.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 193 - 196.

وفي اثناء الصيف قدم الى المعسكر جماعة اخرى من نبلاء الصليبيين وجرى الترحيب بهم ، على الرغم من ان قدوم كل عسكري جديد ، لا بد من توفير المؤونة له . ومن هؤلاء القادمين كبار النبلاء الفرنسيين والبرجنديين الذين سبقوا في قدومهم ملكهم ، امثال تيبالد كونت بلوا ، وشقيقه ستيفن كونت سانكيرا ، الذي سبق ترشيحه على كره منه للزواج من الملكة سبيللا ، ومنهم أيضاً رالف كونت كليرمونت ، ويوحنا كونت فونتيني ، وألن كونت سانت فاليري ، فضلاً عن رئيس اساقفة بيزانسون ، وأسقفي بلوا وتول ، وجماعة من اعلام رجال الكنيسة . وتولى قيادتهم هنري تروي كونت شامبانيا ، وكان شاباً عريق الاصل ، لأن امه ، وهي ابنة اليانور كونتيسة اكيتانيا ، بمقتضى زيجتها الفرنسية ، تعتبر اختاً غير شقيقة لكل من ملكي انجلترا وفرنسا ، وكان كلا خاليه يفخران به . اضحى له على الفور مكانة خاصة ، باعتباره ممثلاً للملكين وطليعة لهما . فتولى فعلاً قيادة عمليات الحصار ، التي تولى ادارتها حتى وقتذاك جيمس افيسنيز وسيد تورنجيا [١].
وإذ انتاب سيد تورنجيا المرض ، الذي يصح ان يكون حمى الملاريا ، اتخذ من قدوم هنري شامبانيا ذريعة للعودة الى اوربا [٢] . ووصل الى

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 92 - 94.
Ambroise, col, 94.
Beha ed - Din, P.P.T.S. p. 197.
كان هنري ابناً لهنري الاول كونت شامبانيا ، وكان ثيالد كونت بلوا وستيفن كونت سانكيير الاخوين الصغيرين لوالده . اما عمته أليكس ، فكانت الزوجة الثانية للملك لويس السابع ، وهي أم الملك فيليب ، وبذا يعتبر فيليب ابن خال هنري الشقيق ، وخالاً غير شقيق له ايضاً .

(٢) مات سيد تورنجيا في طريق عودته الى بلاده . اتهمه رالف ديكيتو بأنه كان على علاقة بالعدو ، وأنه قبل منه مالاً . انظر :
Ralph of Diceto, II, pp. 82 - 83.

عـكا في اوائل اكتوبر سنة ١١٩٠ فردريك دوق سوابيـا بمن تبقى من جيش بربروسه [١] . وهبط الى صور بعـد ايام قليلة وحدة انجليزية ، ثم توجهت الى عكا ، وكان على رأسها بلدوين رئيس اساقفة كنتربري [٢] .

القتال سجال بين المسلمين والمسيحيين سنة ١١٩٠ :

ظل القتـــال سجالاً طوال الصيف ، وصار كل فريق ينتظر قدوم الامداد التي تكفل له القيام بالهجوم . على ان سقوط قلعة الشقيف هيـأ لجيش صلاح الدين الرجال ، ولكن صلاح الدين سبق أن ارسل عساكر الى الشمال لتعترض طريق فردريك بربروسه ، ولم يعودوا حـتى حلول الشتاء . وفي تلك الاثناء وقعت مناوشات تخللهـا التآخي بين العساكر من كلا الجانبين . وأورد المؤرخون المسيحيون في ارتياح من الملاحظات ما يشير الى وقوع احداث عديدة ، انهزم فيها المسلمون ، ولقي فيها المسيحيون الجزاء الأوفى ، بفضل عون الله ومساعدته ، غير ان كل محاولة قاموا بها لارتقاء اسوار عكا ، باءت بالفشل . وشن فردريك دوق سوابيـا عقب وصوله هجوماً عنيفـاً ، ثم اعقب ذلك محاولة رئيس اساقفة بيزانسون تجربة ما جرى تشييده حديثاً من كباش لهدم الاسوار ، غير انـه تبدد

---

(١) جعل ابو شامة تاريخ قدومه ٤ اكتوبر ١١٩٠ . انظر :

Abu Shama, p. 474.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 209 , 213.
Itinerarium, pp. 94 - 95.

(٢) انظر : Itinerarium, p. 93.

كلا الهجومين [١] . وفي نوفمبر قام الصليبيون بإخراج صلاح الدين من موضعه ، تل كيسان ، الذي يقع على مسافة خمسة اميال من المدينة (عكا) ، غير انه استقر في تل الخروبة الذي لا يبعد إلا قليلاً عن تل كيسان ، ويعتبر اكثر مناعة منه . وهيأ هذا الاجراء للمسيحيين ان يشقوا طريقهم الى حيفا ، في حملة من اجل المؤن ، غير انها لم تفد إلا قليلاً في تخفيف وطأة الجوع في المعسكر . على ان الجوع والمرض لم تخل منهما المدينة (عكا) والمعسكران المسيحي والاسلامي . ولم يكن بوسع اي الجانبين ان يقوم بجهد كبير [٢] .

زواج كنراد من ايزابيلا سنة ١١٩٠ :

ومن ضحايا المرض في ذلك الشتاء ، الملكة سبيلا ، وسبقها الى الموت قبل بضعة ايام من وفاتها ، ابنتاها اللتان انجبتها للملك

---

(١) انظر : Beha ed - Din. P.P.T.S. pp. 214 - 218.
Abu Shama, pp. 480 - 481.
اورد احداثاً ظهرت فيها المعجزات .
Itinerarium, pp. 97 - 109.
pp. 109 - 111.
pp. 111 - 113.
وهنا يشير الى برج الذباب . وفي هذا الموضع ايضاً يذكر هجوم رئيس اساقفة بيزانسون .
Ambroise, cols, 98 - 104.

(٢) انظر : Itinerarium, pp. 115 - 119.
Ambroise, cols. 105 - 108.
Abu Shama, pp. 513 - 514.

جــاي [1] . فأضحت الاميرة ايزابيلا وريثة للملكة ، وصار تاج جاي محفوفاً بالخطر . إذ لم يفز جاي بالتاج إلا على انــه زوج الملكة . فهل ظلت هذه الحقوق له بعد وفاتها ؟ تراءى للبارونات القدامى بالمملكة ، بزعامة باليان ابلين ، أنه تهيأت لهم الفرصة للتخلص من حكم جـــاي الضعيف ، التعس الطالع . فرشحوا للعرش كنراد مونتفيرات ، فاذا تزوج من ايزابيلا ، فاقت دعاويه في العرش ما لدى جاي . غير ان هذا الحل اعترضته عقبات ، إذ ترددت الشائعات بأن لكنراد زوجـــة تعيش بالقسطنطينية ، والراجح أن كان له زوجـة اخرى بايطاليا ، ولم يحفل باجراء الطلاق او فسخ الزواج منها . غير ان ايطاليـا والقسطنطينية كانتا بعيدتين ، فلو اقام بها سيدتان هجرهما زوجها ، فمن اليسير نسيانها وإغفالها . اما المشكلة التي تعتبر بالغة الالحاح ، فتمثلت في انه لايزابيلا زوجاً ، هو همفري سيد تبنين ، الذي لم يكن فحسب على قيد الحياة ، بل كان نازلاً ايضاً في المعسكر . والمعروف ان همفري كان شاباً وسيماً شهماً مثقفاً ، غير ان جماله الفائق اضفى عليه من التخنث مـا لم يجعله

---

(١) ورد اسماها ، أليس وماريا ، في : Estoire d'Eracles, II. p. 151.
أشار ارنول الى انه كان لها اربعة اطفال : Ernoul, p. 267.
جعل امبرواز وفاتها في نهاية اغسطس سنة ١١٩٠ : Ambroise, col. 104.
بينا ورد في مخطوطة من تاريخ ارنول انها ماتت في ١٥ يوليه سنة ١١٩٠ . وفي وثيقة محررة في عكا في سبتمبر سنة ١١٩٠ ، ورد ذكرها على انها ما زالت على قيد الحياة . وفي رسالة مؤرخة في اكتوبر سنة ١١٩٠ ، جرت الاشارة الى انها في عداد الموتى . ويقول روريخت انها ماتت في اول اكتوبر سنة ١١٩٠ ، انظر :

Röhricht, Registra, Addimentum, p. 67.
Epistolae Cantuarenses, pp. 228 - 229.

موضع احترام العساكر النازلين معه ، الذين اشتهروا بالصلابة ، كما ان البارونات لم ينسوا مطلقاً تخليه عن قضيتهم سنة ١١٨٦ ، حينما اتخذ جاي التاج ، متحدياً بذلك الشروط الواردة في وصية الملك بلدوين الرابع . ولذا قرروا انه لا بدّ من طلاق ايزابيللا منه . ولم يلقوا صعوبة في إقناع همفري بالموافقة على ذلك ، إذ لم يكن صالحاً للحياة الزوجية ، وكان شديد الخوف من تحمّل المسؤولية السياسية ، ولكن ليس من السهل ان تستجيب لهم ايزابيللا ، إذ كان همفري يوليها دائماً العطف ، ولم ترغب في ان تستبدل به محارباً عبوساً في ربيع العمر ، كنراد مونتفيرات ، ولم تكن تتطلع الى العرش . على ان البارونات تركوا الأمر لأمها الملكة ماريا كومنينا ، زوجة باليان ، فاستخدمت كل ما للأم من سلطة في حمل الأميرة العاصية ، على التخلي عن همفري . ثم اعلنت الملكة ماريا كومنينا امام الاساقفة المجتمعين ان ابنتها ارغمها على الزواج عمها الملك بلدوين الرابع ، ولم تكن تتجاوز الثامنة من عمرها حين جرت خطبتها ، ونظراً لحداثتها البالغة ، ولما هو معروف عن همفري من التخنث ، فلا بدّ من إلغاء الزواج ، وإذ اشتد المرض بالبطريرك هرقل فلم يشهد الاجتماع ، عيّن رئيس اساقفة كنتربري ليمثله فيه . غير ان رئيس اساقفة كنتربري رفض إلغاء الزواج ، لما يعلمه من ان سيده الملك رتشرد شديد التعلق بإسرة لوزجنان . فأشار الى زيجة كنراد السابقة ، وإلى ان زواج كنراد من ايزابيللا يعتبر من قبيل الزنا الصريح . غير ان رئيس اساقفة بيزا ومندوب البابا انحاز الى جانب كنراد ، بعد ان حصل على وعد من كنراد ، حسبما جرى القول ، بالحصول على امتيازات تجارية لأبناء وطنه . أما اسقف بوفيه ، وهو ابن عم الملك فيليب فاستخدم مساندة المندوب البابوي للوصول الى اتفاق عام بتطليق ايزابيللا ، فتولى بنفسه اجراء زواجها من كنراد مونتفيرات في ٢٤ نوفمبر سنة ١١٩٠ .

وغضب مؤيدو لوزجنان لعقد زواج ألغى حق جاي في العرش ، ولقي هؤلاء المؤيدون كل عطف من اتباع رتشرد القادمين من انجلترا ونورمنديا وجيين . على ان بلدوين رئيس اساقفة كنتربري والمتحدّث الاول باسمهم مات فجأة في ١٩ نوفمبر سنة ١١٩٠ ، بعد ان امر بأن يقطع من الكنيسة كل من ارتبط بهذا الأمر ، وبذل المؤرخون كل ما في وسعهم لتشويه ما اصابه من شهرة . بل ان جاي نفسه ذهب الى ما هو ابعد من ذلــك ، فدعا كنراد الى المبارزة . وإذ ادرك كنراد ان الحق الشرعي اضحى في جانبه ، رفض ان يقبل مناقشة المسألة مرة اخرى . وقد يصح للوزجنانيين ان يعتبروا ذلــك من قبيل الجبن ، غير ان كل الذين يحرصون في قرارة القلب على مستقبل المملكة ، ادركوا انه اذا كان للاسرة الملكية ان تظل باقية ، فلا بدّ لايزابيللا ان تتزوّج مرة اخرى ، وأن تنجب طفلاً . ويعتبر كنراد مخلص صور ، الشخص الذي وقع عليه الاختيار ليكون زوجاً لها .

ولجأ كنراد وايزابيللا الى صور بعد ان تمّ زفافهما ، فأنجبت ايزابيللا في السنة التالية ابنة ، اسمها ماريا تيمنا باسم جدتهـــا البيزنطية ، ماريا كومنينا . وكان كنراد مصيباً حينما لم يشأ ان يتخذ لقب الملك حتى يتم تتويجه مع زوجته ، غير انــه لم يرض بالعودة من صور الى المعسكر المسيحي ، لأن بجاي رفض التخلي عن شيء من حقوقه [١] .

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 267 - 268.
Estoire d'Eracles, II, pp. 151 - 154.
(اورد اوفى رواية مجردة من العاطفة والتحيز) .
Ambroise, cols 110 - 112.
Itinerarium, pp. 119 - 124.

المجاعة في معسكر الفرنج سنة ١١٩١ :

استمرت متاعب الصليبيين وشدائدهم طوال شهور الشتاء. بينما قدمت امداد صلاح الدين من الشمال، فازداد تضييق الحصار على معسكر الفرنج. ولم تعد المؤونة تصل بطريق البر، ولم يهبط منها في اثناء شهور الشتاء على الساحل الاجرد إلا مقادير ضئيلة، بينما استطاعت السفن الاسلامية في بعض الاحوال ان تشق طريقها الى مرفـأ عكا الأمين. ومن السادة الذين هلكوا بسبب المرض الناشب في المعسكر، تيبالد كونت بـلوا، وشقيقه ستيفن كونت سانكير[1] . ومات فردريك دوق سوابيا في ٢٠ ينـاير

= وفي هذين المصدرين عداء مرير لكنراد وباليان وماريا كومنينا ، اذ يشير المصدر الاخير الى ان ايزابيلا رضيت بالزواج عن طيب خاطر ، على حين ان تاريخ هرقل يوضح انهـا لم تقبل الزواج الا لكونه واجباً سياسياً عليها . وقبل همفري لأنه على حـد قول ارنول تلقى رشوة ، اذ اعادت له ايزابيلا اقطاع تبنين الذي كان في حيازة جده ، ثم اضافه الملك بلدوين الرابع الى املاك التـاج . ومن المحقق ان زوجة كنراد الايطالية ماتت قبل ان يتزوج الاميرة البيزنطية ثيودورا انجلينا (انظر Nicetas Choniates, p. 497) . ويبـدو من رواية نكيتاس ان زوجة كنراد البيزنطية ماتت ايضاً . (انظر Nicetas Choniates, pp. 516 - 517) . اما جاي سنليس الساقي الذي تحدى همفري للخروج الى مبارزته اذا عارض في طلاق ايزابيلا فانه وقع في اسر المسلمين عشية زفاف ايزابيلا وكنراد .

(١) ورد خبر وفاة تيبالد وأخيه ستيفن في :

Haymar Monachus, De Expugnatme Acconis p. 38.

وانظر : Itinerarium, pp. 124 - 134.

عن شدائد الصليبيين ومحنهم ، كما اورد قصيدة في هجاء كنراد .

ووجه امبرواز ايضاً اللوم الى كنراد (Ambroise, cols, pp. 112 - 115.)

وورد في ابن شداد اشارة الى وفاة الكونت تيبالد (باليات) .

انظر : Beha ed - Din , P.P.T.S. p. 236 .

سنة ١١٩١ ، وأضحى الجند الالمان محرومين من قائدهم ، على الرغم من ان ابن عمه ، ليوبولد دوق النمسا ، الذي قدم من البندقية في زمن مبكر من فصل الربيع ، حاول ان يجعلهم تحت لوائه [١] . وبلغ المرض بهنري كونت شامبانيا من الشدة ، اسابيع عديدة ، حتى اضحت حياته امراً ميؤوساً منه [٢] . على ان عدداً كبيراً من العساكر ، ولا سيما الانجليز منهم ، وجهوا اللوم الى كنراد ، لما حلّ بهم من البؤس ، لأنه اضاع الوقت سدى في صور ورفض القدوم لنجدتهم . غير انه كيفما كان الباعث على ذلك ، فمن العسير ان ندرك ماذا كان باستطاعته ان يفعل شيئاً سوى ذلك ، إذ ان المعسكر اكتظّ بالناس ، فلا حاجة لهم به [٣] . وحدث من حين الى آخر ان جرت محاولات لارتقاء اسوار عكا ، ولا سيما يوم ٣١ ديسمبر سنة ١١٩٠ حين انصرف انتباه حامية المدينة (عكا) الى غرق سفينة اسلامية عند مدخل الميناء ، وكانت تحمل مؤناً لمساعدتهم . فشلت المحاولة التي بذلها المسيحيون لارتقاء الاسوار ، ولم يستطع الصليبيون ايضاً ان يفيدوا من انهيار جانب من سور المدينة من جهة البر ، بعد ستة ايام من هذا التاريخ .

وهرب عدد كبير من العساكر الفرنج وانحازوا الى المسلمين . وبفضل

---

(١) اشار ابن شداد الى وفاة فردريك دوق سوابيا ، انظر ابن شداد في الحاشية السابقة . امـا قدوم ليوبولد دوق النمسا مع جماعة من عساكر بلاد الراين ، واقتلاعهم من البندقية ، فورد ذكره في : Ansbert, Expedito Friderici, pp. 96 - 97 .
اذ اشار الى ان ليوبولد امضى الشتاء في زارا . وكان ابناً لأخ غير شقيق للامبراطور فردريك بربروسا ، وهو هنري دوق النمسا من زوجته ثيودورا كومنينا .

(٢) انظر : Beha ed - Din, loc. cit.

(٣) انظر : Itinerarium, loc. cit.

ما بذلوه من مساعدة ، وبفضل تفوّق نظام الجاسوسية عند صلاح الدين ، استطاع ان يرسل قوّة اقتحمت الخطوط الصليبية في ١٣ فبراير سنة ١١٩١ ، يصحبها قائد جديد وحامية جديدة لتخفف وطأة الحصار عن المدافعين عن المدينة ، الذين ارهقهم التعب . غير ان صلاح الدين تردّد في ان يوجه هجوماً حاسماً على المعسكر المسيحي ، إذ ان عدداً كبيراً من العساكر حلّ بهم الإرهاق والتعب ، ولما وصلت الامداد ، صرف بعض القوات لتلتمس الراحة . وما حلّ بالمسيحيين من بؤس ، كان يعمل لصالحه [١] .

لم يكن صلاح الدين مرة اخرى حكيماً في شدة تحمّله وصبره . فلما اقترب الصيام الكبير ، تراءى كأن الفرنج لن يبقوا طويلاً على قيد الحياة ، ففي معسكرهم ، لا يشترى بالدرهم الفضي عندهم سوى ثلاث عشرة من حبات الفول ، او بيضة واحدة ، أما غرارة القمح فأضحى ثمنها مائة قطعة من الذهب . وجرى ذبح عدد كبير من الجياد الاصيلة ، حتى يتزوّد اربابها بالطعام . وتناول سائر العساكر الحشائش ، وأخذوا يلوكون العظام العارية من اللحم . وحاول كبار رجال الكنيسة ان ينظموا نوعاً من المساعدة غير انه عطلهم جشع التجار البيازنة الذين سيطروا على معظم المؤن الغذائية . على انه حدث في مارس سنة ١١٩١ ، حين اشتد اليأس من الحصول على شيء من المؤن ، ان رست تجاه الساحل سفينة امتلأت قمحاً ،

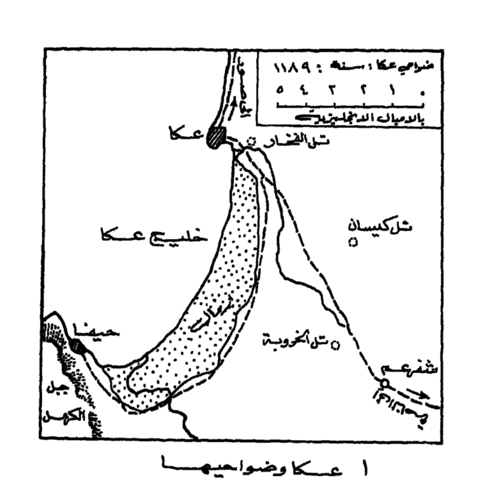
---

(١) انظر : Abu Shama, pp. 517 - 518, 520.
Ibn al - Athir, II, pp. 32 - 33.

استطاعت ان تنزل الى البر حمولتها ، ولما تحسن الطقس تلتها سفن اخرى ولقيت هذه السفن حفاوة كبيرة ، لأنها لم تجلب فحسب مواداً غذائية ، بل حملت ايضاً انباء بأن ملكي انجلترا وفرنسا اضحيا آخر الأمر في المياه الشرقية [1] .

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 136 - 137.
Ambroise, cols. 119 - 120.



١ عكا وضواحيها

الفصل الثالث

رتشرد قلب الاسد

هبط الملك فيليب اغسطس الى المعسكر المسيحي امـام عكا في ٢٠ ابريل سنة ١١٩١ ، يوم السبت التالي لعيد القيامة ، بينما قدم الملك رتشرد بعد سبعة اسابيع ، يوم السبت التالي لعيد العنصرة . وقد مضى ما يقرب من اربع سنوات على معركة حطين ، وعلى استماتة الصليبيين في الاستنجاد بالغرب . على ان العساكر الذي ارهقهم القتال بفلسطين ، بلغ بهم السرور للترحيب بالملكين انهم غفروا ونسوا ما حدث من الارجاء الطويل الامد . ولكن المؤرخ الحديث يرى انه جرى شيء من الطيش والخفة فيما حدث من التمهل والشجار في رحلة رتشرد الى ساحة القتال حيث كانت الحاجة اليه شديدة الالحاح .

من اليسير ان ندرك السر في انـه لم يكن للملك فيليب ان يتعجل المسير ، إذ أنه لم يكن مثالياً ، ولم يتوجّه للحرب الصليبية إلا لضرورة سياسية ، لأنه لو امتنع عن الاشتراك في الحملة المقدسة فلن يفقد فحسب

عطف الكنيسة وحسن نيتها نحوه ، بل يضيع ايضاً اخلاص معظم رعاياه . غير ان مملكته لم تكن بنجوة من الخطر ، وحقّ له ان يرتاب في اطماع الأنجويين . ولم يكن بوسعه ان يغادر فرنسا إلا بعد ان علم ان منافسه ملك انجلترا اتخذ ايضاً طريقه . واقتضت الفطانة انــه ينبغي ان يسيرا سوياً . كما انه يلبغي ألا يوجّه اللوم لأي الملكين لما سببته وفــاة ملكة فرنسا من الارجاء النهائي . وكان لرتشرد ايضاً اعذار خاصــة . إذ ان وفاة والده اجبرته على ان يعيد تنظيم مملكته . يضاف الى ذلك انه عزم ، مثلما فعل فيليب ، على ان يسير بطريق البحر . والمعروف أن السير في البحر في شهور الشتاء لم يكن امراً عملياً . غير انه متى اقدم هذا المحارب الصليبي الشديد الشغف على اجراء ذلك ، فان العجلة مهما قلّ قدرها تدل على افتقاره للغرض والمسئولية .

الملكان رتشرد وفيليب :

لم تخل اخلاق رتشرد من عيوب خطيرة ، فمن النــاحية البدنية كان ضخم الجثـــة ، طويل القامة ، طويل الذراعين والساقين ، قوي البنية ، اصهب الشعر ، جميل الخلقة والتقاطيع . ولم يرث من أمه فحسب مـــا اشتهر به بيت بواتو من طلاقة الوجه والنظرات المشرقة ، بل اخذ عنه ايضاً ، سهولة الطبع ، والشجاعة ، وتذوّق الشعر ، والعشق والهيام . وتبعه اصدقاؤه وحشمه لتعلقهم بــه وخوفهم منه . واستمد من والديه المزاج الحاد والارادة العاطفية ، غير انه لم يرث ما اشتهر به والده من الدهاء السياسي والكفاية الادارية ، ولم يحز ما اشتهرت به أمه ، الملكة اليانور ، من الحكم السديد . نشأ رتشرد وترعرع في اسرة خيّم على جوّهـــا المنازعات والخيانات الاسرية ، وإذ لقي الحظوة عند أمه ، كره اباه ،

ولم يثق في اخوته ، على الرغم من انـه تعلق بأخته الصغرى جوانا . تعلم ان يكون عنيفاً ، غير انه لم يكن محارباً صادق الولاء . كان شحيحاً برغم اقتداره على البذل والسخاء ، وهوى المظهر الفاضح . امـا نشاطه فلا حدّ له . غير انه ينسى سائر المسئوليات اذا وجـه كل اهتمامه الى عمل عاجل . كان رتشرد يميل الى النظام ، على انه ضجر ذرعاً بالادارة . لم يشدّ انتباهه إلا فن الحرب . وباعتباره جندياً ، توافرت له مواهب صادقة ، مثل تقدير الخطط الحربية ، وفن المناورات في القتال ، والقدرة على قيادة الرجال . لم يتجاوز رتشرد وقتذاك الثالثة والثلاثين من عمره ، فكان في عنفوان حياته ، بالغ الطموح ، سبقته شهرته الى الشرق [1] .

أما فيليب اغسطس فكان بالغ الاختلاف . إذ صغر عمره عن رتشرد ثماني سنوات ، غير انه كان فعلاً ملكاً منذ اكثر من عشر سنوات . وما عاناه من تجربـــة مريرة أكسبته الحكمة . لم يضارع رتشرد في تركيب جسمه . كان قوي البنية ، ذا شعر كثيف أشعث ، فقدّ بصر احدى عينيه . لم يكن شجاعاً . وبرغم سرعة غضبه وميله الى المتعة ، ففي وسعه ان يخفي عواطفه ، لم تهو المظاهر العاطفية او المادية . غلب على بلاطه الخشونة والتقشف ، فلم يحفل بالفنون ، ولم يحظ بقسط كبير من التعليم ، على الرغم من انه عرف قدر رجـال العلم ، والتمس صداقتهم من قبيل السياسة ، وحافظ على ذلك بلباقته وطلاوة حديثه . وباعتباره من رجال السياسة ،

---

(١) ورد وصف لشخصية رتشرد في : Itinerarium, p. 144.
وعن اخلاقه انظر المناقشة التي اوردهـــا ستبز في المقدمة التي كتبها للمصدر السابق (Itinerarium) ، وما ورد عنه في مواضع متفرقة في :
Norgate, Richard the Lion - Heart.

اشتهر فيليب بالصبر وشدة الملاحظة والدهاء والتجرد من الاخلاص ومن التزام العهود . غير انـه اشتهر بالاحساس الشديد بواجباته ومسئولياته . وبرغم الاهتمام الشديد بنفسه وباصدقائه . كان فيليب سخياً على الفقراء ، ويحميهم من كل من يظلمهم . ومع انه لم يكن رجلاً جذاباً او مقبولاً ، فانه كان ملكاً صالحاً . احتل مكانة خاصة بين الفرنج في الشرق ، اذ كان السيد الاعلى للأمرات التي انحدر منها معظمهم ، كما ان معظم الصليبيين الذين زاروا الشرق كانوا اتباعـاً له بطريق مباشر او غير مباشر . غير انهم زادوا في تقديرهم لرتشرد لشجاعته ، وبسالته ، وجاذبيته . وتراءى رتشرد عند المسلمين على انه أنبل من فيليب وأكثر ثراء منه ، وأعظم منه قدراً [١] .

ارتحل الملكان من فيزيلاي في ٤ يوليه سنة ١١٩٠ ، وأرسل رتشرد قبل خروجه ، الاسطول الانجليزي ليطوف حول ساحل اسبانيا ، ثم يلتقي به في مرسيليا ، غير انه كاد يحتفظ معه بكل قواته البرية التي حشدها من املاكه ، وكان جيش فيليب اقل عدداً ، نظراً لأن عدداً كبيراً من اتباعه سبقوه في التوجه فعلاً الى الشرق . وسار الجيش الفرنسي ، وفي أثره الجيش الانجليزي من فيزيلاي الى ليون . وحدث في ليون ، وبعد ان عبر الفرنسيون ، ان انهار الجسر المقام على نهر الرون تحت ثقل الحشود الانجليزية ، فزهقت ارواح كثيرة ، وتأجل السير فترة من الزمن حتى تم

---

(١) وردت قصيدة مدح في فيليب ، في :

Continuation of William the Breton, p. 323.

وفي صفحات رحلة ريتشرد (Itinerarium) تصادف أسوأ تفسير لأخـلاق فيليب .

انظر عنه ايضاً : Cartellieri, Philippe, II, August.

تدبير نقل العساكر . ولم يلبث الملكان ان افترقا ، بعد مغادرة ليون ، فتوجه فيليب صوب الجنوب الشرقي ، مجتازاً سفوح التلال الالبية ، فبلغ الساحل عند نيس ، ثم سار على امتداد الساحل حتى جنوه ، حيث كانت السفن في انتظاره . اما رتشرد فتوجه الى مرسيليا ، حيث لحق به اسطوله في ٢٢ اغسطس سنة ١١٩٠ . ولم يقع للاسطول الانجليزي من الاحداث ، سوى تمهله في شهر يونيه لفترة وجيزة في البرتغال ، حيث بذل البحارة المساعدة للملك سانكو لرد غزاة قام بها سلطان المغرب . وأبحر من مرسيليا الى فلسطين مباشرة ، جماعة من اتباع رتشرد بقيادة بلدوين رئيس اساقفة كنتربري ، غير ان الجيش الرئيسي استقل عدة حمالات الى مسينا في صقلية ، حيث كان من المفروض الالتقاء مرة اخرى بالجيش الفرنسي [1] .

تانكرد ملك صقلية ، سنة ١١٩٠ :

حينما أعد ملكا فرنسا وأنجلترا خطتهما اول الأمر للقيام بحملة صليبية مشتركة ، قررا بناء على اقتراح وليم الثاني ملك صقلية ، ان تحتشد قواتهما في هذه الجزيرة . غير ان الملك وليم الثاني قد مات في نوفمبر سنة ١١٨٩ .

---

(١) انظر عن رحلة الملك رتشرد في فرنسا :

Itinerarium, pp. 149 - 151.
Ambroise, cols. 11 - 14.
Benedict of Petersborough, II, pp. 111 - 115.
Rigord, pp. 98 - 99.
William the Breton, pp. 95 - 99.

والمعروف انه تزوّج من شقيقة رتشرد ، جوانا الانجليزية ، غير ان هذا الزواج كان عقيماً ، فلم تنجب جوانا ذرية ، وبذا اضحت كونستانس عمة وليم الثاني ، وزوجة هنري هوهنشتاوفن اكبر ابناء فردريك بربروسه ، وريثة له . والواقع ان عدداً كبيراً من اهل صقلية كانوا يكرهون فكرة ان يتولى امرهم حاكم الماني . على ان مؤامرة صغيرة ، ساندها البابا كليمنت الثالث الذي انزعج لما سوف يحدث من سيطرة اسرة هوهنشتاوفن على جنوب ايطاليا ، ادت الى ان يلي العرش مكان كونستانس وهنري ، تانكرد كونت ليتشي وهو ابن عم غير شرعي للملك الراحل . كان تانكرد رجلاً ضئيل الجسم ، قبيح الخلقة ، لا يثير شيئاً من الاهتمام ، ألفى نفسه على الفور منغمساً في المشاكل . إذ اعلن المسلمون في صقلية الثورة عليه ، وتعرّضت بلاده في بر ايطاليا للغزو من قبل الالمان . وكان لزاماً على تانكرد ان يستدعي رجاله وسفنه من فلسطين ، وبفضلهم انزل الهزيمة بأعدائه . ومع انه كان مستعداً لأن يستقبل الملكين اللذين خرجا في حملة صليبية ، بما يليق بهما من التشريف ، وأن يمدهما بالمؤن ، غير انه لم يكن في وضع يجيز له ان يصحبهما في حملة صليبية [1] .

غادر الملك فيليب ميناء جنوه في نهاية اغسطس سنة ١١٩٠ ثم وصل الى مسينا في ١٤ سبتمبر بعد رحلة هينة إزاء الشاطىء الايطالي ، وإذ كره الأبهة والمظاهر ، اتخذ طريقه الى داخل المدينة ، بعد ان حرص على ألا

(١) عن تانكرد ووضعه انظر :

Chalandon, Domination Normande en Italie, II, pp. 419 - 424.

يشعر به او يلحظه احد ، غير انه بناء على اوامر تانكرد ، جرى الاحتفال باستقباله ، وتقرر ان يحل بالقصر الملكي في مسينا . أما رتشرد فإنه عزم على ان يسير براً من مرسيليا ، إذ انه فيما يبدو سئم رحلات البحر ، ولا شك ان ذلك يرجع الى ما يتعرّض له من دوار البحر . وتولى اسطوله نقل جيشه الى مسينا ، وألقى مراسيه تجـاه الميناء ، في انتظار قدومه ، بينما اتخـذ رتشرد في حاشيته الصغيرة الطريق الممتد على الساحل مخترقاً جنوا وبيزا وأوستيا الى سالرنو . وانتظر في سالرنو حـتى سمع بوصول اسطوله الى مسينا ، وعندئذ ارسل فيما يبدو معظم رجاله بطريق البحر الى مسينا ، لينتظروا قدومـه . بينما واصل رتشرد السفر وحده ، ممتطياً جواده ، ولم يصحبه إلا تابع واحد . وحينما سار قرب مدينة ميلينو الصغيرة ، في اقليم كلابريا ، حاول ان يسرق صقراً من بيت احد الفلاحين ، فـكاد يتعرّض للموت على ايدي اهـل القرية . ولذا تكدّر مزاجه حينما وصل الى مضيق مسينا بعد يوم او يومين . التقى به رجاله على الساحل الايطالي فحملوه في احتفال كبير وأبهة عظيمة الى مسينا ، حيث هبط اليها في ٣ سبتمبر سنة ١١٩٠ . وما اقترن به دخوله الى مسينا من الأبهة الفائقة ، يعتبر نقيضاً حاداً لما اتصف به وصول فيليب من التواضع .

وحينما اجتاز رتشرد ايطاليا ، وقف على امور كثيرة كدّرت خاطره نحو تانكرد ، منها ان اخته الملكة الأرملة جوانا جرى منعها من الخروج من دارها ، وتقرّر تجريدها ممّا خصها من زوجها من ملك . والمعروف انه كان لها نفوذ في المملكة ، وأن تانكرد لم يثق فيها مطلقاً . يضاف الى ذلك ان وليم الثاني ملك صقلية قد خلّف لصهره هنري الثاني ملك انجلترا هبة كبيرة ، شملت صحناً مصنوعاً من الذهب ، وأثاثاً من الذهب ، وخيمة

ملسوجة من الحرير ، وسفينتين مسلحتين ، وعدداً كبيراً من الغرائر التي امتلأت بالمؤن . وإذ مات هنري الثاني ، رأى تانكرد ان يحتفظ بها لنفسه . على ان رتشرد ارسل من سالرنو الى تانكرد يطلب اليه الافراج عن اخته ، وأن يتخلى عن إرثها ، وعن الهبة . فانزعج تانكرد لهذه المطالب التي تلاها ما بلغه من نبأ عن سلوك رتشرد في كلابريا ، ولذا رأى ان ينزل رتشرد في احد القصور الملكية ، خارج اسوار مسينا . غير انـه لتهدئته ارسل تانكرد جوانا في صحبة حرس ملكي لتلحق بأخيها رتشرد ، وبدأ المفاوضات فيما يؤدي من المال بدلاً من معاش جوانا والهبة التي اختص بهـا هنري الثاني . أما الملك فيليب الذي زاره رتشرد بعد يومين من وصوله ، فإنه عرض مساعيه الودّية للتوسط بين الجانبين . ولمـا توجّهت الملكة جوانا لتبثه احترامها ، اظهر من الود في استقبالها مـا دعا كل انسان ان يتوقع قريبـاً سماع خبر زواجها . غير ان رتشرد لم يكن معتدل المزاج ، فأول ما اجراه انـه ارسل وحدة من عساكره اجتازت مضيق مسينا واحتلت مدينة باجنارا الواقعة على ساحل كلابريا ، وأنزل اخته بها . ثم هاجم جزيرة صغيرة تجاه مسينا مباشرة ، وكان بها دير لليونانيين ، فأمر باستخدام العنف والأساليب الوحشية في طرد الرهبان من الدير ، كيما يحل مكانهم عساكره . وما لقيه هؤلاء الرهبان من معاملة قاسية روّعت سكان مسينا الذين كانوا في غالبيتهم يونانيين ؛ بينما اشتد سخط المواطنين الذين يزيدون عنهم غنى وجاهاً ، لما كان للعساكر الانجليزية من سلوك نحو زوجاتهم وبناتهم .

رتشرد يستولي على مسينا سنة ١١٩٠ :

ما وقع في ٣ اكتوبر سنة ١١٩٠ من شجار في ضاحية للمدينة بين

جماعة من العساكر الانجليزية ، وطائفة من السكان ، أدى الى وقوع شغب . وانتشرت في المدينة شائعة ان رتشرد نوى ان يفتح كل جزيرة صقلية ، فتقرر اغلاق ابواب المدينة في وجوه رجاله . وباءت بالفشل المحاولة التي قامت بها سفنه لاقتحام الميناء . فبادر الملك فيليب بدعوة رئيس اساقفة مسينا ، ومرجريتوس امـــير البحر الصقلي وجماعة من الاعيان الصقليين بالمدينة ، بالقدوم الى قصره ، وتوجه بهم في اليوم التالي لتهدئة رتشرد في مقره خارج اسوار المدينة . وتراءى كأن تدبيراً جرى إعداده ، إذ سمع رتشرد بعض المواطنين الذين اجتمعوا على تل خارج النوافذ يقرنون اسمه بالشتائم . فاستشاط غضباً وغادر الاجتماع ، وأمر عساكره بأن يقوموا بالهجوم مرة اخرى . وفي هذه المرة دهمت المفاجأة اهل المدينة ، فلم تنقض بضع ساعات ، حتى استولى الانجليز على مسينا ، ونهبوا كل احيائها باستثناء الشوارع القريبة من القصر الذي حلّ به الملك فيليب . ولم يكن لدى مرجريتوس امير البحر وسائر الاعيان إلا قليل من الوقت ليفلتوا بزوجاتهم ، فاستولى رتشرد على دورهم ، واحارق الاسطول الصقلي الراسي بالميناء . ورفرف لواء اسرة البلانتاجنيت ، بعد الظهر ، على المدينة .

على ان شراسة رتشرد لم تلته عند هذا الحد ، فعلى الرغم من انـه وافق على ان يرتفع لواء فيليب الى جانب لوائه ، فإنه اجبر سكان المدينة على ان يقدموا له من الرهائن ما يكفل له السلوك الطيب من قبل ملكهم ، وأعلن انه مستعد لأن يستولي على كل الاقليم . وفي تلك الاثناء شيّد قلعة ضخمة من الخشب ، خارج المدينة ، اطلق عليها من قبيل الزراية والاحتقار اسم Mategrifon (أي لحام اليونانيين) .

اشتدّ قلق فيليب لهذا المثال من طبع منافسه ، رتشرد . فأرسل ابن

عمـه ، دوق برجنديا ليلتمس الملك تانكرد في كاتانيا ، ويحذره من نوايا رتشرد ، ويعرض عليه المساعدة اذا ازدادت الاحوال سوءاً . اضحى تانكرد في مركز حرج ، إذ علـم ان هنري السادس هوهنشتاوفن يوشك ان يغير على بلاده ، وأدرك ان اتباعه ليسوا موضع ثقة . غير ان بعد تقدير سريع للموقف ، قرر ان يؤثر رتشرد على فيليب في ان يكون حليفاً له . وليس من الراجح ان يقدم فيليب عندئذ على مهاجمته ، غـير ان ملوك فرنسا كانت تربطهم بالهوهنشتاوفن علاقات ودية ، ولم تكن صداقة فيليب المقبلة مؤكدة ، على حين ان رتشرد يعتبر اشدّ من يهدّد تانكرد في الوقت الراهن من اخطار ، على انه كان معروفاً بكراهيته للهوهنشتاوفن ، اعداء بني عمومته الولفيين . رفض تانكرد ما عرضه الفرنسيون من مساعدة ، ودخل في مفاوضات مع الانجليز ، فعرض على رتشرد ان يؤدي له عشرين ألف اوقية من الذهب بدلاً من الهبة المستحقة لهنري الثاني ، وأن يبذل هذا المبلغ ايضاً الى جوانا ، عوضاً عن معاشها .

على ان غضب رتشرد يتلاشى عادة عند رؤية بريق الذهب . إذ قبل رتشرد العرض باسمه وبالنيابة عن اخته ، ثم وافق بعد ذلك على ان يخطب لولي عهده الشاب ، ارثر دوق بريتاني ، إحدى بنات تانكرد . ولما كشف تانكرد ايضاً عن الاقتراحات التي عرضها عليه الملك فيليب ، قبل رتشرد عن طيب خاطر ان ترد الشروط التي سبق الاتفاق عليها في معاهدة ، وتقرّر ان يطلب من البابا ان يكون لها ضامناً ، فعاد السلام . وبناء على نصيحة رئيس اساقفة روان ، ردّ رتشرد على كره منه الى مرجريتوس ، امير البحر الصقلي وسائر اعيان مسينا ، كل ما صادره من أمتعتهم .

المفاوضات في صقلية حول الحملة الصليبية سنة ١١٩٠ :

وعلى الرغم من الهزيمة التي استطاع رتشرد بذكائه ودهائه أن يلحقها بالملك فيليب، فإن فيليب لم يظهر اعتراضه علناً . ففي ٤ اكتوبر سنة ١١٩١، حينما تمّ إعـداد المعاهدة ، اجتمع فيليب برتشرد مرة اخرى ، وتناقشا في الخطة المقبلة لسير الحملة . فتقرّر وضع قواعد عن ضبط اثمـان المؤن ، والتزام الرجال بخدمة سادتهم وتخصيص نصف اموال الفارس لسد حاجات المحاربين الصليبيين ، وتحريم لعب القمار ، إلا على الفرسان ورجال الدين ، فإذا اسرفوا وجب انزال العقوبة بهم . ولا بدّ من احترام الديون التي انعقدت من اجل الحج . وأقرّ رجال الدين اللوائح ، ووعدوا بقطع المخالفين لها من الكنيسة .

كان من اليسير على الملكين ، فيليب ورتشرد ، أن يوافقا على هذه الامور ، غير أنه لا زال من الامور السياسية ما لم يجر تسويتها نهائياً . وتمّ الاتفاق بعد مناقشات على ان يقتسم الملكان بالتساوي الفتوح المقبلة . على أنه ظهرت مشكلة بالغة الدقة تخص أليس أخت الملك فيليب . إذ ان هذه الاميرة المنكودة الحظ سبق إرسالها وهي طفلة منذ سنوات الى البلاط الانجليزي كيما تتزوج رتشرد او احد أبناء هنري الثاني ، فاستبقاها هنري الثاني بالبلاط على الرغم من امتناع رتشرد عن الموافقة على الاقتران بها . ولم تلبث الشائعات البغيضة ان ترددت بأن هنري كان على علاقة سيئة بالاميرة نفسها . ولما لم تكن ميول رتشرد تتجه الى الزواج ، رفض تنفيذ ما سبق ان وضعه ابوه من تدبير ، على الرغم من إلحاح فيليب في الطلب . كما ان والدة رتشرد ، الملكة اليانور التي تحررت من كل قيد بعـد وفـاة هنري الثاني ، لم تشأ ان ترى ابنها المحبوب مرتبطاً بأميرة من أسرة تكرهها وتبغضها ، فضلاً عن انها فيما تعتقد ليست إلا عشيقة لزوجها . وإذ رسخ

في قلبها مصالح أسرتها في جيبين ، عزمت على ان تزوج رتشرد من أميرة من نافار ، وقبل رتشرد من وقع عليه اختيارها . ولذا لما عرض فيليب من جديد موضوع زواج أليس ، رفض رتشرد النظر فيه ، وجعل سبب الرفض ما كان لأليس من سمعة سيئة . على ان فيليب لم يحفل بسعادة أسرته ، فلم يتدخل مطلقاً لمساعدة أخته البائسة اجنيس ، أرملة الكسيوس الثـاني امبراطور بيزنطة . ولكن الاهانة كانت من الشدة ما لم يستطع تحملها . وما كان من علاقات بين فيليب ورتشرد ازدادت فتوراً ، وتجهز فيليب لمغادرة مسينا على الفور الى الشرق . غير ان عاصفة عاتية هبّت بعـد يوم من إقلاعه ، فردّته الى صقلية . وإذ حدث ذلك في منتصف اكتوبر ، رأى فيليب انه من الحكمة ان يمضي الشتاء في مسينا ، وكان ذلك ، فيما يبدو ما نواه أيضاً رتشرد . فلم يتم إبرام المعاهدة مع تانكرد إلا في ١١ نوفمبر . وفي الوقت نفسه أرسل رتشرد الى امه يطلب منها ان تصحب خطيبته برنجاريا نافار للحاق به في صقلية .

وانقضى الشتاء في صقلية في هدوء شامل ، فأقام رتشرد يوم عيد الميلاد مأدبة فاخرة في قلعته ماتيجريفون ، دعا اليها ملك فرنسا وأعيان صقلية . ثم حدث بعد بضعة ايام ، ان تمّ لقـاء شيّق بين رتشرد ، ويواقيم رئيس دير كورازو ومؤسس طائفة الرهبان الفيوريين . فشرح له القديس المبجل معنى الرؤيا (رؤية القديس يوحنا) إذ أشار الى ان الرؤوس السبعة للوحش ليست سوى هيرود ، ونيرون ، وقنسطنطيوس ، ومحمد ، وميلسموت (الذي يقصد به فيما يبدو عبد المؤمن ، مؤسس مذهب الموحدين) ، وصلاح الدين ، ثم أخيراً المسيخ الدجّال ، الذي صرح يواقيم انه جرت فعلاً ولادته في روما منذ خمس عشرة سنة ، وسوف يجلس على الكرسي

البابوي . فبادر رتشرد الى الرد ، بأن المسيح الدجال ليس في هذه الحالة ، فيما يبدو ، سوى البابا كليمنت الثالث نفسه ، الذي يكنّ له كراهية شخصية ، غير ان هذه الاجابة لم تلقَ قبولاً حسناً ، ولم يوافقه القديس يواقيم على ان المسيح الدجال سوف يولد في قبيلة دان في بابل او انطاكية ، وأنه سوف يحكم في بيت المقدس . غير ان ما ارتاح له رتشرد ، أنه علِم من يواقيم أنه (رتشرد) سوف يحرز الانتصار في فلسطين ، وأن صلاح الدين سيلقى مصرعه . وفي فبراير نظّم رتشرد مباريات للمطاعنة على الخيول ، حدث أثناءها شجار بينه وبين فارس فرنسي ، اسمه وليم بارز ، فبادر فيليب بالتوفيق بينهما ، والواقع ان رتشرد كان مستقيماً في سلوكه مع فيليب ، بل انه لم تمض إلا بضعة أيام حتى منحه عدة سفن ، وصلت منذ زمن قريب من انجلترا . وحوالي ذلك الوقت سمع رتشرد ان الملكة اليانور وبرنجاريا وصلتا الى نابولي ، فأنفذ اليهما من يستقبلها ويرافقهما الى برنديزي ، نظراً لأن رفاقهما كانوا من كثرة العدد ، أن موارد مسينا لا تكفي لمؤونتهم ، ولا سيما أنه وصل الى مسينا وقتذاك كونت فلاندر في عدد كبير من الأتباع .

ولما اقترب فصل الربيع ، تأهب الملكان لاستئناف رحلتهما . فتوجه رتشرد الى كاتانيا ليقوم بزيارة تانكرد ، ليشهد الله على ما بينهما من صداقة دائمة . فجزع فيليب لهذا التحالف ، فلحق بهما في تاورمينا . أضحى فيليب مستعداً ليرأب كل ما وقع من اختلاف مع رتشرد ، وأعلن صراحة ان لرتشرد الحرية في ان يتزوج من يقع الاختيار عليها . فأقلع فيليب مع رجاله من مسينا في ٣٠ مارس ، في جو حافل بالنية الطيبة . ولم يكد فيليب يغادر الميناء ، حتى وصل اليها الملكة اليانور والاميرة برنجاريا . لم

تمكث اليانور مع ابنها سوى ثلاثـة ايام ، ثم ارتحلت الى انجلترا ، عن طريق روما ، كيما تنجز لابنها بعض الامور في المحكمة البابوية ، بينما ظلت برنجاريا مع الملكة جوانا لتأخذ عنها آداب السلوك في المجتمع [1] .

غادر رتشرة مسينا آخر الامر ، في ١٠ اكتوبر ، بعـــد ان دمّر استحكامات برج ماتيجريفون ، وأعرب تانكرد ، لسبب معقول ، عن أسفه لرحيل رتشرد ، ففي نفس اليوم الذى أبحر فيه مات في روما البـــابا كليمنت الثالث ، ثم جرت بعـد اربعة ايام رسامة كاردينال سانتا ماريا في كوزميدين بابا باسم سلستين الثالث . وكان هنري هوهنشتاوفن وقتذاك في روما ، وكان اول ما قام به البابا الجديد من أعمال أنه تولى ، تحت ما تعرّض له من ضغط ، تتويج هنري وكونستانس الصقلية امبراطوراً وامبراطورة .

---

(١) ما قام به رتشرد من اعمال في صقلية ورد بالتفصيل في :

Itinerarium, pp. 154 - 177.
Ambroise, cols. 14 - 32.

وهذان المصدران يكتبان عادة لصالح رتشرد .

Benedict of Petersborough, II, pp. 126 - 160.

(اورد اوفى رواية عن رتشرد ، ويفضل المصدرين السابقين في الاهتمام بالناحية الموضوعية).

Rigord, pp. 106 - 109.

(اشار ريجور الى حرص فيليب على المضي بالحملة الصليبية، والى ان رتشرد هو الذي اثار المتاعب).

Chalandon, op. cit. II. pp. 435 - 442.

وما اورده بنيدكت بيتربره عن اللقاء بين رتشرد ويواقيم الفيوري، اعتمد فيه على ما استمده من احد الحاضرين من اخبار . انظر :

Benedict of Petersborough, II, pp. 151 - 155.

لم يصادف الاسطول الفرنسي عقبات أثناء رحلته الى صور ، حيث لقي فيليب استقبالاً حافلاً من ابن عمه كنراد مونتفيرات . ثم وصل مع كنراد الى عكا في ٢٠ أبريل . وتقرّر على الفور تشديد الحصار على حصن عكا الاسلامي . واجتذبت اعمال الحصار ما اتصف به مزاج فيليب من الصبر والبراعة ، فأعاد تنظيم ما لدى المحاصرين من آلات ، وشيّد لهم الأبراج . على أنه تأجلت المحاولة لمهاجمة الأسوار حتى يصل رتشرد ورجاله [١] .

وصول الاسطول الانجليزي الى جزيرة قبرص سنة ١١٩١ :

لم تخل رحلة رتشرد من متاعب ، فلم تلبث الرياح العاتية ان بعثرت سفن الاسطول . إذ لجأ الملك نفسه للاحتماء بميناء في جزيرة كريت لمدة يوم ، ومن هذا المرفأ توجه في غمرة العواصف الى جزيرة رودس ، حيث مكث عشرة ايام ، ابتداء من ٢٢ ابريل الى اول مايو ، ليستردّ عافيته من دوّار البحر . وفي تلك الأثناء ضاعت احدى سفنه ، نتيجة هبوب عاصفة ، بينما انساقت الى قبرص ثلاث سفن اخرى ، تقلّ إحداها جوانا وبرنجاريا . فتحطمت سفينتان منها على شاطىء قبرص الجنوبي ، أما الملكة جوانا فاستطاعت ان تبلغ مرسى للسفن تجاه ليماسول .

ظلت جزيرة قبرص خمس سنوات تخضع لحكم اسحاق دوكاس كومنينوس الذي اتخذ لنفسه لقب امبراطور ، والذي سبق ان قاد ثورة موفقة على

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 155 - 156.
Rigord, p. 168.
Abu Shama, II, p. 6.

بيزنطة حين تولى العرش اسحاق انجيلوس ، وحافظ على استقلاله بما عقده من محالفات عاجلة ، تارة مع الصقليين ، وتارة مع الارمن بقليقيه ، وتارة مع صلاح الدين . واشتهر إسحاق بالشراسة والقسوة ، يكره اللاتين ، ولم يكن محبوباً في الجزيرة نظراً لتجاوزه الحد في فرض الضرائب . ولا زال عدد كبير من رعاياه يعتبرونه متمرّداً ومغامراً . على ان ظهور اساطيل ضخمة للفرنج في مياه جزيرة قبرص اثار قلقه ، كما انـــه لم يكن حكيماً حين واجه المشكلة . إذ انه ألقي القبض على رجال رتشرد الذين شقوا طريقهم الى الساحل بعد غرق مراكبهم ، وصادر كل ما جرى انقاذه من حمولة السفن . ثم انفذ رسولاً الى سفينة الملكة جوانا ، يدعوها مع برنجاريا للنزول الى البر . وإذ تعلمت من التجربة مــا لها من قيمة باعتبارها رهينة بالغة الشأن ، اجابت انها ليس بوسعها ان تغادر السفينة إلا بإذن اخيها . وكان اسحاق فظاً غليظاً حين رفض طلب جوانا الإذن لها بأن ترسل في طلب المــاء العذب من الشاطىء . الواقع ان اسحاق قدم الى ليماسول وشيّد استحكامات على امتداد الشاطىء لمنع الهبوط الى البر .

وفي ٨ مايو ، سنة ١١٩١ ، أي بعد ان مضى اسبوع على وصول جوانا الى ليماسول ، لاح للنظر رتشرد بإسطوله الاساسي . والواضح ان الاسطول عانى رحلة خطيرة من رودس . وكادت سفينة رتشرد نفسه تتحطم في خليج اضاليا . كما ان دوار البحر افسد مزاج رتشرد ، ولما سمع بما تعرّضت له اخته وخطيبته من معاملة سيئة ، اقسم بأنه سوف ينتقم لهما . وشرع رتشرد على الفور في انزال رجاله قرب ليماسول ، ثم زحف على المدينة ، فلم يبد اسحاق شيئاً من المقاومة ، بل تقهقر الى قرية كيلاني الواقعة على منحدرات ترودوس . ولم يلق رتشرد الترحيب فحسب من التجار اللاتين

النازلين بلياسول ، بل ان ما يكنه اليونانيون من كراهية لإسحاق حملهم على ان يظهروا الود نحو الغزاة ، فلم يسع اسحاق إلا ان يعلن استعداده للمفاوضة . وإذ حصل على امان من رتشرد ، هبط الى كولوسي ، ثم توجّه الى معسكر رتشرد ، حيث وافق على ان يؤدي تعويضاً عـن السلع التي سرقها ، وأن يسمح للعساكر الانجليزية ان يشتروا المؤن معفاة من المكوس الديوانية (الجمركية) ، وأن يرسل قوة رمزية مؤلفة من مائة رجل لتشارك في الحرب الصليبية ، غير انه رفض ان يغادر الجزيرة . وعرض ان يبعث الى رتشرد ابنته لتيخذها رهينة عنده .

اقتنع اسحاق بعد زيارته لمعسكر رتشرد ان رتشرد لم يكن كما تصور رجلاً مخيفاً مثيراً للرعب ، ولذا لم يكد يعود الى كولوسي حـتى نقض الاتفاق ، وأمر رتشرد بأن يغادر بلاده . والواقع انه ارتكب غلطة فاحشة . إذ ان رتشرد سبق ان ارسل سفينة الى عكا تعلن انه وشيك الوصول الى جزيرة قبرص ، وفي يوم ١١ مايو ، أي في نفس اليوم الذي توجّه فيه اسحاق لزيارة رتشرد ، ثم عاد الى كولوسي ، رست في لياسول سفن تقل كبار الصليبيين المعارضين لكنراد ، ومن هؤلاء كان الملك جاي وأخوه جفري كونت لوزجنان ، الذي يعتبر من اشهر اتباع رتشرد في فرنسا ، ومنهم ايضاً بوهمند امير انطاكية وابنه ريموند والأمير ليو الروبيني الارمني ، الذي خلف اخاه روبين على العرش منذ زمن قريب ، كما كان من بينهم همفري سيد تبنين ، زوج ايزابيللا التي طلقته ، يضاف الى هؤلاء عدد كبير من اعلام الداوية . وإذ اتخذ فيليب جانب كنراد ، قدم هؤلاء الصليبيون ليظفروا لحزبهم بتأييد رتشرد . وما حدث من ازدياد قوة رتشرد ، جعله يعزم على المضي لفتح الجزيرة بأجمعها . ولا شك ان هؤلاء القادمين اوقفوه

على ما للجزيرة من أهمية حربية في الدفاع عن الساحل السوري ، وما سوف ينجم من الخطر ، لو اجرى اسحاق تحالفاً وثيقاً مع صلاح الدين وكانت هذه فرصة بلغت من القيمة ما لا ينبغي ان تفلت .

رتشرد يفتتح جزيرة قبرص سنة ١١٩١ :

في ١٢ مايو ، تزوج رتشرد من برنجاريا في احتفال كبير بكنيسة القديس جورج في ليماسول ، وقام اسقف ايفرو بتتويج ملكة انجلترا . ووصل في اليوم التالي ما تبقى من سفن الاسطول الانجليزي . ولما أدرك اسحاق ما يحيق به من خطر ، لم يسعه إلا المسير الى فاماجستا ، غير ان الانجليز اقتفوا أثره اليها ، فسلك جانب من الجيش طريق البر ، بينما توجهت بقية الجيش بطريق البحر . ولم يحاول الامبراطور اسحاق الدفاع عن فاماجستا ، بل لجأ الى نيقوسيا . وبينما كان رتشرد يخلد الى الراحة في فاماجستا ، قدمت اليه الرسل قبل الملك فيليب ، والسادة الصليبيين بفلسطين ، فألحت عليه بالتعجيل بالرحيل الى فلسطين ، غير انه أجاب في غضب بأنه لن يتحرك حتى يستولي على جزيرة قبرص ، التي أكد أهميتها لهم جميعاً . وجرى الاعتقاد ان باجان كونت يافا ، أحد رسل فيليب الى رتشرد ، توجه الى اسحاق لينذره بما ينويه رتشرد ، فأرسل زوجته ، وهي اميرة ارمنية وابنته الى كرينيا ، ثم هبط الى فاماجستا . والتقت به عساكر رتشرد عند قرية تريميثوس ، وأنزلت به الهزيمة بعد مناوشة حادّة ، استخدم فيها ، فيما يقال سهاماً مسمومة . فهرب اسحاق من ساحة المعركة الى القنطرة ، بينما دخل رتشرد نيقوسيا دون ان يصادف مقاومة ، ولم يحفل سكان قبرص بمصير اسحاق ، بل انهم استعدوا لبذل المساعدة للغزاة .

وخرّ رتشرد مريضاً في نيقوسيا ، وكان اسحاق يأمل في ان تصمد قلاعه الاربعة الكبيرة الواقعـة بشمال الجزيرة ، في القنطرة وبوفافنتو ، وسانت هيلاريون ، وكرينيا ، حتى يسأ مرتشرد القتال ، ويقلع من الجزيرة . غير ان الملك جاي الذي تولى قيـادة جيش رتشرد زحف على كرينيا واستولى عليها ، ووقعت الامبراطورة وطفلها في أسره ، ثم شرع في فرض الحصار على سانت هيلاريون وبوفافنتو . وإذ فقد اسحاق أسرته ، وتعرّض للاستخفاف والعداوة من قبل رعاياه ، لم يلبث ان فقد أعصابه وأعلن استسلامه بدون قيد ولا شرط ، فمثُل أمام رتشرد ، مكبلاً بسلاسل من الفضة . ولم ينقض شهر مايو حتى أضحت كل الجزيرة في يدى رتشرد .

وحاز رتشرد غنائم وفيرة ، إذ ان اسحاق كدّس ثروة ضخمة ، بمـا لجأ اليه من ابتزاز الاموال ، كما ان عدداً كبيراً من أعيان الجزيرة حرصوا على التماس النية الطيبة لسيدهم الجديد (رتشرد) ، بمـا بذلوه من منح وفيرة ، فلم يلبث رتشرد ان أعلن ان المال هو هدفه الاصلي . وتقرر ان تجبي الحكومة من كل يوناني خمسين في المائة من دخله ، غير ان رتشرد أقرّ مقابل ذلك الإبقاء على ما كان قائماً بالجزيرة منذ زمن مانويل كومنينوس من القوانين والنظم . واستقرّت الحاميات اللاتينية في جميع القلاع بالجزيرة ، وتقرر تعيين انجليزيين ، همـا رتشرد كامفيل وروبرت ترنهام حاكمين على الجزيرة ، وعهد اليهما رتشرد بادارتها حتى يتقرر مصيرها النهائي . ولم يلبث اليونانيون ان أدركوا ان ما أظهروه من الفرح والسرور بسقوط اسحاق لم يستند الى أساس سليم . فلم يعد لهم نصيب في حكومتهم ، وصدرت

اليهم الاوامر بحلق لحاهم ، للدلالة على خضوعهم وولائهم الجديد [1] .

---

(١) ورد بالتفصيل وصف فتح رتشرد لجزيرة قبرص في :

Itinerarium, pp. 177 - 204.
Ambroise, cols, 35 - 57.
Benedict of Petersborough, II, pp. 162 - 168.
William of Newbury, II, pp. 59 ff.
Richard of Devizes, pp. 423 - 426.

كل هذه المصادر تعرض وجهة النظر الانجليزية . اما رسائل رتشرد الموجزة ، فوردت في :

Epistola Cantuarienses, p. 347.
Ernoul, pp. 207 - 223.
Estoire d'Eracles, II, pp. 159 - 170.

مع ما يقابلها من الروايات الواردة في :

Mas Latine, Dacuments, II, pp. 1 ff, III, pp. 591 ff.

ويعرض ارنول وتاريخ هرقل وجهة نظر الفرنج في الشرق الادنى ، التي كانت في صالح رتشرد . اما ديجور ووليم بريتوني فبررا موقف رتشرد، نظراً لأن القبارصة رفضوا بذل المساعدة للصليبيين . انظر :

Rigord, pp. 109 - 110.
William the Breton, pp. 104 - 105.

وأما المؤرخ اليوناني ، نيو فيتوس ، المعروف بعدائه لاسحاق وكراهيته لفتح قبرص على يد رتشرد ، فان روايته وردت كاملة في المقدمة التي كتبها ستبز عند نشر رحلة رتشرد .

Itinerarium, CLXXXV - CLXXXIX (De Calamitatibus Cypri).

على ان اشارات موجزة عن فتح قبرص اوردها

Choniates (p. 547).
Abu Shama, II, p. 8.
Beha ed - Din, P.P.T.S, p. 242.
Ibn al - Athir, II, pp. 42 - 43.

يشير ابن الاثير الى ان رتشرد استولى على قبرص بالخيانة والغدر. ويذكر ابو شامة وابن شداد ان بعض المسيحيين المرتدين من اللاذقية اغاروا على جزيرة قبرص قبل بضعة شهور من قدوم رتشرد . انظر :

Hill, History of Cyprus, I, pp. 314 - 321.

اعتبر رتشرد فتح قبرص بالغ القيمة ، لما جلبه له من ثروة لم يتوقعها . ومما حققته حملة رتشرد الصليبية من اعمال ، يعتبر فتح قبرص اكثرها دواماً وبعداً للنظر . إذ ان تملك الفرنج لجزيرة قبرص اطال عمر بلادهم على ساحل سوريا ، كما ان مؤسساتهم في الجزيرة ظلت قائمة مائتي سنة بعد زوال ما كان لهم من مؤسسات في سوريا . غير أنه كان نذير شر لليونانيين . فإذا استطاع الصليبيون ان يضيفوا الى املاكهم اقليماً ارثوذكسياً ، مثل قبرص ، أليس ذلك مغرياً للمبادرة الى شن حرب مقدسة طويلة الأمد على بيزنطة ؟

رتشرد يصل الى المعسكر الصليبي سنة ١١٩١ :

اقلع الاسطول الانجليزي من فاماجستا في ٥ يونيه سنة ١١٩١ قاصداً الساحل السوري ، وكان على ظهر الاسطول الامبراطور اسحاق اسيراً ، في حراسة الملك جاي ، أما ابنته الصغيرة فلحقت ببلاط الملكة جوانا لتتعلم أسلوب الحياة في الغرب . وكانت قلعة المرقب اول ما وقع عليه نظر رتشرد على ساحل سوريا ، وإذ اضحت اليابسة بالغة القرب ، اتجه جنوباً ، مجتازاً انطرطوس وجبيل وبيروت ، ثم هبط الى البر قرب صور في مساء يوم ٦ يونيه سنة ١١٩١ . إذ ان حامية المدينة بناء على اوامر فيليب وكنراد ، رفضت السماح له بالدخول الى المدينة (صور) ، فواصل سفره بحراً الى عكا ، وشهد اثناء سيره منظراً اثار فرحه ، إذ ان سفن اسطوله كانت تُغرق سفينة اسلامية كبيرة ، ووصل رتشرد الى المعسكر

الصليبي في عكا ، يوم ٨ يونيه سنة ١١٩١ [١] .

ومـا حدث من وصول رتشرد في خمس وعشرين سفينة بعث الثقة والأمل في نفوس الجند الذين يحاصرون عكا ، وقـد اشتد بهم التعب والإرهاق ، فاشتعلت الصواريخ للاحتفال بقدومه ، وضربت النقارات في داخل المعسكر . والمعروف ان ملك فرنسا شيّد ادوات حصار كثيرة بالغة النفع ، ومنها المقلاع الضخم الذي يقذف الحجارة ، والذي اطلق عليه جنوده ، الجـار السيء ، كما اعدّ سلماً لتسلق الأسوار ، اشتهر باسم الهر . وكان لكل من دوق برجنديا والطائفتين الاسبتارية والداوية ، مقلاع خاص ، كما ان مقلاعاً تكفّل بإنشائه ما تحصّل من الإعانات العامة ، وكان معروفاً باسم « مقلاع الله » [٢] . كل هذه المقاليع قذفت الاسوار بالحجارة ، وأحرزت شيئاً من النجاح ، غير ان الحاجة كانت ماسة الى قائد يحث المحاصرين على ان يبذلوا قصارى جهدهم . لم يكن ملك فرنسا لائقاً للقيادة نظراً لشدّة حرصه وحذره ، ولم يصلح سائر الأمراء المحليين او الصليبيين للقيام بهذا

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 204 - 211.
Ambroise, cols, 57 - 82.
Benedict of Beterasborough, II, pp. 168 - 169.
Ernoul, p. 273.
Estoire d'Eracles, pp. 169 - 170.
يشير ارنول وتاريخ هرقل الى ما بذله فيليب من ترحيب كبير برتشرد . بينما يروي ابو شامة وابن شداد ما حدث من الاستيلاء على بعض ما نقله رتشرد معه من اشياء . انظر :
Abu Shama, II, pp. 42 - 43.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 242 - 243, 248.

(٢) انظر : Itinerarium, p. 218.
Haymar Monachus, pp. 44 - 46.

الدور لما حلّ بهم من الإرهاق ، او لافتقار الثقة فيهم ، أما رتشرد فإنه وهب الحملة قوة جديدة . فلم يكد يهبط الى الارض ، حتى انفذ الى معسكر صلاح الدين رسولاً ، وجعل بصحبته ترجماناً صادقاً ، كان اسيراً مغربياً يثق فيه ، يدعو الى الالتقاء بصلاح الدين . وكان رتشرد حريصاً على ان يجتمع بهـذا الزعيم الاسلامي المشهور ، وكان يأمل التوصل الى تسوية سلمية لو تحدّث الى عدوّه المعروف بالفروسية . غير ان صلاح الدين أجاب في حذر أنه ليس من الحكمة ان يلتقي ملكان متعاديان ، حتى تنعقد بينهما هدنة . ومع ذلك فانه أعلن استعداده لأن يسمح لأخيه سيف الدين العادل ان يجتمع برتشرد ، فتقرر وقف القتال لمدة ثلاثة ايام ، وتمّ الاتفاق على ان يجري الاجتماع في السهل الواقع بين المعسكرين الاسلامي والمسيحي ، غير انه حدث ان خرّ ملكا انجلترا وفرنسا مريضين فجأة ، كان هـذا المرض معروفاً عند الفرنج باسم Arnaldia ، وهو حمى تؤدي الى تساقط شعر المريض وأظافره . لم يكن المرض شديد الوطأة على فيليب ، بينما اشتدت العلة برتشرد بضعة ايام . ومع ذلك فانه أدار العمليات الحربية من فراش المرض ، فصار يصدر التعليمات بتحديد المواضع التي تنصب فيها ما جلبه معه من المقاليع الضخمة ، وأمر بتشييد برج كبير من الخشب مثل برج ماتيجريفون الذي أنشأه في مسينا . ولم يكد يتماثل للشفاء حتى أصرّ على تفقّد خطوط عساكره [١] .

---

(١) انظر :

Itinerarium, pp. 213 - 225.
Ambroise, col. 123.
Benedict of Petersborough, II, p. 170.

اشار امبرواز الى مرض ارنالديا باسم آخر هو ليونارد ، ولعـله نوع من الاسقربوط ، او مرض في الفم ، انظر :

La Monte and Hubert's translation of Ambroise, p. 196, n. 2.

تلقى صلاح الدين ايضاً أمداداً جديدة في نهاية شهر يونيه سنة ١١٩١ ، فقدم اليه جيش سنجار في ٢٥ يونيه ، ثم تلاه وصول جيش آخر من مصر ، وعساكر امير الموصل . أما أميرا شيزر وحماه فقدما بعساكرهما في أوائل شهر يوليه . على ان صلاح الدين لم يستطع طرد الصليبيين من معسكرهم برغم ازدياد قوته . أفاد الصليبيون من ركود القتال في الشتاء ، بعد ان أحال المطر الارض وحلاً ، فأحاطوا أنفسهم باستحكامات من الطين ، وأسوار تحميها الخنادق التي أضحى من السهل الدفاع عنها . وظل ترتيب المعركة طوال شهر يونيه وأوائل شهر يوليه على ما كان عليه ، إذ واصلت مقاليع الفرنج قصف أسوار عكا بالحجارة ، حتى اذا أحدثت ثغرة صغيرة واندفع الفرنج لينفذوا منها ، أبلغت حامية عكا عن طريق الاشارات ، صلاح الدين ، فيبادر الى شن هجوم على المعسكر الصليبي ، وبذا يبتعد المعتدون عن الأسوار ، ووقعت بعض المعارك البحرية من حين الى آخر . إذ ان قدوم الأسطولين الانجليزي والفرنسي أدى الى انتزاعهما السيطرة على البحر من أيدي المسلمين . وقلّ أن استطاعت السفن الاسلامية وقتذاك ان تنفذ الى الميناء بما تحمله من المؤن . فأخذت الأقوات والذخائر الحربية تنفذ في المدينة المحاصرة (عكا) ، وتردد الحديث داخل المدينة حول استسلامها[1] .

المنازعات في المعسكر الصليبي سنة ١١٩١ :

ظلت الامراض والمشاجرات سائدة في داخل المعسكر المسيحي . إذ

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 224 - 227.

مات البطريرك هرقل ، وجرت مؤامرات حول انتخاب البطريرك الجديد [1] . كما ان النزاع على تاج بيت المقدس ظل مستمراً . إذ تبنى رتشرد قضية الملك جاي لوزجنان ، بينما بادر فيليب الى مساندة كنراد مونتفيرات . وانحاز البيازنة الى حزب رتشرد ، فلما وصل الاسطول الجنوي الى عكا ، عرض خدماته على فيليب . ولما رتّب فيليب شن هجوم عنيف على المدينة ، حوالي نهاية يونيه سنة ١١٩١ ، رفض رتشرد السماح لرجاله بالتعاون في هذا الهجوم ، ولعل السر في ذلك أن رتشرد لم يستكمل استرداد عافيته حتى يستطيع ان يشارك بنفسه في القتال ، وخشي تبعاً لذلك ان يفقد ما يجلبه النصر من غنائم . على أن هجوم فيليب لم يصادف نجاحاً ، نظراً لتغيب أتباعه وأصدقائه ، بينما لقي الفرنج عناء في ردّ هجوم صلاح الدين [2] . وتعقّدت العلاقات بين رتشرد وفيليب بما حدث في اول يونيه من وفاة فيليب كونت فلاندر ، المحارب الصليبي الذي اشتهر بعناده عند قدومه سنة ١١٧٧ ، ولم يكن له ورثة مباشرون ، ومع ان للملك فرنسا بعض الحق في الارث ، فإن ملك انجلترا لم يشأ ان يقع في يدي منافسه اقليم فلاندر لما اشتهر به من الغنى ، فضلاً عن موقعه الاستراتيجي . ولما طلب فيليب اقتسام جزيرة قبرص وفقاً للشروط التي تمّ الاتفاق عليها في مسينا ،

---

(١) انظر : Mas Latrie's preface to Haymar Monachus p. XXXVI.

(٢) انظر : Ambroise, col. 123.
Rigord, pp. 108 - 109.
Haymar Monachus, p. 35.

ردّ رتشرد بأن طلب ان يقتسم معه فلاندر . ولم يواصل كل من الجانبين دعواه ، غير ان كلا منهما وخزه الألم وبرحه [1] الحزن .

وبعد ان فشل تقي الدين ابن اخي صلاح الدين في محاولة شق طريقه الى داخل عكا ، استطاع الفرنسيون في ٣ يوليه سنة ١١٩١ ان يحدثوا في السور ثغرة كبيرة ، غير انهم اجبروا على الارتداد . وحدث بعد ثمانية ايام ان اغتنم الانجليز والبيازنة الفرصة التي انصرف فيها سائر المحاربين الصليبيين الى تناول طعام العشاء ، فجربوا حظهم في اقتحام الاسوار ، وأحرزوا اول الأمر قدراً من النجاح كالذي حازه الفرنسيون ، غير ان محاولتهم باءت آخر الأمر بالفشل الذريع . وحدث وقتئذ ان حامية عكا اتخذت فعلاً قراراً بالتخلي عن القتال . فانفذت رسلاً الى معسكر الصليبيين في ٤ يوليه سنة ١١٩١ ، غير ان رتشرد رفض ما عرضوه من مقترحات ، على الرغم من انه جرى في ذلك اليوم ان قام رسل رتشرد بزيارة صلاح الدين ، وطلبوا منه ان يسمح لهم بابتياع فاكهة وثلجاً ، ولوحوا بأنهم مستعدون لأن يتناقشوا في امور الصلح . وصدم صلاح الدين ما سمعه ان رجاله داخل عكا فقدوا الأمل ، فوعد ان يبذل لهم على الفور المساعدة العاجلة ، غير انه لم يستطع ان يثير جيشه لأن يشن على المعسكر المسيحي الهجوم الكبير الذي دبّر القيام به يوم ٥ يوليه . وحدث في ٧ يوليه ان حمل اليه احد العوامين آخر استغاثة من المدينة . فلن تستطيع الحامية بعكا ان تمضي في صمودها ما لم تصل اليها المساعدة . وما دار في

(١) انظر : Rigord, p. 113.
Benedict of Peterborough, II, p. 171.

١١ يوليه من معركة يعتبر آخر ما بذله المحاصَرون من جهد . ففي اليوم التالي عرضوا التسليم . وتقرر قبول شروطهم . إذ ينبغي ان تستسلم عكا بكل ما تشتمل عليه ، وبسفنها ومستودعاتها الحربية ، وينبغي ان يؤدي للفرنج مائتا قطعة من الذهب فضلاً عـن اربعمائة اخرى تبذل لكنراد وحده ، وتقرر اطلاق سراح الف وخمسمائة اسير مسيحي ، مع مائة اسير من ذوي الرتب ، بعد ذكر اسمائهم ، وينبغي ردّ صليب الصلبوت للفرنج فإذا تمّ كل ذلك ، جرى الابقاء على حياة المدافعين .

وغادر احد العوامين ميناء عكا ليخطر صلاح الدين بمـا تمّ الاتفاق عليه ، باعتباره مسؤولاً عن تنفيذ نصوص الاتفاق . فجزع صلاح الدين . وبينما كان يجلس امام خيمته يعد إجابة لمنع الحامية من الخضوع لهـذه الشروط ، شهد ألوية الفرنج ترفرف على ابراج مدينة عكا . لقد فات الوقت ، إذ عقد قادته المعاهدة باسمه ، ولمـا اتصف به من الشرف ، لم يسعه إلا الالتزام بها . ثم امر بنقل معسكره الى شفرعم على الطريق الى صفورية ، بعيداً عن المدينة ، بعد ان ادرك انه ليس بوسعه ان يبذل لهـا العون ، ووطّن نفسه على ان يستقبل السفراء من قبل الفرنج المظفرين [١] .

---

(١) انظر :

Itinerarium, pp. 227 - 233.
Ambroise, cols. 133 - 139.
Benedict of Peterborough, II, pp. 174 - 179.
Rigord, pp. 115 - 116.
Ernoul, p. 274.
Estoire d'Eracles, II, pp. 173 - 174.
Abu Shama, II, pp. 19 - 29.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 258 - 269.
Ibn al - Athir, II, pp. 44 - 46.

الصليبيون يدخلون عكا سنة ١١٩١ :

لم يكد يتمّ قبول شروط التسليم ، حتى خرج المسلمون من عكا ، وتحرك الفرنج كيا يشهدوا ما وقع في حوزتهم من مدينة جديرة بما هو خير من ذلك ، إذ دهشوا لشجاعتها وصلابتها ، فلما غادرها آخر مسلم بها ، تحرّك الى داخلها الفرنج ، وعلى رأسهم كنراد ، وقد رفع حامل العلم لواء كنراد ولواءي الملكين . واتخذ رتشرد له مقراً في القصر الملكي السابق ، قرب السور الشمالي للمدينة ، بينما استقرّ فيليب في دار الداوية السابقة ، الواقعة على البحر قرب طرف شبه الجزيرة . على ان ما وقع من مشاجرات غير لائقة أفسدت تقسيم الأحياء بالمدينة . فطالب دوق استريا ، باعتباره قائداً للجيش الالماني ان يكون له من المكانة ما للملكي فرنسا وانجلترا ، فرفع لواءه الى جانب لواء رتشرد ، فنزعته العساكر الانجليزية وألقوا به في الخندق أسفل المدينة . وكانت هذه إهانة لم يغفرها مطلقاً ليوبولد دوق أستريا ، فلما عاد الى بلاده بعد ايام ، امتلأ قلبه حقداً وكراهية لرتشرد . وطلب التجار والنبلاء الفرنج ان يعود الى حوزتهم ما كان لهم من قبل من أملاك في عكا . وكادوا جميعاً ان يكونوا من أنصار كنراد ، ولذا استغاثوا بالملك فيليب حينما حاول المحاربون الصليبيون الطارئون ان يحلوا مكانهم ، فأصرّ الملك فيليب على احترام مطالبهم [١] .

---

(١) انظر :

Itinerarium, p. 243.
Ernoul, pp. 274 - 275.
Estoire d'Eracles, II, pp. 175 - 176.
Chronica Regia Coloniensis, p. 154.

وأول ما جرى من اعمال ، هو تنطيف كنائس عكا وإعادة تدشينها ، فلما تم ذلك ، بإرشاد المندوب البابوي ، أديلارد أسقف فيرونا ، اجتمع الامراء سوياً لوضع تسوية نهائية لمشكلة الملكية . وتم الاتفاق بعد المناقشة ، على ان يبقى جاي لوزجنان ملكاً طوال حياته ، ثم ينتقل التـــاج الى كنراد وإيزابيللا وسلالتها . وفي نفس الوقت يصير كنراد سيداً لصور وبيروت وصيدا ، وأن يقتسم مع جاي موارد المملكة . وإذ كفل الملك فيليب المستقبل لكنراد ، تحدث عن العودة الى بلاده . إذ ان الملك فيليب عانى منـــذ قدومه الى الارض المقدسة مرضاً كاد يكون مستمراً . أدى واجبه المسيحي بأن ساعد في استرداد عكا ، وسوف يخلف وراءه دوق برجنديا والشطر الاكبر من الجيش الفرنسي . وذهب هباء إلحاح رتشرد في الحصول على تصريح مشترك بأن الملكين سوف يمكثان في الشرق ثلاث سنوات . وكل ما استطاع فيليب ان يعد به هو انه لن يهاجم ممتلكات رتشرد في فرنسا حتى يعود رتشرد الى بلاده ، وهـــذا الوعد لم يلتزم فيليب بالوفاء به كاملاً . ثم غادر فيليب عكا في ٣١ يوليه قاصداً صور ، وفي صحبته كنراد الذي قال انه لم يصحب الملك فيليب إلا ليرافقه في زيارة بلاده بصور ، غير أنه في الواقع لم يشأ ان يخدم في جيش يخضع

= ويشير الابرت الى ان سبب الشجار بين رتشرد وليوبولد دوق استريا ، يرجع الى ان ليوبولد نفر من هجوم رتشرد على اسحاق كومنينوس في قبرص ، نظراً لأن اسحاق كان ابن عم شقيق لوالدة ليوبولد . انظر :

Ansbert, Expeditio Friderici, p. 102.

لسيطرة رتشرد . ثم أقلع الملك فيليب بعد ثلاثة ايام من صور الى برنديزي [1] .

على ان الانجليز اعتبروا رحيل فيليب فراراً يتسم بالجبن والخيانة . غير ان صحته كانت فيما يبدو سيئة فعلاً ، كما انه حدثت في بلاده مشكلة يعتبر هو مسئولاً شخصياً عن التماس حل لها ، ولم تكن هذه المشكلة سوى ما خلّفه كونت فلاندر من إرث . يضاف الى ذلك انه ارتاب في ان رتشرد يتآمر عليه ، وأن حياته باتت في خطر . وذاعت رواية غريبة ، بأنه بينما كان فيليب في فراشه يعاني مرضاً شديداً ، قدم لزيارته رتشرد ، فأخطره كذباً ان ابنه الوحيد ، لويس ، قضى نحبه ، وذلك اما على سبيل المزاح الثقيل ، وإما على سبيل الأمل في ان الصدمة سوف تكون من الشدة ما لا يستطيع تحمّلها . على انه كان بالجيش المسيحي عدداً كبيراً يعطف على فيليب في متاعبه . وعلى الرغم من ان رتشرد حظي بتعلّق رجاله به ، وبإعجاب المسلمين ، فان ملك فرنسا يعتبر عند بارونات

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 238 - 239.
Ambroise, cols. 142 - 143.
Benedict of Peterborough, II, pp. 183 - 185. 192 - 199, 227 - 231.
Estoire d'Eracles, II, pp. 179 - 181.
(يشير هذا المصدر الى ان فيليب كان فعلاً مريضاً) .
Ernoul, pp. 277 - 278.
Rigord, pp. 116 - 117.
William the Breton, pp. 106 - 109.

الشرق الفرنجي الملك الذي يكنون له الاحترام ، ويشعرون بإدراك حاجاته (١) .

وإذ ارتحل فيليب ، تولى رتشرد القيادة العامة للجيش ، وأضحى له مباشرة المفاوضات مع صلاح الدين . والمعروف ان السلطان صلاح الدين وافق على الالتزام بالمعاهدة التي سبق ان عقدها قادته في عكا . وبينما نهض الصليبيون لإعادة بناء أسوار عكا وتدعيمها ، شرع صلاح الدين في جمع الاسرى والأموال المطلوبة منه . ثم قدم لزيارة معسكره في ٢ اغسطس سنة ١١٩١ قادة مسيحيون من قِبَل رتشرد ، يحملون موافقة رتشرد على اقتراح صلاح الدين الذي يقضي بأن يؤدى المال المطلوب ، وأن يعيد الأسرى في اقساط ثلاثة ، كل قسط شهر (٢) ، على ان يطلق رتشرد سراح الأسرى المسلمين بعد دفع القسط الاول . وشاهد الزائرون صليب الصلبوت الذي احتفظ به صلاح الدين ، فعظموه ومجدوه . وفي ١١ اغسطس سنة ١١٩١ جرى ارسال القسط الاول من الرجال والأموال الى المعسكر المسيحي ، وعاد رسل رتشرد ليخطروه ان المقادير تمّت تأديتها على

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, loc. cit.
(يشير الى مؤامرات رتشرد) .
، Beha ed - Din, P.P.T.S, pp. 240, 242.
يشير ابن شداد الى ان سلطة ملك فرنسا اعترف بها جميع الناس ، وأن ملك انجلترا يقل عنه مكانة ، على الرغم من تفوقه عليه في الثروة والبسالة والصيت .

(٢) في ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، نشر الشيال — القاهرة ١٩٦٤ ، ذكروا ان الملوك قد اجابوا السلطان ، رحمة الله عليه ، الى ان يكون ما وقع عليه القرار يدفع في تروم (نجوم) ثلاثة ، كل نجم شهر .

الوجه الصحيح ، مـا عدا الاسرى المعينين من جانبهم ، فانهم لم يكونوا فرغوا من تسليمهم ، ولهذا السبب لن يسلموا عساكر صلاح الدين ، الذين وقعوا اسرى في ايديهم في عكا . فطلب اليهم صلاح الدين إما ان يقبلوا القسط مع رهائن عن السادة الذين لم يسلّموا بعد ، فيرسلون اليه رجاله ، وإما ان يقبلوا القسط ، ويجعلوا رهائن عنده حتى يضمن اطلاق سراح رجاله . ورفض الرسل كلا الاقتراحين ، إنما طلبوا القسط ولم يعرضوا سوى بذل الوعـد حول تسليم الاسرى المسلمين . وإذ لم يثق صلاح الدين في وعدهم ، رفض ان يعطيهم شيئاً ما لم يطلق سراح عساكره .

رتشرد يجري مذبحة في الاسرى المسلمين سنة ١١٩١ :

اضحى رتشرد حريصاً على ان يغادر عكا ، وأن يزحف على بيت المقدس ، وصار الاسرى المسلمون مصدر حيرة له ، فانشرح صدره لما تهيأ له من العذر للتخلص منهم . فأعلن في برود شديد ، يوم ٢٠ اغسطس ، اي بعد ان مضى مـا يزيد على اسبوع على عودة الرسل اليه ، ان صلاح الدين نقض عهده ، وأمر بالاجهاز على سبعمائة وألفي اسير من الذين بقوا على قيد الحياة من حامية عكا . فاشتد حماس عساكره للقيام بهـذه المجزرة ، وقد حمدوا الله ، حسبما يروى لنا في جذل وسرور ، المدافعون عن رتشرد ، لما هيأ لهم من فرصة للانتقام لرفاقهم الذين سقطوا امام المدينة (عكا) . ولقيت زوجات الاسرى وأطفالهم مصرعهم الى جوارهم . ولم يبقوا على حياة احد ، سوى بعض الاعيان ، وبعض رجال اشداء للافادة منهم في اعمال السخرة . وشهد المسلمون المرابطون في اقرب المعاقل الى عكا ما قد حدث ، فاندفعوا لانقاذ ذويهم ، وعلى الرغم من انهم ظلوا يقاتلون حتى حلول الظلام ، فانهم لم يستطيعوا الوصول اليهم . ولمـا انتهت المذبحة ،

غادر الانجليز البقعة بما تناثر عليها من الجثث المشوهة المتعفنة ، وأضحى بوسع المسلمين ان يقدموا للتعرف على اصدقائهم الذين استشهدوا [1] .

وفي يوم الخميس ، ٢٢ اغسطس سنة ١١٩١ ، قاد رتشرد الجيش الصليبي وغادر عكا ، وقد تغيب كنراد وعدد كبير من البارونات المحليين . وكان الفرنسيون بقيادة دوق برجنديا في مؤخرة الجيش ، قد خرجوا من عكا ساخطين ، فما من احد من العساكر يود ان يغادر المدينة التي ظلوا يعيشون فيها حتى الشهر الاخير في راحة ونعيم بما توافر فيها من الخبز ، وتكاثر فيها من النساء الساقطات لإشباع شهواتهم ، وما من احد منهم ارتاح لما سمعه من انه لم يسمح بأن يصحبهم من العاملات في المعسكر سوى الغسالات . غير ان قوة شخصية رتشرد قهرتهم . أما صلاح الدين فما زال معسكراً في شفرعم ، التي تحكمت في الطريقين الرئيسين الممتدين من الساحل ، فيتجه احدهما الى طبرية ودمشق ، بينما يجتاز الطريق الثاني الناصرة الى بيت المقدس .

---

(١) انظر :
Itinerarium, pp. 240 - 243.
Ambroise, cols, 144 - 148.

وكلا المصدرين يبروان موقف رتشرد ، ويتهمان صلاح الدين بأنه يهدد المسيحيين، وأشارا الى ان كنراد حاول ان يوكل اليه امر الاسرى . وحمد امبرواز الله لوقوع المذبحة . ووردت رواية بالغة الاقناع في :
Ernoul, pp. 276 - 277.
Estoire d'Eracles, II, pp. 178 - 179.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 270 - 274.

ووفقاً لرواية ابي شامة ، طلب صلاح الدين الى الداوية الذين يثق فيهم برغم كراهيته لهم ، ان يضمنوا شروط المعاهدة ، غير انهم رفضوا لأن رتشرد سوف ينقضها . ولم يعد صليب الصلبوت الى الصليبيين . انظر :
Abu Shama, II, pp. 30 - 33.

غير ان رتشرد سار الى الجنوب ، والتزم الطريق الممتد على الساحل ، حيث يلقي بجناحه الحماية من قبل البحر والاسطول . وعندئذ اقتفى السلطان اثره بأن اتخذ طريقاً موازياً لطريق رتشرد ، ثم عسكر على تل القيمون على منحدرات جبل الكرمل . ومن هذا الموضع ركب صلاح الدين ليتفقد الاقليم الذي يقع جنوب الكرمل قرب البحر ، ليتخذ موضعاً يصلح للمعركة .

سار المسيحيون فاجتازوا حيفا التي سبق لصلاح الدين ان دمر استحكاماتها قبيل سقوط عكا في ايدي الصليبيين ، وطافوا حول تلال الكرمل . على انهم التزموا البطء في سيرهم حتى يظل الاسطول على اتصال بهم . كما ان رتشرد حرص على ان ينال العساكر قدراً من الراحة من حين الى آخر ، إذ كانت الرياح تهب من الغرب ، ولقيت السفن عناء في اجتياز الموضع . وانقض الفرسان المسلمون من حين الى آخر ، من جبال الكرمل على الجيش المسيحي الزاحف ، فقطعوا الطريق على العساكر الذين تاهوا عن جيشهم ، فحملوهم الى صلاح الدين ، الذي استجوبهم ثم امر بقتلهم انتقاماً لمذبحة عكا . ولم يبق على حياة احد سوى الغسالات . وفي تلك الاثناء قاد رتشرد جيشه ، فاجتاز حافة الكرمل وأقام معسكره الى الداخل من قيسارية [1] .

ولما اقترب المسيحيون من قيسارية ، في ٣٠ اغسطس ، اضحى الالتحام

---

(١) انظر :

Itinerarium, pp. 248 - 256.
Ambroise, cols. 152 - 160.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 275 - 281
Abu Shama, II, pp. 33 - 36.

بـين الجيشين وشيك الوقوع ، ومنذئذ كان القتال الحاد ينشب بينهما كل يوم . غير ان رتشرد كان شديد العزم والإصرار في قيادة جيشه ، وكان في أتمّ اللياقة والكفاية ، وقد درج على ان يقاتل في المقدّمة ، غير انـه كان يركب بين تارة وأخرى يتفقد كل الجيش ويشجّع الرجال على التقدم . واشتدت الحرارة ، وتعرّض للهلاك من ضربة الشمس عدد كبير من عساكر الغرب ، بأسلحتهم الثقيلة ، ولما يألفوا تحمّل الشمس ، وتعرّض كثير منهم للاغماء ، فلاقوا حتفهم حيث اضجعوا . وكاد يهلك دوق برجنديا والعساكر الفرنسيون أثناء تثاقلهم في المسير في مؤخرة الجيش ، خلف عربات المؤن ، غير انهم استطاعوا ان يخلصوا انفسهم . ومضى الجيش بأجمعه في طريقه مترجّلاً ، يلهج من حـين الى آخر بالدعاء : فلتُعنـّا ايها القبر المقدّس (Sanctum Sepulchrum adjuva) .

معركة ارسوف سنة ١١٩١ :

ويعد بضعة ايام ، اختار صلاح الدين الموضع الذي نشبت فيه المعركة ، وكان يقع شمالي ارسوف ، حيث كان السهل من الاتساع ما يكفي لاستخدام الفرسان ، غير ان هذا الموضع تخفيه الغابات التي امتدت حتى أضحت على مسافة ميلين من البحر . ثم طلب رتشرد في ٥ سبتمبر اجراء المفاوضات ، فالتقى بالعادل شقيق السلطان تحت َعلَم الهدنة . ومع ان رتشرد سئم القتـال ، فانه لم يطلب ما يقل عن التنازل له عن كل فلسطين ، فبادر العادل على الفور الى قطع المفاوضات .

تبين لرتشرد ، في صبيحة يوم السبت ٧ سبتمبر ان المسلمين أصروا على ان تنشب المعركة ، فرتب عساكره إستعداداً للقتال . فجعل قطار الأمتعة

ينتشر على امتداد الساحل ، ويتولى حراسته هنري كونت شامبانيا وجماعة من الرجالة . واتخذ الرماة مواضعهم في الصف الامامي ، ومن خلفهم كان موضع الفرسان . أما الداوية فكانوا في الميمنة على الطرف الجنوبي للجيش ، وتلاهم البريطانيون والأنجويون ، ثم عساكر جيين بقيادة جاي لوزجنان وأخيه جفري . واتخـــذ الملك مكانه في قلب الجيش ، في عساكره من الانجليز والنرمان ، وتلاه الفلمنكيون والبارونات الوطنيون بقيادة جيمس افيسنيز ، ثم الفرنسيون بقيادة هيو دوق برجنديا ، وفي أقصى اليسار استقر الاسبتارية . فلما اكتمل إعداد كل شيء ، ركب رتشرد ودوق برجنديا يتفقدان خط القتال ، ويبثان العساكر التشجيع .

بدأ المسلمون هجومهم في الضحى ، وأخـذ العساكر السود بأسلحتهم الخفيفة والبدو الرجالة تنقضُّ على المسيحيين في موجات متلاحقة ، يرمونهم بالسهام ، فأنزلوا الخلل والاضطراب في الصف الاول للرجالة ، غير أنه لم يكن لهم أدنى تأثير في الفرسان بأسلحتهم الثقيلة . ثم انفرجت صفوفهم فجأة ، ونفذ منها الفرسان الترك يحملون ، فيطعنون بسيوفهم ، ويضربون بحرابهم ، وركزوا أشد هجماتهم على الاسبتارية والفلمنكيين ومن يليهم من البارونات الوطنيين ، أملاً في رد الجناح الأيسر للمسيحيين . على ان الفرسان صمدوا للهجوم ، ونجح الرماة في إعـادة تنظيم صفهم بعد كل موجة من هجمات المسلمين . وعلى الرغم من توسلات العساكر ، لم يسمح رتشرد لشطر من الجيش بالقيـام بالهجوم إلا بعد ان يكتمل استعداد الجيش بأسره ، وتظهر دلائل الضعف على هجمات الترك ، وبعد ان يزداد الجيش الاسلامي اقتراباً منهم . وأرسل مقدم الاسبتارية الى رتشرد مرات عديدة يلتمس منه إعطاء الاشارة بالقتال ، وقـال ان فرسانه سوف لا يذعنون له إلا

اذا قاموا بالهجوم . وإذ لا زال رتشرد يوصي بالصبر ، خرج فارسان ، أحدهما مارشال الاسبتارية والآخر بلدوين كاريو ، فتوليا مقاليد الامور ، وركبا لملاقـاة المسلمين ، فلحق بهما رفقاؤهم يركضون على ظهور الخيل . ولم يكد سائر الفرسان يشهدون المنظر ، حتى حثوا أفراسهم للاسراع اليهم . وقـــع شيء من الاضطراب أول الامر ، لأن الرماة لم يكونوا مستعدين ، وقد اعترضوا الطريق . ثم ركب رتشرد ، ودخل غمار المعركة كيما يعيد الى الجيش شيئاً من النظام ، ويتولى قيادة الهجوم . وإذ كان كاتب صلاح الدين على تل قريب ، شهق لما شهده من روعة المنظر حين كان خيالة المسيحيين يهدرون في اتجاههم نحوه ، فلم يكن بوسع العساكر المسلمين ان يقاوموهم ولم تلبث صفوف المسلمين ان تداعت ، فلاذوا بالفرار . على ان صلاح الدين جمع شملهم في الوقت المناسب للدفاع عن معسكره ، وللقيـام ايضاً بهجوم آخر على العدو . ولكن المحاولة باءت بالفشل . ولم يحل المساء حتى أضحى للجيش المسيحي السيطرة على ساحة القتـــال ، واستأنف سيره صوب الجنوب[1] .

انتصار رتشرد سنة ١١٩١ :

على الرغم من ان معركة ارسوف لم تكن حاسمة ، فانها كانت انتصاراً معنوياً كبيراً للمسيحيين ، إذ ان خسائرهم كانت من الضآلة ما يدعو الى

---

(١) انظر :
Itinerarium, pp. 256 - 278.
Ambroise, cols. 160 - 178.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 281 - 295.
Abu Shama, *II*, pp. 36 - 40.

اثارة الدهشة ، مع انه كان من بين الضحايا الفارس الكبير جيمس أفيسنيز الذي احـاط بـه خمس عشرة جثة للمسلمين . ولم تكن خسائر المسلمين فادحة ايضاً ، ولم يسقط في المعركة امير تابه ، وفي اليوم التـالي حشد صلاح الدين كل رجاله ، وتجهّز لمحاولة لقاء آخر مع العدو ، ولكن رتشرد رفض ذلك ، ولم يكن لدى صلاح الدين من القوة ما يكفي لحمله على القتال . وترجع قيمة هذا الانتصار الى الثقة التي منحها للمسيحيين ، إذ كانت هذه اول معركة مكشوفة منذ حطين ، ودلت على ان صلاح الدين يصح ان يتعرض للهزيمة . وإذ جرى هذا الانتصار عقب الاستيلاء على عكا ، فانه يدل فيا يبدو على ان المدّ قد تحول ، وأن بيت المقدس يصح استردادها مرة اخرى . وبلغت شهرة رتشرد ذروتها . ومع ان الهجوم الظافر وقع فعلاً ، مخالفـاً لأوامر رتشرد ، فانه لم يحدث إلا قبل استعداد رتشرد بدقائق معدودة . ومـا سبق الهجوم من حثه الجند على التزام الصبر ، وتوجيهه للهجوم عند وقوعه ، دلّ على سمو قيادته ، وبشر ذلك بمستقبل باهر للحملة الصليبية .

أما صلاح الدين فإنه تعرّض لمهانة شخصية ، ومذلة عند الناس . فلم يكن جيشه بعكا قوي التأثير ، وتعرّض للهزيمة في معركة مكشوفة في ارسوف . وكلما تقدم صلاح الدين في العمر ، فقد شيئاً من نشاطه وسيطرته على الرجال ، شأنه في ذلك شأن سلفه نور الدين . كما ان صحته قد ساءت ، إذ كانت نوبات حمى الملاريا تعاوده من حين الى آخر . لم يعـد له ما كان له في سنوات شبابه من القدرة ما يفرض بها قراراته على الامراء المتنازعين الذين يعتبرون اتباعاً له . ومـا زال عدد كبير منهم يعتبرونه حديث النعمة مغتصباً ، حتى اذا تراءى لهم ان نجمه اخذ يهوي ، بادروا الى التمرّد

والعصيان . كما انه لم يطق ان يفوقـه رتشرد في فن القيادة . وقبل كل شيء ، ينبغي ألا يفرط في بيت المقدس ، التي يعتبر استيلاؤه عليها اكبر ما حققه من انتصار مجيد . قاد جيشه ، بعد ان احسن تنظيمه ، الى الرملة على الطريق الى بيت المقدس ، وقد ترقب حركة جديدة من رتشرد .

مضى الجيش الصليبي في سيره الى يافـا ، وشرع في إعادة بنـــاء استحكاماتها ، وكان رتشرد لا يزال حتى وقتذاك يستند الى الاسطول الذي يسير إزاء جناح الجيش ، فيما يحتاجه من المؤن . ولم يكن رتشرد مستعداً لأن يسير داخل البلاد الى بيت المقدس مـا لم يكن له قاعدة قوية على الساحل . يضاف الى ذلك ان حلّ بجيشه التعب والإرهاق بعـــد سيره الطويل على امتداد الساحل ، فاحتاج الجيش الى قدر من الراحة . على ان ما التزمه رتشرد من الحذر والتمهّل حيّر كثيراً من المؤرخين ، فلو انه أسرع بالمسير الى مهاجمة بيت المقدس ، لأدرك ما عليه حاميتها من ضعف ، ومـا أصاب أسوارها من التداعي . واذا كان جيش صلاح الدين تعرّض للهزيمة ، فانه لم يتحطم ، ومـــا زال قوياً ومصدر خوف ورعب . فاذا غامر رتشرد بالمسير الى بيت المقـدس ، أضحى بوسع جيش صلاح الدين ان يقطع طريق الاتصال بين رتشرد وبين البحر ؛ فكـان من الحكمة والتعقل ان يتأكد رتشرد من منـــاعة يافا قبل ان يشرع في مغامرته الخطيرة . ومع ذلك فان التمهل والإرجاء أضحيا بالغيْ الطول ، فتهيّأت لصلاح الدين الفرصة لتدعيم وسائل الدفاع عن المدينة المقدسة .

وإذ خشي صلاح الدين ان يتحرك رتشرد الى عسقلان ، وان يقيم بها قاعدة ، تقطع طريق الاتصال بين صلاح الدين ومصر ، التي تعتبر المصدر الرئيسي لقوته الضاربة ، قـاد شطراً من جيشه من الرملة الى عسقلان ،

فدمّر المدينة عن آخرها برغم رخائها[1] وثروتها. وفي تلك الأثناء َنعِم الجيش المسيحي بأسباب الراحة في يافا، إذ كانت الحياة بهـــا مشرقة لطيفة، بما توافر من الفاكهة والخضروات بالبساتين المحيطة بالمدينة، وبمـا جلبته السفن من المؤن الوفيرة، وبمن جاءت به يافا من النساء الجميـلات المرحات ليكنّ مصدر تسلية للرجال.

عسكر المسلمون على مسافة من عسقلان، ولم تقع إلا بضعة اشتباكات بـين الفرسان في سهل لدّ، على اطراف المعسكر. وانغمس الجيش المسيحي في الحياة الوادعة الناعمة، والتمس عدد كبير من العساكر طريقهم راجعين الى عكا. ولما ارسل رتشرد اليهم جاي لوزجنان ليحثهم على العودة الى المعسكر، لم يحفـــلوا به، واقتضى الامر ان يتوجه رتشرد الى عكا، فجمعهم وأرجعهم الى معسكرهم[2]. وكان لرتشرد متاعبه الخـاصة، إذ لم يكن سعيداً لما حدث من الامور في عكا، وفي الجهـات التي تقع الى الشمال منها، حيث مـــا زال حزب كنراد قوياً، كما وقع اضطراب في جزيرة قبرص بعـد وفاة رتشرد كامفيل، ولقي تيرنهام صعوبة في قمع الثورة، وخشي رتشرد ما قد يفعله الملك فيليب عند عودته الى فرنسا؛

---

(١) انظر: Itinerarium, pp. 280 - 281.
Beha ed - Din, P.P.T.S, pp. 295 - 300.
Abu Shama, II, pp. 41 - 44.
Ibn al - Athir, II, pp. 50 - 51.
يشير ابن الاثير وأبو شامة الى ان صلاح الدين نزل كارهاً على رأي اصحابه فيما يتعلق بعسقلان.

(٢) انظر: Itinerarium, pp. 283 - 286.
Ambroise, cols, pp. 187 - 189.

على ان رتشرد عثر على حلّ لقلقه ، بأن باع جزيرة قبرص للداوية ، وحرص رتشرد ايضاً على ان يشرع في المفاوضات مع صلاح الدين . وأبدى صلاح الدين الاستعداد للاستماع الى ما عرضه رتشرد من مقترحات ، وعهد الى اخيه العادل بأن ينوب عنه في ذلك[1] .

رتشرد يجري مفاوضات مع العادل سنة ١١٩١ :

ما كاد رتشرد يعود الى يافا حتى ارسل الى لد التي اتخذها العادل مقراً لقيادته ، همفري سيد تبنين ، الذي يعتبر خير مَن يجيد اللغة العربية في الجيش المسيحي ، والذي يخصه بالمحبة العميقة ، للتشاور في الامور التمهيدية للتوصل الى عقد هدنة ، غير انه لم يتقرر شيء . ويُعتبر العادل دبلوماسياً ماهراً ، وقد كبح جماح تطلّع صلاح الدين الى عقد تسوية . وتهيّأت لدبلوماسيته فرصة رائعة ، حينما قدم اليه ، في اكتوبر سنة ١١٩١ ، رُسل من صور ، يسألونه ما اذا كان قد استقبل سفارة من كنراد . على ان رتشرد لم يكن له اول الامر من الطلبات ما هو أقل من الحصول على بيت المقدس ، والاقليم الواقع غربي نهر الاردن ، واستعادة صليب الصلبوت . فأرسل صلاح الدين ردّه بأن المدينة المقدسة تعتبر ايضاً مقدسة عند المسلمين ، وانه لن يعيد صليب الصلبوت إلا مقابل الحصول على بعض الامتيازات . وعُرض رتشرد ، في ٢٠ اكتوبر ، اي بعد بضعة ايام ،

---

(١) انظر : Benedict of Peterborough, II, pp. 172 - 173.
Ernoul, p. 273.
Estoire d'Eracles, II, pp. 170, 189 - 190.

مقترحات جديدة . إذ انه أبدى اعجابه بالعـادل ، شأنه في ذلك شأن سائر الصليبيين الذين أطلقوا على العادل لقب (سيف الدين Saphadin) ، واقترح ان يكون للعادل كل ما في حوزة صلاح الدين في الوقت الراهن من فلسطين ، على ان يتزوج العـادل اخت الملك ، جوانا ملكة صقلية ، التي سوف يخصها رتشرد بكل مـا فتحه من المدن الساحلية بمـا فيها عسقلان ، وينبغي للعروسين ان يقيما في بيت المقدس ، التي لا بد ان يتيسر للمسيحيين التردد عليها ، ولا بد من إعادة صليب الصلبوت ، وينبغي اطلاق سراح الأسرى من الجـانبين ، وان تردّ الى الداوية والاسبتارية ممتلكاتهم بفلسطين . ولما عاد كاتب صلاح الدين اليه بهذا العرض ، اعتبره صلاح الدين نوعاً من المزاح ، وأبدى سروره للموافقة عليه . غير ان رتشرد ربما كان جاداً فيما عرض . امـا الملكة جوانا التي لحقت مع برنجاريا برتشرد في يافا ، فانها ارتاعت حينما سمعت بهذا العرض ، إذ قالت بأنه ليس ثمة مـا يدعوها لأن تتزوج من رجل مسلم . ولذا طلب رتشرد من العادل ما اذا كان يفكر في ان يصير مسيحياً ، غير ان العـادل ، في كياسة وأدب ، رفض هذا الشرف ، ودعا الملك رتشرد الى وليمة فاخرة أقامهـا في لد في ٨ نوفمبر سنة ١١٩١ . وكان الاحتفال شائقاً ، وافترق العادل ورتشرد بعد ان تأكدت بينهما أواصر المحبة ، وتبادلا الهدايا . غير انه حدث في الوقت ذاته ان كان صلاح الدين يأنس في معسكره القريب بالاجتماع مع رسول كنراد ، وهو رينالد سيد صيدا المعروف بعذوبة الحديث ، والذي غفر له صلاح الدين مكره ودهاءه للاحتفاظ بقلعة شقيف ارنون .

وفي صبيحة اليوم التالي استقبل صلاح الدين همفري سيد تبنين ، رسول رتشرد اليه ، وقـد حمل عرضاً يقضي بالاعتراف بالعادل سلطاناً على كل

فلسطين طالما صار للمسيحيين نصيب في بيت المقدس ولم ينقطع الأمل في تدبير زواج جوانا من العادل ، على الرغم من اعتراف رتشرد بأن الرأي العام عند المسيحيين صدمته هذه الفكرة . وفكر رتشرد في ان جوانا قد تغير رأيها اذا اجاز البابا هذا الزواج . فإذا لم تقبل جوانا ، تزوّج العادل من اليانور كونتيسة بريتاني ، وإبنة اخت رتشرد ، التي يصح ان تتزوج دون تدخل البابا ، نظراً لأنها كانت تحت وصاية الملك . فإذا تمّ كل ذلك فسوف يعود الملك الى اوروبا . أما عرض كنراد فكان اقــل اثارة وحساسية ، ففي مقابــل حصوله على صيدا وبيروت ، ينشق على سائر الصليبيين ، بل انه اقترح ان تعود عكا الى المسلمين . غير انه لمـا جرى سؤاله ما اذا كنراد مستعداً لأن يشهر السلاح في وجــه رتشرد ، راوغ سفيره ، رينالد سيد صيدا .

عقد صلاح الدين مجلساً ليقرر أي جانبي الفرنج يمضي معه في المحادثات . فأعلن العادل وبعض الامراء الميل الى المضي في المحادثات مع فريق رتشرد لا حباً في الملك ، بل لأنــه سوف يبادر الى مغادرة فلسطين ، على حين ان كنراد الذي شعروا جميعاً بهيبته والتخوف منه ، كان ينوي البقاء والاستقرار في فلسطين . فتقرر قبول مقترحات رتشرد من حيث المبدأ ، غير ان حاشية همفري ساءهم ذات يوم ما شهدوه من خروج رينالد سيد صيدا للصيد في صحبة العادل ، وما كان له من ألفة ظاهرة معه . والواقع ان العادل حرص على ان يطول امــد المفاوضات حتى حلول الشتاء [١] .

---

(١) انظر :

Itinerarium, pp. 295 - 297.

Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 302 - 335.

اورد ابن شداد رواية مسهبة عن المفاوضات .

Abu Shama, II, pp. 45 - 50.

وما وقع في تلك الاثناء بين الجيشين الاسلامي والمسيحي من قتال ، لم يَعدُ ان يكون متقطعاً وطارئاً . إذ حدث ذات يوم في اواخر نوفمبر ، ان خرج رتشرد يتصيد بالصقر فوقع في كمين للمسلمين ، وكاد ان يصير بأيديهم لولا ان صاح الفارس الباسل ، وليم بريه بأنه الملك ، وحلّ مكانه في الأسر . ووقع فرسان آخرون في الاسر في ذلك اليوم ، غير انه باستثناء هذا الاشتباك الصغير ، لم تحدث حروب بالغة الأهمية [1] .

رتشرد في بيت نوبة سنة ١١٩٢ :

لما اخذت الامطار تهطل في شهر نوفمبر ، صرف صلاح الدين نصف جيشه ، ولجأ بمن تبقى معه من العساكر الى منازل الشتاء في بيت المقدس ، كانت الامداد في الطريق اليه من مصر . غير ان رتشرد لم يأبه لرداءة الطقس . ففي منتصف الشهر ، قاد جيشه الذي تكاثر عدده بمن قدم من عكا من قوات جديدة ، وخرج من يافا ومضى في طريقه حتى بلغ الرملة ، التي هجرها المسلمون ودمروا استحكاماتها . فأقام بها ستة اسابيع ، مترقباً سنوح الفرصة ليواصل السير الى بيت المقدس ، فتكررت هجمات المسلمين على معاقله الامامية . وكاد رتشرد نفسه يقع في الاسر حينما خرج لتفقد الجهات القريبة من قلعة تل الصافية . وحدث في اشتباك آخر ان وقع في الاسر ايرل ليستر ، غير انه لم يلبث ان اطلق سراحه . وبلغ الطقس من السوء في الايام الاخيرة من السنة (١١٩١) ان سحب صلاح الدين من كان يطلقهم من المغيرين . وأمضى رتشرد يوم عيد الميلاد في اللطرون على

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 286 - 288.

حافة تلال يهودا ، وفي ٢٨ ديسمبر ارتقى بجيشه التلال دون ان يصادف مقاومة من العدو . وهطلت الامطار غزيرة ، فأضحت الطريق كثيرة الوحل والطين ، وحطمت الريح العاتية اعمدة الخيام ، قبل ان تنصب خيمة واحدة . ثم بلغ الجيش في ٣ يناير سنة ١١٩٢ حصن بيت نوبة الذي لم يبعد عن المدينة المقدسة سوى اثني عشر ميلاً . وملك الحماس العساكر الانجليزية والفرنسية ، ومهما ازدادت متاعب المعسكر الذي قام على مرتفع كثير الوحل تهب عليه الرياح العاصفة ، وبرغم مـا دمرته الأمطار من مستودعات الخبز ولحم الخنزير ، الغذاء الرئيسي للجند ، وما هلك من جياد كثيرة بسبب البرد وتقاصر العلف ، وشدة ما عانوه من التعب والبرد ، فإن كل ذلك كان مقبولاً ومحتملاً ، لو انهم سوف يبلغون عاجلاً هدفهم . غير ان الفرسان الذين خبروا الاقليم ، امثال الاسبتارية والداوية والبارونات الوطنيين ، اتخذوا وجهة نظر بالغة الحكمة ، وشديدة الأسى . إذ اخطروا الملك رتشرد انه حتى اذا استطاع ان يجتاز التلال الموحلة في وسط هذه العواصف وبلغ بيت المقدس ، واستطاع ان يرهق جيش صلاح الدين بها ، فإن للمسلمين جيشاً آخر قدم من مصر وعسكراً على التلال خارج المدينة ، وبذا يصبح ان يقع بين الجيشين . ثم اضافوا ولو استولى رتشرد على بيت المقدس ، فماذا يجري بعدئذ ؟ الواضح ان الصليبيين الوافدين سوف يعودون الى اوطانهم بأوربا بعـد ان يؤدوا الحج ، وأن العساكر المحلية ليست من كثرة العدد مـا يكفي للصمود لقوات المسلمين المتحدة . اقتنع رتشرد بوجهة نظرهم ، ثم امر بالارتداد ، بعد ان تردد لمدة خمسة ايام [1] .

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 303 - 308.
Ambroise, cols. 203 - 208.

استبد الغضب بالجيش المسيحي وتهاوت روحه المعنوية ، أثناء اجتيازه الاراضي الموحلة في طريق العودة الى الرملة ، وتحمّل العساكر الانجليز في جَلَد وصبر مـــا حدث من خيبة الأمل ، على حين ان الفرنسيين ومـــا اشتهروا به من مزاج متقلب ، اخذوا ينسحبون من الجيش ، فلجأ عـــدد كبير منهم ، وفيهم دوق برجنديا ، الى يافا ، ولاذت جمـــاعة منهم ايضاً بعكا . وأدرك رتشرد انه لا بد من إثارة بعض النشاط كيا يستعيد الرجال روحهم المعنوية ، فعقد مجلساً في ٢٠ يناير سنة ١١٩٢ ، وبنـــاء على تأييد المجلس ومساندته ، أصدر الأوامر الى الجيش بالتحرك من الرمـــلة الى عسقلان عن طريق يبنه . فأقام بعسقلان يصلح الحصن الضخم الذي سبق لصلاح الدين ان دمّره منـــذ بضعة شهور . وأدرك رتشرد مثلما أدرك صلاح الدين ما لهذا الحصن من أهميـــة استراتيجية ، وأقنع الفرنسيين بأن يلحقوا به في عسقلان [1] .

وفيا عدا ما قام به رتشرد من زيارة الى عكا ، أمضى الشهور الاربعة التالية في عسقلان ، التي جعل منها أمنع قلعة على كل الساحل الفلسطيني . إذ دأب رجاله على العمل ، برغم مـــا صادفهم من المتاعب الكثيرة ، فلم يكن لعسقلان ميناء ، وما كان يرد بحراً من المؤن لم يهبط عادة الى البر ، كما ان المنـــاخ في ذلك الشتاء كان بالغ السوء . ولكن صلاح الدين لم يناوئهم او يزعجهم . واعتقد بعض أتباع رتشرد ان فروسية صلاح الدين

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 309 - 312.
Ambroise, cols. 208 - 211.
Abu Shama, II, p. 51.

منعته من مهاجمتهم في وقت أضحى من اليسير فيه إلحاق الأذى والضرر بهم ، مما أثار غضب وسخط بعض أمرائه . والواقع ان صلاح الدين أراد ان يوفر الراحة لجيشه ، وأن ينتظر قدوم الأمداد عليه من الجزيرة والموصل . على ان ما حدث من تذمُّر بعض الأمراء لم يكن راجعاً الى تقاعده عن القتال . فاذا كانوا في هذه الصورة من المزاج ، فلن يغامر صلاح الدين بأن ينشب معركة مع الفرنج[1] .

يضاف الى ذلك ان ما ورد من أنباء من عكا اوقفت صلاح الدين على وقوع شقاق بين الفرنج . ففي فبراير سنة ١١٩٢ ، طلب رتشرد من كنراد ان يسهم فيما يجري في عسقلان من اعمال ، غير ان كنراد رفض في فظاظة القدوم الى عسقلان ، وحدث بعد بضعة ايام ان تسلل من الجيش هيو دوق برجنديا وكثير من الجند الفرنسيين ، وتوجهوا الى عكا . والمعروف ان الملك فيليب لم يترك مع الدوق إلا قدراً قليلاً من المال للانفاق على العساكر الفرنسية ، ولذا فإن ما كان يؤدي لهم حتى وقتذاك من الرواتب جاء من القروض التي بذلها لهم رتشرد . على ان اموال رتشرد الطائلة اخذت في النفاد . ولم يعد بوسعه ان يمضي في الانفاق عليهم . وجرى في عكا ان ما كان من تنافس دائم بين البيازنة والجنويين ، بعد ان اضحى لهم من الرجال والسفن ما جعل عكا مقراً لهم ، اندلع في حرب صريحة . إذ ان البيازنة الذين زعموا انهم يتصرفون باسم الملك

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 313 - 317.
Ambroise, cols. 212 - 214.

جاي استولوا على المدينة (عكا) بعد ان تحدوا هيو دوق برجنديا الذي وصلها منذ وقت يسير ، وظلت المدينة بأيديهم لمدة ثلاثة ايام رغم أنف هيو وكنراد والجنويين ، وأرسلوا الى رتشرد يطلبون اليه القدوم لمساعدتهم. ووصل رتشرد الى عكا في فبراير سنة ١١٩٢ وحاول إعادة السلام ، فاجتمع بكنراد في قرية ايبرت على الطريق المؤدي الى صور ، ولكن اللقاء لم يسفر عن نتيجة مقبولة . فما زال كنراد مصراً على ان يرفض اللحاق بالجيش في عسقلان ، حتى بعد ان هدده رتشرد انه ما لم يلحق بالجيش فسوف تصادر كل املاكه . والواقع انه لم يكن لهذا التهديد ان ينفذ . فلما عاد رتشرد الى عسقلان ، بعد ان راب الصدع بهدنة قلقة ، ازداد اقتناعاً ، عن كل زمن مضى ، بأنه لا بدّ من عقد الصلح مع صلاح الدين [١] .

مفاوضات جديدة سنة ١١٩٢ :

ما زال رتشرد على اتصال بالعادل ، إذ ان مبعوثاً انجليزياً ، ستيفن تيرنهام ، قام بزيارة بيت المقدس للاجتماع بصلاح الدين وبأخيه العادل ، فراعه عند وصوله أن شهد بباب المدينة رينالد سيد صيدا وباليان ابلين . والواقع ان مفاوضات صلاح الدين مع كنراد لم تنقطع ، على ان قدوم باليـــان يؤذن بفشل مفاوضات الانجليز ، نظراً لأنه كان فارساً يحظى بتقدير كبير عند صلاح الدين . ومع ذلك فان العادل ركب في ٢٠ مارس سنة ١١٩٢ الى معسكر رتشرد يحمل عرضاً محدداً ، وهو ان يحتفظ

---

(١) انظر :
Itinerarium, pp. 319 - 324.
Ambroise, cols. 218 - 221.

المسيحيون بما سبق ان فتحوه ، وأن يكون لهم الحق في ان يؤدوا الحج الى بيت المقــدس ، حيث صار بوسع اللاتين ان يجعلوا بها قسساً منهم ، وأن يعود اليهم صليب الصلبوت ، ويحق لهم ان يضيفوا اليهم بيروت بعد تخريب استحكاماتها . ولقيت السفارة استقبالاً حافلاً من الملك . ومن مظاهر التشريف التي اختص بها العادل ، مـا حدث من شد ابن للعادل بحزام الفروسية ، ولا شك انه تقرر في الاحتفال استبعاد بعض الطقوس المسيحية المألوفة . فلما رجع العادل الى اخيه صلاح الدين في أوائل ابريل سنة ١١٩٢ ، تراءى انه تمّ اخيراً التوصل الى تسوية[١] .

وتأكدت الحاجة الى الاتفاق بعـد مضي بضعة ايام ، حين قدم من انجلترا رئيس دير هيرفورد ، لينهي الى رتشرد ان الامور قد ساءت في انجلترا ، إذ ان يوحنـا شقيق الملك ، ازداد إمعاناً في اغتصاب السلطة ، وتوسل كبير الوزراء ، وليم اسقف إيلي ، الى رتشرد ان يبادر بالعودة الى الوطن . وأمضى رتشرد عيد القيامة (٥ ابريل سنة ١١٩٢) في المعسكر ، وقد استبدّ بـــه الغضب لأن من تبقّى معه من العساكر الفرنسيين لم يلبثوا ان تخلوا عنه ، بعد ان استدعاهم الى الشمال ، هيو دوق برجنديا .

أضحت الحاجة اكثر إلحاحاً ممـا كانت عليه في اي زمن مضى ، الى قمع منازعات الصليبيين ومشاجراتهم ، فدعا الملك الى عقد مجلس يشهده كل الفرسان والبارونات بفلسطين . ثم أخطرهم الملك انـه لا بد له ان

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 328 - 329.
Itinerarium, p. 337.

يبادر الى مغادرة البلاد ، ولا بد من اتخـــاذ قرار في موضوع تاج بيت المقدس ، وعرض عليهم ان يختاروا أياً من الاثنين : الملك جاي والماركيز كنراد . واستبدّت به الدهشة حين لم يتحدث احد لصالح جــاي ، بينما أراد جميع الحاضرين ان يكون كنراد ملكاً .

وكان رتشرد من التعقل وسموّ الهمة ما يكفي لالتزامه بقرار المجلس ، فوافق على ان يعترف بكنراد ملكاً . فتوجهت بعثة برئاسة ابن اخته ، هنري كونت شامبانيا ، الى صور ، تحمل البشارة الى الماركيز كنراد .

ولما وصل هنري كونت شامبانيــا الى صور حوالي ٢٠ ابريل سنة ١١٩٢ ، جرى احتفال باهر ، وعمّ الفرح والسرور ، وتقرر ان يتم التتويج في عكا في خلال بضعة ايام ، ثم اضحى معروفاً ان كنراد رضى آخر الامر بأن يلحق بالجيش في عسقلان . وغادر هنري كونت شامبانيا على الفور صور الى عكا ، لإعداد المدينة للاحتفال بالتتويج[١] .

مصرع كنراد سنة ١١٩٢ :

ولما سمع كنراد بخبر اختياره ملكاً ، ركع على ركبتيه ودعا الله اذا لم يكن جديراً بالملكية ، فينبغي ألا يمنحها . ولم تنقض إلا بضعة ايام ، حتى حدث يوم الثلاثاء ٢٨ ابريل سنة ١١٩٢ ، ان زوجته الاميرة ايزابيللا التي طال مكوثها بالحمام ، حملته على ان ينتظر ليتناول عشاءه ، فقرر ان

---

(١) انظر :
Itinerarium, pp. 329 - 338.
Ambroise, cols. 225 - 281.

يخرج من داره ، وأن يتناول العشاء مع صديقه القديم اسقف بوفيه ، ولما تبين له ان الاسقف فرغ من تناول طعامه ، عاد الى داره جذلان فرحاً ، على الرغم من اضطراره الى الانتظار حتى يتم إعـداد الطعام له . وبينما كان يجتاز زاوية حادة ، التقى بـه رجلان ، وإذ ناوله احدهمـا رسالة ليقرأها ، عاجله الآخر بطعنة في جسمه ، فجرى نقله الى قصره ، وهو يلفظ انفاسه الاخيرة .

ولقي احـد القاتلين مصرعه في الحـال ، بينما تمّ اعتقـال الآخر ، فاعترف قبل اعدامه انه هو ورفيقه من الحشيشية ، كلفهما بهـذا العمل سنان شيخ الجبال . والمعروف ان الحشيشية حافظوا على الحياد السلمي ، اثناء الحرب الصليبية ، التي هيأت لهم الفرصة لتقوية قلاعهم ولتكديس الثروة الطائلة . وسبق لكنراد ان أساء الى سنان ، بما حدث من السطو على سفينة تجارية تحمل شحنة ثمينـة ابتاعها الحشيشية . وعلى الرغم من احتجاجات سنان الشديدة ، لم يرجع كنراد السلع او بحـارة السفينة ، الذين تعرّضوا جميعاً للغرق فعلاً . والراجح ان سناناً خشي ايضاً ان تقوم للصليبيين دولة قوية على ساحل لبنان ، تصير فعلاً مصدر خطر على بلاده . وجرت الرواية ان القاتلين مكثا في صور بعض الوقت يرتقبـان الفرصة الملائمـة لهما ، بل انهما قبلا التنصير ، وكان كنراد وباليان ابلين شبينين لهما . غير ان الرأي العام التمس اسباباً ابعد عمقاً وأكثر اهمية ، إذ قـال بعض الناس ان صلاح الدين بذل الرشوة لسنان كيما يغتال كلاً من رتشرد وكنراد ، غير ان سناناً خشي ان موت رتشرد سوف يترك صلاح الدين حراً ، فيزحف على الحشيشية ، ولذا لم يسع سنان إلا ان يقدم على اغتيال كنراد . على ان نظرية اخرى تعتبر اكثر ذيوعاً ، تشير

لى ان رتشرد نفسه هو الذي دبّر اغتيـال كنراد ، ولا يصدق ان صلاح الدين تغاضى عن هذه الجريمة ، كما ان رتشرد لم يلجأ الى استخدام هذا السلاح ، برغم كراهيته لكنراد . غير ان اعداء رتشرد ، وعلى رأسهم اسقف بوفيه رفضوا ان يعتقدوا في براءته [1] .

يعتبر مصرع كنراد ضربة موجهة الى المملكة التي انبعثت من جديد. فمع ما اتصف به كنراد من القسوة والطموح وانعدام الضمير ، فإن بارونات الفرنج المحليين يولونه الثقة ، ويعجبون به ، مما قد يجعل منه ملكاً قوياً ماكراً . ومع ذلك فإن اختفاءه كان له ما يعوضه . ذلـك ان ايزابيللا وارثـة المملكة اضحت حرة في ان تتزوج ، وأن تنقل بذلك التاج الى مرشح آخر لا يتعرض لما تعرّض له كنراد من المنازعات الشديدة . فلما سمع هنري كونت شامبانيا بمصرع كنراد ، بادر بالمسير من عكا الى صور ، حيث اغلقت الاميرة الارملة على نفسها ابواب القلعة ، ورفضت ان تسلم مفاتيح مدينتها الا لمن يمثل ملكي فرنسا وانجلترا . ولم يكد هنري كونت شامبانيا يصل الى صور ، حتى هتف به سكان المدينة على انه الرجل الذي ينبغي ان يتزوج اميرتهم ، وأن يرث العرش .

---

(١) انظر :

Itinerarium, pp. 337 - 342.
Ambroise, cols. 233 - 238.
Ernoul, pp. 288 - 289.
Estoire d'Eracles, II, pp. 192 - 194.
Beha ed - Din, P.P.T.S, pp. 332 - 333.
Abu Shama, II, pp. 52 - 54.

كان هنري شاباً ، عالي الهمة ، محبوباً من الناس ، فضلاً ان انه ابن اخت ملكي فرنسا وانجلترا ، فاستجابت ايزابيلا لهتاف الجماهير ، فوهبت هنري نفسها ومفاتيحها . ولم ينقض يومان على اغتيال كنراد ، حتى تمّ اعلان خطبتها . واعتقد بعض الناس انه كان من اللائق ان ترجأ الخطبة لفترة تزيد طولاً ، وما يدعو للريبة ما اذا كانت الزيجة التي وقعت خلال سنة تعتبر من الناحية الكنسية شرعية .

الواقع ان هنري نفسه لم يحفل كثيراً بهذا الامر . كانت ايزابيلا سيدة بالغة الجمال ، في مقتبل العمر ، لم تتجاوز الحادية والعشرين ، غير انه سبق لها ان تزوجت فعلاً مرتين ، وأضحى لها ابنة طفلة ، سوف تكون ولية عهدها . وأصرّ هنري ، فيما يبــدو ، على ان يقرّ رتشرد الخطبة . وحملت الرسل رتشرد على ان يقـدم الى عكا ، حيث التقى بابن اخته ، هنري كونت شامبانيا . وترددت الشائعات بأن هنري أخطره بما يساوره من شكوك ، وبرغبته الشديدة في العودة الى وطنه ، الى بلاده الجميلة في فرنسا ، وهذا الحل اعتبره رتشرد ، فيما يبدو ، من احسن الحلول ، ونصح هنري بأن يقبل انتخابه للعرش ، ووعده بأنه سوف يعود يوماً مــا ، فيبذل لمملكته عوناً جديداً . ورفض رتشرد ان يسدي النصيحة حول الزواج ، غــير انه ليس بوسع هنري ان يصير ملكاً إلا على انه زوج لإيزابيلا . وفي ٥ مايو سنة ١١٩٢ ، ولم يمض على ترملها إلا اسبوع واحد ، دخلت ايزابيلا الى عكا وسار الى جانبها هنري . ونهض كل سكان المدينة لتحيتها ، وجرى الاحتفال بالقران بكل مظاهر الأبهــة والسرور ، ثم

اتخذت الاميرة وقرينها مقراً لهما في قلعة عكا[1] .

كان ذلك زواجاً سعيداً ، فلم يلبث هنري ان وقع في حب عميق لزوجته ، ولم يعد يطيق بُعدها عن نظره ، امـا ايزابيلا فاكتشفت ان سحره لا يقاوَم ، بعـد عبوس البيدمنتي الكهل (كنراد) الذي تزوجته قسراً .

تخلص رتشرد فعلاً من الملك جاي ، إذ ادرك آخر الأمر انه ما من احد في فلسطين كان يميل الى الملك السابق (جاي) الذي لا حول له ولا قوة . غير انه لا بد لرتشرد ان يتدبر مستقبل جزيرة قبرص . إذ لم يكن لرتشرد رغبة في ان يبقى بها احداً من الموظفين ، بعد عودته الى اوربا ، ولم يسلك الداوية الذين باع لهم حكومة الجزيرة ، سبيل الحكمة والتعقل في معاملة السكان الوطنيين من اليونانيين ، فأحبوا ان يعيـدوا الجزيرة الى رتشرد . وعندئذ اجاز لجاي ان يشتري حكومة الجزيرة من الداوية ، بعد ان طلب لنفسه مبلغـاً اضافياً ، لم يؤده جاي له كاملاً ،

---

(١) انظر :

Itinerarium, pp. 342 - 343.

Ambroise, col. 238 - 239.

اشار هذان المصدران الى ان سكان المدينة اصروا على انتخاب هنري ، وإذ لقي الانتخـاب التأييد من الفرنسيين ، لم يشأ رتشرد ان يلتزم به . اما ارنول وتاريخ هرقل فانهما ألمحا الى ان رتشرد اصر على الانتخاب. ويذكر ابو شامة ان ايزابيلا كانت معتكفة في قصرها حينما تزوجت من هنري . والراجح انها انجبت ابنتها ماريا قبل وفاة كنراد . انظر :

Ernoul, pp. 290 - 291.

Estoire d'Eracles, II, pp. 195 - 196.

Abu Shama, loc. cit.

وفي اوائل مايو سنة ١١٩٢ هبط جاي الى جزيرة قبرص ، بعـــد ان صارت له السلطة الكاملة في ادارتها كيفما شاء [١] .

رتشرد يستولي على الداروم سنة ١١٩٢ :

ولما تمت تسوية كل ذلك ، دعا رتشرد هنري ليلحق به في عسقلان . وترددت شائعة ان ابن اخ لصلاح الدين بأقاليم الجزيرة خرج على طاعـة السلطان وتمرد عليه . ولذا قرر رتشرد ان يقوم بهجوم مفاجىء على الداروم التي تقع على الساحل على مسافة عشرين ميلاً من عسقلان ، إذ انه لم يتم التصديق بعد على معاهدته مع المسلمين . غير ان هنري ومن معه من الجيش الفرنسي اضاعوا الوقت في اللهو والعبث في عكا . على ان رتشرد لم ينتظرهم ، ومضى في زحفه بحراً وبراً على الداروم . وفي يوم ٢٣ مايو سنة ١١٩٢ ، وبعد قتال مرير استمر خمسة ايام اقتحم المدينة السفلى ، واستسلمت حامية القلعة . على ان رتشرد لم يتعلم شيئاً من مروءة صلاح الدين ، إذ لقيت جماعة من رجال الحامية مصرعها بحدّ السيف ، بينما جرى تعليق آخرين على شرفات الحصن ، وفرض على غيرهم الأسر المؤبد [٢] .

---

(١) عن بيع جزيرة قبرص ، انظر :
Hill : History of Cyprus, II, pp. 36 - 38, 67 - 69.

(٢) انظر :
Itinerarium, pp. 352 - 356.
Ambroise, cols, 245 - 251.
Beha ed - Din, P.P.T.S. p. 337.
Abu Shama, II, p. 54.

ومـــا حدث من سهولة الاستيلاء على آخر حصن لصلاح الدين على الساحل الفلسطيني ، زاد في رفع الروح المعنوية عند الصليبيين ، حتى انهم أعدوا خطتهم للمرة الثـــانية للزحف على بيت المقدس . فوصل هنري والعساكر الفرنسيون الى الداروم بعد يوم من استيلاء رتشرد عليها ، في الوقت المناسب ليمضوا عيد العنصرة بها مع الملك . وعاد الجيش بعدئذ على الفور الى عسقلان ، وألحّ الفرنسيون والانجليز سواء في شن هجوم مباشر على المدينة المقدسة . على ان رتشرد سمع وقتذاك انباء من انجلترا زادت في قلقه ، وساوره الشك فيما اذا كانت الحملة سوف يتحقق نجاحها من الناحية العسكرية ، فلزم رتشرد الفراش ، وقد استبدبت به الحيرة ، ولم ينهض إلا بعـد ان وجّه قسيسه من بواتو خطاباً مثيراً . وعندئذ اقسم انـــه سوف يبقى في فلسطين حتى عيد القيامة المقبل [١] .

سار الجيش المسيحي مرة اخرى من عسقلان في ٧ يونيه سنة ١١٩٢ ، واجتاز الرملة اثناء طريقه الذي يخترق تل الصافية ، فوصل الى اللطرون في ٩ يونيه ، ثم بلغ بيت نوبة في ١١ يونيه . وتوقف رتشرد بهذا الموضع ، حيث بقي الجيش لمدة شهر . أما صلاح الدين فإنه انتظر في بيت المقدس ، حيث قدمت وقتئذ اليه الامداد من الجزيرة والموصل . والواقع انه ما لم يتوافر للمسيحيين المؤن ودواب النقل ، فمن الحماقة ان يمضوا في سيرهم الى التلال المحيطة بالمدينة المقدسة . فلجـأ الجانبان الى المناوشات ، التي لم

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 356 - 365.
Ambroise, cols. 252 - 259.

تسفر عن فوز حاسم . فحدث ذات مرة انه بينما كان رتشرد يسير راكباً فرسه في التلال الواقعة بأعلى عمواس ، شهد فجأة عن بعد منظر اسوار بيت المقدس وأبراجها . فأسرع الى اخفاء وجهه بترسه حتى لا يشهد المدينة التي لم يأذن الله له ان يخلصها . غير انه حدث ما يعوّضه عن ذلك ، إذ ان اسقف لد السرياني قدم ذات يوم الى المعسكر يحمل قطعة من صليب الصلبوت ، كان قد استخلصها . ثم جرى فيما بعد ان رئيس دير مار الياس اليوناني ، وهو رجل وقور ذو لحية بيضاء طويلة ، اخطر الملك رتشرد عن البقعة التي دفن فيها قطعة اخرى من صليب الصلبوت ، لينقذها من المسلمين . فجرى التنقيب عنها ، وبذلها للملك رتشرد .

لقي الجيش العزاء في هاتين القطعتين من صليب الصلبوت عن خيبته في استخلاص الشطر الاكبر من الأثر المقدس الذي أعاده وقتئذ صلاح الدين فيما يبدو الى كنيسة القيامة في بيت المقدس .

وبينما تردّد قادة الجيش ، في ٢٠ يونيه سنة ١١٩٢ ، في ما اذا كانوا يتخلون عن محاولة المضي الى بيت المقدس ، ويتوجهون الى مصر عوضاً عنها ، وردت الأنباء بأن قافلة ضخمة للمسلمين قادمة من الجنوب ، وتتخذ طريقها نحو المدينة المقدسة . وانقضّ رتشرد ، بعد ثلاثة ايام ، على القافلة عند آبار الخويلفة ، الواقعة في اقليم جدب على مسافة عشرين ميلاً الى الجنوب الغربي من حبرون . لم يكن المسلمون مستعدين للهجوم ، ولم تستمر المعركة إلا أمداً قصيراً استولى رتشرد في إثرها على كل القافلة بما حوته من سلع قيّمة ، وكميات ضخمة من المؤن ، وبضعة آلاف من الجياد والإبل . وعاد الجيش المسيحي منتصراً الى معسكره في بيت نوبة .

ارتاع صلاح الدين لهذه الأنباء ، إذ صار من المحقق ان رتشرد سوف يزحف على بيت المقـدس . فعجل صلاح الدين بإرسال الرجال لطم" كل الآبار الواقعة بين بيت نوبة والمدينة المقدسة ، ولقطع كل اشجار الفاكهة . وعقد صلاح الدين ، في اول يونيه سنة ١١٩٢ ، مجلساً بالغ الأهميـــة في بيت المقدس ، لمناقشة ما اذا كان ينبغي ان ينسحب صوب الشرق . كان صلاح الدين نفسه يود" البقـــاء في بيت المقدس ، وأيّد الأمراء المجتمعون قراره ، بعد ان أعلنوا ولاءهم له . غير انه وقع شجار بين العساكر التركية والكردية ، ولم يطمئن صلاح الدين الى مـدى استعدادهم للصمود لهجوم عنيف .

رتشرد يرتد" الى يافا ، سنة ١١٩٢ :

ولم تلبث متاعب صلاح الدين ان تبدّدت ، إذ جرى ايضاً في المعسكر المسيحي مناقشات حادة ، فقد حرص العساكر الفرنسيون على ان يبادروا على الفور بالهجوم ، بعد ان توافرت المؤن ودواب النقل . غير ان كشافة رتشرد حذروه بما كان من قصور الماء ، ثم لا زالت المشكلة قائمة ، وهي كيف يتسنى المحافظة على بيت المقدس بعـد عودة الصليبيين الغربيين الى أوطانهم . وعلى الرغم مما أظهره الفرنسيون من السخرية ، وما وجّهوه من شتائم ، أمر رتشرد الجيش ، مرة اخرى ، بالتراجع من بيت نوبة . وفي ٤ يوليه سنة ١١٩٢ ، بلغت صلاح الدين الأنبـــاء بأن المسيحيين أزالوا معسكرهم ، وأخذوا يتحركون نحو الساحل ، فركب صلاح الدين وخرج من بيت المقدس على رأس جمـــاعة من رجاله الى احد التلال المجاورة ،

ليرقبوا الموكب الذي مضى بعيداً [1] .

ولم يكد رتشرد يعود الى يافا ، حتى سعى من جديد الى عقد هدنة ، تهيىء له الحرية في العودة الى وطنه . وجّه هنرى الى صلاح الدين رسالة طافحة بالإدّعاء والغرور ، صرح فيها انه أضحى ولي عهـد مملكة بيت المقدس ، ولا بد ان تؤول اليه بأكملها ، أمـا رُسل رتشرد الذين قدموا بعـــد ثلاثة ايام الى بيت المقدس ، فكانوا أميل الى المسالمة والمصالحة . وأوصى رتشرد بأن يجعل صلاح الدين ابن اخته (هنري كونت شامبانيا) في كنفه وتحت رعايته ، وألحّ على ضرورة التوصل الى اتفـاق ودّي . وبناء على موافقة مجلسه ، وافق صلاح الدين على ان يعامل هنري على انه أحد أبنائه ، وان يسمح لقسس من اللاتين بالبقـاء في الأماكن المقدسة ، وان يتنازل للمسيحيين عن الساحل الفلسطيني ، بشرط تدمير استحكامات عسقلان . غير ان رتشرد رفض النظر في تدمير عسقلان ، حتى بعـد ان عرض عليه صلاح الدين ان يستبدل بها لد .

وبينما كان الجدال لا زال يتنـاقله الرسل بين رتشرد وصلاح الدين ، تحرك رتشرد الى عكا ، وقد أعدّ خطته للإقلاع ، اذا لم يتم حتى وقتذاك توقيع المـاهدة . وقضت خطته بأن يزحف فجأة على بيروت ، ويستولي

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 365 - 398.
Ambroise, cols, 260 - 287.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 337 - 352.
Abu Shama, II, pp. 56 - 62.

عليها ، ثم يبحر منها الى اوربا [1] .

على ان تعيُّب رتشرد هيَّأ لصلاح الدين الفرصة . ففي وقت مبكر من يوم ٢٧ يوليه سنة ١١٩٢ ، خرج صلاح الدين بجيشه من بيت المقدس ، ووصل الى يافا في مساء نفس اليوم ، وشرع على الفور في مهاجمة المدينة . واستطاع النقابون ان يحدثوا ثغرة في الأسوار ، بعد ان تعرضت للقصف بالحجارة لمدة ثلاثة ايام ، فتدفق الجيش الاسلامي الى داخل المدينـــة . واستبسل المدافعون عنها في القتال ، ولكن ذلك لم يجدِ نفعاً ، واضطرت الحامية الى الاستسلام ، بعـد الاتفاق على الإبقاء على حياتهم . وتولى أمر المفاوضات بالنيابة عن المسيحيين ، البطريرك الجديد الذي تصادف انه كان بالمدينة . غير انه انفلت زمام عساكر صلاح الدين ، فاندفع الأكراد والترك يجوبون الشوارع ينهبون ويقتلون مَن يصادفهم من سكان المدينـــة الذين حاولوا الدفاع عن دورهم . فنصح صلاح الدين رجال الحامية ان يلزموا القلعة ريثما يعيد الأمن الى نصابه .

رتشرد يحرز آخر انتصار له سنة ١١٩٢ :

ما كاد صلاح الدين يقارب من اسوار يافا ، حتى توجهت رسالة عاجلة الى رتشرد تحمل اليه نبـأ الهجوم على يافا . فبادر رتشرد الى النهوض

---

(١) انظر :

Itinerarium, pp. 398 - 399.
Ambroise, cols. 287 - 288.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 353 - 360.
Abu Shama, II, pp. 63 - 66.

لنجدتها ، بأن اتخذ اليها طريق البحر ، يسانده البيازنة والجنويون ، بينما ارسل اليها جيشه بطريق البر . غير ان الرياح العكسية حجزته تجـــاه رأس جبل الكرمل ، أما جيشه الذي كره ان يبلغ يافا قبل قدوم رتشرد اليها ، فانه تمهل في سيره على الطريق الى قيسارية . وإذ نجح صلاح الدين في ٣١ يوليه سنة ١١٩٢ في ان يعيد من الهدوء الى عساكره ما يكفي لأن يخلي من القلعة عن طريق المدينة تسعة وأربعين فارساً من رجال الحامية ، بزوجاتهم وأمتعتهم ، كان اسطول رتشرد المؤلف من خمسين سفينة يبحر على مرمى النظر . فبادر رجـــال الحامية على الفور الى استئناف المعركة ، واستماتوا في الحملة على المسلمين الذين انفرط عقد نظامهم ، فكادوا يخرجونهم من المدينة (يافا) . ولما لم يعلم رتشرد ما حدث ، تردد في ان يهبط الى البر الى ان سَبَح اليه احد القسس فأخطره بأن القلعة لم تسقط . فرسا بسفنه الى الشاطىء في سفح القلعة . ثم خاض مع رجاله المـاء الى الشاطىء . ولما استبد اليأس برجال الحامية ، انفذوا فعلاً رسلاً الى صلاح الدين للتفاوض معه ، وكانوا فعـلاً يتحدثون الى صلاح الدين في خيمته حينما بدأ رتشرد هجومه . وإذ تفرّق عدد كبير من المسلمين في شوارع المدينة (يافا) ، أخذوا على حين غرة . وما اتسم به هجوم رتشرد من العنف والشدة ، بأن تقدّم رجاله واشترك في قتال مرير ، ومـا اقترن ذلك بهجوم آخر من قِبل رجـال الحامية ، كل ذلك حمل المسلمين على الفرار . وقدم الى خيمة صلاح الدين كاتبه وأسرّ اليه بما حدث من الهزيمة . ولما حاول صلاح الدين ان يستبقي زائريه من رسل الحامية بحديثه المرح ، كشف الحقيقة ما جرى من تدفق الفارّين من المسلمين ، فلم يسع السلطان إلا أن يأمر جيشه بالارتداد ، واستطاع صلاح الدين ان يبقي في معسكره في حفنة من الفرسان ، بينما هرب معظم الجيش الى يازور التي تقع على مسافة

خمسة اميال في داخل البلاد ، ولم تنتظم صفوفه بعد . واستعاد رتشرد يافا ، بقوة لم تتجاوز ثمانين فارساً ، وأربعمائة من الرماة ، ونحو ألفين من البحارة الايطاليين ، ولم يكن في جيشه سوى ثلاث افراس[1] .

وفي صبيحة اليوم التالي ارسل صلاح الدين حاجبه أبا بكر العادلي ليستأنف محادثات الصلح مع رتشرد . فألفى رتشرد يلهو ويمزح مع بعض الأمراء المسلمين الذين وقعوا في أسره ؛ وكل ذلك يدور حول سرعة استيلاء صلاح الدين على يافا وسرعة استعادة رتشرد لها . وأشار الى انه لم يكن معه سلاح ، ولم يكن لديه من الوقت ما يكفي لأن يغيّر حذاءه[2] . غير انه بادر على الفور بأن وافق أبا بكر على انه لا بد من وقف القتال . واقترح صلاح الدين في رسالته ، ان يتركز الاتفاق على ان ينتهي حد الفرنج عند قيسارية ، بعد ان حلّ الدمار بيافا . وعرض رتشرد رداً على هذا الاقتراح بأن يحوز يافا وعسقلان على سبيل الاقطاع من صلاح الدين ، دون ان يشرح كيف تجري التبعية عند غياب الملك في

---

(١) انظر :

Itinerarium, pp. 400 - 411.
Ambroise, cols. 289 - 302.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 361 - 371.
Abu Shama, II, pp. 66 - 71.

(٢) يشير ابن شداد ، نشر الشيال ص ٢٢٧ — ٢٢٨ ، الى ان رتشرد صادق جماعة من الامراء ، كانوا يجتمعون به في اوقات متعددة ، فلما حضر هذا النفر عنده قال: « هذا السلطان عظيم، وما في الارض للاسلام ملك اكبر ولا اعظم منه، وكيف رحل عن المكان بمجرد وصولي، ووالله ما لبست لأمة حربي، ولا تأهبت لأمر، وليس في رجلي الا زربول البحر، فكيف تأخر؟ » ثم قال : « انه لعظيم ، والله ما ظننت انه يأخذ يافا في شهرين ، فكيف اخذها في يومين » .

اوربا ، فأجاب صلاح الدين بأن عرض التنازل عن يافا ، غير انه اصر على الاحتفاظ بعسقلان ، وللمرة الثانية أضحت حجرة عاثرة في سبيل تحقيق السلام ، فتوقفت المفاوضات [1] .

على ان جيش الفرنج الذي سبق ان استدعاه رتشرد لإنقاذ يافا تجاوز قيسارية في سيره . وإذ ادرك صلاح الدين انه ليس لرتشرد في يافا إلا قوة صغيرة ، وطد العزم على ان يشن هجوماً على معسكر رتشرد الواقع خارج اسوار يافا ، قبل قدوم الجيش الجديد . وفي فجر الاربعاء ، ٥ اغسطس سنة ١١٩٢ ، بينا كان احد الجنويين يتجول خارج المعسكر ، سمع صهيل الخيل ، ووقع اقدام العساكر ، وأبصر ما يلمع بعيداً من الاسلحة تحت اشعة الشمس المشرقة ، فأيقظ العساكر ، فلما ظهر المسلمون ، كان رتشرد قد أتمّ استعداده . ولم يكن لدى عساكره من الوقت ما يكفي لاتخاذ اسلحتهم . فأمسك كل منهم بما وقعت يده عليه . ولم يصلح للمعركة إلا اربعة وخمسون فارساً ، وخمسة عشر حصاناً ، ونحو الفين من الرجالة . وأقام رتشرد حاجزاً منخفضاً من اعمدة الخيام ، أعدّه لإثارة الفوضى والاضطراب بين خيول العدو ، وخلف هذا الحاجز رتب رتشرد رجاله ازواجاً ، جعلوا تروسهم كأنها حاجز امامهم ، وغرسوا رماحهم الطويلة في الارض ، في إحدى الزوايا ، فتوقع بالخيول القادمة نحوهم . وبين كل اثنين من الرجال ، رابط احد الرماة ، وحمل الفرسان المسلمون في سبع

---

(١) هذه المفاوضات التمهيدية لم يذكرها إلا المؤرخون المسلمون امثال :
Beha ed - Din, P.P.T.S, pp. 371 - 374.
Abu Shama, II, pp. 71 - 78.

موجات ، تألفت كل موجة من الف فارس . غير انهم لم يستطيعوا ان يخترقوا السور الفولاذي . استمرت هذه الهجمات الى ما بعد الظهر . ولما تبين لرتشرد ان الإرهاق والتعب حلّ فيما يبدو بخيول المسلمين ، نقل رماته الى الصف الامامي ، وأطلق كل سهامه على الجيش الاسلامي الزاحف عليهم . فأوقفت ارسال السهام تقدم العدو . ثم رجع الرماة الى مواقفهم وراء الرّماحة الذين حملوا حملة صادقة ، وعلى رأسهم رتشرد على متن جواده . واشتد اعجاب صلاح الدين بهذا المنظر ، فلما هوى حصان رتشرد من تحته ، دفعته المروءة الى ان يبعث من قبله سائساً يقود جوادين ، في غمار المعركة ، هدية للملك الباسل . وتسلل بعض المسلمين الى المدينة (يافا) فهاجوها ، فهرب البحارة الذين تولوا حراستها ، وتوجهوا نحو سفنهم ، حتى ركب اليهم رتشرد وأعادهم الى مواقفهم . وفي المساء توقف صلاح الدين عن القتال ، وعـاد الى بيت المقدس ، فعزّز استحكامات المدينة حتى لا يطارده رتشرد [١] .

المعاهدة بين صلاح الدين ورتشرد سنة ١١٩٢ :

كان ذلك انتصاراً رائعاً ، أحرزه رتشرد بفضل ما أعدّه من خطط حربية ، فضلاً عن بسالته الشخصية . غير أنه لم يتبعه انتصار آخر ، ففي

---

(١) انظر :

Itinerarium, pp. 413 - 424.
Ambroise, cols. 304 - 311.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 374 - 376.
Abu Shama, II, p. 74.

يقلل المؤرخون المسلمون من اهمية المعركة .

خلال يوم او يومين عاد صلاح الدين الى الرملة ، بجيش جديد حشده من الجموع التي قدمت من مصر وشمال الشام . أما رتشرد الذي أنهكه ما بذله من جهود ، فانه لزم خيمته ، وقد اشتدّ به المرض نتيجة لإصابته بالحمى . وتطلع رتشرد الى تحقيق الصلح ، فأعاد صلاح الدين ما سبق ان تقدم به من عرض ، وأصرّ على تسلّم عسقلان . وكان من العسير على رتشرد ان يتحمل ذلك ، فكتب الى صديقه القديم العادل الذي لزم ايضاً فراشه قرب بيت المقدس ، يرجوه التوسط عند صلاح الدين ليتخلى له عن عسقلان . غير ان صلاح الدين لم يتزحزح عن موقفه ، وأرسل الى الملك المحموم الخوخ والكمثرى ، فضلاً عن الثلج من جبل حرمون (الثلج) لتبريد أشربته . غير ان رتشرد لم يقبل التنازل عن عسقلان . والواقع ان رتشرد لم يكن في وضع يسمح له بالمساومة ، فما حلّ به من علة ، وما ارتكبه اخوه من اعمال سيئة في انجلترا ، تتطلب عودة عاجلة الى انجلترا ، يضاف الى ذلك ما حلّ بسائر الصليبيين من الإرهاق ، وما أظهره كل من ابن اخته هنري والطوائف الدينية الحربية من انهم لم يثقوا في سياسته . فماذا يفيدون من عسقلان ، لو ارتحل رتشرد مع جيشه ؟ دأب رتشرد ايضاً على التصريح عن عزمه على مغادرة فلسطين . وفي يوم الجمعة ٢٨ اغسطس سنة ١١٩٢ ، حمل اليه رسول العادل العرض النهائي من قِبل صلاح الدين . وفي ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ ، أي بعد خمسة ايام وقّع رتشرد معاهدة الصلح لمدة خمس سنوات ، وأثبت رُسُل صلاح الدين أسماءهم الى جانب اسمه على المعاهدة . ثم أمسك رسل صلاح الدين بيد رتشرد ، ثم حلفوا بالنيابة عن سيدهم . ورفض رتشرد ، باعتباره ملكاً بأن يحلف ، فأقسم بالنيابة عنه هنري كونت شامبانيا ، وباليان إبلين ، ومقدما الاسبتارية

والداوية . وفي اليوم التالي مهر صلاح الدين المعاهدة بتوقيعه بحضور رسل رتشرد ، وبذا انتهت الحرب الصليبية الثالثة .

جعلت المعاهدة للمسيحيين المدن الساحلية حتى يافا جنوباً . وأضحى للحجاج الحرية في زيارة الأماكن المقدسة . وللمسلمين والمسيحيين الحق في ان يجتاز كل فريق منهم بلاد الفريق الآخر . أما عسقلان فكان لا بدّ من تدميرها [١] .

ولم يكد يفرغ صلاح الدين من إعداد ما يلزم من التدابير ، لحراسة الحجاج وإيوائهم ، حتى تجهزت جماعات من الجيش الصليبي بعد ان تجردت من السلاح ، وحصلت من الملك رتشرد على جواز ، للتوجه الى بيت المقدس ، لزيارة مشاهدها والتبرُّك بها . غير ان رتشرد نفسه لم يشأ ان يمضي اليها ، ورفض ان يمنح احداً من العساكر الفرنسيين تصريحاً بالمسير اليهـا ، غير ان عدداً كبيراً من عساكره ، واصلوا الرحلة الى بيت المقدس ، وقـاد احدى هذه الجماعات هيوبرت والتر اسقف سالسبوري ، الذي لقي بهـا مظاهر التشريف ، وحظي بمقابلة صلاح الدين . وتطرّق الحديث بينهما الى موضوعات كثيرة ولا سيا اخلاق رتشرد . فأعلن الاسقف ان رتشرد حـاز كل الصفات الفاضلة ، غير ان صلاح الدين اعتقد ان رتشرد يفتقر الى الحكمة والاعتدال . ولما بذل صلاح الدين للأسقف هدية عند وداعه ،

---

(١) انظر :

Itinerarium, pp. 42 -4 430.
Ambroise, cols. 314 - 317.
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 378 - 387.
Abu Shama, II, pp. 75 - 79.

طلب رجل الكنيسة من صلاح الدين السماح لاثنين من القسس اللاتين ، واثنين من الشمامسة اللاتين ان يؤدوا الخدمة الدينية في كنيسة القيامة ، وكذا في كنيستي بيت لحم والناصرة . فاستجاب له صلاح الدين ، ولم تمض إلا بضعة شهور حتى قدم القسس ، وجرى الإذن لهم بمباشرة واجباتهم دون ان يتعرّضوا للأذى [1] .

وبلغت القسطنطينية الشائعات بأن رتشرد يلحُّ في ان تتخذ الأماكن المقدسة صبغة لاتينية . وبينما كان صلاح الدين لا يزال في بيت المقدس ، قدمت اليها سفارة من قِبل الامبراطور اسحاق انجيلوس ، تطلب ان يعود للمسيحيين الأرثوذكس السيطرة التامة على الكنيسة الأرثوذكسية التي كانوا يملكونها زمن الفاطميين . غير ان صلاح الدين رفض الطلب . إذ انه لم يقبل ان يكون لمذهب من المذاهب السيادة على هـذه المواضع ، بل سوف يكون ، كالعثمانيين الذين جاءوا بعده ، الفيصل والحكم بينها جميعاً . كما انه بادر الى رفض الطلب الذي تقدمت به ملكة الكرج لشراء صليب الصلبوت مقابل عشرين الف دينار [2] .

وفاة رتشرد ، سنة ١١٩٩ م

ارتحل رتشرد الى عكا ، بعد توقيع المعاهدة ، ورتب بعكا اموره ، بأن

---

(١) انظر : Itinerarium, pp. 431 - 438.
Ambroise, cols. 317 - 327.

(٢) انظر : Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 334 - 335.

ورفض صلاح الدين ايضاً الطلب الذي تقدم به الامبراطور من اجل بذل المساعدة لاسترداد جزيرة قبرص .

سدّد ما عليه من ديون ، وحاول ان يحصل على ما بذله من قروض . ثم اقلعت من عكا في ٢٩ سبتمبر سنة ١١٩٢ ، الملكة برنجاريا والملكة جوانا ، كيا تصلا الى فرنسا سالمتين قبل هبوب العواصف الشتوية . وفي ٩ اكتوبر سنة ١١٩٢ ، أي بعد عشرة ايام ، غادر رتشرد البلاد التي ظل ستة عشر شهراً يحارب فيها ببسالة نادرة ، غير ان الحظ لم يكن مواتياً له . إذ اجبره المناخ السيء على ان ينزل بجزيرة كورفو ، من املاك الامبراطور اسحاق انجيلوس . وإذ خشي رتشرد ان يقع اسيراً ، بادر الى الرحيل منها ، بعد ان تنكر في هيئة فارس من الداوية ، وبرفقته اربعة خدام ، في سفينة احد القراصنة كانت تقصد رأس البحر الادرياتي . ولكن هذا القارب تحطم قرب اكويليا . وواصل رتشرد ورفاقه السير براً ، فاجتازوا كارينثيا وأستريا ، وقد وطد العزم على ان يسرع في السير الى بلاد صهره ، هنري دوق سكسونيا . غير ان رتشرد ليس بالرجل الذي يؤمن بالتخفي ، فجرى التعرّف عليه في ١١ ديسمبر سنة ١١٩٢ بينما كان يستريح في حانة قرب فيينا . وتقرّر على الفور عرضه على ليوبولد دوق استريا ، وهو الرجل الذي قذف رتشرد في عكا بعلمه الى الارض . فاتهمه ليوبولد باغتيال كنراد مونتفيرات ، وألقى به في السجن . ثم تقرر تسليمه بعد ثلاثة شهور الى الامبراطور هنري السادس زعيم ليوبولد وسيده . ومـا كان لرتشرد من صداقة طويلة الأمد مع هنري الاسد ، وتحالفه الحديث مع تانكرد ملك صقلية ، جعله بغيضاً عند الامبراطور ، الذي احتجزه في الاسر لمدة سنة ، ولم يطلق سراحه إلا في شهر مارس سنة ١١٩٤ ، على ان يؤدي فدية ثقيلة ، وأن يحلف له يمين التبعية .

وفي أثنـــاء الشهور المضنية التي قضاها رتشرد في الأسر ، تعرضت

بلاده لمؤامرات أخيه يوحنا ، وللهجمات المباشرة من قِبل الملك فيليب . فلما عاد اليها ، كان لديه من الاعمال والمشاغل الكثيرة ما يصرفه عن التفكير نهائياً في القيام برحلة اخرى الى الشرق . إذ ظلّ خمس سنوات يحارب في بسالة في فرنسا للدفاع عن إرثه إزاء الملك الكابيتي الماكر ، فيليب اغسطس ، حتى أنهى عمره سهم طائش انطلق من قلعة عاصية في ليموزين ، وذلك في ٢٦ مارس سنة ١١٩٩ . كان رتشرد ابناً شقياً ، وزوجاً تعساً ، وملكاً شريراً ، غير انه كان جندياً رائعاً وفارساً شهماً [١] .

---

(١) وردت الاشارة الى عودة الجيش الى الوطن ، في :

Itinerarium, pp. 439 - 440.
Ambroise, cols. 427 - 429.

اما رحلة رتشرد نفسه، وما تعرض له من محن، ومنها الرسالة المزورة التي بعث بها شيخ الجبال الى ليوبولد دوق استريا يعلن فيها براءة رتشرد من اغتيال كنراد ، فكل ذلك ورد في ايجاز في :

Itinerarium, pp. 441 - 446.

وكذا في سائر التواريخ . انظر ايضاً :

Norgate, Richard Lion - Heart, pp. 264 - 276.

الفصل الرابع

مملكة بيت المقدس الثانية

بلغت الحملة الصليبية الثالثة نهايتها ، فلن يتوجه ثانية صوب الشرق الى الحرب المقدسة ، هذا الحشد الرائع من الامراء . ومع ان اوروبا الغربية بأمرها اتحدت في ذلك الجهد الكبير ، فإن ما حصلت عليه من نتائج كان ضئيلاً . وما حدث من انقاذ صور على يد كنراد ، ومن نجدة طرابلس من قبل الاسطول الصقلي ، إنما جرى قبل وصول الصليبيين . وكل ما اسهم بـــه الصليبيون في الحرب الثالثة لإعادة بناء مملكة الفرنجة ، لم يتعد الاستيلاء على عكا والمدن الساحلية حتى يافا ، فضلاً عن جزيرة قبرص التي سلبوها سيدها المسيحي . على ان امراً واحداً قد تحقق ، هو توقف نشاط صلاح الدين في الفتح . إذ انهكت الحرب الطويلة المسلمين . وسوف لا يحاولون ، لفترة قصيرة على الأقل ، ان يردوا الصليبيين على اعقابهم الى البحر . والواقع ان المملكة قامت من جديد ، وأضحت من الاستقرار ما يكفي لأن تبقى مائة سنة اخرى . كانت مملكة بالغة الضآلة ، ومع ان ملوكها

يعتبرون ملوك بيت المقدس ، فإن بيت المقدس لم تكن في قبضة ايديهم. وكل ما تملكوه لم يتجاوز من الارض ما لم يزد عرضه على عشرة اميال ، ويمتد نحو تسعين ميلاً على الساحل من يافا الى صور . وفي اقصى الشمال استطاع بوهمند امير انطاكية بفضل سياسة الحياد الرشيدة ، ان يحتفظ لنفسه بعاصمته (انطاكية) وما يقع حولها من الاراضي حتى ميناء السويدية ، بينما حافظ ابنه على طرابلس ذاتها ، وحاز الاسبتارية حصن الاكراد ، ونال الداوية حصن انطرطوس ، بعد الاعتراف بالانتماء له . ومع انه لم يسلم من حطام الشرق الفرنجي إلا جزء صغير ، فإن ما جرى انقاذه اضحى بنجوة من الخطر .

وفاة صلاح الدين سنة ١١٩٣ :

ومـــع ان صلاح الدين لم يتجاوز وقتذاك الرابعة والخمسين من عمره ، فإنه اضحى منهوك القوى ، مريضاً ، بعد معاناته كل هذه الحروب . مكث في بيت المقدس حتى سمع بإقلاع رتشرد من عكا . فانصرف وقتذاك الى تنظيم الإدارة المدنية لإقليم فلسطين . وكان يأمـــل وقتئذ في ان تتهيأ له الفرصة لزيارة مصر ، ولتحقيق طموحه الديني بأن يسعى الى مكة للحج. غير ان الواجب اقتضى قدومه الى دمشق ، التي بلغها في ٤ نوفمبر سنة ١١٩٢ بعد ان ظلّ ثلاثـــة اسابيـــع يطوف بالبلاد التي استولى عليها ، وبعد ان التقى ببوهمند في بيروت ، فأبرم معه صلحاً نهائياً . وكان ينتظره بدمشق عمل متراكم ، ظلّ يتكدس أثناء السنوات الأربع التي امضاها مع الجيش. وإذ اشتد برد الشتاء ، وتوافر بعاصمته (دمشق) من العمل ما لا بدّ من انجازه ، ارجأ رحلته الى مصر ، وأجل ما نواه من الحج . فإذا توافر له شيء من الوقت ، امضاه في الاستماع الى مناظرات علماء الفلسفة ، وخرج

في بعض الاحوال الى الصيد . على انه لم تكد شهور الشتاء تنقضي حتى ادرك كل من سبق له به معرفة ان صحته اخذت في الانهيار . كان صلاح الدين يشكو من الإرهاق الشديد ، ومن فقد الذاكرة . واضحى من النادر ان يستقبل الزائرين . وفي يوم الجمعة ، ١٩ فبراير سنة ١١٩٣ تحامل على نفسه فركب للقاء الحجاج القادمين من مكة . وفي مساء ذلك اليوم ، اخذ يشكو من الحمى والوجع ، وتحمل صلاح الدين المرض صابراً مطمئناً ، بعد ان ادرك ان نهايته قد اقتربت . وفي اول مارس ، تغيب ذهنه ، فأسرع ابنه الأفضل يطلب ولاء الامراء ، ولم يبق جالساً عند فراش صلاح الدين إلا قاضي دمشق وجماعة من الخدام المخلصين . وفي يوم الاربعاء ، ٣ مارس وبينما كان القاضي يتلو القرآن ، حتى اذا انتهى الى قوله تعالى : « لا إله إلا هو ، عليه توكلت » . فتح صلاح الدين عينيه وتبسّم وتهلّل وجهه ومضى الى ربه [1] .

---

(١) اورد ابن شداد وصفاً حياً للأيام الاخيرة لصلاح الدين ، اذ كان اثناءها ملازماً له . انظر :
Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 392 - 402.

وانظر ايضاً ما ورد من روايات في :

Abu Shama, II, pp. 93 - 97.
Ibn al - Athir, II, pp. 72 - 75.
Ernoul, p. 304.
Estoire d'Eracles, II, p. 217.

أخطأ ارنول وتاريخ هرقل في اثبات تاريخ الوفاة ، فجعلاه سنة ١١٩٧ ، بينما كان في سنة ١١٩٦ في :
Gestes des Chiprois, p. 15.

اما روجر اسقف هوفدن فأورد التاريخ الصحيح ، ١١٩٣ .
Roger of Hoveden, III, p. 213.

يعتبر صلاح الدين من بين كبار رجال فترة الحروب الصليبية اكثرهم جاذبية . ولم يتجرّد من الاخطاء ، ففي سبيل الوصول الى السلطة ، اظهر من المكر والقسوة ، ما لا يتلاءم مع مـا حصل عليه من شهرة وصيت فيما بعد . لم يتردّد في سفك الدماء لصالح سياسته ، فأجهز بيده على رينالد شاتيون الذي كان يبغضه ، غير انه لم يحمله على القسوة إلا مصلحة قومه ودينه . كان شديد التقوى . وبرغم ما احسّ به من الرحمة والعطف نحو أصدقائه المسيحيين ، فإنه اعتقد ان ارواحهم مصيرها جهنم . ومع ذلك احترم اساليبهم ، واعتبرهم رفاقاً . واختلف عن ملوك الصليبيين في انه لم ينقض عهده متى بذل العهد لأحدهم ، مهما اختلف عنه في الدين . وبرغم حماسه الديني الشديد ، كان دمثاً سخيّاً ، وباعتباره غازياً وقاضياً اشتهر بالرحمة ، وباعتباره سيداً كان متسامحاً شديد التعقل والرزانة . ومع ان بعض امرائه نفروا منه لأنه كردي محدث النعمة ، ومع ان الدعاة في غرب اوروبا نعتوه بأنــه المسيخ الدجال ، فما من احد من رعاياه لم يكن له الاحترام ويشتد تعلقاً به ، كما ان اعجاب اعدائه به لم يشذ عنه إلا عدد ضئيل . كان ضئيل الجسم ، وفي حالة هدوئــه وسكونه ، كست وجهه مسحة من العبوس ، غير انه لا يلبث ان يفتر ثغره عن ابتسامة عذبة . واشتهر دائماً بالميل الى البساطة ، يكره الخشونة والتظاهر . احب الهواء الطلق ، وهوى الصيد ، على انه كان محباً للاطلاع ، ويجد متعة في المناقشات العقلية ، على الرغم من تخوف المفكرين الاحرار وارتياعهم منه . اشتهر صلاح الدين بالتواضع والهدوء ، برغم ما بلغه من سلطان وما حازه من انتصارات . وحدث بعد مضي سنوات عديدة ، ان نمي الى سمع كاتب فرنجي ، اسمه فنسانت اسقف بوفيه اسطورة تشير الى انــــه حينما كان صلاح الدين يعاني سكرات الموت ، استدعى حامل اللواء وأمره بأن يطوف

في انحاء دمشق ، وقد جعل بأعلى الرمح خرقة من كفنه وينادي بأن ملك المشرق لم يحمل معه الى القبر إلا هذه الخرقة [1] .

وما قام به صلاح الدين من اعمال تعتبر من المنجزات بالغة الأهمية ، إذ انه أتمّ جهود نور الدين بتوحيد الجبهة الاسلامية ، وطرد الدخلاء الغربيين من المدينة المقدسة الى شريط ضيق على الساحل الفلسطيني ، غير انه لم يستطع طردهم نهائياً ، إذ ان الملك رتشرد وقوات الحملة الصليبية الثالثة كانوا من الضخامة ما لم يكن بوسعه ان يتغلب عليهم . ولو أعقبه حاكم آخر من طرازه ، لتيسّر إنجاز ما تبقى من العمل ، الذي كان ضئيلاً . غير ان مأساة المسلمين في العصور الوسطى ، تتمثل في الافتقار الى النظم الثابتة اللازمة للاضطلاع بالسلطة بعد وفاة الزعيم . كانت الخلافة هي النظام الوحيد الذي كان له من الثبات ما يكفل استمرارها بعد وفاة متوليها . ولم يكن الخليفة وقتذاك قوياً من الناحية السياسية ، ولم يكن صلاح الدين من الخلفاء ، بل كان كردياً ؛ لم ينحدر من اسرة كبيرة ، ولم يفرض على العالم الاسلامي ان يطيعه إلا بقوة شخصيته ، وافتقر ابناؤه الى هذه الشخصية .

---

(١) انظر : Beha ed - Din, P.P.T.S. pp. 4 - 45.
اشاد ابن شداد بأخلاق صلاح الدين وأورد أمثلة ونوادر للتدليل على صدق روايته . ولم ترد قصة الخرقة الا عند :
Vincent of Beauvais (Douai edition) p. 1204.
والواقع ان التواريخ المسيحية لم تذكر صلاح الدين الا بالاحترام والاجلال . عن القصص الاسطورية المرتبطة بصلاح الدين انظر :
Lane Poole, Saladin, pp. 370 - 401.

وكان لصلاح الدين عند وفاته سبعة عشر ولداً وابنة واحدة صغيرة . ولم يكن أكبر الابناء ، الأفضل ، إلا شاباً متغطرساً في الثانية والعشرين من عمره ، أعده والده لأن يلي من بعده دمشق وزعامة البيت الأيوبي . وبينما كان صلاح الدين يحتضر ، استدعى الأفضل الأمراء ليحلفوا له يمين الولاء ، وليعدوا بأن يطلقوا زوجاتهم ، وليحرموا أبنـــاءهم من الميراث ، اذا نقضوا العهد . وجزع كثير من الأمراء للعبــارة الاخيرة ، كما ان أمراء آخرين لم يقبلوا ان يحلفوا ما لم يحلف الافضل ايضاً بأن يبقيهم في اقطاعاتهم[1] . غير انه لما مــات والده ، وجرت مواراته في الجامع الأموي الكبير بدمشق ، أضحت سلطة الافضل في دمشق معترفاً بهــا . اما اخوه الثــاني ، العزيز عثمان ، فكان فعلاً اميراً على مصر ، ولم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره ، فأعلن نفسه سلطاناً مستقلاً . وحكم حلب أخ ثالث ، وهو الظاهر غازي ، ولم يبــدِ الرضى بالاعتراف بسلطة اخيه ، على انه سيد أعلى . ووُلّي حوران أخ صغير آخر ، وهو خضر ، غــير انه لم يعترف بسيادة الافضل . ولم يبقَ على قيد الحيــاة من اخوة صلاح الدين بعد وفاته سوى اثنين ، هما : طغتكين ، الذي سبق ان خلف تورانشاه في الامارة على اليمن ، ثم العادل ، الذي كان من الطموح ما جعل صلاح الدين يرتاب

---

(١) اورد ابن شداد نسخة اليمين المحلوف بها وفصولها . الفصل الاول : « انني من وقتي هذا قد اصفيت نيتي ، وأخلصت طويتي للملك الناصر (صلاح الدين) مدة حياته ، وانني لا ازال باذلاً جهدي في الذب عن دولته بنفسي ومالي وسيفي ورجالي ، ممتثلاً امره ، واقفاً عند مراضيه ، ثم من بعده لولده الملك الافضل عليّ . ووالله انني في طاعته ، وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي ، وأمتثل امره ونهيه ، وباطني وظاهري في ذلك سواء ، والله على ما اقول وكيل» . ثم فصل التخريج. انظر ابن شداد: النوادر السلطانية، نشر الدكتور الشيال، ص٢٤٥.

فيه . وما كان للفرنج من البلاد الواقعة وراء نهر الاردن ، أضحت اقطاعاً له ، فضلاً عن بلاد الجزيرة حول الرها . وحاز أبنـاء اخوة صلاح الدين وأبناء اعمامه اقطاعات صغيرة في أنحاء ممتلكات السلطان . اما الاميران الزنكيان : عز الدين وعماد الدين ، فحـازا الموصل وسنجار على انهما من أتباع صلاح الدين ، ولا زال الأمراء الأراتقة مستقرين في ماردين وكيفا . ومن المقطعين الآخرين ، ومعظمهم كانوا من خيرة القادة الذين استخدمهم صلاح الدين ، كان أشهرهم بكتمر امير خلاط [1] .

المنازعات بين الأيوبيين سنة ١١٩٩ :

وبوفاة صلاح الدين أخذت الجبهة الاسلامية تتداعى . فبينما ساد التحاسد بين أبنائه ، ظهرت مؤامرة في الشمال الشرقي من الامبراطورية ، استهدفت إعـادة حكم الزنكيين متمثلاً في شخص عز الدين امير الموصل ، يسانده بكتمر والأمراء الأراتقة . ولم ينقذ الأيوبيين إلا ما اتخـذه العـادل من التدابير ، وما حدث من الوفاة المفاجئة لكلا الاميرين عز الدين وبكتمر ، وجرى الظن انه كان لعملاء العادل يد في وفاتهما . ووعّى هذا الدرس نور الدين ارسلان بن عز الدين ووارث ملكه ، وأقسنقر بن بكتمر وخليفته على أخلاط ، اللذان لم يسعهما في الوقت الراهن إلا إظهار الاحترام للعادل . وفي أقصى الجنوب ، وقع شجار بين الأفضل والعزيز ؛ ذلك ان

---

(١) انظر :
Abu Shama, II, pp. 101 - 109.
Ibn al - Athir, II, pp. 75 - 7.
Kemal ad - Din, trans. Blochet, p. 305.

الأفضل دفعته حماقته الى ان يعزل معظم وزراء والده ، وأن يجعل كل ثقته في ضياء الدين بن الأثير ، شقيق المؤرخ ابن الأثير ، بينما صار يمضي ايامه ولياليه في المباذل والفجور وسماع الموسيقى ومعاقرة الخمر . فهرب الوزراء المعزولون الى القاهرة ، الى العزيز الذي ابتهج للقائهم والترحيب بهم . وبناء على نصيحتهم ، أغار العزيز على الشام في مايو سنة ١١٩٤ ، فبلغ أسوار دمشق . وإذ ارتاع الأفضل ، استنجد بعمه العادل ، الذي قدم في عسكره من الجزيرة واجتمع بالعزيز في معسكره . فتقرر وضع ترتيب جديـد لحكومة الأسره الأيوبية . كان لزاماً على الأفضل ان يتنازل عن اقليم يهوذا (شمال فلسطين) الى العزيز ، وأن يتخلى عن اللاذقية وجبلة الى اخيه الظاهر غازي امير حلب ، على ان يعترف كلاهما (العزيز والظاهر) بسيادته . ولم يحظ العادل من الصفقة بشيء سوى ما حازه من مكانة بأن اصبح الفيصل والحكم بين أفراد الأسرة . ولم يستمر السلام طويلاً ، ففي أقل من سنة زحف العزيز على دمشق ، وقدم العادل مرة اخري لنجدة الأفضل . غير ان حلفاء العزيز من الأمراء اخذوا يتخلون عنه ، فطرده الافضل من يهوذا الى داخل مصر ، وقرر ان يزحف على القاهرة . على ان الافضل تجاوز بذلك ما أراده العادل ، فهدّد الافضل بأنه ما لم يعد الى دمشق ، فسوف يساند العزيز . وللمرة الثانية جرت الاستجابة لرغباته .

ولم يلبث ان اضحى جلياً ان الافضل لم يكن صالحاً لأن يحكم . إذ ان حكومة دمشق صارت كلها في يدي الوزير الضياء بن الأثير ، الذي أثار سخط أتبـاع سيده . وقرر العادل ان المصالح الأيوبية ليس بوسعها ان تتحمل بأن يكون رأس الأسرة (الافضل) بالغ الضعف والعجز . فغيّر العـادل سياسته ، وتحالف مع العزيز الذي بفضله انتزع دمشق في

يوليه ، سنة ١١٩٦ ، وأضاف اليه كل املاك الافضل ، ولجأ الافضل الى مدينة صلخد الصغيرة بحوران ، فانعزل بها عن الناس ، وتخلى عن حياة اللهو والفجور ، والتزم التقوى والورع ، وأضحى العزيز السلطان المطلق للأسرة كلها .

ولم يستمر هذا الاجراء سوى سنتين ، اذ ان العزيز الذي لم يكن له على عمه إلا سلطة اسمية ، هوى من على ظهر فرسه أثنـاء مطاردة ابن آوى قرب أهرام الجيزة ، فمات متأثراً بجراحه في ٢٩ نوفمبر سنة ١١٩٨ ، ولم يتجاوز عمر ابنه ، المنصور ، وقتذاك اثنتي عشرة سنة . وإذ خاف وزراء أبيه أطماع العادل ، استدعوا الافضل من صلخد ليتولى الوصاية على مصر . وقدم الافضل الى القاهرة في يناير سنة ١١٩٩ ، وتولى زمام الحكم بها . أما العادل فكان وقتذاك بالشمال ، يلقي الحصار على ماردين التي أوشك اميرها الارتقي ُبلـُك ارسلان ان يحطم ما للأيوبيين من سلطان عليه . وما وقع فيه العـادل من حيرة مؤقتة ، حملت ابن اخيه ، الظاهر غازي امير حلب ، على ان يعدّ حلفاً لمناوءته . والواقع ان الظاهر غازي ظلّ يزعجه طوال حكمه في حلب ما أثاره أتباعه له من الاضطراب والفتنة ، وارتاب في ان عمه العادل يشجعهم على ذلك . وبينما ارسل الافضل جيشاً من مصر لمهاجمة دمشق ، كان الظاهر غازي يتجهز للهبوط عليها من الشمال . وانحاز اليهما أمراء أيوبيون آخرون مثل شيركوه صاحب حمص . فعجّل العادل بالقدوم من ماردين بعد ان عهد الى ابنه الكامل بالمضي في الحصار ، فبلغ دمشق في ٨ يونيه سنة ١١٩٩ . ولم تمض ستة ايام على وصول العادل ، حتى قدم الجيش المصري واستطاع بعد اول هجوم شنه على دمشق ، ان ينفذ الى داخل المدينة ، غير انه لم يلبث ان ُطرد منها . أما الظاهر

غازي فانه وصل بجيشه بعد اسبوع . وظل الأخوان ، الافضل والظاهر يحاصران عمهما العادل في العاصمة (دمشق) لمدة ستة أشهر ، غير ان العادل بفضل ما اشتهر به من البراعة والحذق في الدبلوماسية ، استطاع رويداً رويداً ان يكسب الى جانبه أتبـــاع ولدي اخيه ، ومن بينهم شيركوه امير حمص . فلما حدث آخر الامر ، في يناير سنة ١٢٠٠ ، ان ظهر ابنه الكامل بجيشه ، الذي أحرز انتصارات باهرة في الجزيرة ، تفرّق الاخوان ، الافضل والظاهر ، وانسحبا من دمشق ، بعد ان وقع بينهما الشجار . وطارد العادل الافضل الى مصر ، فأنزل الهزيمة بعساكره عند بلبيس . على ان الافضل انصاع الى عمه بعد ان انتابته نوبة جديدة من الورع والتقوى ، فعاد الى عزلته في صلخد . وتولى العادل الوصاية على حكومة مصر . غير ان الظاهر غازي لم تحل به الهزيمة ، ولذا قام بزحف مفاجىء على دمشق في الربيع التالي ، بينما كان العادل لا يزال في مصر ، فأقنع الافضل الظاهر بالانحياز اليه ، مرة اخرى . عجّل العادل بالعودة الى عاصمته (دمشق) في الوقت المناسب ، ولكنه تعرّض للحصار من قبل ولدي اخيه (الظاهر والافضل) . على انه لم يلبث ان استطاع ان يثير الشجار بينهما ، وأن يكسب الى جانبه الافضل ، بأن وعده بأن يمنحه مدينتي سميساط وميافارقين الواقعتين بشمال الدولة الأيوبية ، مقابل التخلي عن صلخد . وأخذ أتباع الظاهر يتخلون عنه الواحد بعـــد الآخر ، فابتهج لعقد الصلح مع عمه العادل ، واعترف له بالسيادة المطلقة . ولم تنقض سنة ١٢٠١ حتى أضحى العادل سيداً على امبراطورية صلاح الدين ، واتخـــذ لقب السلطان . أما المنصور صاحب مصر فلم يحز إلا مدينة الرها . ولم يتيسر للأفضل السيطرة على ميافارقين ، التي انتقلت مع ما يجاورها من البلاد الى المظفر ، رابع أبناء العادل ، وتولى الكامل أكبر أبنـــاء العادل

حكومة مصر ، على ان يكون تابعاً له ؛ وناب عنه المعظم عيسى ثاني أبنائه ، في حكومة دمشق ، بينما تولى الأشرف ، ابنه الثالث ، حكم معظم بلاد الجزيرة ، ابتداء من حرّان . وكلما كبر الأبنـــاء الصغار ، حازوا اقطاعات ، وبذا عادت الوحدة الاسلامية تحت زعامة امير ، لا يضارع صلاح الدين في احترام الناس له ، ولكنه يفوقه في المكر والنشاط [1] .

حكومة هنري كونت شامبانيا سنة ١١٩٤ :

وما حدث من منازعات في الاسرة الأيوبية ، منع المسلمين من مهاجمة مملكة الفرنج التي انبعثت من جديد . واستطاع هنري كونت شامبانيا ، في تؤدة ، ان يعيد اليها قدراً من الأمن . ولم يكن ذلك جهداً هيناً ، كما ان وضع هنري لم يكن مستقراً ، فلأسباب لا داعي لشرحها ، لم يُتوّج هنري ملكاً ، ولعـله كان ينتظر على أمل ان يحلّ اليوم الذي يسترجع فيه بيت المقدس ، او لعله أدرك ان الرأي العام ليس راغباً في الاعتراف به ملكاً ، او لعله لم يلقَ من الكنيسة ما ينشده من التعاون [2] . ومـا

---

(١) عن تاريخ الايوبيين في هذه السنوات الطافحة بالفوضى والاضطراب ، انظر :

Abu Shama, II, pp. 110 - 149.

Ibn al - Athir, II, pp. 78 - 89.

Cahen : La Syne du Nord, p. 381, n. 3.

(٢) انظر المناقشة الطريفة عن هذا الموضوع الواردة في مقال براور :

Prawer : « L'Etablissement des coutumes du Marché à Saint - Jean d'Acre ».
Revue Historique de Droit Français et Etranger, 1951.

يشير براور الى ان ما تم من زواج هنري من ازابيللا ، ولم يمض على وفـاة زوجها (كنراد) إلا بضعة ايام ، لا يعتبر مشروعاً ، إذ لا تقره تقاليد البلاد ، ولذا احس هنري بالخجل باتخـاذ اللقب الملكي .

جرى من اغفاله اتخاذ لقب الملك ، قيّد سلطته ، ولا سيما على الكنيسة . فلما مات البطريرك هرقل ، ظهرت الصعوبة في العثور على مَن يخلفه ، وحدث آخر الامر ان تمّ تعيين احد رجال الدين المغمورين ، واسمه رادولف ، بطريركاً . ولما توفي رادولف سنة ١١٩٤ ، اجتمع كبار رجال كنيسة القيامة الذين كانوا وقتذاك بعكا ، واختاروا رئيس أساقفة قيسارية ، بطريركاً باسم ايمار الملقب بالراهب ، ثم ارسلوا الى روما للتصديق على الانتخاب . وإذ استاء هنري لهذا الاختيار ، واحتجّ في عنف على انه لم تجر استشارته ، أمر بإلقاء القبض على رجال كنيسة القيامة . وتعرض هذا الإجراء للنقد الشديد ، حتى من أصدقائه ، لأنه لم يكن الملك المتوّج ، فليس له الحق في التدخل . على ان كبير وزرائه ، جوسياس ، رئيس أساقفة صور ، أقنعه بالتنازل عن دعاويه ، وتهدئة الكنيسة بأن يطلق سراح رجال الدين ، والاعتذار اليهم ، وبذل اقطاع ثقيل قرب عكا لابن اخت البطريرك الجديد ، على انه تلقى في الوقت ذاته لوماً شديداً من البابا [1] . ومع ان السلام قد عاد ، فان البطريرك لم يشأ ان يظهر امتنانه الى هنري بأن يتوّجه ملكاً .

على ان هنري كان أسعد حظاً مع أتباعه العلمانيين ، إذ لقي التأييد من زعيمهم ، باليان ابلين ، ومن الطوائف الدينية العسكرية . غير ان جاي لوزجنان لا زال يتطلع من قبرص الى مملكته السابقة ، وشجّعه البيازنة

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 203 - 205. (Manuscript D).

الذين سبق ان وعدهم بامتيازات وافرة ، والذين غضبوا لما أبداه هنري من العطف على الجنويين . ففي مـــايو سنة ١١٩٣ ، اكتشف هنري ان البيازنة في صور دبّروا الاستيلاء على المدينة ، وتسليمها الى جاي . فبادر بإلقاء القبض على مدبّري المؤامرة ، وأمر بتخفيض عدد جاليـة البيازنة الى ثلاثين شخصاً . وانتقم البيازنة لأنفسهم بأن أغاروا على القرى الساحلية الواقعـة بين صور وعكا . ولا زال كندسطبل المملكة هو شقيق جاي ، امالريك لوزجنان ، الذي كان مسؤولاً عن قدوم جاي الى فلسطين قبل سنوات عديدة ، والذي حـــاول ان يقيم علاقات طيبة مع البارونات المحليين . اما زوجة امالريك فكانت ايشيفا ابلين ، ابنة أخ باليان ، وهو بلدوين سيد الرملة ، الذي يُعتبر ألدّ أعـــداء جاي لوزجنان . لم يكن امالريك لوزجنان فيما مضى زوجاً مخلصاً ، غـير انه لم يلبث ان تصالح مع زوجته . ولما تدخّل امالريك لصالح البيازنة ، أمر هنري بإلقاء القبض عليه بسبب هذا التدخل . ولم يلبث مقدما الاسبتارية والداوية ان أقنعا هنري بإطلاق سراحه ، غير ان امالريك اعتقد انه من الحكـة ان يلجأ الى يافا ، التي نصّب الملك رتشرد حاكماً عليها جفري ، شقيق امالريك . لم يتخلّ امالريك عن وظيفة كندسطبل المملكة ، غـير ان هنري اعتبر انه فقد حقه فيها سنة ١١٩٤ ، فعيّن خلفاً له يوحنا ابلين ابن باليان ، وهو اخ غير شقيق لإيزابيلا . وتقرر عقد الصلح حوالي ذلك الوقت مع البيازنة ، فعاد اليهم حيّهم بعكا ، واعترفوا منذئذ بحكومة هنري[1] .

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 202 - 203.

ولما مات جاي لوزجنان في قبرص ، في مـايو سنة ١١٩٤ ، تيسّر اجراء الوفاق العام . إذ ان اختفاءه كفل الامن والطمأنينة لهنري ، وحرم البيـازنة وسائر المنشقين من مرشح منافس يتطلع الى العرش . وأوصى جاي بمُلكه في قبرص الى اخيـه الاكبر ، جفري . غير ان جفري قد عاد الى فرنسا ، ولم يتردد الفرنج في قبرص في استدعاء امالريك من يافا ، ليحل مكانه . وطلب هنري اول الامر ، باعتباره ممثلاً لملوك بيت المقدس ، أنه ينبغي استشارته في ولاية الحكم ، غير انه لم يستطع تحقيق دعواه ، ولم يلبث هنري وأمالريك ان ادركا انه لا بد لهما من العمل معاً . فقدم الى عكا كندسطبل قبرص ، وهو بلدوين ، الذي سبق ان كان سيداً لبيسان ، وحثّ هنري على ان يعترف اولاً بأمالريك ، وأن يعد بزيارته في قبرص . واتسم لقاؤهما بالمودة والصداقة ، ورتبا سويـاً اقامة تحالف وثيق بينهما ، عززاه بمـا حدث من خطبة ابناء امالريك الثلاث ، جاي ويوحنا وهيو ، لبنات ايزابيلا الثلاثة ، ماريا مونتفيرات ، وأليس وفيليبا شامبانيا . وبذا راودهما الأمل في ان تتحد ممتلكاتها في الجيل التـالي ، غير ان اثنين من الأمراء القبارصة ماتا في سن مبكرة ، ولم يتحقق من الزيجات إلا تلك التي جرت بين هيو وأليس ، والتي حملت ثمرة الأسرة في الوقت المناسب . على ان الحاجة كانت ماسة الى مثل هذا الترتيب ، لأنه اذا لم يكن الغرض من تملك الفرنج لجزيرة قبرص سوى ان يفيد منه الفرنج بفلسطين ويمدّهم بقاعدة بالغة الامن ، فلا بد للاقليمين ان يتعاونا . اضحت قبرص موطن اغراء متصل ، لا فحسب للمهاجرين القـادمين من الغرب كيما يحلوا بهـذه الجزيرة البهيجة ، لا في البقية الباقية من مملكة بيت المقدس ، حيث لم يعد بها شيء من الاقطاعات ، بل ايضاً لبارونات فلسطين بعد ان تجردوا من اقطاعاتهم ، ليجتازوا اليهـا البحر الضيق .

فـاذا كان سادة قبرص يودون اجتياز البحر للقتال من اجل الصليب ، كلما اقترب الخطر ، فسوف تكون قبرص بالغة الاهمية للشرق الفرنجي . ولو وقعت خصومات ، فسوف تصبح قبرص قوة طاردة خطيرة [1] .

مملكة قبرص سنة ١١٩٧ :

على الرغم من العلاقات الودية بين اماريك وهنري ، لم يكن اماريك مستعداً لأن ينقاد لهنري او يخضع له . لقد سعى اماريك فعلاً للحصول على اللقب الملكي ، كيما يحدد في وضوح لرعاياه والنزلاء والدول الاجنبية طبيعة سلطته . غير انـه احسّ بالحاجة الى قوة عُليا تقرّ سلطانه . ولا بد ان التاريخ الغابر لملوك بيت المقدس حمله على ألا يطلبْ الى البابا ان يبذل له التاج . ومن المحقق ان الامبراطور الشرقي (البيزنطي) سوف لا يمنحه التاج . ولذا ارسل الى امبراطور الغرب هنري السادس يلتمس منه التاج، برغم ما تبين مستقبلاً مجافاة هذا الطلب للسداد والحكمة . كان الامبراطور هنري السادس وقتذاك يضع خطته لحرب صليبية ، فان يكن له في الشرق ملك تابع ، فسوف يكون بالغ الاهميـة له . ففي اكتوبر سنة ١١٩٥ قام رينييه اسقف جبيل وسفير اماريك ، ببذل الولاء بالنيابة عن سيده للأمبراطور هـنري السادس ، في جيلنهاوزن ، قرب مدينـة فرانكفورت . فبعث الامبراطور الى اماريك صولجان الملك ، وتمّ التتويج

---

(١) انظر : Hill : History of Cyprus, II, p. 44.
Estoire d'Eracles, II, pp. 207 - 208, 212 - 213 (Manuscript D).
يشير هذا المصدر الى الوفاق بين هنري وأماريك .

في سبتمبر سنة ١١٩٧ ، حين قدم كنراد أسقف هيلدسهايم ، وكبير وزراء الامبراطور ، الى نيقوسيا ، للاشتراك في احتفال التتويج ، فبذل له اماريك يمين الولاء والتبعية [١] .

تقرر ان تلتزم حكومة قبرص بالسير على التقاليد الاقطاعية التي كانت سائدة في مملكة بيت المقدس ، فيكون بهـا محكمة عليا على نسق المحكمة العليا بمملكة بيت المقدس ، وأن يسري بالجزيرة استخدام قوانين بيت المقدس ، وما اضافه اليها ملوك قبرص من قوانين . ولتنظيم الكنيسة ، لجأ اماريك الى البابا ، فعين رئيس شمامسة اللاذقية ، وألن رئيس شمامسة لد ، ومتولي المحفوظات والوثائق بجزيرة قبرص ، كيا يقيموا بها من الكراسي الدينية ما يعتقدون انها خير المراكز . فأنشأوا في نيقوسيا رئاسة اسقفية تولاهـا ألن ، كما اقاموا اسقفيات في بافوس ، وفاماجستا ، وليماسول . ولم تتقرر المبادرة الى طرد الاساقفة اليونانيين ، غير ان ما كان لهم من ضريبة العشور وقدراً كبيراً من ممتلكاتهم اضحت في ايـدي المقطعين الكنسيين اللاتين الجدد [٢] .

ومع ان هنري كونت شامبانيا لم يستطع ان يظفر بالسيطرة على

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 209 - 212.
Ernoul, pp. 302 - 303.
Arnold of Lubeck, p. 204.
Annales Marbacenses, p. 167.

(٢) أنظر : Mas Latrie, Documents, III, pp. 599 - 605.
Machieras, pp. 28 - 29.

جزيرة قبرص ، فإن البارونات بمملكته الجديدة اضحوا موالين له . والواقع ان خصومه كانوا سعداء بالتجائهم الى قبرص ، بعد ان تخلوا عن اراضيهم بفلسطين الى اصدقائهم . فعاد السادة السابقون لحيفا وقيسارية وأرسوف الى بارونياتهم السابقة ، والمعروف ان صلاح الدين جعل قبل وفاته ، لباليان ابلين اقطاعاً ثميناً في القيمون اوتل القيمون على منحدرات جبال الكرمل [1] . وما كان لهنري من صداقة مع اسرة ابلين ، وفيها زوج والدة امرأته ، واخوتها غير الاشقاء ، تعتبر عظيمة القيمة في الاعتراف التام بسلطته . على ان إمارة انطاكية سببت مشكلة كبيرة .

فالمعروف ان بوهمند الثالث امير انطاكية ، وكونت طرابلس ايضاً باسم ابنه الصغير ، قام بدور مريب اثناء حروب صلاح الدين والحرب الصليبية الثالثة ، إذ لم يبذل محاولة صادقة لمنع صلاح الدين من الاستيلاء على قلاعه في وادي نهر الاورنت ، سنة ١١٨٨ ، ولم يسترد اللاذقية وجبلة التي سقطتا في ايدي المسلمين ، بما ارتكبه من خيانة موظف مسلم عنده ، اسمه القاضي منصور بن ثبيل [2] . وفرح بوهمند بما قبله من صلاح الدين من هدنة اجازت له الاحتفاظ بأنطاكية وميناها السويدية . أما طرابلس

---

(١) انظر Ernoul, p. 293.

(٢) في الاصل نبيل ، وما هنا من ابن الاثير : الكامل جـ ٩ ، ص ١٩٠ اذ اورد ابن الاثير «ان صلاح الدين لما اقام تحت حصن الاكراد ، اتاه قاضي جبلة ، وهو منصور بن ثبيل يستدعيه اليه ليسلمها اليه . وكن هذا القاضي عند بيمند صاحب انطاكية وجبلة ، مسموع الكلمة ، له الحرمة الوافرة والمنزلة العالية ، وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها ، وعلى ما يتعلق بالبيمند. فحملته الغيرة لدين على قصد السلطان ، وتكفل له بفتح جبلة ولاذقية والبلاد الشمالية» .

فلم ينقذها لإبنه سوى تدخل الاسطول الصقلي . فلما وصل الى انطاكية فردريك دوق سوابيا وفلول جيش فردريك بربروسه ، تقدم بوهمند باقتراح طريف ، يقضي بأن ينوب هؤلاء الالمان عنه في قتال المسلمين في الشمال ، فلما زحفوا جنوباً لم يقم بوهمند بدور ايجابي في الحرب الصليبية الثالثة ، سوى انه قام بزيارة ودية للملك رتشرد في جزيرة قبرص ، وفي تلك الاثناء غيّر وضعه فيما يتعلق بسياسة الاحزاب في فلسطين . فما كاد ابن عمه ، ريموند الثالث كونت طرابلس ، يلقي حتفه ، وحاز ارث طرابلس لإبنه ، حتى بذل التأييد لجاي لوزجنان وأصدقائه ، والراجح انـه لم يفعل ذلك إلا لخوفه بأن كنراد مونتفيرات لا بدّ ان اعدّ خططاً للسيطرة على طرابلس. فـلم يشأ بوهمند الثالث ان يكون على طرفه الجنوبي ملك قوي يميل للاعتداء ، نظراً لأنـه كان منصرفاً الى النزاع مع جاره في الشمال ، ليو الثاني الروبيني امير ارمينيا ، وشقيق روبين الثالث وولي عهده .

ليو الثاني امير ارمينيا سنة ١١٨٦ :

لما تولى ليو العرش ، سنة ١١٨٦ ، سعى الى التحالف مع بوهمند الثالث امير انطاكية ، فاعترف بسيادته . واشترك الاميران في ردّ غارة قام بها التركمان سنة ١١٨٧ ، ولم يلبث ليو ان تزوج ابنـة اخت الأميرة سبيللا زوجة بوهمند . وحوالي ذلك الوقت أقرض بوهمند مبلغاً كبيراً من المال . غير ان الصداقة انتهت عند هذا الحد ، لأن بوهمند لم يتعجل تسديد المبلغ الذي اقترضه ، فلما أغار صلاح الدين على بلاد انطاكية ، حرص ليو على التزام الحيـاد . ودمّر صلاح الدين ، سنة ١١٩١ ، حصن بغراس الضخم ، بعـد ان انتزعه من أيدي الداوية ، غير انه لم يكد رجاله يغادرون

المكان ، حتى قدم اليه ليو ، فاحتلّ الموضع وأعاد بنـاء الحصن . وطلب بوهمند الى ليو ان يردّ الحصن الى الداوية ، فلما رفض ليو طلبه ، تقـدم بوهمند بالشكوى الى صلاح الدين . غير ان صلاح الدين لم يتدخل ، نظراً لشدة انهاكه في العمل في جهـة اخرى ، فظلّ حصن بغراس في حوزة ليو . غير انه غضب لاستنجاد بوهمند بصلاح الدين ، على ان ثائرته هدأت بفضل تدخّل سبيللا زوجة بوهمند ، لما كانت تأمله في الإفادة من مساعدة ليو في ان تظفر بإرث انطاكية لابنها ولم على حساب أبنـاء زوجها . ففي اكتوبر سنة ١١٩٣ وجّه ليو الدعوة الى بوهمند للقدوم الى بغراس ، لمناقشة المشكلة بأكملها ، فوصل بوهمنـــد الى بغراس ، وبصحبته سبيللا وابنها ، وقبل بوهمند مـا عرضه ليو من استضافته داخل اسوار القلعة . على انه لم يكد بوهمند يدخل الى القلعة ، حتى وقع مع كل حاشيته في أسر مضيفه (ليو) ، وجرى إخطاره بأنه لن يطلق سراحه ما لم يتنازل الى ليو عن السيادة على انطاكية . ولم يسَع بوهمند إلا ان يقبل في أسى شروط ليو . ولعله لم يفعل ذلك إلا بتحريض سبيللا التي كانت تأمل في ان ليو ، باعتباره سيد انطاكية ، سوف يجعـــل لابنها ولاية الحكم في انطاكية . على انه تقرر إرسال مارشال بوهمند ، وهو بارثولوميو تيريل ، وصهر ليو هيثوم ساسون مع عساكر ارمنية الى انطاكية ، لإعداد المدينة للعهد الجديد .

ولما وصل الوفد الى انطاكية ، أبدى البارونات بهـا ، الذين لم يحبوا بوهمند ، والذين تجري الدماء الارمنية في عروق عدد كبير منهم ، استعدادهم لقبول ليو سيداً أعلى ، وسمحوا لبارثولوميو ان يدخل بالعساكر الارمنية الى انطاكية ، وبأن يستقروا في قصر اميرها . غير ان الوطنيين البورجوازيين

من اليونانيين واللاتين سواء ، ارتاعوا لما حدث ، اذ اعتقدوا ان ليو نوى ان يحكم بنفسه المدينـــة ، وان الأرمن سوف يسيطرون عليهم . فحينما لم يولِ احد العساكر الارمن الاحترام في حديثه عن القديس هيلاري ، وهو الشهيد الفرنسي الذي دشنت باسمه كنيسة القصر ، شرع احد الكيلارية ، المسؤولين عن مؤن القصر وحاجاته ، وكان حاضراً ، في قذفه بالحجارة . فنشبت على الفور ثورة بالقصر وانتشرت في أنحاء المدينة . فجرى طرد الارمن من المدينة ، فأدركوا ان من الحكمة ان يرجعوا مع هيثوم ساسون الى بغراس . وعنـــدئذ اجتمع اهل المدينة ، وعلى رأسهم البطريرك ، في كاتدرائيـــة القديس بطرس بأنطاكية ، وشرعوا في ان يؤلفوا قوموناً (حكومة) يتولى ادارة المدينـــة . وكيما يجعلوا وضعهم مشروعاً ، بادر أعضاء القومون المنتخَبون الى ان يقسموا يمين الولاء لريموند اكبر ابنـــاء بوهمند ، حتى يعود بوهمند من الأسر . وَقبِـل ريموند انتماءهم اليه ، واعترف بمطالبهم . وفي تلك الأثناء أنفذ الرسل الى اخيه بوهمند كونت طرابلس ، والى هنري كونت شامبانيا ، يتوسل اليهما القـــدوم الى انطاكية للحفاظ عليها من الارمن .

دلـّت الحلقة (القصة) على انه بينما كان البارونات مستعدين لأن يتجاوزوا ما فعله أبناء عمومتهم في بيت المقدس ، بأنهم يعتبرون أنفسهم من مسيحيي الشرق ، فان مقاومة هذا الاندماج ، جاءت من الجالية التجارية . غير ان الاحوال هنا اختلفت عنها في مملكة بيت المقدس قبل بضع سنوات . إذ ان الفرنج واليونانيين في انطاكية اعتبروا الارمن جبليين همجاً متوحشين . أمـــا الكنيسة اللاتينية في انطاكية الممثلة في شخص البطريرك ، فانها أظهرت العطف على القومون ، غير انه يعتبر موطن شك

ما اذا كانت الكنيسة اللاتينية قد قامت بدور كبير في مستهل حكومة القومون . اذ ان البطريرك رادولف الثاني كان شيخاً كبير السن ضعيفاً ، لم يل البطريركية إلا منذ وقت قريب ، بعد وفـاة ايمري اسقف ليموج المعروف بشجاعته وبسالته . والراجح ان أكبر المحرضين ليسوا إلا التجار الايطاليين الذين خافوا على تجارتهم في ظل سيطرة الارمن . على ان فكرة القومون ، أكثر ما تطرأ وقتذاك على خاطر الايطالي لا الفرنسي . غير انه أياً كان مشجع القومون ، لم يلبث اليونانيون بانطاكية ان قاموا بدور كبير فيه [1] .

هنري كونت شامبانيا والحشيشية سنة ١١٩٤ :

هرع بوهمند كونت طرابلس الى انطاكية ، تلبية لاستغاثات اخيه ، فأدرك ليو ان فرصته قـــد ضاعت . ولم يسعه إلا ان يلجأ بأسراه الى عاصمته ، سيس . وفي أوائل الربيع التـــالي ، قرر هنري كونت شامبانيا ان يتدخل . ومن حسن الطالع ان المسلمين لم يكونوا ، بعد وفاة صلاح الدين في أحوال تسمح لهم بالقيام بأعمال عدوانية . على ان هذا الوضع الخطير لن يستمر زمناً طويلاً . فحينا تحرّك هنري صوب الشمال ، التقى بسفارة من قِبل الحشيشية . ذلك ان سناناً شيخ الجبال مات منذ زمن قريب ، وحرص خليفته على إحياء الصداقة التي كانت قائمة بين الحشيشية والفرنج . فبعث بأعذاره عن مصرع كنراد مونتفيرات ، على ان هـــذه الجريمة لم يتعذر على هنري ان يغتفرها ، ودعا هنري لزيارة قلعته بالكهف . وفي

---

(١) انظر : Cahen : La Syrie du Nord, pp. 582 - 585.

هـذه القلعة الواقعة بالقمة الجرداء لجبال النصيرية ، هيأ الحشيشية لهنري المتعة الفائقة . فظلوا يعرضون عليه ، حتى توسل اليهم هنري ان يوقفوا العرض ، كيف كان الحشيشية يقدمون عن طيب خاطر على قتل انفسهم متى تلقوا من شيخهم الأوامر بذلك . وغادر هنري الكهف مثقلاً بالهدايا النفيسة ، ومزوّداً بوعد ودي من الحشيشية بأن يغتالوا كل من يذكر لهم اسمه من خصومه (١) .

وسار هنري من الكهف على الساحل الى انطاكية حيث توقف قليلاً ، قبل ان يواصل رحلته الى ارمينية . وإذ كره ليو أن يواجه حرباً صريحة ، التقى بهنري امام سيس وأبدى استعداده للتفاوض من اجل تسوية . وتم الاتفاق على انه ينبغي اطلاق سراح بوهمند ، دون ان يؤدي فدية ، والاعتراف بأن تعتبر بغراس وما حولها من البلاد ، املاكاً ارمنية ، وينبغي ألا يكون كل من الاميرين سيداً على الآخر . ولتوثيق المعاهدة ، ولتوحيد الامارتين نهائياً كما كان يرتجى ، كان لزاماً على ريموند ولي عهد بوهمند أن يتزوج أليس ابنة روبين الثالث ، وابنة اخ ليو ، ووريثة ملكه . والمعروف ان أليس تزوجت فعلاً من هيثوم ساسون ، غير انه تيسر التغلب على هذه المشكلة ، إذ ان هيثوم لقى حتفه فجأة في الوقت المناسب . وكفلت التسوية السلام للشمال ، ودلّ هنري باعتبار انه هو الذي

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 323 - 324.
Estoire d'Eracles, pp. 216 , 231 (Manuscript D) .

وضع هذه التسوية ، على انه جدير بأن يخلف الملوك الاوائل لبيت المقدس ، فلما عاد الى الجنوب ، ازدادت مكانته سمواً ورفعة [1]

تتويج ليو الثاني سنة ١١٩٨ :

على أن مطامع ليو لم تنته عند هـذا الحد . فحينما علم ان امالريك صاحب قبرص يسعى للحصول على التاج الملكي ، جرى على منواله . غير ان رأي رجال القانون في ذلك العصر ، اعتبر انه لا يصح ان يبـــذل التاج إلا الأمبراطور ، او البـابا وفقاً لرأي الفرنج . وإذ عزلت الفتوح السلجوقية بيزنطة عن قليقية والشام ، لم تعد بيزنطة من القوة ما يكفي لأن يقدر ألقابهـا الفرنج الذين احب ليو ان يترك اثراً عنـدهم . ولذا ارسل الى هنري السادس ، امبراطور الغرب ، الذي تجنب الصدق في ردّه . إذ كان يأمل في ان يبادر بالقدوم الى الشرق ، وعندئذ ينظر في المشكلة الارمنية . كما ان ليو اتصل بالبابا سلستين الثالث . والمعروف ان ليو كان فعلاً على اتصال بروما زمن البـابا سلستين الثالث ، بأن ألمع الى خضوع كنيسته للبابوية ، لأنه علم انه لن يكون مطلقاً سيداً مقبولاً عند الفرنج ، نظراً لأنه يعتبر رئيس دولة متهرطقة . غير ان رجال الدين الارمن الذين اشتدت غيرتهم على استقلالهم ومذهبهم ، قاوموا في عنف هذا التقـارب بين ليو والبابا . ولكن ليو لم يكف عن المثابرة ، حتى اقتنع رجال الدين كارهين بأن السيادة البابوية سوف تكون اسمية ، ولن تغيّر شيئاً ، بينما

---

(١) انظر : Cahen, op. cit, pp. 585 - 586.

جرى اخطار مندوبي البابا سلستين الثالث ، أن الاساقفة رحبوا بالاجماع بهذا التغيير . وتذرع البابا بالصبر والدبلوماسية ، ولذا لم يثر مندوبوه شيئاً من الاسئلة . وفي تلك الاثناء وعد الامبراطور هنري مثلما وعد امالريك ، ببذل التاج الملكي لليو ، مقابل الاعتراف له بحقوق السيادة على ارمينية . وسوف يجري التتويج فعلاً عند قدوم هنري الى الشرق . على ان هنري السادس لم يقم مطلقاً بزيارة الشرق ، غير انه حدث في يناير سنة ١١٩٨ ، عقب وفاة هنري السادس ، ان قدم الى سيس ، كنراد اسقف هيلدسهايم متولي ديوان الوثائق عنده ، بصحبة المندوب البابوي كنراد رئيس اساقفة ماينز ، فشهد ما جرى من احتفال ضخم بتتويج ليو . امـــا امبراطور الشرق (بيزنطة) ، الكسيوس الجيلوس الذي كان يأمل في المحافظة على مـــا تبقى له من نفوذ في قليقية ، فانه ارسل منذ بضعة شهور تاجاً الى ليو ، فقبله ممتناً شاكراً . وتولى جاثليق الارمن ، جريجوري ابيراد وضع التاج على مفرق ليو ، بينما منحه كنراد صولجان الملك . وشهد مراسيم الاحتفال رئيس اساقفة الارثوذكس بطرسوس ، والبطريرك اليعقوبي ، ورسل من قبل الخليفة العباسي ، فضلاً عن عدد كبير من نبلاء انطاكية . وأضحى بوسع ليو ان يزعم ان كل رعاياه وجيرانه اعترفوا به ملكاً[١] .

كان يوماً حافـــلاً عند الارمن ، الذين رأوا فيه احياء لمملكة الارمن القديمة ، وتمّ فيه ادماج إمارة روبين في عالم الشرق الفرنجي . على ان ما يدعو للارتياب مـــا اذا كانت سياسة ليو تخدم مصالح الارمن قاطبة ،

---

(١) انظر : Cahen, op. cit, pp. 587 - 590.

لأنها فصلت الارمن بأرمينيا الكبرى ، موطن عنصرهم وجنسهم عن اخوانهم بالجنوب . وأدرك الارمن بقليقية ، بعد نشوة المجد قصيرة الأمد ، ان الصبغة الغربية لم تعد عليهم آخر الأمر إلا بربح ضئيل .

والواقع ان قدوم رئيس الاساقفة كنراد الى الشرق يرجع الى عزم الامبراطور هنري السادس على إثارة حرب صليبية جديدة . على ان ما اسهم به الالمان في الحرب الصليبية من جهد كان ضئيل الاهمية ، نظراً للوفاة المفاجئة لوالده الامبراطور فردريك بربروسه . كان هنري السادس طموحاً في ان يجعل من امبراطوريته حقيقة دولية ، ولذا كان اول عمل يقوم به ، بعد ان استقر له الأمر في اوروبا ، هو انه ينبغي ان يستعيد ما للالمان من مكانة في الارض المقدسة . فبينما تولى بنفسه وضع الخطط لحملة كبيرة تخضع لسلطانه كل البحر المتوسط ، رتب امر المبادرة بإرسال حملة المانية عاجلة ، تبحر رأساً الى سوريا . فخرج من باري كنراد رئيس اساقفة ماينز ، وأدولف كونت هولشتين على رأس حشد كبير من العساكر ، جنّد معظمهم من بلاد الراين ودوقيات الهوهنشتاوفن . فوصلت الكتائب الاولى الى عكا في اغسطس ، غير ان قائديها توقفا في قبرص لتتويج امالريك ، وسبقهما هنري دوق برابانت في فصيلة من رفاقه [1] .

لم يستقبل هنري كونت شامبانيا بارتياح القوات الالمانية . إذ تعلم من

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II. pp. 214 - 216 (Manuscript D) .
تقرر في ديات جيلنهاوزن اتخاذ التدابير اللازمة للحرب الصليبية التي عزم هنري على شنها ، انظر : Annales Marbacenses, p. 167.

خبرته ما تنطوي عليه إثارة حرب لا داعي لها من حماقة . وكان كبار مستشاريه من الايبليين امثال زوج والدة امرأته ، وأبنائـــه من زوجة اخرى ، فضلاً عن سادة طبرية ، ابناء زوجة ريموند كونت طرابلس . ولما اشتهر به الايبليون من الولاء لتقاليد اسرتهم ، اسدوا النصح لهنري بـأن يتفاهم مع المسلمين ، وأن ينتهج دبلوماسية دقيقة ، بأن يوقع بين ابناء صلاح الدين وإخوته ، الواحد ضد الآخر . وظفرت هذه السياسة بالنجاح وتحقق السلام الذي يعتبر جوهرياً لاسترجاع المملكة المسيحية ، برغم ما أثاره من قلق ، اسامة امير بيروت الذي اشتهر بالقرصنة ، ولم يكن بوسع العادل في دمشق او العزيز بالقاهرة ضبطه وكبح جماحه [١]. ولا زال بأيدي المسلمين بيروت وصيدا ، تفصلان بين مملكة بيت المقدس وكونتية طرابلس ، على ان هذه الفجوة اخذت في اوائل سنة ١١٩٧ تضيق بفضل استيلاء المسيحيين على جبيل . ذلك ان صاحبة جبيل ، ستيفاني ميللي كانت ابنة اخت رينالد سيد صيدا ، فحصلت منه على هـدايا لاجتذاب المسلمين ، فتآمرت مع الأمير الكردي الذي يحكم جبيل ، فهيأ لها ان تستعيد جبيل دون قتال ، وأن تسلمها الى ابنها ، جاي الاول امبرياكو [٢] .

قدم الالمان ووطدوا العزم على القتـال ، فلم تتوقف طلائعهم في عكا لاستشارة حكومتها ، بل مضوا مباشرة الى الجليل بالبـلاد الاسلامية .

---

(١) انظر : Ibn al - Athir, II. p. 85.
Ernoul, p. 315 - 316.

(٢) Estoire d'Eracles, II. pp. 217-218.
Ernoul, p. 305.

وأثارت الغارة المسلمين ، فاستدعى العادل ، الذي تقع الجليل في أملاكه ، أقاربه وطلب اليهم ان ينسوا ما بينهم من منازعات وأن يلحقوا به . على انه لم يكد الالمان يجتازون الحد الاسلامي ، حتى ذاع نبأ اقتراب العادل منهم . وبالغت الشائعة في ضخامة جيش العادل ، فلم ينتظر الالمان اللقاء به ، بل ولـّوا الأدبار مذعورين الى عكا ، وتخلى الفرسان في عجلتهم عن الرجالة . وتراءى ان العادل سوف يزحف على عكا ، دون ان يصادف مقاومة . غير ان هنري ، بناء على نصيحة هيو سيد طبرية قذف بفرسانه وبكل من استطاع ان يحشده من العساكر الايطالية لإمداد الرجالة الألمان الذين فاقوا سادتهم في البسالة والشجاعة ، فأضحوا مستعدين للصمود لمواجهة المسلمين . لم يكن العادل مستعداً لأن يخوض معركة حاسمة ، ولكنه لم يشأ ان يبدّد جهد جيشه . فانحرف العادل صوب الجنوب وزحف على يافا . كانت يافا منيعة الاستحكامات ، غير انه لم تكن بها إلا حامية قليلة العدد ، ولم يكن بوسع هنري ان يعززها . والمعروف ان أملريك لوزجنان كان يحكم يافا ، قبل ان يتوجه الى قبرص . فعرض هنري عليه ان يأخذها من جديد ، اذا تولى الدفاع عنها . فلئن يكون بيافا القبارصة خير عند هنري من ان تنتقل إما الى المسلمين وإما الى الألمان الذين لم يقدروا المسئولية . وما كاد النبأ يبلغ أملريك لوزجنان ، حتى ارسل احـــد باروناته ، وهو رينالد بارليه ليتولى حكومة يافا ، وليتجهز للحصار المقبل . غير ان رينالد كان رجلاً يميل الى اللهو والعبث ، ولم تلبث ان وردت الأنباء الى عكا بأنه يمضي ايامه في المباذل والفجور ، وليس في نيته ان يقيم على مقاومة العادل . وعندئذ حشد هنري كل من استطاع ان يستغني

عنه من العساكر في عكا ، وطلب الى جالية البيازنة بها أن تبذل له أمداداً [1] .

مصرع هنري كونت شامبانيا سنة ١١٩٧ :

في ١٠ سبتمبر سنة ١١٩٧ احتشدت عساكر هنري في فناء قصره بعكا . فاستعرضهم من النافذة بالطابق العلوي . وفي تلك اللحظة دخل الى الحجرة رسل من قبل البيازنة ، فالتفت هنري لتحيتهم ، وإذ نسي أين كان يقف ، تراجع بظهره خطوات الى النافذة المفتوحة . وكان يقف بجانبه تابعه القزم ، سكارليت ، فأمسك بملابسه . غير ان هنري كان ثقيل الوزن ، على حين ان سكارليت كان بالغ الخفة ، فهوى الرجلان الى الرصيف اسفل القصر ، ولقيا مصرعهما [2] .

املريك يتزوج من ايزابيلا سنة ١١٩٨ :

وما حدث فجأة من اختفاء هنري كونت شامبانيا ، أدّى الى ان تقع المملكة بأكملها في اضطراب وذعر . اذ كان هنري رجلاً محبوباً ،

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II. pp. 216 - 219 (Manuscript D).
Ernonl, pp. 305 - 307.
Abu Shama, II. pp. 116 , 152.
Ibn al - Athir, II. pp. 84 - 86.

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, II. p. 220.
Ernoul, p. 306.
Amádi, pp. 90 - 91.
Ibn al - Athir, II. p. 86.

ومع انه لم يتوافر عنـده مواهب طبيعية نادرة ، فانه بفضل كياسته ، ومثابرته ، وارتكانه الى مستشارين صادقين ، دلّ على انـه حاكم قدير ، مستعد لأن يفيد من خبرته . قـام هنري بدور كبير في تحقيق استمرار بقاء المملكة . على ان البارونات لمْ يطيقوا إضاعة الوقت في الأسى والحزن ، فلا بد من المبادرة الى اختيار حاكم جديد ، كيا يمضي في قتال المسلمين ، ويعالج امر الحمـلة الالمانية الصليبية ، ويحلّ كل مشاكل الحكومة . وإذ برح الوجد والحزن بالاميرة ايزابيلا ، لوفاة زوجها هنري ، لم تستطع ان تباشر سلطتها . غير انهـا تعتبر دعامة الحكم ، باعتبارها وارثة المملكة . لم يبقَ على قيـد الحياة من اطفالها من هنري ، سوى ابنتين صغيرتين ، أليس وفيليبا . امـا ابنتها من كنراد ، ماريا مونتفيرات التي اتخذت عن والدها لقب الماركيزة ، فلم تتجاوز الخامسة من عمرها . ومن الجلي انه لا بد لإيزابيلا ان تتزوج مرة اخرى . وعلى الرغم من اعتراف البـارونات بها وريثة للمملكة ، فانهم رأوا ان من واجبهم ان يختاروا لهـا زوجاً آخر . على انهم لسوء الحظ لم يتفقوا على اختيـار زوج يلائمها ، فاقترح هيو سيد طبرية وأصدقاؤه بأن يتزوجها أخوه ، رالف . والمعروف ان اسرته ، بيت فولكنبرج سانت اومر ، تعتبر من أشهر البيوت بمملكة بيت المقدس . غير انهـا لم تكن اسرة ثرية ، اذ استولى المسلمون على بلادها بالجليل ، ولم يكن رالف إلا من الأبناء الصغار في هذه الاسرة . وازداد احساس الناس بأن رالف في اشد الحاجة الى المال والجاه ، ولا سيما ان الطوائف الدينية العسكرية لم ترضَ به . وبينما اشتد الجدل والنقاش حول اختيار زوج لإيزابيلا ، وردت الأنباء بأن يافا سقطت في يد العـادل ، دون قتال . فنهض دوق برابانت لنجدتها ، غير انه لم يلبث ان عاد الى عكا ، وتولى زمام حكومتها . وحدث في ٢٠ سبتمبر ، اي بعد بضعة ايام ،

ان قدم من قبرص ، كنراد رئيس أساقفة ماينز وسائر القـادة الالمان .
وتوافر لكنراد سلطة ضخمة ، باعتباره من كبار رجـــال الكنيسة في الامبراطورية الغربية ، ولكونه موطن ثقـة الامبراطور ، فضلاً عن انه صديق البابا الجديد انوسنت الثالث . فلمـــا اقترح بأنه لا بد من بذل العرش لأماريك ملك قبرص ، لم يلقَ معـارضة إلا من البطريرك أيمار الراهب ، الذي لن يسانده اكليروسه . ويبـدو ان وقوع الاختيار على اماريك كان موفقاً ، اذ ان زوجة اماريك الاولى ، ايشيفا ابلين ، مـاتت منـــذ زمن قريب ، فأضحى حراً في ان يتزوج ايزابيللا . ومع ان كثيراً من البارونات السوريين لم ينسوا انه ينتمي الى بيت لوزجنـان ، فانه سبق ان أعلن عن تخليه عن كل سياسة حزبية ، وأثبت انه يفوق في الكفاءة والقدرة ، أخاه الأصغر جاي . وفرح البـابا انوسنت الثالث لانتخاب اماريك ، اذ رأى ان الحكمـة تقتضي بأن يتحد الشرق اللاتيني تحت زعامة سيد واحد . غير ان باعث كنراد متولي دار الوثائق ، كان اكثر حصافة وبراعة . فالمعروف ان اماريك يدين بتاج قبرص للامبراطور هنري السادس ، فأضحى تابعاً له ، أفلا تخضع مملكة بيت المقدس ، بعد ان اصبح اماريك ملكاً عليها لسيادة الامبراطور ؟ تردّد اماريك قليلاً اول الامر ، فلم يقـدم الى عكا إلا في يناير سنة ١١٩٨ . وفي غداة وصوله ، تزوج من الاميرة ايزابيللا ، ولم تمضِ إلا بضعة ايام حتى قـام البطريرك بتتويجها ملكاً وملكة على بيت المقدس[١] .

---

(١) انظر :
Estoire d'Eracles, II, pp. 221 - 223.
Ernoul, pp. 309 - 310.
Roger of Hoveden, IV, p. 29.

على ان اتحــاد التاجين (تاج بيت المقدس وتاج قبرص) ، لم يبلغ من الاكتمال ما كان يأمله البابا او أنصار الامبراطور . اذ اعلن امالريك منذ البــداية ، ان المملكتين سوف تجري ادارتها منفصلتين ، وانه لن تُنفق اموال قبرص من أجل الدفاع عن بيت المقدس ، ولم يكن امالريك سوى حلقة تربط بينهما . فالملكية في قبرص وراثية ، ويعتبر ابنه هيو ولي عهد بها . اما حق وراثة الحكم في مملكة بيت المقدس فأقرّه الاتجاه العام ، غير ان المحكمة العليا احتفظت بحقهــا في انتخاب الملك . ففي بيت المقدس كان امالريك يدين لزوجته بوضعه ، فاذا مات ، فلهــا ان تتزوج مرة اخرى ، وعندئذ يجري قبول الزوج الجديد ملكاً ، اما ولية عهدها فكانت ابنتها ماريا مونتفيرات ، بل انهــا اذا أنجبت ولداً لأماليك ، فليس من الراجح ان يكون للابن الناجم من زيجة رابعة ، السابقة على الابن النـــاجم من الزيجة الثانية . على ان الواقع انه لم يكن لهما (ايزابيلا وامالريك) إلا ابنتان ، سبيللا وميليسند [1] .

ومع ان أمالريك لم يعتبر نفسه سوى وصي على العرش ، فإنه دلّ على

= أخطأ روجر هوفدن حين جعل العروس، مليسند، ويشير الى ان العروسين تزوجا في بيروت، حيث توجهما كنراد اسقف ماين . وليس ذلك فيما يبدو سوى دعاية المانية ، اذ كتب البابا انوسنت الثالث الى البطريرك ايمار يلومه لأنه رفض اول الامر الموافقة على الزواج نظراً للقرابة الوثيقة بينهما، ثم تولى عقد زواجهما وتتويجهما (انظر رسالة انوسنت في M.P.L. vol. CCXIV, col.477.)، وأضحى تتويج ملك بيت المقدس ، يجري منذئذ في كاتدرائية صور .

(١) انظر : La Monto, Feudel Monarchy, p. 43.
Hill, op. cit vol, II, p. 50 n. 4.

اشار هيل الى الملكية الوراثية في قبرص .

أنه حاكم نشيط قدير . أقنع المحكمة العليا بأن تشركه في مراجعة الدستور ، حتى يتيسر تعيين الحقوق الملكية صريحة . وحرص بصفة خاصة على ان تجري استشارة رالف سيد طبرية منافسه على العرش الذي كان يقدره ، ولكنه لم يكن يهواه ، حسبما تشير الروايات . إذ اشتهر رالف بدرايته بالقانون ، فكان من الطبيعي أنه لا بد ان يطلب اليه ان يقوم على نشر كتاب الى الملك Livre au Roi وهو الاسم الجديد الذي أطلق على القوانين . غير ان أملريك خشي ان ما اشتهر به رالف من العلم يصح استخدامه ضده . ففي مارس سنة ١١٩٨ ، حينما كان الملك وحاشيته يجتازون على ظهور خيولهم الحدائق الواقعة حول مدينة صور ، ركض نحو الملك أربعة فرسان من الالمان ، وانقضّوا عليه ، غير انه نجا دون ان يتعرض لأذى خطير . ورفض المعتدون ان يبوحوا بمن يعملون بالنيابة عنهم ، غير ان أملريك أعلن ان رالف هو الجاني ، فأصدر الحكم بنفيه . على ان رالف ، وفقاً لما له من حقوق ، طلب ألا يحاكمه إلا نظراؤه . واستطاع يوحنا ابلين ، وهو اخ غير شقيق للملكة ، ان يقنع الملكة بأنه لا بد من عرض القضية على المحكمة العليا ، التي رأت ان الملك أخطأ في نفي رالف دون محاكمة ، ولم تتم تسوية المسألة إلا حين أعلن رالف نفسه ، بأنه نظراً لأنه فقــد رضى الملك ، فإنه سوف يتوجه باختياره الى المنفى ، فلجأ الى طرابلس ، ولعلّ ذلك يرجع الى التدخل الحصيف من قِبل يوحنا ابلين . وأثبتت القصة للبارونات انه ما من أحــد يعارض الملك ، إلا حلّ بــه العقاب ، كما انها أظهرت للملك انه ينبغي ان يلتزم بالدستور [١] .

(١) انظر :
Estoire d'Eracles, II, pp. 228 - 230.
John of Ibelin, pp. 327 - 328, 430.
Philip of Novara, pp. 522 - 523, 570.

أما سياسته الخارجية فاتسمت بالقوة والمرونة . حدث في اكتوبر سنة ١١٩٧ ، قبل ان يعتلي أملريك العرش ، ان بذل أملريك المساعدة لهنري دوق برابانت كيما يفيد من احتشاد المسلمين في يافا ، بأن ارسل بغتة حملة مؤلفة من الألمان والبرابنتيين ، بقيادة هنري كيما تسترد صيدا وبيروت . والمعروف ان صيدا دمرها المسلمون ، لاعتقادهم انـه ليس بوسعهم الدفاع عنها ، فلما بلغها المسيحيون ، لقوا المدينة كومة من الخرائب . وإذ أدرك أسامة امير بيروت الذي يرعى القراصنة ان العادل لن يرسل اليه شيئاً من المساعدة ، قرر ان يقوم بتدمير مدينة (بيروت) ، غير انه لم يبدأ إلا بعد فوات الوقت . فلما قدم اليها هنري بعساكره ، كشفوا ما حلّ بالأسوار من الدمار ، فتيسر لهم ان ينفذوا منها ، غير ان معظم المدينة ما زال صلباً متماسكاً ، فلم يلبث ان تمّ إصلاحها ، وتقرر بذل بيروت اقطاعاً ليوحنا ابلين ، وهو أخ غير شقيق للملكة . وإذ عادت جبيل فعلا الى ايدي سادتها من المسيحيين ، اضحت المملكة مرة اخرى على مسافة قصيرة من كونتية طرابلس . غير ان الساحل حول صيدا لم يخل نهائياً من العدو ، الذي لا زال بحوزته نصف الضواحي [1] .

الحملة الصليبية الالمانية سنة ١١٩٧ :

وإذ تشجع الصليبيون الالمان ، بقيادة رئيس الاساقفة بما ظفروا به

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 311 - 317.
Estoire d'Eracles, II, pp. 224 - 227.
Arnold of Lübeck, p. 205.
Ibn al - Athir, II, p. 86.

من توفيق في بيروت ، جعلوا خطتهم التالية الزحف على بيت المقدس .

أما البارونات السوريون الذين راودهم الأمل في ان يجددوا الهدنة مع العادل على اساس منحه يافا ، واحتفاظهم ببيروت ، فقد خاب سعيهم في ان يثنوا الالمان عن عزمهم . ففي نوفمبر سنة ١١٩٧ دخل الالمان الجليل وألقوا الحصار على حصن تبنين الضخم . وكان الهجوم الاول من الشدة والعنف ، ما جعل الحامية الاسلامية بالحصن تبادر الى ان تعرض تخليها عن القلعة بمن في سجونها من الاسرى المسيحيين الذين يبلغ عددهم خمسمائة اسير ، اذا ابقى المهاجمون على حياة رجال الحامية وعلى امتعتهم الشخصية . غير ان رئيس الاساقفة كنراد اصر على التسليم بدون قيد ولا شرط ، وإذ حرص بارونات الفرنج على الاحتفاظ بصداقة العادل ، وخافوا ما تثيره مذبحة في رجال الحامية من الدعوة الى الجهاد ، ارسلوا الى السلطان العادل ينذرونه ان الالمان لن يبقوا على حياة احد من رجال الحامية . فاستمات المسلمون في الدفاع عن الحصن ، وألح العادل على ابن اخيه العزيز بأن ينفذ من مصر جيشاً لمواجهة المغيرين . أما الالمان فأخذوا يشعرون بالتعب والإرهاق ، وخفت حدة جهودهم . وفي تلك الاثناء ، وردت الى عكا الانباء بوفاة الامبراطور هنري السادس في سبتمبر سنة ١١٩٧ . وعندئذ حرص كثير من القادة على العودة الى بلادهم . ولما توالى ورود الانباء عن اندلاع الحرب الداخلية في المانيا ، قرر كنراد ورفاقه التخلي عن الحصار. وفي ٢ فبراير سنة ١١٩٨ قدم الجيش المصري من الجنوب ، وإذ استعد الجيش الالماني بأسره لأن ينشب معركة مع الجيش المصري ، ترددت شائعة فجأة ان متولي دار الوثائق الامبراطورية وكبار السادة الاقطاعيين ولوا الأدبار ، وساد الذعر بين العساكر ، فلم يتوقف الجيش الالماني بأسره اثناء فراره حتى ادرك النجاة في صور . ولم تنقض إلا بضعة ايام حتى

شرع الجيش الالماني في ان يستقل السفن راجعاً الى اوروبا . والواقع ان هذه الحملة بأسرها لقيت الفشل الذريع ، ولم تحقق شيئاً يعيد لالمانيا هيبتها. ومع ذلك فانها سهمت في إعادة بيروت الى الفرنج ، وخلفت من بعدها هيئة ثابتة ، تتمثل في طائفة الفرسان التيوتون [1] .

ومع ان الطائفتين الدينيتين العسكريتين السابقتين تعتبران من الناحية الرسمية ذات صفة دولية ، فإنهما لم تحويا في صفوفهما إلا عدداً قليلاً من الالمان . ثم حدث زمن الحملة الصليبية الثالثة ، ان اقام بعض تجار بريمن ولوبيك نزلاً في عكا يأوي اليه الالمان ، على نفس الاسس التي قامت عليها اسبتار القديس يوحنا ، وتقرر تدشينه باسم العذراء ، وتولى رعاية الحجاج الالمان. وما حدث سنة ١١٩٧ من قدوم الحملة الصليبية الالمانية أدى حتماً الى ازدياد اهمية هذا النزل . فلما عزم جماعة من الفرسان الصليبيين على ألا يعودوا على الفور الى المانيا ، اتخذت طائفة الفرسان التيوتون نموذج اسبتار القديس يوحنا الذي نشأ قبل قرن من الزمان . فضمت اليها هؤلاء الفرسان ، وفي سنة ١١٩٨ تلقت من الملك ومن البابا الاعتراف بها على انها طائفة

---

(١) انظر :

Ernoul, p. 316.
Estoire d'Eracles, II, pd. 221 - 222.
Arnold of Lübeck, pp. 208 - 210.
Chronica Regia Coloniensis, p. 161.
Abu Shama, II, p. 117.
Ibn al - Athir, II, pp. 87 - 88.

وعن يوحنا ابلين واقطاعه ، انظر :

Lignages d'Outremer, in R. H. C. Lois, *II*, p. 458.

عسكرية . والراجح ان كنراد ، متولي الوثائق الامبراطورية ، أدرك ما يكون لقيام طائفة المانية خالصة من قيمة وأهمية في تحقيق اغراض استعمارية ، فصار كنراد يعتبر الى حد كبير مسؤولاً عن بدايتها . ولم تلبث هـذه الطائفة ان ظفرت بأحباس مؤلفة من الضياع الخصيبة في المانيا ، وشرعت في حيازة بعض القلاع في سوريا . وأول ما حازته بها ، كان البرج المقام على باب القديس نقولا في عكا ، الذي بذله لها امالريك ، بشرط ان يرده الفرسان التيوتون الى الملك مـتى امر بذلك . ولم يلبث هؤلاء الفرسان التيوتون ان اشتروا بعدئذ قلعة مونتفورت الواقعة على التلال التي تتحكم في درج صور ، فأطلقوا عليها اسم شتاركنبرج . ولم تختلف طائفة فرسان التيوتون عن طائفتي الداوية والاسبتارية في تقديم العساكر اللازمين للدفاع عن الشرق الفرنجي ، غير انها لم تيسّر إدارة المملكة وحكومتها[1] .

ولم يكد الصليبيون الالمان يغادرون البـلاد ، حتى شرع أماريك في اجراء المفاوضات مع العـادل . عجّل العزيز بالعودة الى مصر ، ولم يود العادل ان يقاتل الفرنج ، لحرصه على ان يستأثر بكل التراث الايوبي . وفي لول يوليه سنة ١١٩٨ ، انعقدت المعاهدة التي جعلت للعـادل تملك يافا ، وهيأت للفرنج ان يحوزوا جبيل وبيروت ، على ان يقتسم الفريقان مدينة صيدا . وتقرر ان يكون اجل المعاهدة خمس سنوات وثمانية شهور . وثبتت اهمية هذه التسوية للعادل عند وفاة العزيز في نوفمبر سنة ١١٩٨ ،

---

(١) انظر : Röhricht : Geschichte des Konigreichs Jerusalem, pp. 677 - 678.

إذ اضحى العـادل حراً في التدخل في امور مصر ، فأضاف اليـه بلاد السلطان الراحل . وما حدث من ازدياد قوة العـادل ، ادى الى اشتداد عزم امالريك على المحافظة على الصلح معه ، وزاد في هذا العزم ما تجدد في انطاكية من الاضطراب [١] .

ولاية حكم انطاكية سنة ١١٩٧ :

سبق ان شهد بوهمند الثالث حصار بيروت ، وفي اثناء عودته رتب امر مهاجمة جبلة واللاذقية . غير انه كان لزاماً عليه ان يسرع بالعودة الى بلاده (انطاكية) . ومـــا حدث من اجراء موفق ، اتحدت بمقتضاه قليقية وانطاكية في شخص ابنه ريموند وزوجته الارمنية ، لم يلبث ان تحطم حين مات فجأة ريموند في اوائل سنة ١١٩٧ . لم ينجب إلا طفلاً ، اسمه ريموند - روبين ، الذي كان وريثـاً لانطاكية بحق ولاية الحكم . على ان بوهمند اقترب وقتئذ من الستين من عمره ، وليس من المحتمل ان يمتد به الاجل حتى يبلغ حفيده سن الرشد ، واشتد الخوف من ان يتحكم في حداثة سن الامير والوصاية عليه ، احـــد أقارب الصبي من الارمن . فأرسل بوهمند الارملة أليس مع طفلها الى ارمينيا ، ولعـله اراد بذلك

---

(١) انظر :

Ernoul, pp. 316 - 317.
Estoire d'Eracles, *II*, p. 228.
Roger of Hoveden, IV, p. 28.

أشار روجر الى ان أمد المعاهدة ، ست سنوات ، وستة شهور ، وستة ايام .

Abu Shama, Arabic text (ed. Beirut), *I*, pp. 220 - 221.
Ibn al - Athir, *II*, p. 89.

ان يدبر بأن يتولى الحكم من بعده احد ابناء سبيللا ، او لعله اعتقد ان انتقال أليس مع ابنها الى ارمينيا يزيد في امنها وسلامتها . حدث ذلك عند تتويج ليو ، وإذ حرص كنراد رئيس اساقفة ماينز على ان يستخلص عرش انطاكية لأحد اتباع سيده ، فيتم بذلك ما قام به من عمل في عكا ، عجّل بالذهاب من سيس الى انطاكية ، حيث أجبر بوهمند الثالث على ان يستدعي باروناتــه ، وأن يحملهم على ان يقسموا على تأييد ولاية ريموند روبين [1] للحكم .

لو أن ريموند توجه الى طرابلس لكان خيراً له . إذ أن بوهمند ، كونت طرابلس والابن الثاني لبوهمند الثالث كان شاباً شديد الطموح ، لم يحفل كثيراً بالمثل والمبادىء ، بالغ الدراية بالقانون ، وفي وسعه ان يسوق من الحُجَج مـــا يبرر به أسوأ ما ارتكبه من اعمال . لم يكن صديقــاً للكنيسة ، سبق ان قام فعلاً بمساندة البيازنة ، من اجل الحصول على المال يقيناً ، في نزاعهم مع اسقف طرابلس على بعض البلاد ، فلما تعيَّن الاسقف

---

(١) انظر : Arnold of Lübeck, p. 207.
Chronica Regia Coloniensis, p. 161.
Roger of Hoveden, IV, p. 28.
كل هؤلاء المؤرخين اشاروا الى ان بوهمند احتل المدينتين : جبلة واللاذقية ، بصفة مؤقتة . اما ابن العديم فيصرح بأنه لم يهاجمها فعلاً . وأخطأ روريخت في ترجمة جبلة (Dschebele) الواردة في تاريخ هرقل ، فجعلها جبيل (Gibelet) . انظر :
Kemal ad - Din, (Trans. Blochet), pp. 213 - 215.
Röhricht, op. cit. p. 675, n. 2.
Eracles, *II*, p. 228.

بطرس انجوليم بطريركاً لأنطاكية ، عجّل بتعيين خليفـة له في اسقفية طرابلس ، ولم يحفل بالقانون الكنسي ، فقَبِـلَ البابا عذره ، بأنه ليس بوسع الكنيسة ان تتحمل خطورة التأخير ، مع مـــا لبوهمند كونت طرابلس من قوة وسلطان . على ان بوهمند عزم على ان يظفر بولاية الحكم في انطاكية ، فبادر برفض الاعتراف بسلامة اليمين التي سبق بذلها لريموند روبين . احتاج بوهمند الى حلفاء ، فانحـاز اليه عن طيب خاطر الداوية الذين غضبوا على ليو لاحتفاظه ببغراس . اما الاسبتارية فانه على الرغم من انهم لم يكونوا شديدي الحرص على ان يشاركوا مع الداوية في عمل من الاعمال ، لم يلبث بوهمند ان تغلب عليهم ، بمـا بذله لهم من المنح . وبذل الرشوة للبيازنة والجنويين بأن منحهم امتيازات تجارية . وما هو اهم من كل ذلك ، ان قومون انطاكية نفسها انزعج من الارمن ، وأظهر عداءه لكل اجراء يتخذه البارونات . وحدث في نهاية سنة ١١٩٨ ان ظهر فجأة في انطاكية ، بوهمند كونت طرابلس ، فطرد والده ، ودعا القومون الى ان يحلف له يمين الولاء .

على انه كان لليو حليف بالغ الخطورة ، وهو البـابا انوسنت الثالث . فمها أحسّت به البابوية من الشكوك حول اخلاص الكنيسة الارمنية في خضوعها لكنيسة روما ، فان انوسنت لم يرضَ ان يستبعد أتباعه الجدد . اذ تدفق على روما من ليو وجاثليق الارمن رسائل وطلبات تفيض بالودّ والاحترام ، فلا ينبغي اغفالها . على ان بوهمند الصغير سمح لوالده بالعودة الى انطاكية ، بينما رجع الى طرابلس ، ولعل ذلك يرجع الى معـــارضة

الكنيسة ، ولكنه استطاع بوسيلة او اخرى ان يحقق الوفاق بينه وبين والده الامير الشيخ ، الذي تحوّل الى جانبه . وفي تلك الأثناء نقل الداوية الى روما كل ما لهم من نفوذ وتأثير . غير ان ليو اغفل كل تلميح من الكنيسة بأن يرد بغراس الى الداوية ، نظراً لما لبغراس من استراتيجية جوهرية له ، طالما يسيطر على انطاكية . فدعا الامير الشيخ بوهمند والبطريرك بطرس لمناقشة الموضوع بأجمعه ، غير ان ما اشتهر به ليو من العناد والتشدد ، حمل البطريرك ذاته على ان يتخذ جانب بوهمند كونت طرابلس . وانحازت كنيسة انطاكية الى القومون والطوائف الدينية العسكرية في مقاومة ولاية الارمن لحكم انطاكية . فلما مات بوهمند الثالث في ابريل سنة ١٢٠١ ، لم يلقَ بوهمند كونت طرابلس صعوبة في ان يستقر في انطاكية . غير ان كثيراً من النبلاء الذين حرصوا على الالتزام بأيمانهم ، وتخوّفوا من نزعات بوهمند الى الاستبداد ، هربوا الى بلاط ليو في سيس [1] .

الحرب الاهلية في الشمال سنة ١٢٠١ :

ظلّ المسيحيون بشمال سوريا في السنوات الخامسة والعشرين التالية ، في اضطراب وحيرة نتيجة حرب الوراثة في انطاكية . وقد تغيّر الموقف بأسره في الشرق قبل زمن طويل من تسوية المشكلة . ومن حسن الحظ انه لم يكن أمراء السلاجقة بآسيا الصغرى او الأيوبيون في وضع يجعلهم

---

(١) انظر : Cahen : op. cit. pp. 590 - 595.

ينشبون حرباً للفتح والتوسع بتلك الجهات . اذ انه اعقب وفاة السلطان السلجوقي قلج ارسلان الثاني ، اندلاع حرب طويلة الأمد بين اولاده . ولم ينجح ابنه ركن الدين سليمان امير توقات ، في اعادة توحيد بلاد الاسرة إلا بعد ان مضى على وفـاة والده نحو عشر سنوات . وأغار السلاجقة على قليقية سنة ١١٩٣ ، ثم في سنة ١٢٠١ ، فبدّدوا جهود ليو في اللحظة الحرجة التي كان فيها بوهمند الثالث يعاني سكْرات الموت . ومـا توافر لركن الدين من الوقت بعد الفراغ من الحروب مع اخوته ، ومع أمراء الدانشمند الذين تداعت قوتهم ، أنفقه في مهاجمة بلاد الكرج ، الذين تعتبر ملكتهم تامـــار اشد خطورة وتهديداً للاسلام من كل امير لاتيني [١] . اما الظاهر غازي بن صلاح الدين ، امير حلب ، فانه بلغ من حنقه وغضبه على طموح عمه العادل ، انه لم يستطع ان يغامر بشنّ حرب خارجية .

أضحى لأهل انطاكية من الحرية مـا يجعلهم يمضون في منازعاتهم ، دون ان يتعرضوا للتدخل من قِبل المسلمين . وازداد قلق الملك اماريك وهو يرقب من عكا مـا نشب في الشمال من حرب اهلية . والواقع ان عواطفه كانت مع ليو وريموند روبين الصغير ، لا مع بوهمنـــد المعروف بالعنف والقسوة ، غير انه لم يحاول مطلقاً ان يتدخل فعلاً ، اذ ان اهتمامه الأساسي كان موجهاً الى منع نشوب القتال مع العادل . وتردّدت الشائعات بأن حملة صليبية ضخمة تتجمع في اوربا ، فيلبغي المحافظة على السلام ،

---

(١) انظر : Ibn Bibi, ed. Houtsma, IV, pp. 5 - 22.
Ibn al - Athir, *II*, pp. 69 - 72.
Georgian Chronicle (ed. Brosset), *I*, pp. 292 - 297.

أحق تصل الحملة . اما العادل فلم يكن بوسعه ان يركن الى صدق مساندة بناء اخوته وأبناء اعمامه ، ما لم يكن اعتداء المسيحيين من الخطورة ما يؤدي الى إثارة حركة الجهاد .

على ان المحافظة على السلام ليست دائماً هينة سهلة . ففي نهاية سنة ١٢٠٢ رسا في ميناء عكا اسطول فلمنكي . أبحر هـــذا الاسطول بقيادة قسطلان بروج ، يوحنا نسله ، ثم اجتاز بوغاز جبل طارق ، في طريقه الى عكا . ولم تمض إلا بضعة ايام حتى قـــدم الى عكا سفن من مرسيليا تحمل جماعة من الفرسان ، بقيادة والتر اسقف أوتون ، وكونت فوريز . ثم تلاهم جماعة اخرى من الفرسان الفرنسيين ، من بينهم ستيفن كونت بيرش ، وروبرت كونت مونتفورت ، ورينالد الثاني كونت دامبيير ، قدموا على سفن من البندقية . على ان هذه الجماعات الثلاث لم يزد عددها على بضعة مئات من الرجال ، ولا تعتبر إلا نسبة ضئيلة بالقياس الى الجيش الضخم الذي كان يقلع وقتذاك من دالماشيا ، غير انـه لم تمض إلا فترة قصيرة حتى بادر رينالد مونتميرايل الذي ترك هذا الجيش في زارا ، الى اذاعة النبأ بأن الحملة لن تصل الى سوريا إلا بعد مضي بعض الوقت . على ان الفرسان الفرنسيين وطدوا العزم ، شأن كل العساكر المستجدين ، على ان يمضوا على الفور للقتال من اجل الصليب ، ولذا ارتاعوا حينما امرهم الملك أملريك بالانتظار والتزام الصبر . فوجه رينالد دامبيير الى الملك الشتيمة علناً ، ونعته بالجبن ، وباعتباره قائداً مستقلاً حث الفرسان على ان يدخلوا في خدمة بوهمند كونت طرابلس ، فارتحلوا للحاق بـــه في انطاكية ، واجتازوا في اطمئنان كونتية طرابلس . غير انه ما زالت جبلة واللاذقية في ايدي المسلمين . كان امير جبلة رجلاً يؤثر العافية والسلامة ، ارتبط

مع جيرانه المسيحيين بعلاقات طيبة ، فاستضاف هؤلاء المسافرين ، غير انه حذّرهم بأنهم لن يجتازوا في أمن وسلام بلاد اللاذقية ما لم يحصلوا على أمان من سيده الظاهر غازي امير حلب . وعرض ان يتولى الكتابة الى السلطان (الظاهر) ، الذي سوف يلبي الطلب ، لأنه كان حريصاً على ان يشتد أوار الحرب الأهلية في انطاكية ، غير ان رينالد دامبيير وأصدقاءه لم يودوا الانتظار ، وأصرّوا على ان يجتازوا اللاذقية ، غير ان اميرها ، لاعتقاده بأنه يؤدي واجبه الاسلامي ، اوقعهم في كمين ، فأسر كثيراً منهم ، وأجهز على من لم يقع في الأسر[1] .

على ان أملريك أجاز الغارات التي يشنها المسيحيون من حين الى آخر على المسلمين . فحينما استقرّ احد الامراء قرب صيدا ، وأخـــذ يغير على السواحل المسيحية ، ولم يحرص العادل على ردعه ، انتقم أملريك لما حدث بأن ارسل السفن لتعترض قافلة بحرية مصرية تقصد اللاذقية ، وتحمل متاجر ثمينة ، فاستولت عليها ، ثم قاد غارة على الجليل . ومع ان العادل مضى في سيره حتى بلغ جبل الطور القائه ، غير انـه رفض ان تنشب

---

(١) انظر : Ernoul, p. 341.
Estoire d'Eracles, *II*, pp. 247 - 249.
Villehardouin, ed. Faral, pp. 102 - 104.
Kemal ad - Din, (Trans. Blochet), p. 39.

على ان يوحنـا نسله والقلة القليلة التي نجت من اللاذقية ، توجهوا للقتـــال الى جانب ليو ، ضد انطاكية .

وعن الحرب الصليبية الرابعة ، انظر مـــا يلي ، ص ١٩٥ وما يليها . اشتد فيلهاردوين في توجيه النقد الى الصليبيين الذين أصروا على المسير الى الارض المقدسة .

بينهما معركة . بل انـه لم يرد في عنف حينا أبحر اسطول مسيحي الى دلتا النيل ، ونفذ الى النهر عنـد رشيد وهبط الى مدينة فوه فنهبها . وحوالي ذلك الوقت قام الاسبتارية من حصن الأكراد والمرقب بغارات على حماة ، إمارة المنصور بن تقي الدين ، ابن اخي العادل ، ولم تحقق هذه الغارات شيئاً من النجاح [1] .

وفاة الملك اماريك سنة ١٢٠٥ :

انعقدت معاهدة الصلح في سبتمبر سنة ١٢٠٤ بين اماريك والعادل ، لمدة ست سنوات . ولعلّ اماريك هو الذي سعى اليها ، غير ان العادل كان من جانبه حريصاً على ان ينهي القتال . وقد يكون في تفوّق المسيحيين في القوة البحرية ما يثير قلق العادل ، غير انه من المحقق ان العادل ادرك ان امبراطوريته سوف تحقق الربح باستئناف التجارة مع الساحل السوري ، ولذا لم يكن العادل مستعداً فحسب للتخلي عن بيروت وصيدا لأماريك، بل انه تنازل له ايضاً عن يافا والرملة ، ويسر الاجراءات للحجاج الذين يقصدون بيت المقدس والناصرة . هـــذه الشروط اعتبرها اماريك بالغة

---

(١) انظر :

Ernoul, pp. 335 - 360.
Estoire d'Eracles, *II*, pp. 258 - 263.
Abu Shama, *II*, p. 158.
Ibn al - Athir, *II*, p. 96.

الصلاحية له [١] . غير انه لم يستطع ان ينعم طويلاً بمكانته الرفيعة العالية. ففي اول ابريل سنة ١٢٠٥ مات اماريك بعكا بعد مرض قصير اصابه عقب إسرافه في تناول وجبة سمك ، ولم يتجاوز الخمسين سنة إلا بسنوات قليلة [٢] .

لم يكن اماريك الثاني ملكاً عظيماً ، غير انه تعلّم من الخبرة ، مثلما تعلّم سلفه هنري كونت شامبانيا ، حكمة سياسية كانت بالغة القيمة لمملكته الفقيرة ، المحفوفة بالخطر ، وما اشتهر به من عقلية قانونية مرتبة لم تخلق فحسب دستوراً لجزيرة قبرص ، بل اسهمت الى حد كبير في المحافظة على مملكته على البر . ومع ان اماريك كان رجلاً يلقي من الناس الاحترام ، غير انه لم يكن محبوباً . وكان في شبابه مستهتراً لا يقدّر المسئولية ينزع الى الشجار ، ويكره دائماً المعارضة . على انه يرجع اليه الفضل في انه ، مع انه كان يؤثر صراحة ان يظل ملكاً على جزيرة قبرص وحدها ، قبل كل ما ألقاه عليه تاج بيت المقدس من تبعات ، واضطلع بها حسبما

---

(١) انظر : Ernoul, p. 360.
Estoire d'Eracles, *II*, p. 263.
Ibn al - Athir, loc. cit.

(٢) انظر : Ernoul, p. 407.
Estoire d'Eracles, II, p. 305.

انظر ايضاً ما ورد عن روبرت الراهب في ملحق ، في :
Bouquet, R. H. F. vol. XVIII, p. 342.
وهذا الملحق مستمد من رسالة رئيس اساقفة قيسارية ، التي تحدد التاريخ الدقيق لوفاة اماريك . اما طفله من ايزابيلا فانه مات في ٢ فبراير .

يقتضيه واجبه . وعند وفاة امالريك انفصلت المملكتان ، فانتقلت قبرص الى ابنه هيو الاول من ايشيفا ابلين ، وكان طفلاً في السادسة من عمره . أما برجنديا الأخت الكبرى لهيو، فإنها تزوّجت منذ زمن قريب من والتر مونتبليار الذي عهدت اليه المحكمة العليا بالجزيرة بالوصاية على العرش [١] . وفي مملكة بيت المقدس انتقلت السلطة ، دون نزاع ، الى الملكة ايزابيللا ، التي لم يبلغ بهــا الوجد على موت زوجها الأخير ما يمنعها من تقلد زمام الحكومة . غير ان ايزابيللا لم تعش طويلاً بعد وفاة زوجها ، على ان تاريخ وفاتها اكتنفه الغموض شأن معظم حياتها . على انها انفردت من دون سيدات البيت الملكي في بيت المقدس ، بأنها شخصية غامضة ، لم يصلنا شيء عن حياتها . على الرغم من ان زواجها وحياتها تعتبران بالغة الاهمية . فلو كان لها مطامع سياسية لأضحت قوة في البلاد ، غير انها صارت تنتقل من زوج الى زوج دون اعتبار لرغباتها الشخصية . والمعروف لنا انها كانت جميلة ، غير انه يجب ان نقرر انها كانت حقيرة ضعيفة [٢] .

خلفت ايزابيللا من بعدها خمس بنات ، ماريا مونتفيرات ، وإليس ، وفيليبا شامبانيا ، وسبيللا ، وميليسيند لوزجنان . تولت ماريا وهي في الثالثة عشرة من عمرها عرش بيت المقدس ، وتقرر تعيين يوحنا إبلين ، سيد بيروت وصياً عليها . وليس معروفاً ما اذا كانت الملكة ايزابيللا رشحته للوصاية قبيل وفاتها ، او اختاره البارونات . غير انه كان المرشح

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 305.

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 305.

الظاهر للوصاية ، فباعتباره أكبر اخ غير شقيق لإيزابيللا ، يعتبر اقرب الذكور للملكة الطفلة . كما انه حاز أثقل اقطاع في المملكة الصغيرة ، ويعتبر الزعيم الذي يقبله جميع البارونات ، جمع بينما اتصف به والده باليان من الشهامة والحكمة ، وبين ما ورثه عن امه ماريا كومنينا اليونانية من حدة الذكاء ، وظلّ ثلاث سنوات يحكم البلاد بكياسته وهدوئه . لم تزعجه حروب من قِبل المسلمين ، ولم توقعه في حيرة وحرج حملة صليبية . والواقع ان ما من احد من فرسان الغرب يحفل بالقدوم عن طيب خاطر الى فلسطين ، وهذا ما ردّده أماريك في أسف ، حينما عقد معاهدته مع العادل . اذ ان الحرب الصليبية عثرت في جهة اخرى على ارض صيد أكثر غزارة وأوفر غنى[1] .

---

(۱) انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 305.
Ernoul, p. 407.

الكتاب الثاني

الحملات الصليبية المنحرفة

الفصل الاول

الحملة الصليبية الرابعة

في نوفمبر سنة ١١٩٩ وجّه تيبالد كونت شامبانيا الدعوة الى أصدقائه وجيرانه للاشتراك في مبارزة تجري بقلعته في ايكنرى على نهر الإين . ولما انتهت المبارزات ، دار بين السادة من الحادثات ما أفضت الى الحاجة الى الدعوة الى حملة صليبية جديدة . أولى كونت شامبانيا هـذا الأمر اهتماماً شديداً ، إذ كان تيبالد ابن اخ غير شقيق لرتشرد قلب الأسد ، وابن اخت غير شقيقة لفيليب اغسطس ، وشقيقاً لهنري كونت شامبانيا الذي تولى الحكم في فلسطين . وبنـاء على اقتراح تيبالد ، تقرّر استدعاء فولك اسقف نيللي ، وهو من دعـاة الحروب الصليبية ، ليتحدث الى الضيوف . وبفضل ما اشتهر به فولك نيللي من الفصاحة ، استطاع ان يثير حماس الحاضرين ، الذين وعدوا بالاشتراك في الحرب الصليبية ، وتقرر إيفاد رسول لينهي الى البابا ، بالقرار الصالح السليم [١] .

(١) انظر : Villehardouin I, pp. 2 - 6.

مضى على انوسنت الثالث في كرسي البابوية وقتذاك ما يزيد على سنة .
كان انوسنت شديد الطموح لتوطيد ما للمقر الرسولي من سمو السلطة ، غير انه في الوقت ذاته كان فطناً ، بعيد النظر ، صافي الذهن ، كان من رجال القانون يود ان يلتمس سنداً قانونياً لدعاويه ، وكان من رجال السياسة ، مستعداً لأن يستخدم لتحقيق دعاويه ما هو أقرب الى متناول يده من الوسائل . أقلقه الموقف في الشرق ، ولذا كان اول ما قام به من اعمال انه أعرب علناً عن رغبته في الدعوة الى حرب صليبية جديدة . فكتب في سنة ١١٩٩ الى ايمار بطريرك بيت المقدس ، يطلب منه تقريراً مسهباً عن مملكة الفرنج [١] ، إذ ان ملوك بيت المقدس يعتبرون أتباعاً له ، كما ان رغبته في بذل المساعدة لهم زاد من أهميتها ما اتبعه الامبراطور هنري السادس من سياسة ايجابية . فما لجأ اليه هنري السادس من بذل التاج للمطالبين بحكم قبرص وأرمينية ، يعتبر تحدياً صريحاً لسلطة البابا في تلك الأرجاء . ودلّت التجربة على ان الملوك والأباطرة ليسوا مقبولين في كل الحملات الصليبية . فالحملة الصليبية الاولى هي الوحيدة من دون الحملات الصليبية التي اكتمل نجاحها ، ولم يشترك فيها ملك متوّج . وإذ كانت حملة بارونات ، كادوا ان يكونوا متجانسين في العنصر ، تجنبوا ما كان من منافسات بين الملوك ، ومنازعات بين العناصر كالتي ألحقت الضرر البليغ بالحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة . فاذا حدث شيء من هذه الاحقاد ، فسوف تكون من الضآلة ما يسهل على ممثل قدير للبابا ان يضبطها . ولذا لقيت الأنباء الواردة من شامبانيا ترحيباً حاراً من البابا

(١) انظر : Röhricht, Regesta, pp. 202 - 203.

انوسنت الثالث . فما استهله تيبالد من حركة لن تؤدي فحسب الى بذل مساعدة قوية للشرق ، بل يصبح الافادة منها في توطيد وحدة العالم المسيحي تحت زعامة روما [1] .

الواقع انه تهيأت احسن فرصة للبابوية . إذ لم يكن في الغرب مثلما جرى في الحملة الصليبية الاولى ، امبراطور يتيح له مركزه ان يتدخل . فما حدث من وفاة الامبراطور هنري السادس ، في سبتمبر سنة ١١٩٧ ، أراح الكنيسة مما تتعرّض له من تهديد حقيقي خطير . إذ كان لهنري من القوة والشأن ما يزيد على كل سيد او امير منذ زمن شارلمان ، نظراً لأنه ابن الامبراطور فردريك بربروسه ، وزوج وارثة ملك صقلية ، التي استقر ارثها في يديه سنة ١١٩٤ . وكان هنري السادس شديد الادراك لأهمية منصب الامبراطور ، وكاد ينجح في توطيده على اساس الوراثة . وما حدث من بذله التاج في الشرق ، وطلبه من رتشرد قلب الاسد الاسير ان يحلف له يمين الولاء ، كل ذلك دلّ على انه اعتبر نفسه « ملك الملوك » . لم يخف هنري السادس كراهيته لبيزنطة ، الامبراطورية القديمة التي ادخرت من التقاليد ما بزت به امبراطوريته ، كما انه لم يكتم هدفه في مواصلة سياسة النرمان التي تقضي بإقامة امبراطورية في البحر المتوسط ، والتي انطوت في حد ذاتها على تدمير بيزنطة . ولذا تعتبر الحملة الصليبية جانباً لا مندوحة عنه لهذه السياسة . فظلّ هنري السادس طوال سنة ١١٩٧

---

(١) عن انوسنت ، انظر :

Fliche : La Chrétienté Romaine, (vol. X of Fliche and Martin, Histoire de l'Eglise), pp. 44 - 60.

يولي خططه كل اهتمام . ولم تكن الحملة الالمانية التي هبطت الى عكا في تلك السنة ، إلا طليعة لجيش اكثر ضخامة سوف يتولى قيادته . ولما اشتهر به البابا سلستين الثالث من الجبن والتردّد ، استبدت به الحيرة ، غير انه لم يحاول ان يثني الامبراطور عن عزمه ، على الرغم من انه نصحه بألا يشنّ هجوماً مباشراً على القسطنطينية ، نظراً لأنــــه كان يتفاوض مع امبراطورها من اجل توحيد الكنيسة ، ولو لم يمت هنري السادس فجأة في مسينا ، ولم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره ، بينما كان بعد اسطولاً ضخماً لغزو الشرق ، لأضحى جائزاً ان ينجح في جعل نفسه سيداً على العالم المسيحي[1] .

انوسنت الثالث والحملة الصليبية سنة ١١٩٩ :

على ان البابا سلستين الثالث مات بعد شهور قليلة مضت على وفــاة الامبراطور هنري السادس . فلم يصادف انوسنت الثالث حين وليّ كرسي البابوية ، ندّاً من العلمانيين . وعهدت اليه الامبراطورة الارملة كونستانس برعاية ملكة صقلية وإبنها الصغير ، فردريك . ولما لم يكن الأمير الصغير المولود بصقلية معروفاً في المانيا ، فـإن عمه فيليب دوق سوابيا ، شقيق هنري السادس ، استحوذ على أملاك الأسرة ، وادعى لنفسه الامبراطورية ،

---

(١) انظر : Foreville and de Pina, Du Premier Concile du Lateran à l'avènement d'Innocent III, (vol. IX of Fliche and Martin, Histoire de l'Eglise), pp. 216 - 225.

واكتشف ان خصوم اسرة هوهنشتاوفن لم يكن خضوعهم إلا طارئاً ، إذ ان بيت الولفيين اختاروا أوتو دوق برنسويك مرشحاً منافساً لفيليب على الامبراطورية . والمعروف ان رتشرد ملك انجلترا لقي مصرعه في مارس سنة ١١٩٩ ، وتنازع ملكه اخوه يوحنا ، وابن اخيه ، ارثر ، واشترك فعلاً في هذا التخاصم ، فيليب اغسطس ملك فرنسا . وإذ انغمس ملكا فرنسا وانجلترا في المنازعات ، وأثارت الحرب الأهلية الاضطراب في المانيا ، واستعادت البابوية سلطتها في جنوب ايطاليا ، أضحى بوسع انوسنت الثالث ان يمضي قدماً في دعوته للحرب الصليبية . واتخذ انوسنت خطوة تمهيدية لذلك ، بأن استهلّ المفاوضات مع الامبراطور البيزنطي الكسيوس الثالث ، عن توحيد الكنيستين [١] .

ويعتبر فولك نيللي الرحالة الذي طالما سعى لإثارة حرب صليبية ، اكبر مبشر للبابا في فرنسا . واشتهر فولك بأنه لا يخشى الأمراء ، ومن الدليل على ذلك انه طلب الى الملك رتشرد ان ينبذ كبرياءه ، ونهمه ، وشهوته [٢] . وبناء على طلب البابا انوسنت الثالث طاف فولك بالبلاد ، يحثّ اهل الريف على ان يتبعوا سادتهم الى الحرب المقدسة . وما بذله مارتن رئيس دير بايريس من مواعظ في المانيا كانت بالغة الاثارة ؛ على

---

(١) انظر : Fliche, op. cit. pp. 46, 50.
Gesta Innocentii III, M. P. L. vol. CCXIV, cols. 119 - 123.

(٢) انظر : Villehardouin, loc. cit.
Roger of Hoveden, IV, pp. 76 - 77.
عرض رتشرد ان يتخلى عن كبريائه للداوية ، وعن نهمه للسسترشيان ، وعن شهوته للاساقفة .

الرغم من ان النبلاء بلغ بهم الانغماس في الحرب الاهلية ما منعهم ان يولوه اهتماماً كبيراً [١] . ولم يثر فولك ومارتن من الحماس الديني ما اثاره دعاة الحملة الصليبية الاولى . على ان التجنيد فاق في النظام ما حدث في الحملة الصليبية الاولى ، فأضحى قاصراً على اتباع البارونات الذين وعدوا بالاشتراك في الحرب الصليبية ، ولكن عدداً كبيراً من البارونات لم تحركهم التقوى مثلما اثارتهم الرغبة في حيازة اراضي جديدة بالغة البعد عن نشاطه المنظم . وقبل جميع البارونات تيبالد كونت شامبانيا قائداً للحركة الصليبية ، ومن الذين صحبوه ، بلدوين التاسع هينولت كونت فلاندر ، وأخوه هنري ، ولويس كونت بلوا ، وجفري الثالث سيد لى بيرش ، وسيمون الرابع سيد مونتفورت واخوتهم الجيّراند سيد بوف ، ورينالد سيد دامبيير ، وجفري سيد فيلهاردوين ، وعدد كبير من صغار السادة من شمال فرنسا والأراضي المنخفضة . وأعلن اسقف أوتون الحيازه للحملة مع جماعة من فرسان اوفرن . وفي بلاد الراين اعلن الاشتراك في الحملة اسقف هالبرشتات وكونت كاستنيللنبرج مع عدد كبير من جيرانها [٢] . ولم يلبث ان احتذى بهم سائر اعيان شمال ايطاليا يتزعمهم بونيفاس ماركيز مونتفيرات الذي اثار اشتراكه في الحملة في البابا انوسنت اول

---

(١) انظر : Gunther, Historia Constantinopolitana in Riant, Exuviae, I, pp. 60 - 65.

(٢) انظر : Villehardouin, pp. 6 - 14.
Robert of Clari (ed. Lauer), pp. 2 - 3.
اورد كلاي قوائم بأسماء المحاربين الفرنسيين ، بينما اشار فيلهاردوين الى اسماء المحاربين الالمان.
انظر : Villehardouin, p. 74.

مخاوف له عن كل الحملة ؛ ن امراء مونتفيرات كانوا اصدقاء اوفياء لأسرة هوهنشتاوفن [1] وحلفاء لهم .

بونيفاس يتولى قيادة الحملة الصليبية سنة ١٢٠١ :

لم يتيسر تنظيم الحملة في وقت وجيز ، فكان اول ما واجهه من المشاكل ، هو توفير السفن اللازمة لنقل رجال الحملة الى الشرق ، إذ أن الطريق البري الذي يجتاز البلقان والأناضول لم يعد صالحاً من الناحية العملية ، بعد تداعي بيزنطة . وما من احد من المحاربين الصليبيين كان له اسطول ، سوى كونت فلاندر . والمعروف ان الاسطول الفلمنكي أبحر مستقلاً الى فلسطين ، بقيادة يوحنا نسله [2] . اما المشكلة الثانية فانها ارتبطت بموضوع الاستراتيجية العامة . إذ أن رتشرد قلب الاسد سبق ان اعلن رأيه عند مغادرة فلسطين ، بأن مصر تعتبر النقطة الضعيفة في الامبراطورية الاسلامية ، وتبعاً لذلك لا بد جعل مصر هدفاً للصليبيين . وانقضت سنة ١٢٠٠ في مفاوضات مختلفة ، حاول البابا انوسنت ان يسيطر عليها . ولما مات تيبالد كونت شامبانيا فجأة في مارس سنة ١٢٠١ ، اختارت الحملة الصليبية بونيفاس مونتفيرات ليحل مكانه في قيادتها . وكان هذا الاختيار

---

(١) انظر : Villehardouin, I, p. 44.

يشير فيلهاردوين الى ان بونيفاس لم يتخذ الصليب الا بعد ان تقرر تعيينه قائداً أعلى للحملة .

Gesta Innocentii III, loc. cit. col. 132.

اوردت الجستا مخافات البابا . اذ ان والدة بونيفاس كانت اختاً غير شقيقة لجدة هنري السادس ، كما ان اباه كان اخاً غير شقيق لجدة فيليب ملك فرنسا .

(٢) انظر ما سبق ، ص ١٨٦ .

طبيعياً ، لما كان لبيت مونتفيرات من صلات معروفة بالشرق ، إذ أن وليم والد بونيفاس مات بالشرق ، وهو بارون فلسطيني . ومن هؤلاء الاخوة ، تزوج وليم من سبيللا ملكة بيت المقدس ، وأنجب منها الملك الطفل بلدوين الخامس ، اما راينييه مونتفيرات فتزوج من ابنة الامبراطور مانويل ، وقد لقي مصرعه في القسطنطينية . والمعروف ان احد هؤلاء الأخوة ، وهو كنراد مونتفيرات هو الذي انقذ صور ، وأضحى ملك الارض المقدسة ، ووالد وريثتها الحالية . على ان تعيين بونيفاس مونتفيرات لقيادة الصليبيين ، ابعد الحملة عن الوقوع تحت تأثير اوسنت . قدم بونيفاس الى فرنسا في اغسطس سنة ١٢٠١ ، والتقى في سواسون بكبار زملائه ، الذين اقروا تعيينه قائداً للحملة . ومن فرنسا ، توجّه الى المانيا ليقضي شهور الشتاء مع صديقه القديم فيليب دوق سوابيا[1] .

أبدى فيليب دوق سوابيا اهتماماً بأمور الشرق ، على ان أكثر ما اهتم به امور بيزنطة لا الشام . إذ شارك أسرته فيما تحس به من كراهية للأباطرة البيزنطيين . وتوقع ان يصير عاجلاً امبراطوراً للغرب ، وأعرب عن رغبته في ان يحقق كل البرنامج الذي وضعه اخوه هنري السادس . يضاف الى ذلك ما كان له من صلة شخصية ببيزنطة . فحينما فتح هنري السادس صقلية ، كان من بين أسراه ، ايرين انجلينا ، ابنة الامبراطور اسحاق انجيلوس ، والأرملة الشابة لروجر ولي عهد صقلية الذي جرّده

---

(١) انظر :
Villehardouin, I, pp. 40 - 46.
Robert of Clary, pp. 4 - 6.
Gesta Innocentii III, loc. cit.
ألمحت الجستا الى تدخل فيليب ملك فرنسا لصالح بونيفاس .

من مُلكه ، فزوجها هنري السادس لأخيه فيليب دوق سوابيا ، وقد كان زواجاً متكافئاً ، فانغمس فيليب من ثنايا هـذا الحب فيما وقع في أسرة الجيلوس من منازعات [1] .

ولم تمض إلا بضع سنوات على زواج فيليب ، حتى أضاع صهره اسحاق عرشه . ولم يكن للسلطة اهمية في إصلاح كفاية اسحاق ، فاشتهر موظفوه بالفساد ، ولم يتيسر ضبطهم ، بل ان اسحاق نفسه تجاوز في الإسراف ما لم تستطع امبراطوريته الفقيرة ان تتحمله ، بعد ان انتزعت منه المملكة البلغارية الأفلاخية القوية نصف شبه جزيرة البلقان . بينما ظلّ الترك ، حتى وفاة السلطان قلج ارسلان الثاني سنة ١١٩٢ يدأبون على التوسع في بلاد الاناضول ، وبذا عزلوا بيزنطة عن الساحل الجنوبي ، وعن بلاد الشام ، وأكثر من ذلك ما جرى بيعه للايطاليين من امتيازات تجارية ، مقابل الحصول على الاموال على الفور . وما اقترن به زفاف الامبراطور الى الأميرة مرجريت الهنجارية من الإسراف والأبهة التي تجاوزت الحدود أثار رعاياه الذين ثقلت عليهم أعبـاء الضرائب . فأخذت اسرته تتخلى عنه ، فأعدّ اخوه الكسيوس سنة ١١٩٥ مؤامرة ناجحة بالقصر ، إذ جرى سمل عيني الامبراطور اسحاق وإلقاؤه بالسجن مع ابنه الكسيوس الصغير . على ان الامبراطور الجديد ، الكسيوس الثالث لم يزد كثيراً في الكفاية على اخيه . إذ أظهر قدراً من النشاط الدبلوماسي ، بأن التمس صداقة البابوية بمـا عرضه من محادثات عن توحيد الكنيستين ، وهي صداقة قـد تحفظه من هجوم يشنه هنري السادس ، كما ان مؤامراته أسهمت في منع الأمراء

---

(١) انظر : Chronica Regia Coloniensis, p. 157.

السلاجقة من الاتحاد . أما الامور الداخلية فتركها لزوجته يوفروسين ، التي لم تختلف عن صهرها الخلوع في الإسراف ، فضلاً عن فساد الرجال الذين يقومون على خدمتها [1] .

وحدث في نهاية سنة ١٢٠١ ان هرب الكسيوس الصغير ابن اسحاق ، من السجن في القسطنطينية ، واتخذ طريقه الى بلاط اخته في المانيا ، فأحسن فيليب دوق سوابيا استقباله ، ثم قدمه الى بونيفاس مونتفيرات . فتشاور الرجال الثلاثة معاً ، فأعرب الكسيوس عن رغبته في ان يظفر بعرش والده . وأبدى فيليب الاستعداد لمساعدته ، حتى تصير الامبراطورية الشرقية من توابع الامبراطورية الغربية . وإذ صار تحت تصرف بونيفاس جيش صليبي ، أفلم يكن من مصلحة الحملة الصليبية ان تتوقف في طريقها كيما تتوّج بالقسطنطينية حاكماً صديقاً [2] ؟

---

(١) انظر : Vasiliev, Histary of the Byzantine Empire, pp. 447 - 487.

(٢) انظر : Nicetas Choniates, p. 712.

عن الجدل حول ما اذا كان انحراف الحملة الصليبية الرابعة جرى التفكير فيه من قبل. انظر : Vasiliev, op. cit. pp. 455 - 458.

والحقيقة ، فيما يبدو ، هي انه بينما كان لفيليب دوق سوابيا ، وبونيفاس مونتفيرت والبنادقة ، اسباب مختلفة تدعو الى مهاجمة القسطنطينية ، فان ما حدث من قدوم الكسيوس ، جعل انحراف الحملة عن غرضها امراً ميسوراً من الناحية العملية . ولم يكن عند البابا نية من هذا القبيل ، كما ان المحارب الصليبي المتوسط ، وهو محارب فرنسي، كان صادق النية في المضي الى الارض المقدسة ، غير انه خضع لما تمليه عليه الاحوال والظروف .

عن اتجاه بونيفاس ، انظر :

Gregoire : « The Question of the Fourth Crusade », Byzantion, vol. XV.

وعن فيليب دوق سوابيا ، انظر :

Winkelmann : Philippe von Sehwaben, I, pp. 296, 525.

المفاوضات مع البنادقة سنة ١٢٠٢ :

كان الصليبيون في تلك الأثناء يلتمسون وسيلة لنقلهم بحراً ، ففي اوائل سنة ١٢٠١ ، وبينما كان هنري كونت شامبانيا لا زال حيّاً ، ابتدأ الصليبيون مفاوضاتهم مع البندقية ، فأرسلوا جفري فيلهاردوين الى البندقية ، لإعداد نصوص المعاهدة . وفي ابريل سنة ١٢٠١ انعقدت المعاهدة بين جفري والبنادقة . ففي مقابل خمس وثمانين الف قطعة فضية كلونية يؤديها الصليبيون ، وافقت البندقية في ٢٨ يونيه سنة ١٢٠٢ ، على ان تمدّ الحملة الصليبية من الوسائل والمؤن ، ما يكفي لمدة سنة ، ٤٥٠٠ فارس بأفراسهم ، و ٩٠٠٠ غلام (أتباع الفرسان) ، و ٢٠ الف راجل ، يضاف الى ذلك ، تبذل جمهورية البندقية خمسين سفينة لمرافقة الحملة ، بشرط ان تحصل البندقية على نصف ما تفتحه الحملة من البلاد . وما كاد الاتفاق يتمّ ، حتى تقرّرت دعوة الصليبيين للاجتماع في البندقية ، استعداداً للاقلاع لمهاجمة مصر [1] .

ولم تثر هذه المعاهدة شيئاً من المخافات إلا عند قليل من الصليبيين . فأبحر اسقف اوتون مع جماعته من مرسيليا قاصداً سوريا ، على حين ان جماعات اخرى بزعامة رينالد كونت دامبيير أعدّوا خططهم للابحار الى عكا ، بعد ان اشتدّ ضجرهم من التأخير في البندقية . كما انه حدث شيء

---

(١) انظر : Villehardouin, II, pp. 18 - 34.

وافق البابا على عقد المعاهدة ، غير انه لم يكن شديد الحماس لها ، نظراً لارتيابه في البنادقة .

انظر : Gesta Innocentii, loc. cit. col. 131.

من التذمر والسخط بين صفار المحاربين الصليبيين ، عند اتخاذ قرار بمهاجمة مصر . إذ انهم انخرطوا في الجيش لإنقاذ الارض المقدسة ، ولم يفهموا السر في المسير الى جهة اخرى . وهذا السخط شجعه في هدوء البنادقة الذين لم يكن في نيتهم بذل المساعدة كيما تهاجم مصر ، وكان العـادل شديد الادراك لما تعود به التجارة مع اوربا من مزايا على ممتلكاته ، وتلى استيلاؤه على مصر ، ما بذله من امتيازات تجارية بالغة القيمة للمدن الايطالية . ففي اللحظة التي كانت فيها حكومة البندقية تساوم الصليبيين حول نقل قواتهم ، كان سفراؤها بالقاهرة يعدّون اتفاقاً تجارياً مع نائب السلطان العـادل ، الذي عقد معاهدة معهم في ربيع سنة ١٢٠٢ ، بعد ان أكد الدوج لمبعوثين شخصيين أوفدهما العادل الى البندقية ، بأنه لن يساند كل حملة توجه الى مصر [١] .

ليس من المحقق مـا اذا كان الصليبيون ادركوا براعة دبلوماسية البنادقة ، على انه إذ ارتاب احدهم في انهم تعرّضوا للخداع ، فليس ثمة مـا يصح اجراؤه ، إذ أن معاهدة الصليبيين مع البنادقة جعلتهم في

---

(١) انكر هوبف المعاهدة المؤرخة في ١٣ مـايو سنة ١٢٠٢ ، دون ان يورد المصادر . انظر : Hopf, Geschichte Griechenlands, I, p. 118.

اما ارنول فانه رجح حدوث مفاوضات بين البندقية والسلطان وقتذاك . ولا داعي للافتراض بأنه اختلق هذه القصة ، ولعله استمدها من البنادقة في سوريا . انظر :

Ernoul, pp. 345 - 346.

ويشير فيلهاردوين الى العيوب الناجمة عن الحملة . انظر :

Villehardouin, I, pp. 52 - 54.

قبضتهم ، فلم يكن بوسعهم ان يؤدوا للبنادقة ما سبق ان وعدوهم بـه من المـال ، وقدره خمسة وثلاثون الف مارك . ولم يحل شهر يونيه سنة ١٢٠٢ حتى احتشد الجيش الصليبي ، غير ان جمهورية البندقية لن تقـدّم السفن ما لم يتمّ الدفع على الفور . وإذ أقام الصليبيون معسكرهم على جزيرة صغيرة اسمها سان نيقولو دي ليدو ، وأزعجهم التجار البنـادقة الذين تقاطروا عليهم ملحّين في ان يسددوا مـا عليهم من ديون ، ويهددونهم بقطع المؤن عنهم ، مـا لم يؤدوا المال المطلوب ، لم يسعهم إلا أن يعلنوا استعدادهم في سبتمبر سنة ١٢٠٤ لقبول كل ما تعرضه عليهم البندقية من شروط . وكان بونيفاس مستعداً فعلاً للتعاون مع البنادقة ، بعد ان لحق بالصليبيين في الصيف اثر زيارة للبابا في روما لم تكن موفقة . والمعروف ان الحرب ظلت سجـالاً بين جمهورية البندقية وملك المجر ، في عشرات السنوات الماضية ، من اجل السيطرة على دالماشيا ، وقد انتقلت منذ زمن قريب ، مدينتها الرئيسية ، زارا الى حوزة المجريين . فجرى اخطـار الصليبيين بأنهم اذا اشتركوا في حملـة تمهيدية لاستعادة زارا ، فسوف تستأنف الحملة سيرها ، وتؤجل تسوية الديون . ولم يكد البابا يسمع بهذا العرض ، حتى ارسل على الفور الى الصليبيين يمنعهم من قبوله . غير انـه مهما احس الصليبيون بما ارتبط بهذا العرض من الناحية الخلقية ، لم يسعهم أن يقبلوه [1] .

---

(١) انظر : Villehardouin, I, pp. 58 - 66.
Robert of Clary, pp. 9 - 11.

زارا تتعرض للنهب سنة ١٢٠٢ :

الواقع انـه تمّ الاتفاق من وراء الستار بـين بونيفاس مونتفيرات ، الذي لم يكن عنـده إلا حظ ضئيل من الوازع المسيحي ، وبين دوج البندقية انريكو داندولو . ومع أن انريكو كان رجلاً طاعناً في السن ، فان التقدم في العمر لم يطفىء فيـه جذوة النشاط والطموح ، إذ توجّه قبل ثلاثين سنة في سفارة الى القسطنطينية ، حيث انغمس في شجـار عنيف وقع بها ، أدى الى ان يفقد بصره . ومـا تلى ذلك من كراهيته لبيزنطة ، لم تلبث ان ازدادت مرارة عقب توليـه منصب دوج سنة ١١٩٣ ، نظراً لما صادفه من صعوبة في الحصول من الامبراطور الكسيوس الثالث على موافقة بتجديد ما سبق للأمبراطور اسحاق بذله للبندقية من امتيازات تجارية . ولذا كان داندولو مستعداً لأن يناقش مع بونيفاس الخطط التي ترمي الى توجيه حملة لمهاجمة القسطنطينية . غير انه لا بد في الوقت الراهن من المحافظة على ما للحملة الصليبية من مظهر خادع . ولم تكد تتم الموافقة على شن هجوم على زارا ، حتى جرى قداس ديني في كاتدرائية القديس مرقص بالبندقية ، حيث اتخذ الدوج وكبار مستشاريه الصليب في وسط مظاهرة [١] .

---

(١) انظر : Villehardouin, I, pp. 66 - 70.
Robert of Clary, pp. 10 - 12.
Diehl, Une République Patricienne, Venise, pp. 47 - 48.
Vasiliev, op. cit. pp. 452 - 453.

أقلع الاسطول من البندقية في ٨ نوفمبر سنة ١٢٠٢ ، فبلغ زارا بعد يومين ، ولم تلبث المدينة ، بعد ان تعرّضت لهجوم عنيف ، ان استسلمت في ١٥ نوفمبر ، فاستباحها العساكر . ثم نشب القتال ، بعد ثلاثة ايام ، بين البنادقة والصليبيين أثناء اقتسام الغنيمة ، غير ان السلام لم يلبث ان التأم ، وعندئذ قرر الدوج وبونيفاس ان الوقت أضحى من التأخير في تلك السنة ، ما يتعذر معه المخاطرة بالمسير الى الشرق ، فاستقرّت الحملة في زارا طوال فصل الشتاء ، بينما عمد قادتها الى إعداد عملياتهم الحربية المقبلة [1] .

ولما بلغت روما أنباء نهب زارا ، ارتاع البابا انوسنت الثالث ، إذ انه لم يقرّ مطلقاً استخدام حملة صليبية لمهاجمة أملاك احد أبنـــاء الكنيسة المخلصين ، بعد تحدّي اوامره . فأصدر قراراً بقطع الحملة كلها من الكنيسة . ولما أدرك أن الصليبيين لم يكونوا سوى ضحية لما حدث من التشهير ، عفا عنهم ، غير أنه أبقى على قرار حرمان البنادقة [2] . لم ينزعج داندولو لما حدث ، إذ ظل على اتصال عن طريق بونيفاس ، بزميله في قرار الكنيسة بالحرمان ، فيليب دوق سوابيا . وفي اوائل سنة ١٢٠٣ قـدم الى زارا رسول من المانيا من قبل فيليب الى بونيفاس يحمل اليه عرضاً محدداً من صهره الكسيوس ، بأنـه اذا توجهت الحملة الصليبية الى القسطنطينية ،

---

(١) انظر : Villehardouin, I, pp. 76 - 90.
Robert of Clary, pp. 12 - 14.

(٢) انظر : Innocent III, letters *V*, 161, 162, *VI*, 99 - 102, (M. P. L. vol. CCXIV, cols. 1178, 1182, vol. CCXV, cols. 103 - 110).
Villehardouin, I, pp. 104 - 108.

وجعلت الكسيوس على عرش الامبراطورية بها ، فعندئذ يتكفل الكسيوس بأن يؤدي للصليبيين ما زالوا يدينون به من أموال للبنادقة ، وسوف يمدّهم بما يلزم لفتح مصر من المال والمؤونة ، وسوف يضيف اليهم فرقة من الجيش البيزنطي مؤلفة من عشرة آلاف رجل ، وسوف يتولى الانفاق على خمسمائة فارس ، يقيمون بالارض المقدسة ، وسوف يكفل خضوع كنيسة القسطنطينية لكنيسة روما . ورفع بونيفاس الأمر الى داندولو الذي أعرب عن فرحه وارتياحه ، إذ ليس لذلك معنى سوى ان البندقية سوف تحصل على أموالها ، وفي الوقت ذاته سوف تذل اليونانيين ، وتمدّ امتيازاتها التجارية وتوطدها في أنحاء الامبراطورية البيزنطية . أما الاعتداء على مصر فمن اليسير درؤه فيما بعد[1] .

ولما جرى عرض الاقتراح على الصليبيين ، لم يخالفه إلا عدد قليل منهم ، مثل رينالد مونتميرايل الذي أدرك أنهم لم يتخذوا الصليب إلا ليقاتلوا المسلمين ، ولم يرَ ما يدعو الى تأجيل آخر للحملة ، فتخلى هؤلاء المعارضون عن الحملة ، وأبحروا الى سوريا . وبقيت فئة اخرى مع الجيش ، أعلنت احتجاجها ، بينما أسكتت فئة ثالثة ما بذله البنادقة لهم في الوقت المناسب من الرشاوى . على ان سائر الصليبيين جرى تلقينهم الاعتقاد بأن بيزنطة ظلت باستمرار خائنة للعالم المسيحي طوال الحروب المقدسة .

---

(١) انظر : Villehardouin, I, pp. 90 - 100.

أشار فيلهاردوين في موضع سابق الى مـا دار من مفاوضات بين الكسيوس والصليبيين في البندقية . انظر : Villehardouin, I, pp. 70 - 74.

فأضحى يعتبر من الأعمال الحكيمة الجديرة بالشرف ، إلزامها منذ الآن بالتعاون مع الصليبيين . أما الرجال الأتقياء بالجيش فانهم اغتبطوا لأن يسهموا في سياسة تؤدي الى إعادة اليونانيين المنشقين الى حظيرة الكاثوليكية . بينما فكر رجال الدنيا بالجيش في كنوز القسطنطينية وأقاليمها التي اشتهرت بالرخاء ، وتطلعوا الى الامل في استباحتها ونهبها . كما ان بعض البارونات ، ومنهم بونيفاس نفسه ، ازداد تطلعهم الى ما هو أبعد من ذلك ، ولعلهم قدروا ان ما يقع على شواطىء بحر ايجه من الضياع تفوق في استهوائها لهم كل ما يصح ان يصادفوه منها في بلاد الشام التي حلت بها الاضرار . فما كان الغرب يكنه منذ زمن طويل من كراهية للعالم المسيحي في الشرق ، هيأ لداندولو وبونيفاس الفرصة لأن يحملا الرأي العام على مساندتهما [1] .

لم يتضاءل قلق البابا على الحملة الصليبية حينما سمع بما اتخذته من قرار . فما جرى من خطة بين البنادقة وأصدقاء فيليب دوق سوابيا ، ليس من الراجح ان تفيد الكنيسة . يضاف الى ذلك انه سبق للبابا ان اجتمع بالكسيوس الصغير ، فتبين له انه ليس إلا شاباً تافهاً . غير ان الوقت قد فات ، فلم يعد بوسعه ان يتقدم باحتجاج قوي . فاذا كان المقصود فعلاً

---

(١) انظر : Villehardouin, I, pp. 100 - 104.
Robert of Clary, pp. 14 - 15.
Hugh of Saint Paul, letter in Chronica Regia Coloniensis, p. 205.
ورد في هذه الرسالة ان كل الصليبيين على وجه التقريب كانوا يودون المضي الى فلسطين ، غير انهم اضطروا كارهين الى قبول فكرة داندولو وبونيفاس .

من تحول الحملة الى القسطنطينية ، الحصول من بيزنطة على مساعدة قوية لقتال المسلمين ، وتحقيق اتحاد الكنيستين في الوقت ذاته ، جاز بذلك تبرير هـذا التحول . فاكتفى البابا بأن اصدر امراً ، بأنه ينبغي ألا يجري الاعتداء على مسيحيين آخرين ، إلا اذا كانوا فعلاً يعوقون الحرب المقدسة . كان خيراً له في المدى البعيد ان يعلن رفضه صراحة وبصفة قاطعة ، ولو لم يكن له قيمة . اما اليونانيون الذين كانوا دائماً يرتابون في نوايا البابا ، ويجهلون تعقيدات السياسات الغربية ، فانه تراءى لهم ان ما اصدره البابا من قرار حرمان هزيل يعتبر دليلاً على انه كان من وراء كل المؤامرة [1] .

---

(١) انظر : Gesta Innocentii III, loc. cit. cols. 130 - 132.

انظر ايضاً رسالة البابا انوسنت الثالث الى الامبراطور الكسيوس ، الواردة في :

(M. P. L. vol. CCXIV, cols. 1123 - 1125.)

ورسالته الى ايبرارد رئيس اساقفة سالتزبرج ، الواردة في :

Registrum de Negotio Romani Imperii LXX, (M. P. L. vol. CCXVI, cols. 1075 - 1077).

اذ تحدث فيها عن الحاجة الى التفكير في هذه الامور . والراجح ان فيليب دوق سوابيا كان يعلم بمشروع مهاجمة زارا ، اذ انه ارسل الكاردينال بطرس اسقف كابوا برفقة الزعماء الصليبيين كيما يحصلوا من البابا على تأييد لألكسيوس ، في وقت لا تتهيأ فيه الاجابة اذا مضت الحملة مباشرة الى الشرق . انظر : Bréhier, Les Croisades, p. 155.

The Novogorod Chronicle, (ed. Lasonov, p. 241).

Chronica Regia Coloniensis, p. 200.

ورد في تاريخ نوفجورود ان البـــابا ساند الخطة التي تقضي بمهاجمة القسطنطينية ، بينما اشار المصدر الآخر (Chronica) الى ان البابا رفع قرار الحرمان عن الصليبيين الذي سبق ان اصدره بسبب مهاجمتهم زارا ، وذلك حينما قرروا المضي الى القسطنطينية .

الحملة الصليبية تقلع الى القسطنطينية سنة ١٢٠٣ :

وصل الكسيوس الى زارا قادماً من المانيا ، وبعد بضعة ايام اقلعت الحملة ، بعد ان توقفت فترة من الزمن في دورازو ، حيث تم الاعتراف بالكسيوس امبراطوراً ، ثم وصلت الى كورفو ، حيث ابرم الكسيوس معاهدة مع حلفائه . وفي ٢٥ مايو تقرر استئناف الرحلة ، فطاف الاسطول حول شبه جزيرة البيلوبونيز ، ثم اتجه صوب الشمال الى جزيرة اندروس ، فامتلأت صهاريجه من مياه الينابيع الوفيرة بالجزيرة ، ثم اتخذ الاسطول طريقه من جزيرة اندروس الى الدردنيل ، فألفاه مجرداً من اسباب الدفاع . وإذ تصادف نضوج محصول تراقيا ، رسا الصليبيون في ابيدوس كيما يجنوا ما شاءوا من المحصول ، وفي ٢٤ يونيه اضحوا امام عاصمة الامبراطورية (القسطنطينية) [١] .

لم يتخذ الامبراطور الكسيوس الثالث تدابير لمنع وصولهم . إذ أن الجيش الامبراطوري لم ينهض من الكوارث التي حلّت به في السنوات الاخيرة من عهد مانويل . وكاد الجيش الامبراطوري ان يكون جميعه من المأجورين . والواضح ان وحدات الفرنج لا يصح الركون اليها في هذه

---

(١) انظر : Villehardouin, I, pp. 110 - 128.
Robert of Clary, pp. 30 - 40.
Anonymous of Halberstadt, in Riant, Exuviae I, pp. 14 - 15.
Devastatio Constantinopolitana, (ed. Hopf, pp. 88 - 89.
Nicetas Choniates, p. 717.

اللحظة ، اما الوحدات الصقلبية والبجناكية فان الثقة فيها تتوقف على ما يؤدى اليها على الفور من المال الجاهز. والمعروف ان حرس الورنك الذي اضحى وقتذاك يتألف اساساً من الانجليز والدانمرقيين ، ما زال على ولائه التقليدي لشخص الامبراطور . غير ان الكسيوس الثالث لم يكن الرجل الذي يوحي بما للحرس من تقليد الولاء لشخص الامبراطور . إذ كان مغتصباً لم يظفر بالعرش عن جدارة بأن كان جندياً او من رجال السياسة ، بل ارتقى العرش بما حدث بالبلاط من مؤامرة حقيرة ، ودلّ على انه ليس كفئاً لممارسة الحكم . لم يكن مطمئناً الى جيشه ، ولا واثقاً في الشعور العام لرعاياه ، وتراءى له انه من الخير ألا يفعل شيئاً . سبق ان تعرضت القسطنطينية لعواصف عنيفة في القرون التسعة السالفة من تاريخها ، ولا شك ان بوسعها ان تجتاز عاصفة اخرى .

وإذ لم ينجح الصليبيون فيما شنوه من هجوم على خلقيدونية وخريصبولي (سكودري) على الشاطىء الآسيوي للبوسفور ، هبطوا في غَـلطـَه ، عبر القرن الذهبي ؛ فاحتلوا البلد ، واستطاعوا ان يحطموا السلسلة التي تعترض مدخل القرن الذهبي ، وأن يرسوا سفنهم بالميناء . واستطاع الكسيوس الصغير أن يحمل الصليبيين على الاعتقاد بأن كل بيزنطة سوف تنهض للترحيب به . واستبدت الدهشة بالصليبيين حين اكتشفوا ان كل ابواب المدينة أغلقت دونهم ، وأن العساكر البيزنطية رابطوا على الاسوار . وحبطت المحاولات الاولى التي جرت من سفن الصليبيين لمهاجمة الاسوار على امتداد القرن الذهبي . على ان داندولو والبنادقة نجحوا بعد قتال عنيف في ١٧ يوليه في ان يحدثوا ثغرة بالأسوار . وكان الكسيوس الثالث يفكر فعلاً في الفرار ، على الرغم من انه دهش مثلما دهش الصليبيون حين اكتشف ما جرى من الدفاع عن مدينته . ذلك انه طالع في الانجيل كيف ان داود

هرب امـــام ابشالوم ، وبذا تهيأت له الحياة كيا يستعيد عرشه [1] .
واصطحب الكسيوس الثالث ابنته الاثيرة عنده ، وحمل حقيبة امتلأت بالأحجار الكريمة ، وتسلل من الاسوار البرية ، ثم لجأ الى موزينوپوليس في تراقيا . فلما لم يعد بالعاصمة امبراطور ، بادر موظفو الحكومة باتخـــاذ قرار دلّ على الدهاء ، بأن اطلقوا سراح الامبراطور السابق الضرير ، اسحاق ، ونصبوه على العرش ، وأعلنوا لداندولو والصليبيين انه لا حاجة للمضي في القتال ، بعد ان عاد الى العرش والد الكسيوس الصغير المطالب بالحكم . على ان الكسيوس الصغير ظل حتى وقتذاك ينكر وجود ابيه ، فلم يعد بوسعه الآن ان يتجاهله . وحثّ حلفـــاءه على وقف الهجوم ، فأنفذوا بـدلاً من ذلك سفارة الى داخل المدينـة ، اعلنت انهم سوف يعترفون بأسحاق امبراطوراً ، اذا تقرر جعل ابنـه الكسيوس الصغير قسيماً له في الحكم ، وإذ احترم الاثنان المعاهدة التي سبق ان عقدهـا الكسيوس الصغير . وفي اول اغسطس ، وإذ جرت مراسيم الصلاة بكنيسة القديسة صوفية ، بحضور كبار البارونات الصليبيين ، تم تتويج الكسيوس الرابع قسيماً لأبيه الامبراطور [2] .

---

(١) انظر : العهد القديم – سفر الملوك الثاني ١٥ : ١ – ١٢ .

(٢) انظر : Nicetas Choniates, pp. 718 - 726.

اورد خونياتس رواية مسهبة عن وجهة النظر اليونانية .

Villehardouin, I, pp. 154 - 184.

اورد فيلهاردوين أوفى رواية تمثل وجهة نظر الصليبيين .

Robert of Clary, pp. 41 - 51.

Anonymnous of Halberstadt, pp. 15 - 16.

Devastatio Constantinopolitana, pp. 89 - 90.

Chronica Regia Coloniensis, pp. 203 - 208.

اثبت رسالة هيو سانت بول .

الكسيوس الصغير اضحى امبراطوراً سنة ١٢٠٣ :

لم يلبث الكسيوس الرابع ان اكتشف انه ليس للأمبراطور ما للمطالب بالحكم ، ان يتخلى عن المسئولية . فما بذله الكسيوس الرابع من محاولة لإرغام رجال الدين بالمدينة على ان يقبلوا سيادة روما ، وأن يدخلوا في طقوسهم الشعائر اللاتينية صادقت مقاومة عنيفة . ولم يتيسر له ايضاً ان يجبي ما سبق ان وعد الصليبيين به من اموال . واستهل حكمه باندفاعه في اغداق الهدايا الوافرة على قادة الصليبيين ، فأثار بذلك نهمهم ، غير انه حين تحتم عليه أن يسلّم البنادقة المـال الذي حان الموعد الذي ينبغي على الصليبيين فيه ان يؤدوه ، لم يكن بالخزانة من الاموال مـا يكفي لتسديده . وعندئذ اعلن الكسيوس فرض ضرائب جديدة ، يضاف الى ذلك انه اثار غضب الكنيسة بأن صادر كميات ضخمة من الاواني الكنسية وأمر بسبكها وبذلها للبنادقة . وأخذ جو المدينة طوال خريف وشتاء سنة ١٢٠٣ يزداد حدة وتوتراً . وضاق سكان المدينة ذرعاً بمنظر فرسان الفرنج المتغطرسين ، يجوسون بخيولهم شوارع مدينتهم . وتوقفت الحركة التجـارية ، ودأبت جماعات من عساكر الغرب السكارى على نهب القرى بضواحي المدينة ، فلم يعد الناس يأمنون على انفسهم خارج اسوار المدينة (القسطنطينية) . وأتى حريق مروع على حي بأكمله بالمدينة ، حينما عمد بعض الفرنسيين ، بدافع التقوى ، الى اشعال الحريق بمسجد يؤمه التجار المسلمون القادمون الى المدينـــة . ولم يكن الصليبيون بأقل سخطاً من البيزنطيين ، إذ ادركوا آخر الامر انه ليس بوسع الحكومة البيزنطية ان توفي بما بذله الكسيوس الرابع من وعود . فما سبق ان عرضه من رجال وأموال لم تـَعْدُ في متناول ايديهم . ولم يلبث الكسيوس نفسه ان تخلى

عن الجهد الذي لا امل فيه لمحاولة ارضاء ضيوفه (الصليبيين) ، فدعاهم الى حفلة طارئة ، اقامها بالبلاط ، وبفضل مساعدتهم قام بنزهة عسكرية قصيرة ، هاجم اثناءها عمه الكسيوس الثالث في تراقيا ، ثم لم يلبث ان عاد الى القسطنطينية ليحتفل بما أحرزه من انتصار في اشتباك صغير . اما بقية ايامه ولياليه فأمضاها في مباذله الخاصة . وإذ كان ابوه ضريراً لا يستطيع ان يشارك في حكومة البلاد ، عاش في عزلة مع بعض المنجمين المقربين له ، الذين دعت نبوءاتهم ألا يطمئن الى المستقبل ، وكان لا مفر من حدوث شقاق صريح ، وبذل داندولو كل جهده للتعجيل بهذا الشقاق ، بما تقدم به من مطالب غير معقولة [1] .

لم يصلح فيما يبدو للسيطرة على الامور بالقسطنطينية إلا رجلان ، كانا من اصهار الكسيوس الثالث ، الامبراطور السابق ، اولهما ، وهو ثيودور لاسكاريس ، زوج الاميرة أنّه ، وكان جندياً لامعاً ، سبق ان قام بتنظيم اول دفاع ازاء اللاتين ، غير انه لجأ الى العزلة ، بعد فرار صهره (الكسيوس الثالث) ، اما الرجل الثاني فهو الكسيوس مورتسوفلوس ، زوج ايدوسيا ابنة الكسيوس الثالث ايضاً ، فانه اتخذ اتجاهاً مخالفاً ، بأن سعى لينال الحظوة عند الكسيوس الرابع ، فحاز لقب امين الامبراطور . وجعل نفسه زعيم الوطنيين . وهو الذي دبّر ، فيما يبدو ،

---

(١) انظر :
Nicetas Choniates, pp. 736 - 738.
Villehardouin, I, pp. 186 - 206.
Robert of Clary, pp. 57 - 58.
Devastatio Constantinopolitana, pp. 90 - 91.

ما وقع في يناير سنة ١٢٠٤ من فتنة ، كما يثير خوف الكسيوس الرابع من العرش . ولم يكن لهذه الثورة من نتائج مادية ، سوى تحطيم التمثال الضخم للآلهة اثينا ، الذي صنعه فيدياس ، والذي انتصب في السوق ، مواجهاً الغرب . وقـام جماعة من الرعاع السكارى بتدمير التمثال ، لأن اثينا كانت فيما يبدو تدعو الغزاة [١] .

وقوع ثورة في القصر سنة ١٢٠٤ :

قدم وفـــد من الصليبيين في فبراير سنة ١٢٠٤ الى قصر بلاشرنا ، وطلب من الكسيوس الرابع المبادرة الى الوفـاء بوعوده ، فلم يسعه إلا الاعتراف بعجزه ، وكاد الجمهور الغاضب ان يمزق اعضاء الوفد ارباً ، عند خروجهم من قاعة الاستقبال بالقصر ، فاندفع الرعاع الى كنيسة القديسة صوفيه ، فأعلنوا بهـا عزل الكسيوس الرابع ، واختاروا مكانه نبيـلاً مغموراً ، اسمه نقولا كانابوس ، الذي تصادف حضوره بالكنيسة ، فحاول التخلص من هذا الشرف . وعندئذ أغار مورتسوفلوس على القصر ، وما من احد حاول ان يدافع عن الكسيوس الرابع ، الذي جرى القـاؤه بالسجن ، حيث لقي مصرعه ، ولم يستحق ان يبكيه احد من النـاس . ولم تمض إلا بضعة ايام حتى توفي والده اسحاق كمداً وحزنـاً ، بعد ان

---

(١) انظر :
Nicetas Cheniates, pp. 738 - 747.
Villehardouin, II, pp. 6 - 23.
Robert of Clary, p. 57.
Devastatio Constantinopolitana, p. 91.

تعرّض لمعاملة بالغة السوء ؛ بينما ألقى في السجن الامبراطور الطيف ، كانابوس ، فتولى العرش مورتسوفلوس ، واتخذ اسم الكسيوس الخامس[1].

والواقع ان ثورة القصر ليست إلا تحدياً مباشراً للصليبيين ، وقد ظل البنادقة زمناً طويلاً يلحون عليهم ، بأنه ليس ثمة إلا اجراء عملي وحيد ، وهو الذي يقضي بالاستيلاء عنوة على القسطنطينية وتنصيب امبراطور من الغرب . فأضحى لنصيحتهم وقتئذ فيما يبدو ما يبررها . غير أنه ليس من السهل اختيار امبراطور . وظلت المناقشة دائرة في معسكر غلطة طوال شهر مارس . إذ ألحت طائفة من الصليبيين على اختيار فيليب دوق سوابيا ، حتى تتحد الامبراطوريتان . غير ان فيليب يقيم بعيداً ، كما انه كان مقطوعاً من الكنيسة ، فضلاً عن نفور البنادقة من فكرة قيام امبراطورية واحدة قوية . وكان بونيفاس مونتفيرات هو المرشح الظاهر ، غير انه لا بد ايضاً من الادراك ان البنادقة لن يوافقوا عليه ، برغم ما كانوا يبدونه دائماً نحو بونيفاس من مظاهر المحبة ؛ إذ أن بونيفاس غلب عليه من الطموح ما يتعارض مع ميول البنادقة . يضاف الى ذلك ما كان له من صلات مع الجنويين . فتقرر آخر الامر ان تتولى هيئة مؤلفة من ستة من الفرنج ، وستة من البنادقة اختيار الامبراطور ، عقب الاستيلاء على القسطنطينية . فاذا وقع الاختيار على احد الفرنج ليكون امبراطوراً ،

---

(١) انظر :
Nicetas Choniates, pp. 738 - 747.
Villehardouin, II, pp. 6 - 23.
Robert of Clary, pp. 58 - 59.
Devastatio Constantinopolitana, p. 92.

ويعتبر ذلك فيما يبدو احسن اختيار ، فلا بدّ ان يختار احـــد البنادقة بطريركاً . ولا بد للامبراطور ان يحوز القصر الامبراطوري الكبير ، وأن يجعل قصر بلاشيرنا مقرّاً لإقامته ، وأن يكون له ربع المدينة والامبراطورية . أما البقية ، وهي ثلاث ارباع المدينة والامبراطورية ، فإن نصفها يؤول للبنادقة ، ويكون النصف الآخر من نصيب الفرسان الصليبيين ، يقسم بينهم إقطاعات . وينبغي على كل حائزي الاقطاعات باستثناء الدوج ان يحلفوا يمين الولاء للامبراطور . وبذا تجري كل الامور من اجل « الله ، والبابا ، والامبراطور » . أما الادعاء بأن تمضي الحملة بعدئذ لقتال المسلمين فتقرر صراحة التخلي عنه [1] .

اشتهر الكسيوس الخامس بأنه امبراطور شديد البأس ، ولكنه لم يكن محبوباً . عزل من الوزراء كل من اعتقد انه غير موال له ، ومنهم المؤرخ نكيتاس خونياتس الذي تجلى انتقامه لنفسه فيما كتبه عنه في تاريخه . وجرت بعض المحاولات لإصلاح أسوار المدينة وإعـــداد السكان للدفاع عنها . غير ان الثورات المستمرة أفسدت أخلاق حراس المدينة ، ولم تتهيأ الفرصة لجلب عساكر من الأقاليم ، كما انه كان بداخل المدينة خونة تقاضوا أموالاً من البنادقة . وأول هجوم شنّه الصليبيون في ٦ أبريل ، ارتد على أعقابه ، وتكبّد الصليبيون فيه خسائر فادحة . ثم عاود الصليبيون بعد ستة ايام هجومهم ، فاشتدّ القتال على القرن الذهبي ، حيث فشلت السفن اليونانية في محاولتها منع اسطول البنادقة من إنزال العساكر الى البر أسفل

---

(١) انظر : Villehardouin, II, pp. 34 - 36.
Robert of Clary, p. 68.
Andrea Dandolo, *Chronicle*, (ed. Pastorello), p. 279.

الأسوار . أما الهجوم الرئيسي فتوجه الى حي بلاشيرنا ، حيث امتدت الأسوار البرية الى القرن الذهبي ، وفي هذا الموضع حدثت ثغرة في السور الخارجي . وظلّ المدافعون صامدين في السور الداخلي ، حتى حدث ، إما بطريق الصدفة وإما بطريق الخيانة ، ان اندلعت النيران في المدينة من ورائهم ، فحصرتهم . فانهار دفاعهم ، وتدفق على المدينة الفرنج والبنادقة . وهرب مورتسوفلوس وزوجته ، بأن التزما الأسوار حتى القرن الذهبي ، قرب بحر مرمرة ، ومن ثم توجها الى تراقيا ، حيث التمس مورتسوفلوس له مأوى عند صهره في موزينوبوليس . ولما شاع أمر فرار مورتسوفلوس اجتمع من تبقى من النبلاء في كنيسة القديسة صوفية ، فعرضوا التاج على ثيودور لاسكاريس ، غير ان الوقت قــد فات ، لإنقاذ المدينة ، فرفض ثيودور هذا الشرق الأجوف . ثم قدم مع البطريرك الى مفرق الطرق في الميدان ، الواقع بين الكنيسة والقصر الكبير ، وتحدثا في تأثر شديد الى حرس الورنك ، فأخطرا الحرس ، بأنهم لن يصيبوا شيئاً اذا تمّ الاستسلام للسادة الجدد ، غير ان روح الحرس المعنوية تحطمت ، وانهم لن يقاتلوا من جديد . وعندئذ تسلل ثيودور وزوجته والبطريرك مع عدد كبير من النبلاء ، الى ميناء القصر ، فاستقلوا السفينة الى آسيا [1] .

---

(١) انظر :

Nicetas Choniates, pp. 748 - 756.
Villehardouin, II, pp. 32 - 50.
Robert of Clary, pp. 60 - 79.
Gunther, pp. 91 - 94, 100 - 104.
Devastatio Constantinopolitana, p. 92.
Ernoul, pp. 369 - 373.
Novgorod Chronicle, pp. 242 - 245.

انظر ايضاً رسالة بلدوين الواردة في :
R. H. F. vol. XVIII, p. 522.

لم يحدث إلا قتال ضئيل في الشوارع ، حين اخذ الغزاة يشقون طريقهم في داخل المدينة . وفي صبيحة اليوم التالي استقر الدوج وكبار الصليبيين في القصر الكبير ، وجرى اخطار عساكرهم بأن لهم ان يستبيحوا المدينة ثلاثة ايام .

نهب القسطنطينية سنة ١٢٠٤ :

ليس لنهب القسطنطينية مثيل في التاريخ ، إذ ظلت المدينة العظيمة تسعة قرون عاصمة للمدنية المسيحية . فزخرت بما تخلف عن بلاد اليونان القديمة من الاعمال الفنية ، وحفلت بما اجراه صناعها المهرة من الروائع . والواقع ان البنادقة ادركوا قيمة هذه الاشياء ، فاستولوا ، كلما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، على الكنوز ، ونقلوها الى مدينتهم ، فزينوا بها الميادين والكنائس والقصور . أما الفرنسيون والفلمنكيون فتسلطت عليهم الشهوة للتدمير ، فاندفعوا كالرعاع المسعورة يجوبون الشوارع ، ويغشون الدور ، ينتزعون كل ما يتلألأ ويلمع ، ويدمرون كل ما لم يستطيعوا حمله ، ولم يتريثوا إلا لكي يقتلوا او ينهبوا ، او يقتحموا مستودعات النبيذ لينتشوا منها . ولم يفلت من التخريب ، الأديرة والكنائس والمكتبات . بل حدث في كنيسة القديسة صوفية ذاتها ، ان جرت مشاهدة العساكر السكارى يمزقون الستائر الحريرية ، ويحطمون الأواني الفضية الكبيرة ، وداسوا بأقدامهم الكتب المقدسة والايقونات . وبينما كانوا يتناولون الشراب في اواني المذبح مبتهجين ، تربعت عاهرة على كرسي البطريرك ، وأخذت تردد اغنية فرنسية بذيئة . وتعرّضت الراهبات للاغتصاب في اديرتهن . ولم تجر التفرقة بين القصور والاكواخ فيما تعرضت له من الهجوم والتدمير . وأخذ الجرحى من النساء والاطفال يلفظون انفاسهم في الشوارع . وظلت مناظر النهب وسفك

الدماء المريعة مستمرة ثلاثـــة ايام ، حتى اضحت المدينة الضخمة الجميلة شبيهة بسوق اللحوم . وهتف المؤرخ نكيتاس في صدق ، ان المسلمين لأكثر منهم رحمة [1] .

أدرك اللاتين آخر الامر ان هذا التدمير لم يكن في صالح احد من الناس . ولم يعد الأمن الى نصابه إلا حينما أرهقهم سوء استخدام الحرية . فكل مَن سرق تحفــة ثمينة ، أرغم على ان يتنازل عنها لنبلاء الفرنج ، وتعرّض تعساء الحظ من السكان للتنكيل والتعــذيب حتى يكشفوا عن

---

(١) انظر : Nicetas Choniates, pp. 757 - 763.

Nicolas Mesarites, in Heisenberg, Neue Quellen zur Geschichte des Lateinischen Kaisertum, I, pp. 41 - 48.

Cotolerius, Ecclesiae Graecae Monumenta, III, pp. 510 - 514.

(اورد رسالة الاكليروس اليونانيين) .

M. P. L. vol. CCXV, cols. 699 - 702 — letter *VIII*, 126.

(رسالة موجهة الى البابا انوسنت اوردت بالتفصيل ما وقع من مظاهر الرعب في القسطنطينية) .

Villehardouin, II, pp. 52 - 58.

Robert of Clary, pp. 68 - 69, 80 - 81.

Gunther, pp. 104 - 108.

Ernoul, pp. 374 - 376.

Novgorod Chronicle, pp. 245 - 246.

انظر رسالة بلدوين التي سبق الاشارة اليها . على ان اكثر ما اوقع له المؤرخون اللاتين ما اقدم عليه الصليبيون من النهب والتخريب ، لا مــا اتصفوا به من القسوة . ويعترف جونار ان مارتن رئيس دير بايريس نفسه كان حريصاً على ان ينــال نصيبه من الغنيمة . ويعتبر ارنول ان البنادقة كانوا اشد الناس اسرافاً في النهب . ويشير ابو شامة الى ان البنادقة باعوا قدراً كبيراً من الغنيمة للمسلمين . انظر : Abu Shama, II, p. 154.

السلع التي عمدوا الى إخفائها . وعلى الرغم من ان قدراً كبيراً من الغنيمة تعرّض للدمار ، فان كميتها لا زالت بالغة الضخامة . كتب فيلهاردوين : ليس بوسع احد ان يحصي الذهب والفضة ، ولا الصحون والجواهر ، ولا الثياب الحريرية الثقيلة ، او المنسوجات الحريرية ، او الثيـاب المصنوعة من فراء الفندس ، او الفراء الرمادي الفضي ، او فراء السنجاب . وأضاف : انه منذ خلق الله العالم ، لم ينزع من مدينة واحدة ، وفقاً لمصدره الموثوق به ، من الاشياء مثلما أخذ من القسطنطينية . وتقرر تقسيم كل هذه الغنيمة وفقاً لأحكام المعـاهدة ، بأن صار للصليبيين ثلاث أثمانها ، وللبنادقة ثلاث أثمانها ، بينما صار الربع من نصيب الامبراطور المقبل(١) .

تتويج بلدوين كونت فلاندر امبراطوراً سنة ١٢٠٤ :

كان الأمر الثاني هو انه لا بدّ من اختيار امبراطور . فلا زال بونيفاس مونتفيرات يأمل في ان يتم انتخابه . ولتعزيز مركزه ، انقذ الامبراطورة مرجريت ، ارملة اسحاق الهنغارية ، ولم يلبث ان تزوجها ، غير انـــه لم يكن من الطراز الذي يقبله البنادقة . وبفضل نفوذهم ، جرى بذل العرش لأمير لم يتعرّض لما تعرّض له بونيفاس من الجدل والنقاش ، وهو بلدوين التاسع ، كونت فلاندر وهينولت ، الذي ينتمي الى اسرة عريقة النسب وفيرة الثروة ، غير انه كان اضعف من بونيفاس وأكثر ليناً وانقياداً منه ، على ان لقبه سوف يكون اعظم شأناً من سلطته الفعلية . والواقع انـه

---

(١) انظر :

Villehardouin, II, pp. 59 - 60.
Robert of Clary, pp. 80 - 81.

كان لا بدّ ان يكون سيداً أعلى لكل ما فتح من البلاد ، مع الاستثناء المشئوم للأراضي التي اختص بهـــا دوج البندقية . والمفروض ان تشمل املاكه الشخصية تراقيا حتى كورلو ، وبثينيا وميسيا حتى جبل اوليمبوس ، ومن جزر بحر ايجه امثال ساموتراكي ، وليسبوس ، وخيوس ، وساموس ، وكوس . أما عاصمته فليس مقرراً ان تكون ملكاً له ، لأن البنادقة زعموا لأنفسهم الحق في ثلاث اثمـان القسطنطينية وحازوا شطرها الذي يضم كنيسة القديسة صوفيه ، حيث تمّ تنصيب احد البنادقة ، وهو توماس موروسيني بطريركاً . يضاف الى ذلـك انهم طالبوا بإجزاء الامبراطورية التي سوف تسهم في سيادتهم البحرية ، كالسواحل الغربية لبلاد اليونان ذاتها ، وشبه جزيرة البيلوبونيز بأكملها ، وناكسوس ، وأندروس ، ويوبويا ، وغاليبولي حتى موانىء تراقيا الواقعة على بحر مرمرة ، وأدرنه . وعرضوا على بونيفاس ، تعويضاً له عن ضياع العرش منه ، املاكاً ليست محددة في بلاد الاناضول ، وشرقي بلاد اليونان ووسطها ، وجزيرة كريت . ولمـــا لم يكن لبونيفاس رغبة في المضي الى فتح بلاد في آسيا ، طلب عوضاً عنها مقدونياً وسالونيك . تردد بلدوين اول الأمر ، غير ان الرأي العام أيـد بونيفاس ، ولا سيا حين عرض دعوى الوراثة المستمدة من اخيه رايلييه ، الذي سبق ان تزوج ماريا بورفيروجنيت ، وكسب جانب البنادقة بـأن باعهم جزيرة كريت . فأضحى بونيفاس ملكاً على سالونيك من قبـــل الامبراطور . واختص صغار النبلاء بإقطاعات تتناسب مـــع مكانتهم وأهميتهم [1] .

---

(١) عن اقتسام الامبراطورية ، انظر :

Longnon, L'Empire Latin de Constantinople, pp. 49 - 64.

ووردت معاهدة التقسيم في :

Tafel and Thomas, Urkunden I, pp. 464 - 468.

وفي ١٦ مـايو سنة ١٢٠٤ ، جرى الاحتفال بتتويج بلدوين في كنيسة القديسة صوفيه . وحدث في اول اكتوبر ، بعد ان قمع بلدوين مغامرة قام بها بونيفاس من اجل الاستقلال ، ان عقد محكة بالقسطنطينية ، حيث بذل الإقطاعات لنحو ستمائـة من اتباعه ، مع تأميرهم . وفي تلك الاثناء كان يجري وضع دستور ، استند من ناحية الى نظريات الفقهاء في النظام الإقطاعي ، ومن ناحية اخرى الى ما يعتقد بأنه الاجراء السائد في مملكة بيت المقدس . ويتولى المجلس المؤلف من المقطعين بمساعدة بودشتا القسطنطينية من البنادقة ، بذل النصح للأمبراطور في الأمور السياسية ، ويقوم هذا المجلس بتوجيه العمليات الحربية ، وبوسعه ان يوقف مـا يصدره الامبراطور من اوامر ادارية . ونشأت محكة عليا تألفت على نسق المجلس ، تتولى تنظيم العلاقات بين الامبراطور وأتباعه . فلم يزد الامبراطور كثيراً على كونه رئيس مجلس الاعيان . فما تضمنته قوانين الروم من دساتير لم تكن صالحة للتطبيق ولا يماثلها إلا قلة من الدساتير [١] .

على ان دولة الروم اللاتينية Romania ، وهو الاسم الذي اطلقه اللاتين على امبراطوريتهم ، لم يكن لها من الحقيقة ما يزيد كثيراً على حقيقة سلطة الامبراطور ، إذ لم يتم فتح كل اقاليمها ، بل انه لن يفتح كثير منهـا . فالبنادقة الذين اشتهروا بادراكهم للواقع لم يحوزوا من الاملاك إلا تلك التي يعلمون ان بوسعهم الاحتفاظ بهـا ، امثال جزيرة كريت ، ميناثي

---

(١) انظر : Villehardouin, II, pp. 66 - 68.
Robert of Clary, p. 93.
Assises of Romania, (ed. Recoura), passim.

مودينا وكروتون في شبه جزيرة البيلوبونيز ، فضلاً عن كورفو التي بقيت في ايديهم فترة من الزمن . ونصبوا من اتباعهم الذين ينحدرون من اصل بندقي سادة في جزائر بحر ايجه ، اما في كيفالونيا ويوبويا فانهم قبلوا ولاء الأمراء اللاتين الذين سبقوهم اليها ونصبوا أنفسهم سادة بها . ولم يلبث بونيفاس ان غزا معظم بلاد اليونان الاصلية ، ونصب بها اتباعه ، فأضحى احد البرجنديين ، اوثو لاروش دوقاً لأثينا وطيبه ، بينما صارت البيلوبونيز من نصيب سيدين فرنسيين هما وليم شامبليت وجيوفري فيلهاردوين ابن شقيق المؤرخ المعروف ، فأسس اسرة الأمراء الذين حكموا أخايا[1] .

الامبراطورية اللاتينية ١٢٠٤ - ١٢٦١ :

وبذا كادت كل الاقاليم الاوربية التابعة للأمبراطورية البيزنطية قد انتقلت الى ايدي اللاتين . على ان اللاتين كانوا مخطئين في اعتقادهم بأن استيلاءهم على القسطنطينية سوف يؤدي الى استحواذهم على كل الامبراطورية . ففي اوقات الكوارث تعرب الروح اليونانية عن نفسها في اشد ما تكون شجاعة ونشاطاً . فما حدث من ضياع عاصمة الامبراطورية ادى اول الامر الى الفوضى . على انه حدث في سنتين ان انتظم العالم اليوناني من جديد في ثلاث إمارات على التوالي . ففي اقصى الشرق ، استطاع حفيدان للأمبراطور اندرونيقوس وهما الكسيوس وداود كومنينوس ، بفضل مساعدة عمتهما ثامار ملكة بلاد الكرج العظيمة ، ان يحتلا اطرابزون وأن يوطدا سلطانهما

---

(١) انظر : Longnon, loc. cit.
Hopf, Geschichte Griechenlands, II, p. 10.

على امتداد شواطىء البحر الاسود وآسيا الصغرى . على ان داود لقي مصرعه سنة ١٢٠٦ ، وهو يقاتل لبسط سلطانها نحو البوسفور ، بينما عاش الكسيوس حتى اتخذ لقب امبراطور ، وأنشأ اسرة ظلت تحكم قرنين ونصف من الزمان ، ونالت حظاً كبيراً من الثروة ، بفضل التجارة القادمة من فارس والشرق ، والتي اجتازت عاصمتها ، وبفضل ما توافر في التلال الواقعة خلفها من مناجم الفضة ، واشتهرت هذه الاسرة ايضاً بجمال اميراتها . وفي اقصى الغرب استطاع احد سلالة اسرة انجيلوس ، ولم يكن ابناً شرعياً ، ان يجعل من نفسه طاغية (Despot) لإبيروس ، وأقام أسرة قوّضت مملكة مونتفيرات في سالونيك . على ان اهم الإمارات الثلاثة وأشدها خطراً ، كانت الامبراطورية التي اقامها في نيقيه أنتّه ابنة الكسيوس الثالث وزوجها ثيودور لاسكاريس .

إلتف حولها كل من هرب من القسطنطينية من كبار اهل المدينة وأعيانها . وتخلى البطريرك اليوناني يوحنا كاماتيروس الذي سبق ان فرّ الى تراقيا ، عن منصبه ، كيما يتسنى لرجال الدين الذين جرى نفيهم من القسطنطينية ان ينتخبوا للبطريركية قساً كان فعلاً في نيقية ، وهو ميخائيل اوتوريانوس ، فتولى ميخائيل عندئذ تتويج ثيودور وأنتّه . وبذا اضحت نيقية في نظر اليونانيين حاضرة الامبراطورية الشرعية . ولم يلبث ثيودور ان بسط سلطانه على معظم ما تبقى لبيزنطة من الاراضي في آسيا . واستطاع اخلافه ان يحكموا من جديد في القسطنطينية بعد نيف وخمسين سنة [1] .

---

(١) انظر : Vasiliev : « Foundation of the Empire of Trebizond », Speculum, vol. XI, pp. 3 - 37.
Ostrogorsky, Geschichte des Byzantinischen Staates, 2nd ed. pp.337-359.

وأغفل اللاتين ايضاً سائر العناصر في شبه جزيرة البلقان . إذ ان امبراطورية الاخوة اسن الافلاخية البلغارية كانت تود عن طيب خاطر ان تتحالف معهم لمناهضة اليونانيين البغضاء . غير ان الامبراطور اللاتيني طالب بالأراضي التي سبق للقيصر كالويان ان احتلها ، وادعى البطريرك اللاتيني لنفسه السلطة على الكنيسة البلغارية الارثوذكسية ، فاضطرت بلغاريا الى قبول تحالف غير طبيعي مع اليونانيين . وفي معركة ادرنه سنة ١٢٠٥ تحطم معظم جيش امبراطورية رومانيا (الروم) ، ووقع الامبراطور بلدوين اسيراً فساقوه الى قلعة بالبلقان حيث قضى بها نحبه . وتراءى لفترة قصيرة كأن قيصر بلغاريا سوف يكون الامبراطور الذي يلي بلدوين على الحكم في القسطنطينية . غير ان الشرق اللاتيني اعدّ هنري شقيق بلدوين ليكون امبراطوراً له . والواقع ان ما اظهره هنري من النشاط والحكمة اثناء حكمه الذي استمر عشر سنوات ، انقذ الامبراطورية من دمار عاجل . فما وقع من منافسات بين الامراء اليونانيين ، وما نشب من منازعات بينهم ، وما جرى من مخاصمات بينهم وبين البلغار ، فضلاً عن ظهور الترك خلف هذه المنازعات كل ذلك أبقى على الامبراطورية اللاتينية حتى سنة ١٢٦١ [١] .

على ان الفاتحين المظفرين لم يتبينوا في غمرة فرحهم ، سنة ١٢٠٤ ما ترتب على حملتهم من نتائج جوفاء ، كما ان معاصريهم بهرهم ايضاً الفتح .

---

(١) انظر : Longnon, op. cit. passim, esp. pp. 77 - 186.
Ostrogorsky, op. cit. pp. 337 - 359.
Zlatarsky, History of the Bulgarian Empire, (in Bulgarian), III, pp. 211 - 247.

إذ حدث اول الأمر ان عمّ الفرح والسرور انحاء العالم اللاتيني . ومع ذلك تساءل الشاعر الكلوني الساخر، جيّوه دى بروفنس في قصائده لماذا اجاز البابا توجيه حملة صليبية لقتال المسيحيين ، كما ان شاعر التروبادور البروفنسالي جويم فيجويرا اشتد في اتهام روما بما ارتكبته من خيانة في حق اليونانيين . غير انه حينما كتب ، كانت روما تدعو الى توجيه حملة صليبية لقتال مواطنيه [1] . على ان هؤلاء المخالفين كانوا قلة نادرة . فمهما كانت المخافات التي احسّ بها البابا انوسنت الثالث عن تحول الحملة الصليبية الى القسطنطينية، فإنه كان اول الأمر مبتهجاً . ففي رده على رسالة تفيض فرحاً وسروراً تلقاها من الامبراطور بلدوين يتباهى فيها بالنتائج العظيمة القيمة للمعجزة التي صنعها الله ، كتب انوسنت انه يطرب لما صنعه الله ، وأعلن موافقته دون تحفظ [2] . وذاع في انحاء الغرب اغاني المدح ، وبلغ الحماس اشده ، حينما اخذت المخلفات الدينية القيمة تصل الى فرنسا وبلجيكا. وجرى انشاد التراتيم احتفالاً بسقوط المدينة الضخمة الملحدة ، القسطنطينية Constantinopolitana Civitas diu profana ، التي جرى وقتئذ انتزاع كنوزها،

---

(١) انظر : Guyot de Provins, Oeuves, (ed. Orr.), p. 34.

Guillem Figuera, « Dun Servientes Far », in de Bartholomaeis, Poesie Provenziale Storiche, II, pp. 98 - 99.

Throop, Criticism of the Crusade, pp. 30 - 31.

(٢) انظر رسائل انوسنت :

Innocent III, letters VII, 153, 154, 203, 208. (M. P. L. vol. CCXV, cols. 454 - 461, 512 - 516, 521 - 523).

وتشجع اللاتين في الشرق بما بلغهم من انباء سقوط القسطنطينية [1] . ومن المحقق ان سقوط القسطنطينية في ايدي اقاربهم من اللاتين قد يجعل كل استراتيجية الحروب الصليبية ، بالغة التأثير . وترددت الشائعات بأن المسلمين استبد بهم الخوف ، وهنأ البابا نفسه لما شاع من ان سلطان مصر اظهر جزعه وخوفه [2] .

البابا انوسنت يدين الحملة الصليبية سنة ١٢٠٤ :

على ان إعادة التفكير لم تكن بالغة التشجيع ، إذ ان مخافات البابا اخذت في الظهور مرة اخرى . فما اتسمت بـه الامبراطورية الشرقية وكنيستها من التماسك في العالم المسيحي الروماني كان يعتبر من الاعمال الرائعة ، ولكن هل تحقق هذا العمل بطريقة أدت الى فائدة ثابتة ؟ تلقى البابا معلومات اضافية ، فارتاع لما وقف عليه ممـا اقترن به نهب المدينة من مناظر سفك الدماء وارتكاب كل ما يخالف الدين من اعمال ، فاشتد جزعه باعتباره رجلاً مسيحياً ؛ وازداد قلقه ، باعتباره من رجال السياسة . فهذه الوحشية المتبربرة لم تكن خير سياسة لكسب محبة العالم المسيحي الشرقي . وكتب انوسنت، وقد استبد به الغضب، الى القسطنطينية ،

---

(١) انظر : Riant, Exuviae, II, pp. 43 - 50.

من المزامير التي اوردها : Sequentia Andegavensis.

(٢) انظر : Innocent III, letters VIII, 125, (M. P. L. vol. CCXV, col. 698).

Ibn al - Athir, II, p. 95.

أشار ابن الاثير الى ان فتح القسطنطينية يسّر للصليبيين الوصول الى سوريا .

مردداً ما ارتكبه الصليبيون من فظائع ، ومنكراً لها . وعلم ايضاً ان الغزاة عمدوا في هدوء الى اقتسام الدولة والكنيسة دون ان يشيروا الى سلطته ، فأغفلوا عن عمد ما له من حقوق ، واستطاع ان يدرك مدى ضعف التنظيمات التي جرى وضعها للأمبراطورية الجديدة ، ومدى تفوق البنادقة في الدهاء على الصليبيين ، ثم زاد من كراهيته ما سمعه من ان ممثله بطرس سان مارسيل اصدر قراراً ، يُحِل فيه كل من سبق ان وعد بالاشتراك في الحرب الصليبية ، من مواصلة السير الى الارض المقدسة . وبدت الحملة الصليبية على انهـــا حملة ليس لها غرض سوى فتح بلاد مسيحية ، وليس مقرراً ان تبذل المساعدة للعساكر المسيحيين الذين يقاتلون المسلمين [١] .

أدرك الفرنج في سوريا فعلاً انهم لا يأملون في ان تقدم اليهم حملة في سنة ١٢٠٤ . إذ انقضى الصيف وما زال الصليبيون مقيمين بالقسطنطينية . وإذ عرف الملك امالريك انه لن تقدم وقتئذ أمداد ، بادر في سبتمبر سنة ١٢٠٤ الى عقد هدنة مع السلطان العادل [٢] . غير انه سرعان ما تبين ان ما اقامه اللاتين من امارات في الشمال سوف تنزل ضرراً فعلياً بإماراتهم في سوريا . لقد تباهى الامبراطور بلدوين على البابا انوسنت بأن عدداً كبيراً من بارونات الشرق الفرنجي قدموا ليشهدوا حفلة تتويجه ، وبأنه بذل قصارى جهده ليقنعهم بالبقاء عنده ، ولما تبين انه توافرت اقطاعات

---

(١) انظر : Innocent III, letters, VIII, 126, (M. P. L. vol. CCXV, cols. 699 - 702).

(٢) انظر ما سبق ، ص ١٩١ .

خصيبة وغنيّة قرب البوسفور ، وفي بـــلاد اليونان عجّل بالقدوم الى القسطنطينية للحاق بهم ، فرسان آخرون ، انتزع المسلمون اراضيهم . ومن هؤلاء الفرسان هيو سيد طبرية ، وهو اكبر أبناء زوجة ريموند كونت طرابلس وزوج مرجريت ابلين ، ابنة ماريا كومنينا . اما فرسان الغرب المغامرون فانهم ادركوا انه لا داعي مطلقاً لأن يمضوا في طريقهم الى مملكة بيت المقدس المكتظة ، في سبيل الحصول على بارونية او وارثة اقطاع ، ففي بلاد اليونان من الاراضي ما يفوق اراضي بيت المقدس جودة وغنى . كما ان الاستيلاء على قبرص اجتذب عدداً كبيراً من نزلاء بر الشام . ولم يقدم من اوربا ، بعـــد الاستيلاء على رومانيا ، للدفاع عن الارض المقدسة سوى المجندين للخدمة في الطوائف الدينية العسكرية [1] .

نتائج الحملة الصليبية الرابعة ، سنة ١٢٠٤ :

لم يرتكب في حق الانسانية من الجرائم ما هو اشد من الحملة الصليبية الرابعة . فلم تؤد هذه الحملة فحسب الى تدمير او تبديد ما حرصت بيزنطة على اختزانه من كنوز الزمن الغابر ، وإلى اصابة المدنية التي لا زالت فتية ويانعة ، بجرح مميت ، بل انها تعتبر ايضاً من افعال الحماقة السياسية العاتية ، فلم تبذل للمسيحيين بفلسطين شيئاً من المساعدة ، بل انها عوضاً عن ذلك سلبتهم انصارهم الاقوياء ، وقلبت رأساً على عقب كل وسائل الدفاع عن العـــالم المسيحي . لو ان اللاتين استطاعوا ان يستولوا على

(١) انظر : Villehardouin, II, p. 124.

الامبراطورية البيزنطية حسبما كانت عليه زمن الامبراطور مانويل ، لأضحى بوسعهم عندئذ ان يبذلوا مساعدة قوية للحركة الصليبية ، على الرغم من ان تهافت بيزنطة على مصالح سوريا اللاتينية ، لن يطول امد نجاحه . غير ان بيزنطة فقدت منذ وفاة الامبراطور مانويل جانباً من املاكها بالأناضول ولم يستطع اللاتين ان يستولوا على ما تبقى منها ، على حين ان مهاجمتهم لليونانيين زادت في قوة الترك . إذ اضحى الطريق البري الممتد من اوربا الى سورية بالغ الصعوبة ، نتيجة للحملة الصليبية الرابعة ، نظراً لما يثيره المسافرون عليه من ارتياب اليونانيين في نيقية وعداوة الترك في الاناضول . وما من جماعة مسلحة قادمة من الغرب ، تستطيع محاولة اجتياز الاناضول مرة اخرى . كما ان الطريق البحري لم يعد سهلاً ، إذ اضحت السفن الايطالية تؤثر نقل المسافرين الى الجزائر اليونانية والبوسفور ، على المضي الى عكا او موانىء سورية .

وفي المجال الفسيح لتاريخ العالم ، تعتبر نتائج الحملة الصليبية الرابعة فاجعة في جملتها . إذ ان بيزنطة ظلت منذ قيام امبراطوريتها حارسة لأوربا ازاء غير المسيحيين في الشرق والمتبربرين في الشمال. إذ قاومتهم بجيوشها، وروّضتهم بمدنيتها . اجتازت بيزنطة فترات عديدة قلقة ، تراءت فيها كأن مصيرها قد حان ، غير انها منذئذ ظلت عائشة . ففي نهاية القرن الثاني عشر واجهت ازمة طويلة الامد ، حين اخذ يكتمل تأثير ما حاق قوتها البشرية واقتصادها من ضرر بسبب الفتوح التركية في الاناضول ، قبل قرن من الزمان ، زادها شدة ما جرى من منافسة قوية بين المدن التجارية الايطالية . على أنه تهيأ لبيزنطة ان تظهر من جديد ما ادخرته من نشاط ، وأن تعيد فتح بلاد البلقان وجانباً كبيراً من الاناضول ، وأن تواصل حضارتها ما لها من تأثير غير مقطوع على البلاد المحيطة بها ، بل ان

الاتراك السلاجقة كادوا يخضعون لسلطانها ، فتمتصهم آخر الامر لتعيد للأمبراطورية نشاطها . وتدل قصة امبراطورية نيقية على ان البيزنطيين لم يفقدوا قوتهم ونشاطهم . غير ان وحدة العالم البيزنطي تحطمت ، بضياع القسطنطينية ، ولم يعد من المستطاع اصلاحها ، حتى بعد ان تمّ استرداد العاصمة (القسطنطينية) . والواقع ان من الاعمال التي انجزها البيزنطيون ، انهم اوقفوا زحف السلاجقة ، غير انه حينما ظهرت قبيلة تركية اخرى بالغة القوة تحت زعامة بيت عثمان القوي ، بلغ الانقسام في العالم المسيحي بالشرق من العمق ، مــا تعذّر عليه ان يصمد في موقفه ، إذ انتقلت زعامته الى جهــة اخرى ، بعيدة عن البحر المتوسط ، موطن الحضارة الاوربية ، الى سهول روسيا الفسيحة في اقصى الشمال الشرقي . فتخلت روما الثانية عن مكانها الى روما الثالثة ، في بلاد المسكوف .

وفي تلك الاثنــاء انغرست بذور الكراهية بين العــالمين المسيحي في الشرق والغرب . فما كان لدى البابا اوسلت من آمال رائعة ، وما ادّعاه الصليبيون من مفاخرات خادعة ، بأنهم أنهوا الانشقاق ، ووحــدوا الكنيستين ، كل ذلك لم يتحقق . بل حدث بدلاً من ذلك ان همجيتهم ووحشيتهم خلفت من الذكرى مــا لا يغتفر لهم . وقــد يدافع الزعماء المسيحيون فيما بعد عن الاتحاد مع روما ، وقد تعلقوا بالأمل في ان الاتحاد سوف يؤدي الى اقامة جبهة متحدة إزاء الترك . غير ان اقوامهم لن يتبعوهم ، فليس بوسعهم ان ينسوا الحملة الصليبية الرابعة . وكان لا مفر فيما يبدو ان تفترق كنيسة روما عن الكنائس الشرقية الكبيرة ، غير ان الحركة الصليبية زادت في مرارة العلاقات بينهما ، فمنذئذ ، مهما حاول بعض الامراء تحقيق الوحــدة ، فان الشقاق ظــلّ مكتملاً ومستقراً في أفئدة المسيحيين في الشرق ولا أمل في علاجه .

الفصل الثاني

الحملة الصليبية الخامسة

ما حدث من فشل الحملة الصليبية الرابعة في ارسال مساعدة مادية الى فلسطين ، جرى التعويض عنها . إذ ظلت المملكة الصغيرة (بيت المقدس) ما يزيد على عشر سنوات تنعم بالهدوء والسلام . فالهدنة التي عقدها الملك اماريك مع السلطان العادل لا زالت قائمة ، وليس بوسع الفرنج ان يخاطروا بنقضها إلا اذا جاءتهم معونة من الغرب ، على حين ان العادل بلغ من شدة انصرافه الى المحافظة على املاكه ، ما يكفي لمنعه من ان يجهد نفسه في فتح إمارة لا تثير شيئاً من الضرر ، بينما اذا اقدم على مهاجمتها ، فإنه يثير بذلك حرباً صليبية . فاستطاع يوحنا ابلين ان يحكم ، باعتباره وصياً على ابنة اخته الملكة ماريا لمدة ثلاث سنوات دون ان يتعرض لشيء من القلق .

بلغت الملكة ماريا ، في سنة ١٢٠٨ ، السابعة عشرة من عمرها ، فحان الوقت للبحث عن زوج لها . فتقرر إرسال سفارة مؤلفة من فلورنت

اسقف عكا ، وايمار سيد قيسارية ، الى فرنسا تطلب الى الملك فيليب ترشيح زوج لها . وكان المأمول ان عرض تاج مملكة بيت المقدس سوف يغري احد الامراء الأقوياء الاغنياء ، على القدوم لنجدة الشرق الفرنجي . غير انه لم يكن من اليسير العثور على عريس للملكة ماريا . ثم حدث آخر الأمر ، في ربيع سنة ١٢١٠ ان اعلن الملك فيليب ان فارساً من شامبانيا اسمه يوحنا بريين قبل العرض [١] .

يوحنا بريين ملك بيت المقدس ، سنة ١٢١٠ :

كان الاختيار مخيباً للآمال ، إذ لم يكن يوحنا سوى احد الابناء الصغار المفلسين ، بلغ وقتذاك الستين من عمره . تزوّج اخوه الاكبر والترمن كبرى بنات تانكرد ملك صقلية . وجال بخاطره المطالبة بعرش صقلية ، ولكن لم يظفر بشيء . أما يوحنا بريين فإنه امضى حياته مغموراً ، لم يكن سوى احد قادة ملك فرنسا . ترددت الشائعات بأنه لم يقع الاختيار عليه حينئذ إلا بسبب علاقة حب آثمه مع بلانش كونتيسة شامبانيا ، الحقت الفضيحة بالبلاط . على انه اذا طرحنا الفقر جانباً ، لم يكن يوحنا تعوزه الجدارة للترشيح زوجاً للملكة . إذ اشتهر باطلاعه الواسع في السياسة الدولية ، كما ان تقدمه في العمر كان كفيلاً بـألا يقدم على مغامرات طائشة .

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 407 - 408.
Estoire d'Eracles, II, pp. 305 - 308.
La Monte: « John d'Ibelin », in Byzantion, vol. XII.

ومنحه كل من الملك فيليب والبابا انوسنت هبة قدرها اربعون الف ليرة من الفضة [1] .

وفي تلك الاثناء ، مضى يوحنا ابلين في الاضطلاع بأعباء الحكومة الى ان يصل يوحنا بريين . على ان الهدنـة مع العادل انقضى اجلها في يوليه سنة ١٢١٠ ، فأرسل السلطان العادل الى عكا يقترح تجديدها . وتولى يوحنا ابلين رئاسة المجلس ، الذي اوصى بقبول مـــا عرضه السلطان العادل ، ولقي التأييد من مقدم الاسبتارية ، جيرين مونتايجو ومقدم الفرسان التيوتون هرمان باردت . ولكن مقدم الداوية ، فيليب لي بليسيير ، حرض الاساقفة على ان يصروا على رفض الاقتراح بتجديد الهدنة ، متذرعين في ذلك بسند قانوني ، هو ان الملك المقبل ليس بوسعه ان يلتزم بهدنـة جديدة . لم يقع فعلاً إلا شيء قليل من القتال بين المسلمين والفرنج . ذلك ان العادل ارسل ابنه المعظم على رأس ثلـّة من العساكر الى جبل الطور ، وكان مجرّد حضورها كافياً لردع الفرنج [2] .

هبط يوحنا بريين الى عكا في ١٣ سبتمبر سنة ١٢١٠ ، وفي اليوم التالي ، قـام البرت بطريرك بيت المقدس بعقد قرانه على الملكة ماريا . وفي ٣ اكتوبر تمّ تتويجها في صور .

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, loc. cit.

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, pp. 310 - 316.
Abu Shama, II, p. 158.

ولم يلبث الملك الجديد ان صار محبوباً . أظهر الكياسة في معالجة أتباعه والطوائف الدينية العسكرية ، والتزم الحذر في علاقاته مع المسلمين . فبينما كان رجال البلاط في صور يشهدون حفلة التتويج ، أغار المعظم على ضواحي عكا ، غير انه لم يجرؤ على مهاجمة المدينة ذاتها . وحدث في أوائل الصيف التالي ان سمح يوحنا بريين لبعض أتباعه بأن يشتركوا مع الداوية في حملة سارت بطريق البحر الى دمياط ، على مصب نهر النيل ، غير انها لم تظفر بشيء . على ان يوحنا بريين قبيل بعد بضعة شهور عرضاً جديداً من قبل العادل ، فأبرم هدنة لمدة خمس سنوات ، على انه لم يبدأ تنفيذها إلا في يوليه سنة ١٢١٢ . وفي نفس الوقت ، أنفذ الملك يوحنا الى روما رسائل تطلب من البابا ان تكون الحملة الصليبية الجديدة مستعدة للقدوم الى فلسطين عند انقضاء اجل الهدنة [١] .

وفي تلك السنة (١٢١٢) ماتت الملكة الصغيرة ، بعد ان وضعت طفلة اسمها ازابيللا ، وهو اسم جدتها غير انها اشتهرت عادة باسم يولاندا . أضحى الوضع القانوني ليوحنا بريين موضع شك . فالمعروف انه كان يحكم باعتباره زوجاً للملكة ، ولكن المملكة انتقلت الى يولاندا بعد وفاة امها ، وليس لأبيها يوحنا بريين حق شرعي . وإذ كان والداً ليولاندا تقرّر قبوله وصياً طبيعياً على المملكة ، على الاقل حتى تتزوج يولاندا ، وظلّ يوحنا بريين بحكم البلاد في اطمئنان وهدوء حتى قدوم الحملة الصليبية

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, loc. cit. and p. 317.
Abu Shama, loc. cit.

المقبلة . والتمس السلوى في ترمّله بأن تزوج سنة ١٢١٤ من ستيفاني اميرة ارمينية ، ابنة ليو الثاني . وأثبتت ستيفاني انها زوجة شريرة لوالد يولاندا ، وتحدث الناس بأن وفاتها سنة ١٢١٩ ترجع الى ما أصابها من ضرب مبرح على يد يوحنا بريين ، لأنها حاولت ان تدسّ السم للطفلة يولاندا [١] .

على ان الامارات اللاتينية المجاورة تقاصرت عن مملكة عكا فيما واتاها من الحظ . ففي قبرص خلف الملك اماريك في الحكم ابنه هيو الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره . فتولى الوصاية والتر مونتبليار ، وهو فارس فرنسي كان كندسطبلاً لأماريك ، وتزوج من برجنديا شقيقة هيو الكبرى . غير انه لم يكن وصياً ناجحاً ، إذ اقحم جزيرة قبرص في حرب خاسرة مع الترك ، ولما سلّم مقاليد الحكم لصهره ، هيو ، سنة ١٢١٠ ، تقرر نفيه ، للارتياب في انه ابتزّ اموالاً ضخمة اثنــاء وصايته على العرش . أضحى الملك هيو وقتذاك في الخامسة عشرة من عمره [٢] . تزوج قبل سلتين أليس أميرة بيت المقدس ، وابنة زوجة ابيه ، وفقاً لمــــا عقده

---

(١) انظر : Ernoul, p. 411
Estoire d'Eracles, II, p. 320
La Monte, Fendal Monarchy, p. 55.

وانظر ايضاً ما يلي : الكتاب الثاني ، الفصل الثاني .

درجت تواريخ الشرق الفرنجي على ان تطلق اسم ايزابيلا على الملكة الصغيرة ، على ان التواريخ الغربية اوردت ايضاً اسمها على انها يولاندا . وجرى رنسيان على استعمال اسم يولاندا حتى يقل اختلاط اسمها مع سائر المعروفات باسم ايزابيلا .

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 15 - 16.
Mas Latrie, Documents, II, p. 13.

الوالدان من اتفاق . وتولى المفاوضات لإتمام الزواج ، الملكة ماريا كومنينا ، جدة العروس ، وبذل البائنة (المهر) بلانش نافار كونتيسة شامبانيا ، ارملة عم العروس . إذ انها خشيت انه مـا لم تطمئن الى زواج أليس واختها في الشرق ، فقـد تقدم احداهما وتطالب بكونتية شامبانيا من ابنهـا الطفل . اشتهر الملك هيو بأنه شاب حادّ المزاج ، ظلت علاقاته عاصفة مع جيرانه وأتباعه ، وكنيسته ، والبابوية . غير انه وهب مملكته حكومة راسخة قوية[1] .

ولاية الحكم في انطاكية سنة ١٢٠١ :

كان الوضع في إمارة انطاكية اشدّ عنفاً . إذ أن بوهمند كونت طرابلس نصب نفسه اميراً على انطاكية عقب وفاة والده بوهمند الثالث ، متحدياً بذلك حقوق ابن اخيه ريموند روبين . على ان ليو ملك ارمينيا ، وخال ريموند روبين ظل يلحّ في تأييد قضيته . وعقّد الأمور ما وقع من شجار بين ليو والداوية ، بعد أن رفض ليو ان يعيـد اليهم قلعتهم بغراس . وعندئذ انحاز اليه الاسبتارية في مناوءة بوهمند . على انه كان بوسع بوهمـنـد ان يطلب العون من الـترك السلاجقة ، الذين لم تنقطع الحروب بينهم وبـين ليو ، كما ان الظاهر غازي امير حلب كان دائمـاً

---

(١) انظر : Mas Latrie, Histoire de l'Ile de Chypre, I, pp. 175 - 177.
Documents, II, p. 34.
Innocent III, letters, IX, 28, (M. P. L. vol. CCXV, cols. 829 - 830).
Hill, History of Cyprus, II, pp. 73 - 83.

مستعداً لأن يرسل اليه الامداد . أضحى العادل تبعاً لذلك عدواً لبوهمند . والواقع ان ملكي بيت المقدس وقبرص لم يثبتا دائمـــاً في عواطفهما . وازدادت الفوضى بما حدث من المشاكل الدينية . فكان لا بدّ من تسوية مشكلة ولاية الحكم في انطاكية ، للمحافظة على مصالح الحركة الصليبية بأسرها . وأحسّ البابا انوسنت ان من واجبـه ان يتدخل في الامر . وحاول مندوباه ، سوفرد كاردينال سانت براكسيدس ، وبطرس كاردينال سانت مارسيل الواحد بعد الآخر ، ثم مجتمعين ، ان يستمعا الى القضية ، وبينما تظاهر ليو بالانصياع لحكم البابا في روما ، رفض ان يصالح الداوية بالتنازل لهم عن بغراس ، وفقاً لمـا امر به البابا . أما بوهمند فانه من جانبه انكر حق البابا في ان يقف على مسألة تعتبر اقطاعية خالصة . والمعروف أن بطرس بطريرك انطاكية انحاز عقب وفـاة بوهمند الثالث الى حزب ليو ، فلم يغفر له هـــذه الغلطة بوهمند الرابع ، وحكومة (قومون) مدينة انطاكية التي كانت شديدة العداء للأرمن . على أن ليو كتب سنة ١٢٠٣ الى البابا يطلب جعل الكنيسة الارمنية تخضع مباشرة لولاية روما (البابوية) . ثم وقع سنة ١٢٠٥ شجار بين البطريرك وبين المندوب البـابوي ، بطرس كاردينال سانت مارسيل حول تعيين رئيس شمامسة انطاكية . وإذ لم يعد للبطريرك اصدقاء ، اضحى بوسع بوهمند الرابع ان ينتقم منه [١] .

---

(١) عن تاريخ انطاكية في هذه الفترة ، انظر :

Cahen, La Syrie du Nord, pp. 600 - 615.

أما بوهمند (الرابع) ، فكانت له مشاغله الخاصة . فمع انه استحوذ على السلطة في انطاكية ، وظفر بتأييد . الإقليم ، فإن سلطانه بالريف كان مقيداً . ففي نهاية سنة ١٢٠٤ ، أثار الاضطراب بكونتية طرابلس ، الفتنة التي قام بها رينوارت ، سيد نيفين ، الذي تزوج بدون إذن بوهمند ، من وارثة اقطاع عكار . وانحاز الى رينوارت كثير من سادة الاقطاعات ، ومنهم رالف سيد طبرية ، الذي لحق اخوه اوتو ببلاط ليو الارمني ، ولقي المتمردون العطف من الملك اماريك . وبينما كان بوهمند يسعى لإخماد الثورة ، ألقى ليو الحصار على انطاكية ، ولم ينسحب إلا بعد ان قدم جيش من قبل الظاهر غازي امير حلب ، لمساعدة بوهمند . ولما مات اماريك ، منع يوحنا ابلين كل مساعدة عن الثوار ، فأنزل بهم بوهمند الهزيمة في نهاية السنة ، بعد ان فقد احدى عينيه أثناء القتال . وفي تلك الأثناء ، كيما يثبت بوهمند ان انطاكية ، باعتبارها امارة علمانية لم تدخل في اختصاص البابا ، أعلن ان امبراطور القسطنطينية كان دائماً السيد الأعلى لها . ولما قامت ماريا كونتيسة شامبانيا ، وزوجة الامبراطور بلدوين اللاتيني بالقسطنطينية ، بزيارة فلسطين ، ارتحل بوهمند الى عكا ليبذل لها يمين الولاء ، وهي في طريق العودة الى زوجها[1] .

---

(١) انظر : Alberic of Trois Fontaines, Chronicon R. H. F. vol. XVIII, p. 884.

افترض الفرنج ان الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية ورثت كل حقوق بيزنطة . ومع ذلك فان ليو ملك ارمينيا بادر الى التفاوض مع امبراطور نيقية ، الذي زعم ايضاً انه وريث البيزنطيين.
انظر : Cahen, loc. cit. esp. p. 606.

رسامة بطريرك يوناني لأنطاكية سنة ١٢٠٦ :

وإذ اشتدت ثائرة بوهمند امير انطاكية ، مع البابا والبطريرك ، سنة ١٢٠٦ ، قرر عزل البطريرك ، ودعا البطريرك اليوناني سمعان الثاني ، الذي لم يكن له إلا اللقب فحسب ، ليحلّ مكانه . والراجح ان سمعان كان يقيم فعلاً في انطاكية ، ومن المحقق ان حركة بوهمند لقيت التأييد من قومون انطاكية ، بل لعل القومون هو الذي أشار بها . ومع انه مضى على حكم الفرنج في انطاكية ما يزيد على قرن من الزمان ، فلا زال العنصر اليوناني كبيراً وموفور الثراء ، ولا بد انه حدث اثناء تلك الفترة ان تصاهرت اسرات تجار لاتينية مع اليونانيين . وكره اللاتين واليونانيون معاً الارمن ، وما حدث من التقارب بين البابا انوسنت وبين ليو الارمني ، حملهم على مناهضة روما . وإذ ادرك بوهمند من جانبه انه لم يعد بوسع بيزنطة ان تهدده ، كان على استعداد تام لأن يؤازر كنيسة تفرض تقاليدها ان تبذل الاحترام للأمير العلماني . ومن سخرية الأقدار ألا تعود لأنطاكية البطريركية اليونانية التي اشتدّ الأباطرة البيزنطيون في القرن الماضي في النضال من أجلها ، إلا بعد تدمير بيزنطة على أيدي اللاتين . فبادر بطرس البطريرك اللاتيني الى تسوية نزاعه مع المندوب البابوي ، الذي أعاد له سلطة فرض القطع من الكنيسة ، التي كانت موضع نزاع بينهما . وبفضل مـا تلقاه من روما من موافقة تامة ، قرر البطريرك اللاتيني قطع امير انطاكية والقومون من الكنيسة ، وردّا على ذلك بالالتجاء الى الكنائس اليونانية بالمدينة . وعندئذ لجأ البطريرك اللاتيني الى تدبير المؤامرات . فحوالي نهاية سنة ١٢٠٧ ، أدخل ليلاً الى المدينة جماعة من الفرسان الموالين له ، وحاولوا الاستيلاء على الجزء الاسفل من المدينة ، غير ان بوهمند حشد

قواته في القلعة ، ولم يلبث ان طردهم الى خارج المدينـة ، وتقرر محاكمة البطريرك اللاتيني بطرس لخيانته ، بعـد ان اتضح اشتراكه في الجريمة ، وجرى إلقاؤه بالسجن . ولم يقـدّم له في السجن طعـام او ماء وإذ استبدّ به اليأس ، تجرّع ما في مصباحه من زيت ، فهلك بعـد عذاب أليم [1] .

أخـذ البابا انوسنت يسأم هـذا النضال الذي لا حدّ له ، فعهد الى بطريرك بيت المقدس بمسئولية تسويته . وحدث سنة ١٢٠٨ انـ اشتدّ غيظ ليو ، فخرّب ما يحيط بانطاكية من بلاد ، بينما تعرضت طرابلس للغزو من قِبل قوات العادل ، التي قدمت دون مبرر للانتقام لما وقع على بعض التجار المسلمين من اعتداء من قِبل جماعـــة من القبارصة ، كما ان الاسبتارية قاموا بغارة هجومية على طرابلس . ولم ينقذ بوهمند إلا الالتجاء الى السلاجقة لمناهضة ليو ، بينما استنجد البابا بالظاهر غازي امير حلب لإنقـاذ انطاكية من اليونانيين . وأعقب ذلك حدوث ثورة دبلوماسية ، ذلك ان البرت بطريرك بيت المقدس كان صديقاً للداوية حلفاء بوهمند . فأثار غضب ليو بأنـ أصرّ على انه ينبغي على ليو ان يعيد بَغراس للداوية ، كخطوة اولى لإجراء التسوية . وفي تلك الأثناء وافق بوهمند على قبول بطريرك جديد من اللاتين في انطاكية ، وهو بطرس لوكيديو . وعندئذ

---

(١) انظر : Cahen, loc. cit. esp. pp. 612 - 618.
وتدل رواية كامن على ان العنصر اليوناني في القومون كان قوياً . والراجح ان زيجات عديدة تمت في دوائر التجار من اللاتين واليونانيين .

نسي ليو ما بذله من الطاعة لروما ، وتباهى بأنه عقد محالفة مع الامبراطور اليوناني في نيقية . ورحّب باستقبال سمعان بطريرك انطاكية اليوناني ، في قليقية ، وبذل لليونانيين قدراً كبيراً من اراضي الكنيسة اللاتينية بهـا . على انـه في الوقت ذاته التمس صداقة هيو ملك قبرص ، الذي تزوجت اخته هيلفيس من ريموند روبين ، ومنح ليو لطائفة التيوتون قلاعاً في قليقية وظلّ النضال مستمراً [١] .

وحدث سنة ١٢١٣ ، ان ريموند اكبر ابناء بوهمند ، والذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، لقي مصرعه في كاتدرائية انطرطوس على يـد عصابة من الحشيشية . ويبدو ان الاسبتارية هم الذين حرضوا القتلة ، نظراً لأن الحشيشية كانوا وقتذاك يؤدون إتاوة لهم . وفي السنة التالية اغتال الحشيشية البرت بطريرك بيت المقدس ، وكان ايضاً من اعداء الاسبتارية . وسعى بوهمند للانتقام ، وبفضل مـا جاءه من مدد من الداوية هاجم الخوابي إحدى قـلاع الحشيشية . فاستنجد الحشيشية بالظاهر غازي امير حلب ، الذي التمس بدوره المساعدة من السلطان العادل . فرفع بوهمند الحصار عن الخوابي واعتذر للظاهر غازي . غير ان الظاهر لم يكن مستعداً وقتذاك لمساندته . يضاف الى ذلك ان ما تردد من شائعات عن حمـلة صليبية جديدة ، أدى الى توحيد العالم الاسلامي . فأخذ الظاهر يسعى الى صداقة عمه العادل [٢] .

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. pp. 615 - 619.

(٢) انظر : Cahen, op. cit. pp. 619 - 621.

وأفاد ليو من الموقف ، بأن عقد صلحاً مرة اخرى مع روما . اشتهر رالف ، بطريرك بيت المقدس ، والاسقف السابق في صيدا ، بأنه رجل سهل الانقياد ، وأبدى البابا استعداده لأن يعفو عن ليو ، إذا اسهم بالمساعدة في الحملة الصليبية القادمة . وما حدث من زواج يوحنا بريين من ستيفاني ابنة ليو ، أدى الى عقد محالفة بين ارمينية وعكا . وفي سنة ١٢١٦ استطاع ليو بما دبره من مؤامرة ناجحة ، لقيت من غير شك المساعدة من البطريرك بطرس ، ان يُهرّب الى انطاكية العساكر وأن يحتل المدينة ، دون قتال . كان بوهمند وقتذاك في طرابلس ، فلم تلبث عساكره المرابطة بالقلعة في انطاكية ان اذعنت الى ليو فجرى تنصيب ريموند روبين اميراً على انطاكية ، ولفرط فرحه بما نجم عن الحرب الطويلة من نتيجة باهرة ، ردّ ليو آخر الأمر ، بغراس الى الداوية ، وأعاد الى الكنيسة اللاتينية اراضيها في قليقية ، غير ان انتصاره كلفه ما حدث من استيلاء كيكاوس سلطان السلاجقة في قونية ، على حصون تقع الى غرب قليقية وعبر جبال طوروس [1] .

الواقع أن مسألة انطاكية تمت تسويتها في نفس الوقت الذي جرت فيه الدعوة الى حملة صليبية جديدة . إذ ان البابا انوسنت ظلّ منذ ان زايله الخداع عن الحملة الصليبية الرابعة ، يستعد لبذل مجهود بالغ الأهمية لإنقاذ الشرق . إذ ان اموراً كثيرة أثارت اضطرابه ، وسبّبت له الحيرة ، فكان لزاماً عليه ان يحلّ مشكلة الملحدين العسيرة في جنوب فرنسا ، فالحل العنيف الذي توصل اليه بالحملة الصليبية الالبيجنسية ، برغم انه هو

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. pp. 621 - 623.

الذي اثارها ، وجعل للصليبيين من الامتيازات كالتي يحوزونها عند قتال المسلمين ، قد أثار بدوره مشاكل . ففي سنة ١٢١١ دعا انوسنت الثالث الى حرب صليبية في اسبانيا ، رداً على غارة الناصر وزير الموحدين ، على قشتالة . ودلّ على صدق جهوده ، الانتصار الباهر في معركة لاس نافاز دي تولوزا ، في يوليه سنة ١٢١٢ ، حين حلّت الهزيمة الساحقة بالجيش الافريقي ، فبدأت مرحلة جديدة لاسترداد البلاد المسيحية ، غير انه لم يظهر الاستعداد للرحيل الى الارض المقدسة إلا عـدد قليل من الفرسان . فالاستجابة الوحيدة للتوسل لنجدة بيت المقدس جـاءت من طبقة بالغة الاختلاف [١].

الدعوة الى حملة الاطفال الصليبية سنة ١٢١٢ :

حدث في احـد الايام في شهر مايو سنة ١٢١٢ ، ان ظهر في سان دينيه ، حيث كان فيليب ملك فرنسا يعقد محكمته ، صبي راع ، يناهز عمره اثنتي عشرة سنة ، اسمه ستيفن ، من مدينة كلـوي الصغيرة ، في اقليم اورليانيه ، حمل معه رسالة الى الملك ، قال إن الذي اعطاها له ، هو المسيح بشخصه ، الذي ظهر له بينما كان يقوم برعي الغنم ، وأمره بأن يمضي فيدعو الى الحرب الصليبية . ولم يتأثر الملك فيليب بالطفل ، فطلب اليـه ان ينصرف الى داره . غير ان ستيفن الذي ألهب حماسه زائره الغريب ادرك وقتئذ انه القائد الملهم الذي سوف ينجح فيما فشل فيـه

---

(١) عن سياسة انوسنت في لانجدوك واسبانيا ، انظر :
Fliche, La Chrétienté Romaine, pp. 107 - 108, 112 - 137.

شيوخه . والمعروف انـــه في الخمس عشرة سنة السابقة ظل المبشرون يطوفون بالقرى ، يحضّون على الاشتراك في حملة صليبية لقتال المسلمين في الشرق او في اسبانيا ، او لمناهضة الملحدين في لانجدوك . فكان من اليسير ان يتأثر صبي شديد العاطفة بفكرة انه بوسعه ايضاً ان يكون مبشراً ، وأن يبزّ بطرس الناسك ، الذي بلغت بسالته وإقدامه في القرن الماضي من الجلال والعظمة ما اضحى من الاساطير . ولم ينزعج ستيفن باستخفاف الملك به ، فشرع في التبشير عند مدخل دير القديس دينيه ذاته ، وأعلن انه سوف يقود جماعة من الاطفال لإنقاذ العالم المسيحي ، وسوف تجف البحار امامهم ، وسوف يجتازون البحر الاحمر مثلما فعل موسى ، فيصلون سالمين الى الارض المقدسة . وهبه الله قوة خارقة في الفصاحة ، تأثر به كبار السن ، وهرع اليه الاطفال ملبين دعوته . وإذ تحقق أول انتصار له ، اخذ يطوف بأنحاء فرنسا ، يدعو الاطفال ، بل ان عدداً كبيراً من الذين آمنوا بـــه ، مضوا الى ابعد من ذلك ، فصاروا يدعون باسمه . وجرى الاتفاق على انه لا بد ان يجتمعوا بعد حوالي شهر في فندوم ، ومنها يستأنفون سيرهم الى الشرق .

وحوالي نهاية شهر يونيه احتشد الاطفال في فندوم . وتحدث المعاصرون في جزع عن ثلاثين الف طفل ، لم يتجاوز الواحد منهم الثانيـة عشرة من عمره . ومن المحقق ان آلافاً عديدة منهم جرى جمعهم من جميع أنحاء البلاد ، وكان بعضهم من الفلاحين السذج ، الذين سمح لهم آباؤهم عن طيب خاطر بأن يمضوا في هذه البعثة الكبيرة . على انه كان منهم ايضاً صبيان انحدروا من اسرات شريفة ، تسللوا من دورهم ولحقوا باستيفن وأتبـاعه « الأنبياء الصغار » كما نعتهم المؤرخون . ومن بينهم ايضاً ، فتيات صغيرات ،

وبضعة قسس صغار ، فضلاً عن جماعة قليلة من الحجاج الذين يكبرونهم في العمر ، اجتذبت بعضهم التقوى ، بينا كان الدافع للآخرين ، فيا يبدو ، الرحمة ، ومن المحقق ان جماعات اخرى لم تنضمّ اليهم إلا لتشارك في الهدايا التي سوف تنهمر عليهم جميعاً . وقدمت الجماعات متزاحمة الى المدينة ، يرأس كل منها قائد يحمل العلم الفرنسي الاحمر القديم الذي اتخذه ستيفن شارة لحملته الصليبية . لم تتسع المدينة لهم جميعاً ، فعسكروا في الحقول الواقعة خارجها .

وشرعت الحملة في المسير صوب الجنوب ، بعد ان منحها أصدقاؤها القسس البركات ، وبعد ان تنحّى جانباً آخر الآباء الذين اشتد أساهم ، لفراق أبنائهم . وسار معظم الاطفال راجلين . غير ان ستيفن ، باعتباره قائداً ، أصرّ على ان تكون له عربة ، جرى التفنن في زخرفتها ، تعلوها سقيفة تظلّه من الشمس . وركب الى جانبه الصبيان الذين ينتمون لأسرات نبيلة ، إذ ان كلاً منهم كان من الثراء مـا يكفي لأن يتملك فرنسا . ما من احد من الاطفال أنكر على النبي الملهم ان تتوافر له الراحة في سفره ، بل حدث عكس ذلك ، إذ عاملوه على انه قديس ، فمقاتص شعره ، وقطع من ثيابه كانت تعتبر من المقدسات الدينية القيّمة التي ينبغي اقتناؤها . واتخذ الاطفال الطريق الذي يجتاز تور وليون ، الى مرسيليا . والواقع ان الرحلة كانت شاقة ، اذ كان الصيف شديد القيظ . واعتمد الاطفال في طعامهم على ما يتصدّق به الناس عليهم ، ولم يُبقِ الجفاف إلا على شيء ضئيل مما تجود به الارض ، وأضحى الماء شحيحاً نادراً ، ومات عدد كبير من الاطفال على جانبي الطريق ، واختفى آخرون محاولين العودة الى أوطانهم ، غير ان حملة الاطفال وصلت آخر الامر مرسيليا .

الاطفال في مرسيليا سنة ١٢١٢ :

وحيا سكان مرسيليا الاطفال في لطف ورفق ، فعثر كثير منهم على بيوت ينزلون بها ، وعسكر آخرون في الشوارع . وفي صبيحة اليوم التالي اندفعت الحملة بأسرها الى الميناء ليشهدوا البحر ، وقد انشق امامهم . ولما لم تحدث المعجزة ، استبد بهم اليأس الشديد . فتحوّل بعض الاطفال لمهاجمة ستيفن ، وعلا صياحهم بأنه قد خدعهم ، وأخذوا يعودون من حيث اتوا . غير ان معظمهم اقاموا على شاطىء البحر ، ينتظرون كل صباح ان الله سوف يرقّ لحالهم . وحدث بعد بضعة ايام ، ان تاجرين من تجار مرسيليا أشارت الروايات الى ان اسم احدهما هيو الصُلْب ، واسم الآخر وليم الخنزير عرضا على الاطفال ان يحملا تحت تصرفهم من السفن ما يقلهم الى فلسطين دون ان يؤدوا اجراً ، من اجـل مجد الله . فبادر ستيفن فرحاً مسروراً الى قبول هذا العرض الكريم . استأجر التاجران سبـع سفن ، ركب فيها الاطفال ، ثم اقلعت بهم في البحر . ومضت ثماني عشرة سنة دون ان ترد عنهم أنباء .

وفي تلك الاثناء بلغ بـلاد الراين القصص عن دعوة ستيفن للحرب الصليبية . فلا ينبغي لأحد ان يبز اطفال المانيا . ولم تمض بضعة اسابيع على مبادرة ستيفن الى التبشير ، حتى شرع صبي اسمه نقولا من قرية ببلاد الراين في الدعوة لنفس الرسالة امـام ضريح الملوك الثلاثة في كلونيا . وأعلن مثلما فعل ستيفن ان بوسع الاطفال ان يفضلوا الكبار فيما يفعلونه وإن البحر سوف ينفرج ، فيهيء لهم طريقاً يجتازونه . وبينما كان لزاماً على الاطفال الفرنسيين ان يستخدموا القوة لفتـح الارض المقدسة ، كان على الاطفال الالمان ان يحققوا غرضهم بتحويل الكفار الى المسيحية .

واشتهر نقولا بما اشتهر به بطرس (الناسك) من الفصاحة الطبيعية والقدرة على العثور على تلاميذ فصحاء للمضي في دعوته وتبشيره من اقصى بلاد الراين الى اقصاها . ولم تنقض بضعة اسابيع حتى اجتمع في كلونيا جيش من الاطفال ، تجهز للمضي الى ايطاليـا والبحر . على ان متوسط العمر للأطفال الالمان يزيد قليلاً على ما هو معروف عند الفرنسيين ، كما ان نسبة الفتيات بينهم تزيد عنها بـين الفرنسيين ، وكان بينهم من ابناء الاشراف ما يفوق في العدد ما كان معروفاً عند الفرنسيين ، وانحاز اليهم عدد من ذوي السمعة السيئة من المتشردين والعاهرات .

انقسمت الحملة قسمين ، يبلغ عدد القسم الأول في تقدير المؤرخين عشرين الفاً ، تولى قيادتهم نقولا نفسه . واتخـذ طريق الراين الى بازل ، واخترق غرب سويسرا فاجتاز جنيف ، ثم عبر جبال الالب مخترقاً ممر جبل سنيس . كانت رحلة شاقة للأطفال ، وتكبدوا فيها ضحايا جسيمة . فلم يظهر امام اسوار جنوة في نهاية اغسطس إلا اقل من ثلث الجماعة التي غادرت كلونيا، فطلبوا ان يقضوا ليلتهم في داخل اسوار المدينة . ابدت السلطات الجنوية اول الأمر استعدادها الترحيب بالحجاج ، غـير انهم بعد مراجعة انفسهم ارتابوا في ان تكون تلك مكيدة المانية ، ولذا فلن يسمحوا لهم بالبقاء إلا ليلة واحدة ، غير ان كل من اراد الاستقرار بصفة دائمة في جنوة ، جاز لهم ان يفعلوا ذلـك . وإذ توقع الاطفال ان البحر سوف ينشق امامهم في صبيحة اليوم التالي ، رضوا بذلك . على انه في صبيحة اليوم التالي لم يتأثر البحر بصلواتهم مثلما جرى للأطفال الفرنسيين في مرسيليا . وإذ اكتشفوا الحقيقة ، بادر عدد كبير من الاطفال الى قبول عرض الجنويين فأضحوا مواطنين جنويين ، بعد ان أغفلوا حجّتهم . وزعمت اسرات جنوية

عديدة فيما بعد بأنها انحدرت من هـذه الهجرة الاجنبية . غير ان نقولا والجانب الاكبر من الاطفال استمروا في سيرهم ، إذ سوف ينشق لهم البحر في جهـة اخرى . ثم وصلوا الى بيزا بعد بضعة ايام ، وكان بمينائها سفينتان تقصدان فلسطين ، فوافقتا على ان تحملا عدداً كبيراً من الاطفال الذين استقلوهما ، ولعلهم وصلوا بعدئذ فلسطين ، غير انـه لم يعرف شيء عن مصيرهم . ومع ذلك فإن نقولا لا زال ينتظر حدوث معجزة ، فتثاقل مع اصحابه المؤمنين في السير الى روما . فاستقبلهم في روما البابا انوسنت واشتد تأثره بتقواهم ، ولكن اثارت حماقتهم حيرته . ففي حزم مقرون بالعطف طلب اليهم انـه لا بدّ ان يعودوا على الفور الى بلادهم . فإذا ترعرعوا فينبغي عندئذ ان يوفوا بنذورهم ، وأن يسيروا للقتال من اجل الصليب .

مصير الاطفال ، سنة ١٢١٢ :

ليس معروفاً عـن رحلة العودة إلا النذر اليسير . إذ ان لم يكن في وسع عدد كبير من الاطفال ولا سيما الفتيات ، ان يواجهوا مرة اخرى متاعب الطريق ، فتخلفوا في بعض المدن او القرى الايطالية ، ولم يلتمس طريق العودة في الربيع التالي الى بلاد الراين إلا عدد قليل من التائهين ، والراجح ان نقولا لم يكن بينهم . غـير ان الغضب استبد بالآباء الذين فقدوا اطفالهم وأصروا على إلقاء القبض على والد نقولا الذي حمله المجد الكاذب فيما يبدو ، على تشجيع ابنه ، فقبضوا عليه وشنقوه .

ولم تكن الجماعة الاخرى من الحجاج الالمان الاطفال ، بأحسن حظاً من الجماعة الاولى ، إذ ارتحلت الى ايطاليا ، بعد ان اجتازت وسط سويسرا

واخترقت ممر سانت جوثارد ، فوصلت الى البحر عند انكونا بعد ان صادفت متاعب كبيرة . ولما لم ينفرج لهم البحر ، تحركوا في بطء على امتداد الشاطىء الشرقي حتى بلغوا برنديزي . فعثر بعضهم بها على سفن تزمع الاقلاع الى فلسطين ، واستطاعوا ان يستقلوها ، أما الآخرون فعادوا وأخذوا يسيرون في بطء في طريق العودة ، على انه لم يصل منهم آخر الأمر الى اوطانهم إلا عدد ضئيل .

وبرغم ما حاق بهم من ألوان البؤس والشقاء ، فإنهم فيما يبدو كانوا أحسن حظاً من الاطفال الفرنسيين . ففي سنة ١٢٣٠ وصل الى فرنسا قادماً من الشرق قس ، أخذ يروي قصة غريبة ، إذ قال انه احد صغار القسس الذين سبق ان صحبوا ستيفن الى مرسيليا ، وانه استقل معهم السفن التي قدمها التجار . ولم تنقض إلا بضعة ايام عليهم في البحر ، حتى تعرّضوا لطقس سيء ، فتحطمت سفينتان على جزيرة سان بيترو ، تجاه الطرف الجنوبي الغربي لجزيرة سردينيا ، فغرق كل المسافرين . اما السفن الخمس التي نجت من العاصفة ، فلم تلبث بعدئذ ان أحاط بها اسطول اسلامي من افريقية ، وأدرك المسافرون انهم لم يأتوا الى تلك الجهات إلا بناء على اتفاق ، كيما يباعوا أسرى . فتمّ نقلهم جميعاً الى بوجيه ، على شاطىء الجزائر ، حيث تمّ شراء عدد كبير منهم عند وصولهم ، فأمضوا ما تبقّى من حياتهم في الأسر . على حين ان الآخرين ، ومنهم القسيس الصغير ، جرى حملهم على السفن الى مصر ، حيث ارتفعت بها أثمان الأرقاء من الفرنج . فلما بلغوا الاسكندرية ، اشترى واليها الجانب الاكبر من الحمولة ، فاستخدمهم في فلاحة ضياعه . ووفقاً لرواية القسيس ، لا زال منهم على قيد الحياة نحو سبعمائة . ولم ينقل منهم الى أسواق الرقيق في

بغداد سوى جماعة قليلة العدد ، استشهد منهم ثمانية عشر ، لأنهم رفضوا اعتناق الاسلام . على ان القسس الصغار وفئة قليلة ممن يعرفون القراءة والكتابة كانوا أحسن حظاً ، نظراً لأن امير مصر وقتذاك ، وهو العادل ابن السلطان الكامل ، كان شديد الشغف باللغات والآداب الغربية . فاشتراهم وأبقاهم عنده ، على انهم مترجمون ومعلمون وكتّاب ، ولم يحاول ان يحملهم على اعتناق الاسلام . فأقاموا بالقاهرة في أسر مريح هين ، وتبعاً لذلك جرى اطلاق سراح هذا القسيس ، وتقرر السماح له بالعودة الى فرنسا ، فأخبر من سأله من آباء الاطفال ، كل ما عرفه عن رفاقه ، ثم اختفى في عالم الغموض والنسيان . على ان قصة اخرى ترجع الى زمن متأخر ، اعتبرت ان تاجري مرسيليا الشريرين ليسا إلا التاجرين اللذين تمّ شنقهما بعد بضع سنوات ، لمحاولتهما اختطاف الامبراطور فردريك ، لصالح المسلمين . فجعلتهما الرواية آخر الامر يؤديان جزاء ما ارتكبا من جرائم [١] .

لم يكن هؤلاء الاطفال الصغار هم الذين ينقذون بيت المقدس ، إذ توافرت للبابا انوسنت آراء عظيمة القدر ، بالغة الواقعية . قرر البابا انوسنت

---

(١) عن قصة حملة الاطفال الصليبية ، انظر :

Röhricht : «Die Kinderkreuzzug», in Historische Zeitung, vol. XXXVI.

Alphandéry : « Les Croisades des Enfants », in Revue de l'Histoire des Religions, vol. LXXIII.

Munro : « The Children Crusade », in American Historical Review, vol. XIX.

Winckelmann, Geschichte Kaiser Friedrichs des Zweiten, I, pp.221-222.

وعن اشتراك الالمان في حملة الاطفال ، انظر :

Annales Stadenses, (M. G. H. Scriptores, vol. XVI, p. 355).

ان يعقد مجمعاً كبيراً للكنيسة في رومـــا ، في سنة ١٢١٥ ، لتنظيم كل الامور الدينية بالعالم المسيحي ، وللنظر في ما هو اكثر من ذلك ، وهو إدماج الكنيسة اليونانية في كنيسة روما . وأراد البابا توجيه حملة صليبية على الفور ، فظل مندوبه روبرت. كورسون ، طوال سنة ١٢١٣ ، يطوف بأرجاء فرنسا ، وقد حمل أوامر البابا ، بأنه نظراً للحاجة الملحّة ، لا ينبغي المبالغة في فحص صلاحية أولئك الذين اتخذوا الصليب . وقـام المندوب البابوي بتنفيذ تعليمات سيده ، في حماس تجـاوز الحد . فلم يلبث النبلاء الفرنسيون ان شرعوا في الكتابة الى ملكهم بان دعاة البابا التمسوا لأتباعهم الأعذار للاشتراك في الحملة الصليبية ، وان جموعاً بالغة الضخامة من الشيوخ والاطفال والبرصى ، والمقعدين ، والنساء ذوات السمعة السيئة ، احتشدوا سويا ليشنوا الحرب المقدسة . وكان لزاماً على البابا ان يضبط روبرت ، وحتى افتتاح المجلس في اللاتران سنة ١٢١٥ ، لم تكن الحملة الصليبية مستعدة للرحيل . وتحدث البابا في الجلسة الاولى عن احوال بيت المقدس ، ونهض بطريرك بيت المقدس ، يلتمس المساعدة . وبادر المجمع الى ان يؤكد من جديد ما يبذل للصليبيين من امتيازات وحقوق ، والى تدبير تمويل الحملة ، التي كان لا بد ان تجتمع في صقلية او أبوليا ، كيما تبحر الى الشرق في اول يونيه سنة ١٢١٧ [1] .

---

(١) انظر : Fliche, op. cit. pp. 156 - 216.

Donovan, Pelagius and the Fifth Crusade.

اورد دونوفان عن الحملة الصليبية الخامسة ، تقريراً بالغ الدقة ، مستنداً الى الوثائق ، برغم ما بدر منه من تحيز ضئيل الى جانب بيلاجيوس .

أثار الجمع النشاط عنـد الكنيسة ، إذ ظلّ المبشرون طوال ربيع سنة ١٢١٦ يجوبون أنحاء العالم المسيحي بالغرب ، حتى امتدّ نشاطهم الى أيرلنده وسكنديناوه ، وأعلن أساتذة جامعة باريس ان كل من وعد بالاشتراك في الحملة الصليبية ، ثم حاول ان يتجنب الوفاء بوعده ، يعتبر مرتكباً لجريمة ، عقوبتها الاعدام . وتردد ما صدر عن الشعب من رؤيات عن الصلبان السابحة في الهواء ، والتي ذاعت بتفاصيلها . كان انوسنت يراوده الامل ، بعد ان لحظ انـه كاد يمضي على رؤية الوحش السنوات المحددة بهـا ، وعددها ستمائة وست وستون سنة [١] ، كما انه انقضى فعلاً على مولد محمد ستة قرون ونصف قرن . سبق للبابا انوسنت ان كتب الى السلطان العادل ، يحذره بما سوف يحل من الغضب ، ويحثه على ان يتنازل في هدوء عن بيت المقدس ، ولا زال فيه فسحة من الوقت . غير ان تفاؤله كان سابقاً لأوانه . إذ كتب اليه سراً ، جيرفاس ، رئيس دير بريمونتريه يخطره ان نبلاء فرنسا اخذوا يتجاهلون آراء أساتذة جامعة باريس ، وأنه لا بد من اتخاذ اجراء حاسم ، لحمل دوق برجنديا ودوق اللورين على المحافظة على وعديهما . كما انه بذل له نصيحة صادقة بأنه ينبغي ألا يشترك الفرنسيون والألمان في حملة واحدة ، إذ ان الأمتين لا تعملان

---

(١) ما ورد في نبوءة دانيال بالفصل السابع ، عن الوحوش الاربعة ، انما يقصد بهـا تعاقب اربع امبراطوريات ، الواحدة بعـد الاخرى ، ثم اجتمعت الوحوش الاربعة في هيئة تنين يمثل الدولة التي تحكم العالم ، وقد انتقل مقرها من بابليون الى رومـا . ظلت الكنيسة نحو خمسة قرون لا تعترف برؤيا القديس يوحنا ، ولم ترد هذه الرؤيا في الجيل الكنيسة السريانية . انظر :
Davis : Dictionary of the Bible, Revelation, Beast.

معاً في انسجام ، غير ان الجموع شديدة الفقر أقبلت في حماس على اتخاذ الصليب ، وينبغي ألا يؤدي التأجيل الى تثبيط همتهم [١] .

وفاة البابا انوسنت الثالث سنة ١٢١٦ :

في مايو سنة ١٢١٦ توجه البـابا انوسنت الى بيروجيا ليحاول تسوية العداء طويل الأمد بين جنوه وبيزا ، كيا تسهما معاً في نقل الصليبيين . على انه مات في بيروجيا بعـد مرض قصير ، وذلك في ١٦ يوليه سنة ١٢١٦ . والواقع انه لم يضارع عصر انوسنت في ازدهاره او انتصاره الظاهري سوى قلة من عهود البابوات في أزمنتهم ، ومع ذلك لم يتحقق مطلقاً أعز ما كان يطمع فيه ، وهو استرداد بيت المقدس ، ولم يمض يومان على وفاته حتى تم انتخاب الكاردينال سافيللي ليكون البـــابا هونوريوس الثالث [٢] .

حرص هونوريوس على ان يسير على نهج سلفه العظيم ، انوسنت ، فلم تنقض إلا بضعة ايام على توليه البابوية ، حتى كتب الى الملك يوحنا بريين في عكا،

---

(١) انظر : Luchaire, Innocent III, La Question d'Orient, pp.281-289.
اورد رواية كاملة عن المفاوضات . اما الاحداث المقارنة بالمعجزات فأثبتها :
Oliver of Paderborn, Historia Damiatana, pp. 174 - 175, 285 - 286, 287 - 288.

انظر ايضاً :
Innocent III, letters, XVI, 28, 37, (M. P. L. vol. CCXVI, cols. 817- 822, 831 - 832).

(٢) انظر : Fliche, op. cit. p. 212.

بخطره ان الحملة الصليبية على وشك القدوم اليه [1] . وازداد تلهف يوحنا ، نظراً لأن الهدنة التي عقدها مع العادل ينتهي اجلها في السنة التالية . وكتب هونوريوس ايضاً الى ملوك اوروبا . غير انه لم يستجب له إلا عدد قليل منهم . ففي اقصى الشمال ، وعد انجي الثاني ملك النرويج بالاشتراك في الحملة ، غير انه مات في الربيع التالي ، ولما ارتحلت الحملة السكندينياوية ، لم تكن سوى حملة حقيرة [2] ، وقد اتخذ اندرو الثاني ملك المجر الصليب فعلاً ، غير ان انوسنت احله من الوفاء بوعده منذ زمن مبكر ، بسبب نشوب الحرب الأهلية ببلاده ، وما ابداه من حماس للاشتراك في الحملة زمن هونوريوس ، حمله عليه باعث آخر . إذ ان زوجته الملكة كانت ابنة اخت هنري امبراطور اللاتين بالقسطنطينية ، الذي لم ينجب ذرية ، وكانت له آمال في الارث . فلما مات هنري في يونيه سنة ١٢١٦ وقع الاختيار على بطرس كورتيناي والد ملكة المجر ليحل مكانه في عرش الامبراطورية . فأخذ حماس اندرو في الزوال ، غير انه وافق آخر الأمر على ان يكون جيشه جاهزاً عند حلول فصل الصيف [3] . ولقي التبشير للحرب الصليبية استجابة طيبة في بلاد الراين السفلى ، وكان البابا يتطلع الى اسطول ضخم

---

(١) انظر : Regesta Honorii Papae III, (ed. Pressutti), nos. 1, 673, I, 1178 - 1180.

(٢) انظر : Regesta Honorii Papae III, no. 399, 1, p. 71.

(٣) انظر : Innocent III, letters, XV, 224, (M. P. L. vol. CCXVI, col. 757).
Theiner, Vetera Monumenta I, pp. 5 - 6.

يسيره الفريزيان [1] . على انه حدث مرة اخرى معوقات لسير الحملة . ولم تكن الانباء الواردة من فلسطين بالغة التشجيع . إذ ان جيمس فيتري ، الذي تقرر منذ زمن قريب ارساله الى فلسطين ليتولى اسقفية عكا ، وقد حمـــل تعليمات لإثارة نشاط اللاتين المحليين ، رفع الى البابا تقريراً شديد المرارة عن كل ما صادفه ، فالمسيحيون الوطنيون يكرهون اللاتين ويؤثرون حكم المسلمين ، بينما انصاع اللاتين انفسهم الى حياة الخمول والبذخ والاخلاق البذيئة ، وغلبت عليهم الصفة الشرقية . وفسد رجال الدين اللاتين ، ونزعوا الى الجشع والتآمر . ولم يكن جديراً بالمـــدح سوى الطوائف الدينية العسكرية ، على الرغم من ان الـنزلاء الايطاليين ، الذين كانوا من الحكة والتعقل ما يكفي لأن يمارسوا حياة اقتصادية معتدلة ، لا زالوا يدخرون بقية من النشاط والتجارة . غـير ان الحسد المتبادل بين المدن الايطالية الكبرى ، امثال البندقية وجنوه وبيزا ، جعلهم عاجزين دائماً عن التعاون معاً . والواقع انه ليس للفرنج في الشرق الادنى رغبة في قدوم حمـــلة صليبية حسبما تبين للأسقف جيمس ، فما نعموا به من السلام لمدة عشرين سنة زاد في رخائهم المادي . كما ان المسلمين لم ينزعوا للاعتداء منذ وفاة صلاح الدين ، لما جنوه من ارباح نتيجة لازدياد النشاط التجاري ، فالمتاجر القادمة من داخل البلاد غمرت ارصفة مينائي عكا وصور . كما ان القصر الذي شيده يوحنا ابلين في بيروت يعتبر دليـــلا على الرخاء المتجدد ، واستقرت في مصر جاليات ايطالية احست بالرضى والسعادة في حياتها . وباضطراد ازدياد القوة الشرائية لغرب اوروبا ، اضحى لتجارة البحر

---

(١) انظر : Regesta Honoii Papae III, no. 885, 1, pp. 149 - 150.

المتوسط مستقبل مشرق . على ان كل ذلك يتوقف على المحافظة على السلام القلق المحفوف بالخطر [1] .

تأجيل سير الصليبيين سنة ١٢١٧ :

على ان البابا هونوريوس الثالث كان يرى عكس ذلك . إذ كان يأمل في ان تقلع حملة كبيرة من صقلية في صيف سنة ١٢١٧ . ولكن لما حلّ الصيف ، لم يكن بها سفن ، على الرغم من ان جماعات مختلفة من الفرسان الفرنسيين وصلت فعلاً الى الموانىء الايطالية . إذ وصل جيش ملك المجريين الى سبالاتو في دالماشيا في أغسطس سنة ١٢١٧ ، ولحق به فيها ليوبولد دوق اوستريا بجيشه [2] ولم يصل الاسطول الفريزي إلا الى البرتغـال في يوليه ، وبقي جانب منه في لشبونة . على أن بقية الاسطول اقلعت الى جائيتا في اكتوبر ، فأضحى الاسطول من التأخير ما يمنعه من مواصلة السير الى فلسطين إلا بعد انتهاء فصل الشتاء [3] . والمعروف ان البابا هونوريوس الثالث اصدر الاوامر ، في نهاية يوليه ، الى الصليبيين المحتشدين في ايطاليا وصقلية ، بالمضي الى قبرص . غير انه لم تبذل حتى وقتذاك السفن اللازمة

---

(١) انظر : James of Vitry, History of Jerusalem, (trans. Stewart), P. P. T. S. vol. XI, pp. 56 - 91.

(٢) انظر : Thomas Spalatensis, Historia Salonitana, (Scriptores Rerum Hungaricarum, III, p. 573).

(٣) انظر : Gesta Crucigerorum Rhenanorum, pp. 29 - 34.
De Itinere Frisonum, pp. 59 - 68.

وكلا المصدرين واردان في :

Röhricht, Quinti Belli Sacri Scriptores Minores.

لتقلهم . وعاد الدوق ليوبولد آخر الأمر على سفينة في سبالاتو استقلها مع جماعته الصغيرة العدد الى عكا . لم تستغرق رحلته سوى ستة عشر يوماً ، واقتدى به بعد اسبوعين الملك اندرو ، غير ان اهل سبالاتو لم يسمحوا له إلا بسفينتين ، ولذا تخلّف وراءه معظم جيشه [١] . وحوالي ذلك الوقت ، هبط الى عكا هيو ملك قبرص بكل ما استطاع أن يجنده من العساكر [٢].

كان المحصول ضعيفاً في سوريا في تلك السنة ، فتعذر تقديم المؤن لجيش عاطل . فلما وصل الملوك ، أوصى يوحنا بريين بسير الحملة على الفور . وفي يوم الجمعة ، ٣ نوفمبر ، ارتحل الصليبيون من عكا ، وسلكوا مرج عامر ، وعلى الرغم من ان عدد الجيش لم يكن كبيراً ، فإنه فاق في العدد كل جيش ظهر في فلسطين منذ الحملة الصليبية الثالثة . ولمـا سمع العادل بأن المسيحيين يحشدون قواتهم ، قدم الى فلسطين ببعض القوات ، غير انه لم يتوقع ما حدث من هــذا الغزو المبكر . وإذ تفوّق عليه الصليبيون في العدد ، لم يسعه إلا ان ينسحب حينما تقدمت الحملة الصليبية نحو بيسان ، وأرسل العادل ابنه المعظم للدفاع عن بيت المقدس ، بينما انتظر في عجلون ، وقد استعدّ لمنع كل هجوم على دمشق . على ان لم يكن لمخاوفه ما يبررها ، اذ افتقر الجيش المسيحي الى النظام ، فاعتبر الملك يوحنا بريين نفسه القائــد الاعلى للجيش ، بينما لم تتطلع العساكر

(١) انظر : Regesta Honorii Papae III, no. 672, 1, p. 117.
Thomas Spalatensis, p. 574.
Annales Claustroneoburgenses, (M. G. H. Scriptores, vol. IX, p. 622).

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 322.

الاوسترية المجرية إلا للملك اندرو ، على انه قائدهم ، وكذلك اعتبر القبارصة ملكهم هيو قائداً لهم . بينما لم تطع الطوائف الدينية العسكرية إلا قادتها . احتل الصليبيون بيسان ونهبوها . ثم اخذ العساكر المسيحيون يسيرون على غير هدى ودون هدف ، فاجتازوا نهر الاردن ، وساروا على الضفة الشرقية لبحر الجليل ، ثم تجاوزوه الى الكنيِّسة ، راجعين الى عكا بعد اجتياز الجليل . وأول ما اهتم به الصليبيون ، هو الحصول على المخلفات الدينية ، وفرح الملك اندرو حينما حصل على اباريق للماء مما كان يستخدم في حفلات الزواج بكفر كانه (في الجليل) [1] .

لم يكن الملك يوحنا راضياً بما حدث ، فأعدّ من جانبه حملة لتدمير الحصن الذي شيده المسلمون على جبل الطور . ولم ينحاز اليه الملك هيو ، أو الملك اندرو ، ولم ينتظر قدوم المساعدة من قِبل الطوائف الدينية العسكرية . وفشل هجومه الاول على الحصن ، في ٣ ديسمبر ، على الرغم من استعداد الحامية فعلاً للتسليم ، فلما قدم الفرسان الرهبان بعد يومين ، جرت محاولة اخرى لمهاجمة الحصن ، غير انها باءت بالفشل ، فارتدّ الجيش

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 323 - 324.
Oliver, Historia Damiatana, p. 165.
Johannes Thivrocz, Chronica Hungarorum, (Scriptores Rerum Hungaricarum, vol. I, p. 149).
عن كانه ، انظر :
Le Strange, Palestine under the Moslems, pp. 469 - 470.

المسيحي مرة اخرى الى عكا [1] .

عودة الملك اندرو الى بلاده سنة ١٢١٨ :

وفي مستهل العام الجديد ، ١٢١٨ ، دبّرت جماعة صغيرة من العساكر المجريين القيام بغارة في البقاع ، دون أن تحفل بنصيحة الفرنج المحليين ، ودون أن تحصل على موافقة الملك ، وكادت تهلك بأجمعها في عاصفة ثلجية ، عند اجتياز جبال لبنان [2] . وفي تلك الاثناء توجّه الملك اندرو والملك هيو راكبين الى طرابلس ، حيث احتفل بوهمند الرابع ، امير انطاكية السابق والذي ترمّل حديثاً بعد زوجته الاولى بلايسانس سيدة جبيل ، بزواجه من ميليسند ، وهي اخت غير شقيقة للملك هيو . ومات بطرابلس فجأة الملك هيو في ١٠ يناير سنة ١٢١٨ ، تاركاً وراءه عرش قبرص ليتولاه ابنه الطفل هنري الذي لم يتجاوز عمره ثمانية شهور ، بوصاية ارملته أليس ملكة بيت المقدس [3] . وعاد الملك اندرو الى عكا ، فأعلن انه يزمع الرحيل الى اوربا . لقد أوفى بوعده ، وأضاف حديثاً

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 324 - 325.
Oliver, Historia Damiatana, pp. 165 - 167.
James of Vitry, History of Jerusalem, p. 119.
Abu Shama, II, pp. 163 - 164.

(٢) انظر : James of Vitry, op. cit. pp. 164 - 165.
Oliver, Historia Damiatana, pp. 167 - 168.

(٣) انظر : Ernoul, p. 412.
Estoire d'Eracles, II, pp. 325, 360.
Gesta des Chiprois, p. 98.

رأس القديس ستيفن الى مجموعته من المخلفات الدينية . ولم تجد نفعاً ما بذله بطريرك بيت المقدس من توسلات وتهديدات لحمله على البقاء ، فسار بعسكره صوب الشمال الى ارمينيا بعد ان اجتاز طرابلس وانطاكية ، ومن ارمينيا توجه الى القسطنطينية بعد ان حصل على امان من السلطان السلجوقي . فلم تحقق حملته الصليبية شيئاً [1] .

اما ليوبولد دوق اوستريا ، فانه بقي وراءه ، غير انه كان مفتقراً الى المال ، فكان لزاماً عليه ان يقترض من جاي امبرياكو سيد جبيل خمسين الف بيزنته ، غير انه كان مستعداً لأن يمضي في العمل من اجل الصليب ، فأفاد الملك يوحنا بريين من مساعدته في اعادة عمارة استحكامات قيسارية ، بينما شرع فرسان الداوية والفرسان التيوتون في بناء قلعة ضخمة في عثليت جنوبي جبل الكرمل ، وهي المعروفة بقلعة الحجاج . وفي تلك الاثناء دمر العادل الحصن الذي شيده على جبل الطور ، نظراً لأنه سهل التناول ، وليس ثمة ما يدعو للابقاء عليه [2] .

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, p. 168.
James of Vitry, Epistolae III, (ed. Röhricht), Zeitschrift für Kirchengeschichte, (Z. K. G.), vol. XV, pp. 568 - 570.
Johannes Thivrocz, loc. cit.
يشير يوحنا الى ان الملك اندرو حاز ايضاً رأس القديسة مرجريت ، واليدين اليمنيين للقديس توماس والقديس بارثولوميو ، وقطعة من عصا هرون .

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 325 - 326.
Oliver, Historia Damiatana, p. 169.
Abu Shama, II, pp. 164 - 166.

وفي ٢٦ ابريل سنة ١٢١٨ ، وصل الى عكا الشطر الاول من الاسطول الفريزي ، ثم قدم اليها بعد اسبوعين الشطر الآخر الذي أمضى الشتاء في لشبونة . وترددت الأنبـــاء بأن الصليبيين الفرنسيين الذين احتشدوا في ايطاليا ، لن يلبثوا ان يتوالى قدومهم . فبادر الملك يوحنا بريين الى ان يلتمس النصيحة عن خير وسيلة للافادة من القادمين الجدد . لم يغب عن الخاطر مطلقاً ان سبق لرتشرد ملك انجلترا ان نصح بمهاجمـــة مصر . وأشار مجمع اللاتيران ايضاً الى مصر ، على انهـــا الهدف الأساسي للحملة الصليبية . فاذا تيسر طرد المسلمين من وادي النيل ، فانهم لن يفقدوا بذلك فحسب أغنى اقليم لديهم ، بل انهم لن يستطيعوا ايضاً المحافظة على اسطولهم في شرق البحر المتوسط ، ولن يكون بوسعهم الابقاء على بيت المقدس في أيديهم زمناً طويلاً ، ازاء تعرضهم للهجوم المزدوج من عكا ، ومن السويس . وإذ صارت السفن الفريزية تحت تصرف الصليبيين ، تهيأت لهم الوسيلة للقيـــام بهجوم كبير على الدلتا . فتقرر دون تردد ان يكون اول هدف للحملة ، هو ميناء دمياط ، المفتاح المؤدي للنيل [١] .

أضحى السلطان العـــادل شيخاً متقدماً في العمر ، وكان يأمل في ان يقضي السنوات الاخيرة من حياته في هدوء وسلام . على انه صادف متاعب

---

(١) انظر :
Gesta Crucigerorum Rhenanorum, pp. 37 - 38.
De Itineri Frisionum, pp. 69 - 70.
Ernoul, pp. 414 - 415.
James of Vitry, loc. cit.
Oliver, Historia Damiatana, p. 175.
Donovan, op. cit. pp. 36 n. 54.

في الشمال ، إذ ان ابن اخيه ، الظاهر غازي امير حلب ، مات سنة ١٢١٦ ، ولم يترك من يخلفه في امارة حلب ، سوى طفل اسمه العزيز ، فتولى الوصاية عليه الطواشي طغرل . على ان الافضل شقيق الظاهر ، وأكبر أبناء صلاح الدين ، ظهر من عزلته في سميساط ، يطالب بارث الغازي ، ويدعو كيكاوس السلطان السلجوقي في قونية الى مساعدته . كان سلاجقة الأناضول وقتذاك في ذروة قوتهم ، بينما اختفت الامبراطورية البيزنطية ، وبلغ من انصراف امبراطور نيقية الى قتال الفرنج ، أنه لم يكن بوسعه ان يزعجهم ، واضمحل الدانشمنديون ، واستقرّ رعاياهم من التركمان وأخلدوا الى النظام ، وأخذ الرخاء يعود الى شبه جزيرة آسيا الصغرى . ثم حدث في أوائل سنة ١٢١٨ ان اجتاح كيكاوس والافضل بلاد حلب ، وزحفا على العاصمة . وإذ أدرك الطواشي طغرل الوصي على حلب ما يتعرّض له العادل من تهديد الحملة الصليبية استنجد بالأشرف ، ابن عم سيده ، وحاكم العراق ، وهو الابن الثالث للعادل . فأنزل الأشرف هزيمة ساحقة بالجيش السلجوقي قرب البزاعة ، فانسحب الافضل راجعاً الى سميساط ، وكان لزاماً على امير حلب ان يعترف للأشرف بالسيادة عليه . غير ان السلاجقة ظلوا مصدر تهديد ، الى ان مات كيكاوس في السنة التالية ، بينما كان يتجهز للتدخل في النزاع على ولاية حكم الموصل . وبوفاة كيكاوس تهيأ للأشرف ان يوطد سلطانه ، وأن يصبح نداً خطيراً لأخوته في أقصى الجنوب [١] .

ظل العادل حتى آخر لحظة يأمل في ألا تبلغ الحماقـــة بالفرنج ان

---

(١) انظر : Cahen, La Syrie du Nord, pp. 624 - 628.

ينقضوا الصلح . وشاركه في هذه الآمال ، ابنه الملك الكامل ، نائبه في حكم مصر . إذ توثقت العلاقات بين الكامل والبنادقة ، الذين عقد معهم سنة ١٢٠٨ معاهدة تجارية . إذ كان بمصر سنة ١٢١٥ ما لا يقل عن ثلاثة آلاف تاجر اوروبي . على ان ما حدث فجأة في تلك السنة من قدوم قائدين من الغرب الى الاسكندرية في جماعة مسلحة ، ازعج سلطات المدينة ، التي قررت التحفظ بصفة مؤقتة على كل الجالية الاوروبية . ولكن العلاقات الطيبة عادت الى ما كانت عليه . وفي سنة ١٢١٧ لقيت سفارة جديدة للبنادقة ترحيباً ودياً من قبل الكامل نائب العادل في حكم مصر . وما سلكته الحملة الصليبية سنة ١٢١٧ من اساليب ملتوية عقيمة ليست بجديدة ، لم يكن لها شيء من الأثر عند المسلمين ، فلم يعتقدوا بأنه يتهددهم وقتذاك خطر .

الصليبيون يهبطون في مصر سنة ١٢١٨ :

وفي يوم عيد الصعود ، ٢٤ مايو سنة ١٢١٨ ، استقل الجيش الصليبي بقيادة الملك يوحنا بريين السفن الفريزية في عكا ، ثم اقلع الى عثليت كيما يجلب مؤناً اخرى ، ثم رفعت السفن بعد بضع ساعات مراسيها ، غير ان الرياح ألزمتها بالبقاء ، فلم تغادر المرسى إلا سفن قليلة اقلعت الى مصر ، فوصلت قبالة دمياط ، الواقعة على مصب نهر النيل ، في ٢٧ مايو سنة ١٢١٨ وألقت بمراسيها انتظاراً لقدوم سائر الجنود . لم يجرؤ الجند اول الأمر على ان يحاولوا الهبوط الى البر ، نظراً لأنه لم يكن بينهم قائد كبير يأتمرون بأمره . على انه حدث في ٢٩ مايو ، وقبل ان يظهر في البحر اسطول ، ان حث يوستورجيوس رئيس اساقفة نيقوسيا العساكر على ان يقبلوا سيمون الثاني كونت ساربروك قائداً عليهم ، وأن يبادروا بالهبوط

على الشاطىء الغربي للنهر عند مصبه ، فلم يلق إلا معارضة ضئيلة . وأوشكت عملية الهبوط على الاكتمال حين ظهر في الأفق معظم الاسطول الصليبي ، ولم تلبث السفن ان بلغت حاجز الرمـــال على مصب النهر ، فهبط الى الشاطىء ، الملك يوحنا بريين ، ودوق اوستريا ، ومقدمو الطوائف الدينية العسكرية الثلاثة [1] .

كانت دمياط تقع على مسافة ميلين من مصب نهر النيل ، وتحميها من الخلف بحيرة المنزلة ، ودلت تجربة الفرنج سنة ١١٦٩ على ان لا يتحقق نجاح الهجوم على دمياط ، إلا اذا كان من جهة البحر والبر معاً . وامتدت سلسلة ، مثلما حدث سنة ١١٦٩ ، عبر النهر من الشاطىء الشرقي الى برج مقـام على جزيرة قريبة من الشاطىء الغربي ، على مسافة قصيرة أسفل المدينة . فأوصدت بذلك القناة الوحيدة الصالحة للملاحة ، وقام من وراء السلسلة جسر من السفن . فجعل الصليبيون البرج هدفهم الأساسي .

ولما ادرك المسلمون انه جرى توجيه الحملة الصليبية الى مصر ، بادر العادل بتجنيد جيش من سوريا ، بينما سيّر الكامل من القاهرة معظم الجيش المصري صوب الشمال ، فعسكر في العادلية على مسافـة بضعة اميال من دمياط . غير انه لم يتوافر له من الرجال والسفن ما يكفي لمهاجمة المواضع

---

(١) انظر : James of Vitry, History of Jerusalem, pp. 118 - 119.
Oliver, Historia Damiatana, pp. 175 - 177.
Gesta Crucigerorum Rhenanorum, pp. 33 - 39.
Estoire d'Eracles, II, pp. 326 - 327.

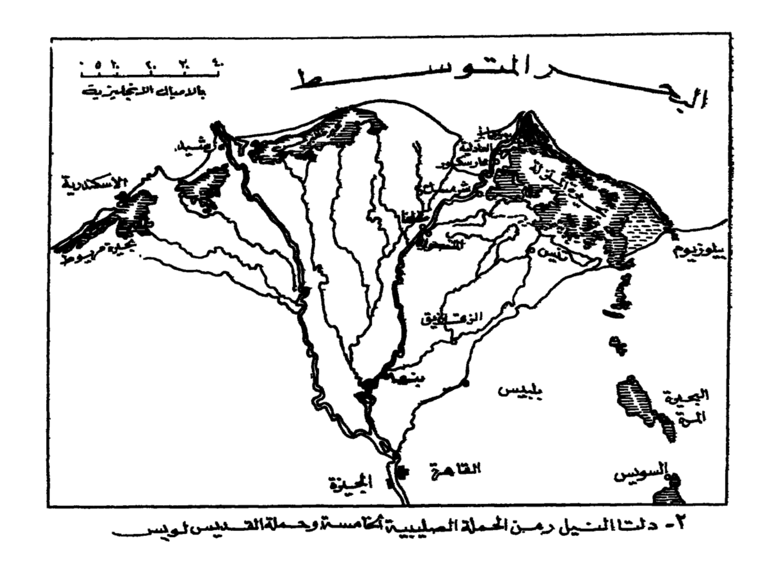
المسيحية ، على الرغم من تعزيز الحامية بالبرج . وفشل اول هجوم قوي للصليبيين على البرج في نهـــاية يونيه سنة ١٢١٨ . وعندئذ اقترح اوليفر بادر بورن ، الذي اورخ للحملة فيما بعد ، اعداد مشروع جديد ، اولاه مع زميل له كل الاهتمام . ولم يكن هذا المشروع سوى إقامة برج على سفينتين أحكم ربطهما معاً بالحبال ، وجرت تغطية هذا البرج بالجلد ، وزوّد بالسلالم ، وبذا يتعرّض البرج للهجوم من جهة النهر والبر معاً[١] .

وفي يوم الجمعة ١٧ اغسطس سنة ١٢١٨ ، أدى الجيش المسيحي صلاة الشفاعة ، ثم بدأ الهجوم بعد اسبوع ، بعد ظهر يوم ٢٤ اغسطس . ولم تنقض اربع وعشرون ساعة حتى استطاع الصليبيون بعد قتال عنيف ان يتخذوا مواضعهم على اسوار الحصن ، وأن يتدفقوا الى داخله . وظلت الحامية تقاتل حتى لم يبق على قيد الحيـــاة إلا مائة رجل ، وعندئذ لم يسعها إلا التسليم . ووقع في أيدي الصليبيين ما كان بالحصن من غنيمة ضخمة ، وأقام الغزاة جسراً صغيراً نقلو عليه هذه الغنيمة الى الشاطىء الغربي . ثم قطعوا السلسلة وأزالوا الجسر الذي اعترض القناة الرئيسية ، فأضحى بوسع سفنهم ان تجتاز النهر الى أسوار دمياط[٢] .

---

(١) انظر : Abu Shama, II, p. 165.
Histoire des Patriarches d'Alexandrie, trans Blochet, pp. 240 - 241.
Oliver, Historia Damiatana, pp. 179 - 182.

(٢) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 182 - 184.
Gesta Crucigerorum Rhenanorum, p. 40.
John of Tulbia, De Domine Johanne, in Röhricht, loc. cit. p. 120.
Histoire des Patriarches, p. 243.



٢- دلتا النيل زمن الحملة الصليبية الخامسة وحملة القديس لويس

كان العادل مريضاً بدمشق ، حينما جاءه بعد ايام قليلة انبـاء سقوط دمياط في ايدي الصليبيين . لقد سمع منذ زمن وجيز ان ابنه المعظم استولى على قيسارية ودمّرها . غير ان صدمة الكارثة التي حلت بدمياط ، كانت اقوى من ان يحتملها . فمات في ٣١ اغسطس ، وقد ناهز الخامسة والسبعين من عمره . افتقر العادل المعروف عند الصليبيين باسم (Saphadin) سيف الدين الى مـا اشتهر به اخوه صلاح الدين من شخصية رائعـة ، ودلت تصرفاته مع ابناء اخيه صلاح الدين على قدر من انعدام الولاء ، والخبث والدهاء . غير انه استطاع ان يحافظ على وحـدة الامبراطورية الايوبية ، وكان حاكماً كفئاً ، متسامحاً ، محبـاً للسلام . واشتهر عند الصليبيين ، بأنه دائمـاً بالغ العطف ، شديد المحافظة على الشرف ، وظل حائزاً لإعجابهم به ، واحترامهم له . ثم خلفه في حكم سوريا ، ابنه الاصغر المعظم عيسى ، بينما خلفه في مصر ابنه الاكبر ، الكامل محمد[1] .

على ان الكارثة لم تكن عند المسلمين من الخطورة كالتي كان يخشاها العادل . فلو ان الصليبيين واصلوا ضغطهم ، وبادروا الى مهاجمة دمياط ، فالراجح ان تسقط المدينة بأيديهم . غير ان الصليبيين ترددوا بعد الاستيلاء على الحصن ،

---

(١) انظر : Abu Shama, II, p. 170.
Ibn al - Athir, II, pp. 116, 148.
Ibn Khallikan, Biograghical Dictionary, III, p. 235.
ورد في ابن الاثير ان العادل مات عن خمس وستين سنة ، بينما اشار ابن خلكان الى انه كان في الثالثة والسبعين عند وفاته .
وأورد تاريخ هرقل رواية غريبة عما حدث عند وفاته .

وقرروا الانتظار حتى تقدم الأمداد ، فعـاد عدد كبير من الفريزيان الى بلادهم ، ليلقوا عقابهم على تخليهم عن الحملة ، بأن لقوا حتفهم في الفيضان الكبير الذي اجتاح فريزيا عقب يوم واحد من عودتهم . وكان معروفاً وقتئذ ان الحملة التي ظل البابا زمناً طويلاً يعدّها ، غادرت ايطاليا فعلاً . وبرغم ما تعرضت له الحملة من الإرجاء المستمر ، فان البابا هونوريوس الثالث ، استطاع آخر الامر ان يعدّ اسطولاً كلفه عشرين الف مارك ، كيا ينقل العساكر الذين ظلوا منتظرين ما يزيد على سنة في برنديزي . وجعل الكاردينال بيلاجيوس اسقف سانت لوشيا قائداً للحملة [1] .

وحوالي ذلك الوقت ، دارت المفاوضات بين نبيلين فرنسيين ، هيرفيه كونت نيفر ، وهيو لوزجنان كونت لامارش ، وبين الجنويين عن سفن تحمل جماعة من الصليبيين الفرنسيين والانجليز الى الشرق . وعلى الرغم من ان كونت نيفر كان معروفاً بعقوقه للكنيسة ، فان البـابا سمح له ان يسهم في نفقات نقل العساكر ، بما يتقاضاه من رجال الكنيسة من فرنسا من ضريبة ، تقدر بجزء على عشرين من دخلهم . ولحق بالكونتين في جنوه رئيس اساقفة بوردو ، وليم الثاني ، وأساقفة باريس ، ولاؤون ، وآنجرز ، وجماعة من صغار السادة ، فضلاً عن ايرلات شستر ، وأرنديل ، ودربي ،

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, p. 186.
Alberic of Trois Fontaines, p. 788.
Registra Honorii Papae III, nos. 1350, 1483, I, pp. 224 - 287.

وونشستر . وأرسل البابا ، روبرت كاردينال كورسون كيما يكون الموجّه الروحي للاسطول ، غير انه لم يكن له سلطات المندوب البابوي [1] .

وصول الكاردينال بيلاجيوس الى دمياط سنة ١٢١٨ :

وصل الكاردينال بيلاجيوس بحملته الى المعسكر المسيحي ، في منتصف سبتمبر سنة ١٢١٨ . والمعروف ان بيلاجيوس كان اسبانياً ، اشتهر بدأبه الشديد على العمل ، وخبرته الادارية ، غير انه افتقر الى الكياسة . سبق استخدامه فعلاً في تسوية مشكلة الكنائس اليونانية في الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية ، وكل ما أحرزه من نجـــاح ، هو ان ازدادت كراهيتها لروما . كما ان قدومه الى دمياط أثار على الفور مشكلة . ذلك انه سبق ان جرى قبول الملك يوحنا برين قائـــداً للحملة الصليبية ، ونازعه في قيادته في السنوات السابقة ، ملكا بلاد المجر وجزيرة قبرص . غير ان ملك المجر ارتحل عائداً الى بلاده ، بينما مات ملك قبرص . فرأى بيلاجيوس انه باعتباره مندوباً بابوياً ، ينبغي ان ينفرد بالقيادة . وما كان من تنافس بين سائر الامم المشتركة في الحملة الصليبية أضحى بالغ الظهور ، وما من

---

(١) انظر : Registra Honorii Papae III, nos. 1498, 1543, 1558, I, pp. 248, 256, 260.

وردت القائمة الدقيقة بأسماء هؤلاء الصليبيين في :

Greven : «Frankreich und der fünfe Kreuzzüg», Historiche Jahrbuch, vol. XLII.

Matthew of Westminister, Flores Historiarum, II, p. 167.

اثبت ماثيو وستمنستر اسماء الصليبيين الانجليز .

احد يستطيع حلهم على التزام النظام سوى ممثل البـابا . فأذاع نبأ بأن فردريك الثاني ، الامبراطور الشاب في غرب اوروبا ، سبق ان وعد بأن يقتفي أثره على رأس جيش امبراطوري ، فاذا قدم ، فمن المحقق ان تكون له القيادة العليا للحملة الصليبية . غير ان بيلاجيوس سوف لا يتلقى الاوامر من الملك يوحنا بريين ، الذي لم يكن ملكاً بالفعل ، إلا عن طريق زوجته المتوفاة (١) .

وفي اكتوبر سنة ١٢١٨ ، توافر عند الملك الكامل من الامداد ما يكفي لمحاولة شن هجوم على معسكر الصليبيين ، بأسطول صغير سيره اليهم في النهر . غير ان الهجوم ردّه مـا اشتهر به الملك يوحنا من النشاط . ثم اقام المسلمون بعد بضعة ايام جسراً على النيل ، على مسافة قصيرة بأعلى المدينة . ولم تنجح الغارة التي شنها بيلاجيوس على اعمال البناء ، غير ان الكامل لم يتبع بناء الجسر ، بحمل الجيش على استخدامه في اجتياز النهر ، بل لجأ عوضاً عن ذلك الى شن هجوم آخر من النهر . ومع انـه كان يفوق الهجوم الاول في العنف ، إلا انـه جاء متأخراً . إذ وصلت اول كتيبة فرنسية ، وتولت الدفاع عن المعسكر الصليبي . وبلغ الهجوم الثاني حافة المعسكر الصليبي ذاته ، غير انـه رد على اعقابه الى النهر ، حيث غرق عدد كبير من العساكر الاسلامية (٢) .

---

(١) انظر : Donovan, op. cit. pp. 48 - 49.

(٢) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 190 - 192.
Histoire des Patriarches, p. 394.
Gesta Obsidionis Damiata, (in Röhricht, loc. cit. pp. 79 - 80).
John of Tubia, p. 123.

على انه حدثت فترة هدوء فيما كان جارياً من القتال ، بعد وصول كل الجيش الفرنسي والانجليزي في اواخر اكتوبر . إذ أن وفاة العادل عطلت مـا كان الكامل ينتظره من مساعدة من سوريا ، فأضحى يترقب وقتئذ قدوم الجيش الذي وعد به اخوه المعظم ، وكان للمسيحيين ايضاً مشاكلهم . إذ حفروا قناة تمتد من البحر الى النهر ، بأعلى الجسر الذي اقامه المسلمون ، غير انهم لم يستطيعوا ان يملأوها بالماء . على انـه هبت من جهة الشمال ، ليلة ٢٩ نوفمبر ، عاصفة جعلت ميـاه البحر تطغي على الارض المنخفضة التي اقام عليها المسيحيون معسكرهم ، فانسابت المياه الى كل خيمة ، وغمرت المياه مستودعات المعسكر . وتحطمت سفن عديدة ، بينما اندفعت سفن اخرى الى المعسكر الاسلامي ، وهلك غرقاً افراس كثيرة ، ولمـا انحسرت مياه الفيضان ، خلفت وراءها في كل مكان من الاسماك مـا قد احس كل واحـد بطعمها الشهي ، حسبما يقول المؤرخ اوليفر بادربورن . ولمنع تجدد وقوع الفيضان ، امر بيلاجيوس بالمبادرة الى اقـامة حاجز ، وما تبقى من حطام السفن ، وأشرعة السفن الممزقـة ، فضلاً عن جثث الخيول ، كل ذلك جرى استخدامه في زيادة ارتفاع السد . على ان النتيجة الوحيدة الطيبة التي نجمت عن الفيضان ، هي ان القنـــاة التي حفرها الصليبيون امتلأت بالماء ، وأضحى بوسع السفن المسيحية ان تجتازها الى النهر [1] .

---

(١) انظر :

Oliver, Historia Damiatana, pp. 131 - 192.
John of Tulbia, p. 124.
Gesta Obsidionis Damiatae, p. 82.
Liber Duellii Christianii, in Obsidione Damiate Exacti, (in Röhricht, loc. cit.), pp. 148 - 149.
James of Vitry, Epistolae V, (Z. K. G. vol. XV, pp. 582 - 583).
Histoire des Patriarches, pp. 245 - 246.

لم يكد يتم اصلاح المعسكر ، حتى اندلع وباء خطير في الجيش ، وتعرض الضحايا لحمى شديدة ، واسودت بشرتهم . فهلك مـــا لا يقل عن سدس العساكر ، ومنهم الكاردينال روبرت كورسون . ومن بقي على قيد الحياة ، اضحوا ضعافاً ، زايلهم النشاط والروح المعنوية ؛ ثم تـلا ذلك شتاء بالغ القسوة والبرودة . وكان من صالح المسيحيين أن تعرّض المسلمون ايضاً لما تعرضوا له من المرض والبرد [١] .

احتلال العادلية سنة ١٢١٩ :

ادرك بيلاجيوس في اوائل فبراير سنة ١٢١٩ ، أن الجيش لن ينعشه إلا النشاط ، ففي يوم السبت ٢ فـــبراير سنة ١٢١٩ حث الجيش على النهوض لمهاجمة المسلمين . غير ان عاصفة ممطرة هوجاء ردّت الجيش على اعقابه . وفي يوم الثلاثاء التالي ، وصل الى المعسكر المسيحي نبأ بأن السلطان الكامل وجيشه اخذوا يتقهقرون ، فهرع الصليبيون الى العادلية ، فاكتشفوا ان المسلمين غادروا موقعهم . واحتل الصليبيون العادلية ، بعـد ان ردوا هجوماً شلته عليهم حامية دمياط ، وبذا أتموا عزل المدينة (دمياط) [٢].

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 193 - 193.
James of Vitry, loc. cit.
John of Tulbia, p. 125.
Gesta Obsidionis Damiate, p. 83.
Histoire des Patriarches, p. 249.

(٢) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 194 - 201.
Gesta Obsidionis Damiate, pp. 83 - 84.
Estoire d'Eracles, II, p. 337.
John of Tulbia, loc. cit.

يرجع السبب فيما لجأ اليه الكامل من الفرار المفاجيء ، الى أنه اكتشف مؤامرة بين حاشيته . ذلك ان احد امرائه ، وهو عماد الدين احمد بن المشطوب ، دبّر امر اغتياله ، على أن يحل مكانه اخاه الفائز . ونظراً لأن الكامل لم يعلم ما اذا كان عدد كبير من قادته وأمرائه اشتركوا في المؤامرة ، حمله اليأس على التفكير في الفرار الى اليمن ، حيث تولى الحكم بهذه البلاد ابنه المسعود ، غير انه سمع بأن اخاه المعظم نهض آخر الأمر لنجدته . فتحرك الكامل بجنده صوب الجنوب الشرقي الى اشموم ، حيث التقى الاخوان ، الكامل والمعظم ، في ٧ فبراير سنة ١٢١٩ . والواقع ان حضور المعظم في جيش ضخم أدى الى اخضاع المتآمرين ، فتمّ القاء القبض على ابن المشطوب ، وتسييره الى الحبس في الكرك ، بينما تقرر نفي الامير الفائز الى سنجار ، وأحاط الغموض بموته في اثناء الطريق اليها . وأنقذ الكامل عرشه ، ولكن كلفه ذلك ضياع دمياط [١] .

لم يكن بوسع الكامل ان يطرد المسيحيين من العادلية ، برغم مساعدة المعظم له . إذ ان النهر والخلجان والقنوات جعلت من المستحيل على المسلمين ان يفيدوا من تفوقهم في العدد . وما شنوه من هجمات على المعسكرين المسيحيين ، في غرب النهر ، وفي العادلية لم يكن مصيرها إلا الفشل . وعندئذ اقام السلطان الكامل معسكره في فارسكور التي تقع على مسافة ستة اميال ، جنوبي دمياط ، وتجهز لمهاجمة مؤخرة الصليبيين ، إذا حاولوا

---

(١) انظر : Ibn al - Athir, II, pp. 116 - 117.
Ibn Khallikan, III, 1, p. 240.
Histoire des Patriarches, pp. 246 - 247.

مهاجمة دمياط . وظل وضع الجيشين حرجاً ، طوال فصل الربيع ، إذ ان كل حركة من جانب احدهما لم تلبث ان يحبطها الجانب الآخر . على ان معارك ضارية دارت يوم احد السعف ، ثم يوم احد العنصرة ، حينما حاول المسلمون عبثاً ان يشقوا طريقهم الى العادلية . اما في دمياط فعلى الرغم من توافر المؤن بها ، فإن الامراض زادت في تناقص عدد رجال حاميتها ، ومع ذلك لم يجرؤ المسيحيون على ان يشنوا هجوماً عليها[1] .

وفي تلك الاثناء قرر الملك المعظم ان يدمّر استحكامات بيت المقدس . وإذ كان لا بدّ من بذل بيت المقدس للمسيحيين لإنهاء الحرب ، فينبغي الا يتم تسليمها لهم إلا في حالة خراب وعجز عن الدفاع . بدأ تخريب الاسوار في ١٩ مايو سنة ١٢١٩ ، فأثار الذعر في المدينة . إذ اعتقد المسلمون من سكان المدينة ان الفرنج قد اقبلوا ، فهرب معظمهم مذعورين الى ما وراء نهر الاردن ، وتعرّضت المساكن المهجورة وقتئذ الى النهب والسلب من قبل الجنود . وأراد بعض المتشددين في الدين تدمير كنيسة القيامة ، غير ان السلطان لم يسمح بذلك . وحدث بعد الفراغ من تدمير استحكامات بيت المقدس ، ان تخريب ايضاً حصون الجليل ، وتبنين ، وصفد ، وبانياس . وفي الوقت ذاته طلب السلطان الكامل والسلطان المعظم المساعدة من جميع

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 202 - 206.
Liber Duellii, pp. 151 - 152.
Gesta Obsidionis Damiate, pp. 87 - 90.

انحاء العالم الاسلامي ، وتوسلا على الاخص بالخليفة في بغداد ، الذي وعد بأن يرسل جيشاً ضخماً لم يقدم مطلقاً [1] .

وأعقب الشتاء القارس ، صيف قائظ ، فانهارت من جديد الروح المعنوية عند الصليبيين . أصرّ بيلاجيوس مرة اخرى على الحركة والنشاط ، فركز الصليبيون جهودهم في قذف أسوار المدينة (دمياط) بالمناجيق ، بعد ان ردّوا هجوماً عنيفاً شنّه المسلمون على معسكرهم في ٢٠ يوليه ، تكبد فيها الجانبان خسائر جسيمة . وبينا لم يثمر اشتباك الصليبيين في القتال ، نظراً لأن ما استخدمه المدافعون عن المدينة من النيران الاغريقية ألحق ضرراً كبيراً بأدواتهم ، ولم يخمد هذه النيران ما صبه عليها الصليبيون من النبيذ والأحماض ، شنّ المسلمون هجوماً آخر كاد يدمر كل الجيش المسيحي ، لولا حلول الظلام . وأما الهجوم الآخر الذي شنه الصليبيون على أسوار المدينة في ٦ اغسطس سنة ١٢١٩ فلم يصادف ايضاً شيئاً من النجاح [2] .

---

(١) انظر : Abu Shama, II, pp. 173 - 174.
Ibn al - Athir, II, p. 119.
Histoire des Patriarches, p. 52.
Estoire d'Eracles, II, p. 330.
Oliver, Historia Damiatana, p. 203.

(٢) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 208 - 210.
Gesta Obsidionis Damiate, pp. 87, 90 - 97.
John of Tulbia, pp. 127 - 128.

أثارت الهزائم العساكر الصليبية فدفعتهم الى النشاط ، ووجهوا اللوم الى قادتهم لتراخيهم وسوء قيادتهم . وإذ لقي عــــدد كبير من النبلاء المعروفين مصرعهم ، ومن هؤلاء كونتا لامارش ، وبارسيرسين ، ووليم كونت شارتر ، ومقدم الداوية ، عـــاد آخرون الى اوربا ، إذ ان ليوبولد دوق اوستريا ترك جيشه في مايو سنة ١٢١٩ ، وقد كان يعتبر أشد الأمراء نشاطاً ، والمعروف انه ظل يخدم في الشرق لمدة سلتين ، وما من احد يستطيع ان يوجه اليه اللوم ، على عودته الى بلاده. وما أظهره ليوبولد من المروءة والفروسية محت ما لحقه من الشهرة السيئة ، بسبب مشاجراته مع رتشرد قلب الاسد في الحملة الصليبية الثالثة . وحمل معه الى بلاده قطعة من الصليب المقدس . على ان قافلة السفن التي نقلته الى اوربا ، حملت ايضاً غيره ، يعتبر رحيلهم فيما يبدو تخلياً عن القضية الصليبية [1] . وحوالي نهاية اغسطس سنة ١٢١٩ ، وبينما اشتد الجدال بين الملك يوحنا وبيلاجيوس على الخطة الحربية ، إذ دافع الملك يوحنا عن تشديد الحصار على دمياط ، بينما أصرّ بيلاجيوس على شن هجوم على معسكر السلطان ، تولى العساكر زمام الأمور ، فتدفقوا في ٢٩ اغسطس في جموع مضطربة غير منتظمة ، على خطوط المسلمين . وتظاهر المسلمون بالارتداد ، ثم قاموا بهجوم معاكس ، وقد حاول بيلاجيوس

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 188, 207 - 208.
Gesta Obsidionis Damiate, p. 90.
Liber Duellii, p. 258.
Riant : Exuviae Sacrae Constantinopolitanae, II, p. 283.
أشار ريانت الى ما حازه ليوبولد من المخلفات المقدسة . اما كونت بار سيرسين فلم يكن سوى ميلو الثالث لي بويزيه .

ان يتولى القيادة ، ولكن برغم ما بثه من مواعظ ونصائح ، استدار الجنود الايطاليون وولوا الأدبار ، ولم يلبث ان ساد الذعر الشديد . ولم ينقذ الباقين ويحفظ المعسكر ، إلا مهارة الملك يوحنا ، والنبلاء الفرنسيين والانجليز (١) .

القديس فرانسيز الأسيسي سنة ١٢١٩ :

هذه المعركة راقبها في وجل شديد زائر معروف ، هو الراهب فرانسيز الاسيسي الذي قدم للمعسكر . لقد جاء الى الشرق وقد اعتقد مثلما اعتقد من جاء قبله وبعده من اشخاص كثيرين ، اخياراً وأشراراً ، بأن بوسع بعثة سلام ان تحل الأمن والسلام . فطلب من بيلاجيوس ان يأذن له بالتوجه الى زيارة السلطان الكامل . فوافق بيلاجيوس بعد تردد ، وبعث بـه في ظل علم الهدنة الى فارسكور . ارتاب فيه اول الأمر الحراس المسلمون ، غير انهم لم يلبثوا ان قرروا ان شخصاً في هذه البساطة ، وهذه الرقة وهذه القذارة لا بدّ ان يكون مجنوناً ، فعاملوه بالاحترام اللائق برجل وثيق الصلة بالله . ثم سيّروه الى السلطان الكامل الذي سحرته شخصيته ، وظل يستمع في هدوء الى رجائه ، على ان الكامل كان من الرقق والتمدن

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 213 - 219.
Fragmentum Provinciale de Captione Damiatae, (in Röhricht, loc. cit), pp. 185 - 192.
Gesta Obsidionis Damiate, pp. 101 - 104.
John of Tulbia, pp. 132 - 133.
Estoire d'Eraclee, II, pp. 340 - 341.

انه لم يطلب من القديس فرانسيز ان يقيم دليلاً على ايمانه ، بالالتجاء الى اختبار النار ، ولم يتعرّض للمرارة التي يصح ان تثيرها مناقشة عامة في الدين . ورفض القديس فرانسيز قبول ما بذله الكامل من هدايا كثيرة ، وأرسله الكامل الى المسيحيين في حرس شرف[1] .

الكامل يعرض شروطاً للصلح سنة ١٢١٩ :

الواقع ان الحاجة لم تكن تدعو الى تدخل القديس فرانسيز ، لأن الكامل نفسه كان ينزع الى السلام ، إذ ان النيل لم يرتفع إلا قليلاً في ذلك الصيف ، فأضحت مصر مهدّدة بالمجاعة . واشتدت حاجة الحكومة الى ان تسخر كل مواردها للسعي الى الحصول على المؤونة من البـلاد المجاورة . وحرص المعظم على ان يعود بجيشه الى سوريا ، ولم يكن كل من المعظم والكامل راضياً عن جهود اخيهما الأشرف في اقصى الشمال . وفي بغداد اضحى الخليفة الناصر لدين الله في حوزة جلال الدين خوارزمشاه ، الذي دمّر والده محمد خوارزمشاه سلطان السلاجقة في ايران ، وأنشأ امبراطورية امتدت من نهر السند الى نهر دجـــلة . كان يصح استخدام جلال الدين خوارزمشاه لمناوأة الاشرف ، غير انه نظراً لأطماعه المعروفة ، اضحى من

---

(١) انظر : Acta Sanctorum, October 4, pp. 611 ff.
Van Ortroy : « Saint Francis et son voyage en Orient », in Analecta Bollandiana, vol. XXXI.
Ernoul, p. 431.
ما ورد في ارنول من قصة عن رجال دين لم يذكر اسمهم، تشير فيما يبدو الى ما قام به القديس فرانسيز من زيارة الى السلطان الكامل .

الخطورة التمادي في تشجيعه . ولذا كان المعظم مستعداً لمساندة الكامل في في السعي الودي للتفاوض مع الفرنج . وحدث في احد ايام شهر سبتمبر سنة ١٢١٩ ان قدم من قبل السلطان اسير من الفرنج ، يعرض على الصليبيين عقد هدنة قصيرة الأمد ، ويقترح بأن المسلمين سوف يكونون مستعدين للتنازل عن بيت المقدس . فتقرر قبول الهدنة ، غير ان المسيحيين رفضوا ان يناقشوا ما عدا ذلك من شروط الصلح [١] .

أمضى الجانبان المسيحي والاسلامي فترة الهدنة في اصلاح استحكاماتها . كما ان عدداً كبيراً من المسيحيين اعتبروها فرصة ملائمة للعودة الى بلادهم . إذ غادر البلاد فريق منهم في مستهل هـذا الشهر (سبتمبر) ، وأقلعت في ١٤ سبتمبر اثنتا عشرة سفينة اخرى بحمولتها من العساكر ، على ان الخسارة عوّضها ما حدث بعد اسبوع من وصول السيد الفرنسي سوفاري موليون مع جماعة تقلهم عشر سفن جنوية [٢] . فلما نقض الكامل الهدنة ، بأن هاجم الفرنج في ٢٦ سبتمبر ، نجح العساكر القادمون حديثاً في الدفاع عن المعسكر المسيحي [٣] .

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, p. 218.
Gesta Obsidionis Damiate, p. 105.

(٢) انظر : Oliver, Historia Damiatana, loc. cit.
Gesta Obsidionis Damiate, p. 104.
John of Tulbia, p. 138.
James of Vitry, loc. cit.

(٣) انظر : Oliver, Historia Damiatana, p. 219.
Fragmentum Provinciale, pp. 193 - 194.
Gesta Obsidionis Damiate, p. 106.
Liber Duellii, p. 160.

على ان الكامل لا زال يأمل في الصلح ، بعد ان أدرك ان دمياط لا تستطيع الصمود ، إذ ان المرض جعل رجال الحامية من الضآلة وقلة العدد ، ما أضحوا معه عاجزين عن شحن الأسوار بالعساكر ، وباءت بالفشل كل محاولات الكامل لأن يدخل الأمداد الى المدينة . أما الخونة من المعسكر المسيحي الذين أفاد الكامل من خدماتهم ، فلم يحرزوا شيئاً من النجاح في كل ما قاموا بـه من خطط . وفي نهـاية اكتوبر سنة ١٢١٩ أرسل الكامل فارسين أسيرين ، ليعرضا على الفرنج شروطاً محددة للصلح ، تقضي بأنه اذا جلا الفرنج عن مصر ، فسوف يعيد اليهم صليب الصلبوت ، وسوف يحصلون على بيت المقدس ، وقلب فلسطين والجليل . وسوف لا يحتفظ المسلمون إلا بالقلاع الواقعة وراء نهر الاردن ، غير أنهم سوف يؤدون عنها إتاوة[١] .

كان ذلك عرضاً مثيراً للدهشة والقلق ، إذ سوف يعود الى العـالم المسيحي بدون قتـال ، المدينة المقدسة ، وبيت لحم والناصرة ، وصليب الصلبوت . نصح الملك يوحنا بريين بقبول هذا العرض ، وسانده في ذلك باروناته والبارونات القادمون من انجلترا وفرنسا وألمانيا . ولكن لم يرض

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, p. 222.
Estoire d'Eracles, II, pp. 341 - 342.
Ernoul, p. 435.
Makrizi, (trans. Blochet), IX, p. 490.
Histoire des Patriarches, p. 253.
Gesta Obsidionis Damiate, pp. 109 - 110.
Ibn al - Athir, II, p. 122.

بهذا العرض ، بيلاجيوس وبطريرك بيت المقدس . إذ اعتقدا أنه من الخطأ التوصل الى اتفـــاق مع الكفار . ووافقتها الطوائف الدينية العسكرية لأسباب استراتيجية ، إذ جرى تدمير استحكامات بيت المقدس والقلاع الواقعة بالجليل ، وكيفما كان الامر ، فمن المستحيل المحافظة على بيت المقدس ما لم تتم السيطرة على اقليم ما وراء الاردن . وعارض الايطاليون ايضاً شروط الكامل للصلح ، فعلى الرغم من حرص المدن الايطالية البحرية على ألا تقطع علاقاتها مع مصر ، فانه قد حدث وقتئذ ، أنهم يودون اتخاذ دمياط مركزاً لتجارتهم . ولم يهتموا بإضافة الاقليم الداخلي الى امـلاك الفرنج . وبلغ النزاع بين الفريقين من المرارة ، ان اعتقد جيمس اسقف عكا ، ان السلطان لم يبذل عرضه إلا كيا يثير المنازعات بين المسيحيين . فتقرر رفض عرض السلطان تحت إلحاح وإصرار بيلاجيوس [١] .

ولم تنقض إلا ايام قليلة حتى جاء نبأ من كشافة بيلاجيوس أن السور الخارجي لدمياط خلا من الحراسة ، فزحف الصليبيون في قوة ، في اليوم التالي ، الثلاثاء ، ٥ نوفمبر سنة ١٢١٩ ، وتسلقوا السور الخارجي ، ثم السور

---

(١) انظر : James of Vitry, Epistola, VI, (Z. K. G. vol. XVI, pp. 74 - 75).
Oliver, Historia Damiatana, p. 223.
Epistola Regia Babilonis, p. 305.
Estoire d'Eracles, II, p. 342.
Röhricht, Studien Zür Geschichte des füuften Kreuzzuges, p. 46.
(اورد روريخت رسالة السادة الفرنسيين الى البابا هونوريوس) .
Makrizi, loc. cit.

الداخلي للمدينة ، دون أن يتعرضوا لمقاومة تذكر . واكتشفوا بداخل المدينة ان المرض نزل بمعظم رجال الحامية ، ولم يتجاوز عدد الاحياء من سكان المدينة ثلاث آلاف نفس ، بلغ الضعف بعدد كبير منهم ، انهم لم يستطيعوا مواراة جثث الموتى . وتوافر بالمدينة المؤونة والثروة ، غير ان المرض، أدى للمسيحيين ما يصح ان يقوموا به من العمل . فلم يكد يكتمل الاستيلاء على المدينة ، حتى تقرر فرز ثلاثمائة من الرجال البارزين ، واتخاذهم رهائن ، اما الاطفال الصغار فجرى تسليمهم الى رجال الدين كيما يتنصروا ، ويُعدوا لخدمة الكنيسة ، ومن تبقى منهم ، تقرر بيعهم رقيقاً . وتقرر ايضاً توزيع الاموال بين الصليبيين ، وفقاً لمكانة كل منهم ورتبته . ولم تمنع لعنات المندوب البابوي ، العساكر من السرقة وإخفاء التحف الثمينة [1] .

وكان لزاماً ان يتقرر بعدئذ مستقبل حكومة دمياط . فبادر الملك يوحنا بريين الى المطالبة بأن تكون دمياط جزءاً من مملكة بيت المقدس ، وانحاز ان جانبه الطوائف الدينية العسكرية والنبلاء العلمانيون . وأصرّ بيلاجيوس على ان المدينة المفتوحة (دمياط) ، تعتبر تابعة للعالم المسيحي ، اي الى الكنيسة . على انه لم يرضَ بالاتفاق إلا بعد ان تعرّض لسخط

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 236 - 240.
Gesta Obsidionis Damiate, pp. 111 - 114.
Fragmentum Provinciale, pp. 196 - 200.
Ibn Khallikan, IV, p. 143.
Ibn al - Athir, II, p. 119.
Abu Shama, pp. 176 - 177.

الرأي العـــام ، وهدّد الملك يوحنا بريين بالإقلاع عائداً الى عكا . وقضى الاتفاق بأن يحكم الملك يوحنا مدينـــة دمياط حتى يلحق بالحملة الصليبية فردريك الثـــاني امبراطور المانيا [1] . وفي تلك الأثناء توجّه جانب من الجيش المسيحي لمهاجمة تنيس ، الواقعة على مسافة بضعة اميال الى الشرق من مصب الفرع التنيسي للنيل . وهجر تنيس حاميتها التي استبدّ بهـــا الجزع والخوف ، وعاد الصليبيون مثقلين بغنيمة اخرى لم تلبث ان أدّت الى مشاحنات جديدة بينهم . إذ اعتقد الايطاليون ، بصفة خاصة ، انهم خُدِعوا ، فهبّوا في ثورة عنيفـــة ، حينما لم يستطع بيلاجيوس مساندتهم . وكان لزاماً على الطوائف الدينية العسكرية ان تطردهم من المدينة (دمياط) . ولم يحلّ الشتاء ، حتى صار الجيش المظفر يتأجج سخطاً وكراهية [2] .

بيلاجيوس يأمل في الحصول على حلفاء سنة ١٢٢٠ :

وتنبأ بيلاجيوس في كبريائه لما احرزه من اول انتصار ، بالدمار النهائي للمسلمين . إذ سوف تفتح الحملة الصليبية مصر بأجمعها ، ولا شك ان ملك الكرج ، الأمير المسيحي اللامع ، سوف يبذل المساعدة . يضاف الى ذلك ان برستر يوحنا كان مستعداً وقتئذ حسبما رددت الشائعة ، لأن يوجه

---

(١) انظر : Gesta Obsidionis Damiate, p. 115.
John of Tulbia, p. 139.
Ernoul, p. 426.

(٢) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 240 - 241.
John of Tulbia, p. 139.
Liber Duelli, p. 166.

ضربة أخرى من اجل العالم المسيحي . اعتقد بيلاجيوس اول الأمر ان برستر يوحنا لم يكن سوى نجاشي اثيوبيا ، على الرغم من انه لم يرد على رسالة وجهها اليه البابا قبل اربعين سنة [١] . على انه ظهر وقتذاك مرشح جديد يؤدي هـــذا الدور ، وهو امير شرقي اسمه جنكيزخان . ولكن هؤلاء الحلفاء الذين قصدهم بيلاجيوس لم يعملوا ، لسوء الحظ ، سوياً . ففي سنة ١٢٢٠ ، تعرّض جيش جورج ملك الكرج لهزيمة ساحقة على اطراف اذربيجان انزلها به مغول جنكيزخان ، فتحطمت القوة الحربية الضخمة التي انشأتها الملكة ثامار . ولم يبـــد المظفرون (المغول) شيئاً من الاهتمام بمهاجمـة الامبراطورية الايوبية [٢] . على ان تعاونا بالغ الاهمية كان متوقعاً من قبل اعظم ملوك غرب اوروبا ، فوردريك ملك المانيا وصقلية .

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 231 - 235.
تأثر بيلاجيوس ايضاً بنبوءة اسلامية تدعو الى الامل . عن بريستر يوحنا ، انظر ما سبق ، ج ٢ ، ص ٦٨١ — ٦٨٢ .

(٢) انظر ما يلي ، الكتاب الثالث ، الفصل الثاني . كتب بيلاجيوس الى البابا هونوريوس الثالث عن آماله في مساعدة من قبل الكرج . انظر : (Röhricht, Studien, p. 52) .
وسبق ان طلب البابا انوسنت الثالث من الكرج ان يتعاونوا معه . انظر : (Oliver, Historia Damiatana, pp. 232 - 233).
ابدى جيمس فيتري اهتماماً بتدخل المغول ، بأن ترجم من العربيـة بمساعدة بعض المختصين ، كتاباً عنوانه :
Excerpta de Historia David regis Indiorum qui Presbyter Johannes a vulgo appellatur, (ed. Röhricht, Z. K. G. vol. XVI, pp. 93 ff).
على ان الحقائق في هذا الكتاب تفتقر الى الدقة .

سبق لفردريك ان وعد في سنة ١٢١٥ بالاشتراك في الحرب الصليبية ، غير ان البابا انوسنت الثالث اجاز له ان يرجىء الحملة الصليبية ، حتى يتم تدبير امور المانيا . وظل فردريك يرجىء الرحيل ، إذ سبق ان وعد البابوية بأن يتنازل عن عرش صقلية الذي وليه وهو صبي ، الى ابنه الصغير هنري . غير انه لم يلبث ان اكتشف انه يستطيع بتأجيل عزمه على المضي الى الحرب الصليبية ، ان يرجىء تقسيم مملكتيه ، وأن يكون بوسعه ان يساوم على ان يقوم البابا بتتويجه امبراطوراً . ومع انه توافرت عنده الرغبة الصادقة في المسير الى الشرق ، فلم يكن الباعث لها سوى الطموح لا التقوى . ورث فردريك عن ابيه هنري السادس اطماعه الشرقية ، غير انه لم يشأ ان يحاول تحقيقها إلا بعد تتويجه امبراطوراً ، فضلاً عن اطمئنانه الى بقاء مملكتيه الاوروبيتين في قبضة يده . ولا بدّ ان تكون نواياه ظاهرة للبابا . غير ان البابا هونوريوس الثالث ، الذي كان من قبل مؤدباً لفردريك ، كان رجلاً ساذجاً ، اعتبر وعود فردريك صادقة ، وظلّ يبعث بالرسائل الى الصليبيين في مصر ، يخطرهم بأن يترقبوا قدوم جيش فردريك هوهنشتاوفن [1] .

وعندئذ توقف نشاط الحملة الصليبية ، وفي اثنـاء ركودها ازدادت المنازعات حدة بين بيلاجيوس ، والملك يوحنا بريين ، والايطاليين ، والطوائف الدينية العسكرية . ولو ان الصليبيين زحفوا مباشرة على القاهرة

---

(١) انظر : Donovan, op. cit. pp. 75 - 79.

اورد دونوفان خلاصة لما كان من تصرفات فردريك مع البابا ، وأثبت مراجعه .

عقب سقوط دمياط لجاز ان يصيبوا نجاحاً . إذ كان الكامل في وضع بالغ اليأس ، إذ تداعت الروح المعنوية في جيشه ، وكاد رعاياه يموتون جوعاً . وأصرّ المعظم على ان يعود بقواته الى سوريا ، نظراً لتخوفه من حدوث متاعب في الشمال ، ولاعتقاده ان خير مـــا يؤديه للاسلام من مساعدة ، هو أن يشن هجوماً على عكا ذاتها . ولما كان الكامل يتوقع كل يوم أن يسمع عن زحف المسيحيين ، أقام معسكره في طلخا ، الواقعة على فرع دمياط ، على مسافة بضعة اميـــال ، وجعل على جانبي النهر استحكامات ، وانتظر من العدو الهجوم ، الذي لم يحدث مطلقاً [1] .

الملك يوحنا بريين يغادر دمياط سنة ١٢٢٠ :

مات ليو الثاني ملك ارمينية في اوائل صيف سنة ١٢١٩ ، ولم يخلف وراءه إلا ابنتين ، كبراهما ستيفاني كانت زوجة للملك يوحنا بريين ، اما الصغرى ، وهي ايزابيلا ابنـــة سبيلا ملكة قبرص وبيت المقدس ، فلم تتجاوز الرابعة من عمرها . سبق لليو ان وعد بأن يحمل ولاية العرش من بعده لابن اخته ، ريموند - روبين امير انطاكية ، غير انه رشح ، وهو على فراش الموت ، ابنته ايزابيلا لتكون وريثة ملكه . فبادر الملك يوحنا بريين بالنيـــابة عن زوجته ستيفاني وابنهما الطفل ، الى المطالبة بحقهما ، وتلقى في فبراير سنة ١٢٢٠ الاذن من البابا بمغادرة الحملة الصليبية لزيارة ارمينية . على أن علاقاته كانت من السوء مع بيلاجيوس ، ما جعل الأمل

---

(١) انظر : Histoire des Patriarches, p. 254.
Abu'l Fida, p. 91.

ضئيلاً في ان يبقى مع الجيش ، الذي جعل البـــابا صراحة لبيلاجيوس مطلق القيادة عليه . ارتحل يوحنا الى عكا . وبينما كان يتجهز للابحار الى قليقية ماتت زوجته ، وترددت الشائعات انها ماتت بسبب ما لقيته منه من سوء المعاملة . ولما مات ابنها الصغير بعد بضعة اسابيع ، لم يعد للملك يوحنا دعوى في عرش ارمينية . غير انه لم يرجع الى مصر [١] . ففي مارس سنة ١٢٢٠ اغار المعظم على مملكته ، فهاجم قلعة قيسارية ، التي لم يفرغ من إعادة بنائها إلا منذ زمن قريب ، ثم تحرّك المعظم لحصار عثليت احد معـاقل الداوية . فاندفع الفرسان الداوية عائدين من دمياط ، بينما ابقى الملك يوحنا جيشه قريباً من ساحل البحر . وظل الحصار على عثليت حتى نوفمبر ، حين انسحب المعظم الى دمشق [٢] .

وفي تلك الاثناء ظلت الحملة الصليبية بدمياط ساكنة . جرت محاولات لإعادة بناء المدينة . ففي عيد الفسل ، في فبراير ، تمّ تدشين الجامع الكبير بدمياط كاتدرائية للعذراء . ووصل الى دميــاط في مارس سنة ١٢٢٠ جماعة من كبار رجال الكنيسة الايطاليين ، يتصدرهم رئيس اساقفة ميلان ويصحبتهم رسولان من قِبل فردريك الثاني ، فجلبوا معهم قوات ضخمة ، وبادروا على الفور بالاتفاق مع بيلاجيوس على شن الهجوم على المسلمين .

---

(١) انظر : Ernoul, p. 427.
Estoire d'Eracles, II, p. 349.
Oliver : Histoire Damiatana p. 248.

(٢) انظر : Oliver : Histoire Damiatana, pp. 244 - 246, 255 - 256.
Ernoul, pp. 421 - 424.

غير ان الفرسان لم يوافقوا ، إذ قالوا ان الملك يوحنا بريين ، هو القائد الوحيد الذي دان له بالطاعة جميع الاقوام ، وكان وقتذاك غائباً [١] . ولما وصل ماثيو كونت ابوليا ، في يوليه سنة ١٢٢٠ ، في ثماني سفن ارسلها فردريك الثاني ، خاب بيلاجيوس مرة اخرى في حثهم على النشاط والعمل . بل ان جنود بيلاجيوس المرتزقة من الايطاليين تمردت عليه حين اقترح القيام بحملة مستقلة . وكل ما جرى من نشاط ، لم يتعد الغارة التي قام بها فرسان الطوائف الدينية العسكرية على مدينة البرلس ، التي تقع على مسافة عشرين ميلاً ، الى الغرب من دمياط . فتعرض البلد للنهب ، غير ان الفرسان وقعوا اثناء عودتهم في كمين ، ووقع في الاسر كثير من الاسبتارية ، منهم مارشال الطائفة [٢] .

استعاد الكامل عندئذ الثقة ، فعلى الرغم من افتقاره الى قوات برية ، فإنه اصلح البحرية ، وسيّر في صيف سنة ١٢٢٠ اسطولاً في فرع رشيد ، ثم اقلع الى قبرص ، حيث عثر على اسطول للصليبيين ، راسياً تجاه ليماسول ، فشنّ عليه هجوماً مفاجئاً ، أدى الى اغراق كل السفن او اسرها ، كما وقع في ايدي المسلمين آلاف عديدة من الاسرى . جرت الرواية بأن بيلاجيوس تلقى تحذيراً عما يقوم به البحارة المصريون من استعدادات ، غير انه تجاهل التحذير . فلما فات الوقت ، ارسل اسطولاً للبنادقة ، ليعترض سبيل العدو ، وليهاجم مينائي رشيد ودمياط ، ولكن لم يتحقق

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, p. 248.
Roger of Wendover, II, pp. 260 - 261.

(٢) انظر : Oliver, Historia Damiatana, p. 252.

شيء . إذ ان افتقاره الى المال منعه من ان يعمر عدداً كبيراً من السفن ، ولم يكن بوسع خزانة البابوية ان تمده بأكثر من ذلك [١] .

وفي سبتمبر سنة ١٢٢٠ تزايد عدد العائدين الى اوطانهم من الصليبيين . غير ان البابا هونوريوس الثالث ارسل في نهاية السنة انباء طيبة ، ذلك ان فردريك الثاني قدم الى روما في نوفمبر سنة ١٢٢٠ ، وقام البابا بتتويجه مع زوجته كونستانس امبراطوراً وأمبراطورة . وأكد فردريك الوعد مقابل ذلك ، بأن يتوجه الى الشرق في الربيع التالي . غير انه ازداد ارتياب البابا هونوريوس في وعود فردريك ، بل انه نصح بيلاجيوس بألا يرفض عرضاً يتقدم به السلطان من اجل الصلح إلا بعد رفعه الى روما . على ان الامبراطور الجديد بدا كأنه جادّ في وعده . إذ نشط في تشجيع رعاياه على الوعد بالاشتراك في الحرب الصليبية ، وأرسل قوة حربية كبيرة بقيادة لويس ، دوق بافاريا ، اقلعت من ايطاليا في اوائل الربيع [٢] .

على ان نبأ قرب وصول الدوق ، جعل بيلاجيوس من الزهو والكبرياء ما حمله ، حينما عرض السلطان شروط الصلح في يونيه ، على ان يغفل تعليمات البابا ، فرفضها ، ولم يخطر بها روما إلا منذ زمن وجيز . وكان الكامل قد عرض مرة اخرى ان يتنازل عن بيت المقدس وجميع فلسطين

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 429 - 430.
Oliver, Historia Damiatana, p. 253.

(٢) انظر : Oliver : Historia Damiatana, p. 257.
Hefel - Leclerc, Histoire des Conciles, V, II, pp. 1420 - 1421.

باستثناء اقليم مـا وراء نهر الاردن ، وأن نعقد هدنة لمدة ثلاثين سنة ، وأن يبذل تعويض نقدي عـن تدمير استحكامات بيت المقدس . ووصل لويس دوق بافاريا ، عقب ان رفض بيلاجيوس شروط الصلح[1] .

زحف الصليبيين سنة ١٢٢١ :

سبق لفردريك الثاني ان امر لويس دوق بافاريا ألا يقوم بهجوم كبير إلا بعد ان يصل في اعقابه . غير ان لويس كان حريصاً على ان يهاجم المسلمين ، ولما لم يرد من الانباء بعد خمسة اسابيع ، ما يشير الى مغادرة فردريك لأوروبا ، نزل لويس على رغبات بيلاجيوس . وحينما تناقش الدوق فيما اذا كان لزاماً على جيش التعزيز ان يزحف الى داخل مصر ، فينبغي عندئذ ان يبادر الى ذلك على الفور ، نظراً لاقتراب زمن فيضان النيل ، ولما أعلن المندوب البابوي (بيلاجيوس) ان موارد الجيش المالية تطلبت المبادرة الى الحركة والنشاط ، اقتنع كبار الصليبيين ، وكل ما اصروا عليه ، هو استدعاء الملك يوحنا بريين ليقوم بنصيبه في الحملة ، فـلم يعترض على ذلك إلا فئة قليلة العدد . كتبت الملكة الوصية على عرش قبرص الى بيلاجيوس ، ان جيشاً اسلامياً ضخماً اعده في سوريا المعظم وأخوه الأشرف ، وأكد هذه الانباء عند الطوائف الدينية العسكرية ، اخوانهم بفلسطين . غـير ان بيلاجيوس

---

(١) انظر :

Oliver, loc, cit.
James of Vitry, op. cit. pp. 106 - 109.
Ernoul, p. 442.

اعتبر هـذه الرسالة حجة جديدة للقيام مباشرة بالزحف . لقد سمع من النبوءات ما يشير الى ان سيادة السلطان لن تلبث ان تزول [1] .

وأمر المندوب البابوي ، في ٤ يوليه سنة ١٢٢١ ، بالصيام بالمعسكر لمدة ثلاثة ايام ، ثم وصل في ٦ يوليه الملك يوحنا بريين مع فرسان مملكته عائدين وقد استبد به التشاؤم ، غير انـه لم يود ان يتهم بالجبن . وفي ١٢ يوليه تحرّك الجيش الصليبي نحو فارسكور ، وبها نظم بيلاجيوس الجيش في تعبئة قتال . كان حشداً مثيراً اشار المعاصرون الى ستمائة وثلاثين سفينة مختلفة الاحجام ، وخمسة آلاف فارس ، وأربعة آلاف رامٍ ، وأربعين الف راجل . وسار مع الجيش جمع من الحجاج . وصدرت اليهم الأوامر بـأن يلتزموا السير قرب شاطىء النهر ، ليمدوا العساكر بالمـــاء . وتخلفت في دمياط حامية ضخمة .

تقدم الجيش الاسلامي حتى بلغ شرمساح ليلتقي بهم ، غير انه لما تبين للعساكر الاسلامية وفرة عددهم ، انسحبوا الى ما وراء البحر الصغير الذي

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 257 - 258.
Roger of Wendover, II, p. 264.
James of Vitry, Epistola VII, (Z. K. G. XVI, p. 86).
Ernoul, pp. 441 - 443.

عن النبوءات ، انظر :

Oliver, Historia Damiatana, pp. 258 - 259.
James of Vitry, Excerpta (Z. K. G. vol. XVI, pp. 106 - 113).
Annales de Dunstoplia (Annales Monastici, vol. III, p. 62).
Alberic of Trois Fontaines, p. 790.

يجري من فرع دمياط الى بحيرة المنزلة ، وانتظروا فيا سبق اعداده على جانبي النهر من موضعين ، في طلخــا وفي الموضع الذي قامت عليه المنصورة فيا بعد . وفي ٢٠ يوليه سنة ١٢٢١ ، احتل الصليبيون شرمساح، والتمس منهم الملك يوحنا البقاء فيها ، إذ حان وقت فيضانات النيل ، وأخذ الجيش السوري في الاقتراب . على ان بيلاجيوس أصر على مواصلة الزحف ، يسانده سائر العساكر ، الذين سمعوا شائعة بأن السلطان هرب من القاهرة . وتتصل بنهر النيل (فرع دمياط) جنوبي شرمساح مباشرة ، قناة تجري من فرع آخر للنيل . وإذ أمعن الصليبيون في السير لم يتركوا من السفن مــا يتولى حراسة مصب القناة في النهر ، لأنهم اعتقدوا انهـا ليست صالحة للملاحة . وفي يوم السبت ، ٢٤ يوليه سنة ١٢٢١ ، اضحى الجيش الصليبي بأجمعه يرابط على امتـداد البحر الصغير ، قبـالة الجيش الاسلامي . ارتفعت ميــاه النيل وقتئــذ ، وامتلأت القنــاة ، وأضحى من اليسير الدفاع عنها . غير انه حدث قبل ان اضحت ميـاه القنــاة بالغـة العمق ، اجتــازها قرب بحيرة المنزلة قوات اخوي الكامل ، المعظم والأشرف ، واتخذت مواضعها بين الصليبيين ودميـاط . وما كاد يتوافر الماء في القناة الواقعة جنوبي شرمساح ، حتى هبطت اليها سفن الكامل ، فقطعت على الاسطول المسيحي السبيل عند ارتداده . وأدرك بيلاجيوس ، في منتصف اغسطس سنة ١٢٢١ ، ان جيش العدو تفوق في العدد على جيشه ، الذي اكتمل تطويقه ، ولم يعد لديه من المؤن إلا مـا يكفي لمدة عشرين يوماً . وبعد جدال ، اقنع البافاريون القيادة ، بأن الفرصة الوحيدة للافلات ، لا تتهيأ إلا بالمبادرة الى الارتداد . فبدأ التقهقر في ليلة الخميس ، ٢٦ اغسطس سنة ١٢٢١ . ولم يكن الارتداد منظماً ، إذ أن عــدداً كبيراً من العساكر لم يرضوا ان يتخـلوا عن مستودعات

النبيذ ، فآثروا أن يشربوها على ان يتركوها خلفهم . فقـــدوا الوعي حينما صدرت اليهم الاوامر بالمسير . واستبدت الحماقة بالفرسان التيوتون فأشعلوا النيران بكل ما لم يستطيعوا حمله من المستودعات ، وبذا أخطروا المسلمين بأنهم يغادرون مواقعهم . ولا زالت مياه النيل تزداد ارتفاعـاً . فأصدر السلطان او احد نوابه الاوامر بفتح القناطر المقامة على الشاطىء الايمن للنيل . فتدفقت المياه على الاراضي المنخفضة المتاخمة للنهر ، والتي كان لزاماً على المسيحيين ان يجتازوها . فأخذوا يناضلون في شقّ طريقهم وسط البرك والخنادق المليئة بالوحل والطين . وقـــد اشتدّ في طلبهم ومطاردتهم فرسان السلطان من الترك ، وحرسه من الرجـالة النوبيين . واستطاع الملك يوحنا وفرسانه ان يقهروا الفرسان الترك ، بينما ردّ فرسان الطوائف الدينية العسكرية ، الرجالة النوبيين على اعقابهم ، غير انه لم يتم ذلك إلا بعد أن هلك الألوف من الرجالة والحجاج . على ان سرعة مياه الفيضان وشدتها دفعت بالسفينة التي استقلها بيلاجيوس ، فتجاوزت الاسطول المصري الذي فرض الحصار لمنع ازتداد السفن المسيحية . على ان فرار بيلاجيوس يعتبر كارثة ، نظراً لما كان يحمله معه من الامداد الطبية اللازمة للجيش ، وقدراً كبيراً من مؤونة الجيش . وأفلتت ايضاً بضع سفن أخرى ، غير انه وقع في أسر المسلمين عدد كبير من السفن المسيحية [1] .

---

(١) انظر : Oliver, Historia Domiatana, pp. 257 - 278.

أورد اوليفر أوفى تقريرٍ لشاهد عيان .

Roger of Wendover, II, pp. 263 - 264.

بيلاجيوس يسعى للصلح سنة ١٢٢١ :

وإذ فقـد بيلاجيوس الأمل ، أنفذ في يوم السبت ٢٨ اغسطس سنة ١٢٢١ رسولاً الى السلطان يطلب الصلح . فلا زال لديه من الممتلكات ما يستطيع ان يساوم بها . إذ جرت عمارة استحكامات دمياط من جديد ، وتمّ شحنها بالعساكر ، وتوفير الأسلحة بهـا ، ورسا قبالتها اسطول قوي بقيادة هنري كونت مالطة ، ووالتر باليار ، متولي الديوان بصقلية ، أرسله الامبراطور فردريك . غير ان الكامل أدرك أنه أضحى تحت رحمته معظم الجيش الصليبي . اشتهر الكامل بالصلابة ، على أنه كان سخياً كريماً . وبعد نقاش وجدال استمر طوال اجازة آخر الاسبوع ، قبل بيلاجيوس ، يوم الاثنين شروط الكامل ، بأن يتخلى المسيحيون عن دمياط ، وأن يلتزموا بمراعاة الهدنة لمدة ثماني سنوات ، ولا بد ان يصدّق عليها الامبراطور . ويجري تبادل الأسرى من كلا الجانبين . ويعيد السلطان من جانبه صليب الصلبوت . وينبغي ان تسلم الحملة الصليبية قادتها ليكونوا رهائن ، حتى يتم تسليم دمياط . وعيّن الكامل أسماء هؤلاء الرهائن : بيلاجيوس ، والملك يوحنا ، ودوق بافاريا ، ومقدمي الطوائف الدينية العسكرية ، وثمانية عشر

=

Ernoul, pp. 439 - 444.
Histoire des Patriaches, pp. 257 - 258.
Abu Shama, II, 180, 182 - 183, 185.
Ibn al - Athir, II, pp. 122 - 124, 158.
Ibn Khallikan, III, p. 241.

آخرين من الكونتات والأساقفة . وأرسل مقابل هؤلاء ، احـد أبنائه ، وأحد اخوته ، وعدداً من صغار الأمراء [١] .

ولما جرى إرسال مقدمي فرسان طائفتي الداوية والتيوتون الى دمياط ، ليعلنا إذعانها وتسليمها ، تمرّدت الحامية اول الامر على القرار ، وهاجم رجالها دور الملك يوحنا والطوائف الدينية العسكرية ، ووصل عندئذ هنري ، كونت مالطة في اربعين سفينة ، فأحسوا بأن لهم القوة ما يكفي لتحدي العدو . غير ان الشتاء قـد أقبل ، وأخذت الأقوات في النفاد ، وكان قادتهم رهائن عند الكامل ، وأخـذ المسلمون يهددون بالزحف على عكا ، فلم يلبث المتمردون ان أذعنوا . وبعد ان أقام الملك الكامل مأدبة حافلة تكريماً للملك يوحنا ، وأمدّ الجيش الصليبي بالمؤن دون مقابل ، تمّ تبادل الرهائن . وفي يوم الاربعاء ، ٨ سبتمبر سنة ١٢٢١ ، استقلّ الجيش الصليبي السفن ، ودخل السلطان مدينة دمياط [٢] .

انتهت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل ، بعد ان اضحت قريبة من النجاح . فلو انه كان بالجيش المسيحي قائد عاقل يجمعون على احترامه ، فقد يصح ان

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, pp. 274 - 276.
Ernoul, pp. 444 - 447.
Histoire des Patriarches, pp. 257 - 258.
Abu Shama, II, pp, 183 - 184.

(٢) انظر : Oliver, Histoire Damiatana, pp. 274 - 276.
Ernoul, pp. 444. - 447.
Histoire des Patriarches, p. 258.

يتم احتلال القاهرة ، وأن يتحطم الحكم الايوبي في مصر . وإذا قامت بمصر حكومة موالية للفرنج الذين لم يأملوا بـأن يحكموا بأنفسهم القطر المصري بأجمعه ، فلم يكن مستحيلاً عليهم ان يستعيدوا جميع فلسطين . غير ان الامبراطور الذي لم يكن احد سواه يستطيع ان يقوم بهذا الدور ، لم يقدم ابداً ، برغم كل الوعود التي بذلها . كان بيلاجيوس رجلاً متغطرساً مجرداً من اللباقـــة والكياسة ، ليس مقبولاً عند الناس ، وكشف عن اخطائه باعتباره قائداً ما قام به آخر الأمر من هجوم فاجع . أما الملك يوحنا فعلى الرغم من مروءته وفروسيته ، لم يكن له من الشخصية والهيبة مـا يهيؤه لقيادة جيش مختلط . فكادت كل مرحلة من مراحل الحملة ، تحطمها الاحقاد القومية او الشخصية . لقد كان خيراً للفرنج ان يقبلوا ما عرضه السلطان الكامل مرتين من شروط الصلح ، فيستردون بذلك بيت المقدس ، غير ان الخبراء بالخطط الحربية كانوا فيما يبـدو مصيبين في قولهم انـــه بدون قلاع اقليم ما وراء نهر الاردن ، لن تبقى بيت المقدس في ايـدي الفرنج ، على الاقل طالما استمر التحالف قائماً بين المسلمين في سوريا ومصر . وكيفما كان الامر ، لم يتحقق شيء من الفائدة ، بينما ضاعت أشياء كثيرة ، من الرجال ، والموارد ، والسمعة . وكانت أتعس الضحايا ، أقلّهم جناية وذنباً . وطفت موجة جديدة من التعصب عند المسلمين ، لتخوّفهم من قدوم المسيحيين من الغرب . فعلى الرغم مما اشتهر به الكامل من التسامح ، تعرّض المسيحيون بمصر ، من الملكانيين والقبط ، لقيود بالغة الشدة ، زادت في عجزهم وضعفهم . فتقرر عليهم ان يؤدوا ضرائب باهظة ، وجرى إغلاق الكنائس ، وتعرّضت كنائس كثيرة للنهب على أيدي العسكرية الاسلامية الغاضبة . ولم يستطع التجار الايطاليون ان يستردوا وضعهم السابق بالاسكندرية ، لأن مواطنيهم شجعوا الحملة الصليبية . ومع أنهم عادوا الى

متاجرهم ، فلم يكونوا موضع ثقة الناس . وأبحر جند الصليب عائدين الى بلادهم ، لم يكسبوا إلا العار بالغ المرارة . بل انهم لم يحملوا معهم صليب الصلبوت ، فاذا حان الوقت لتسليمه ، لم يعثر له على أثر[1] .

---

(١) عن تفسيرات المعاصرين لفشل الحملة الصليبية الخامسة ، انظر :

Donovan, op. cit. pp. 94 - 97.

Throop, Criticism of the Crusades, pp. 31 - 34.

الفصل الثالث

الامبراطور فردريك الثاني

لما ارتحلت الحملة الصليبية الخامسة عن دمياط وقد اشتدّ يأسها وقنوطها ، عاد الملك يوحنا بريين رأساً الى عكا ، أما الكاردينال بيلاجيوس فواصل سيره الى أقصى الشمال لتنفيذ تعليمات البابا هونوريوس الثالث في انطاكية ، وفي المملكة الارمنية بقليقية . والمعروف ان البابا هونوريوس اعترف بدعوى بريين ، عند وفاة الملك ليو ، في ان تتولى زوجته او ابنه عرش ارمينية . فلما توفيا ، نقل البابا تأييد الكنيسة ومساندتها الى ريموند روبين امير انطاكية ، الذي قدم بشخصه الى دمياط ، في صيف سنة ١٢٢٠ ، ليستشير بيلاجيوس . وحدث قبل بضعة شهور ان استولى من جديد بوهمند كونت طرابلس ، على انطاكية ، برغم حيازة الاسبتارية لقلعتها . وعندئذ أغار ريموند روبين مع امه الارمنية أليس ، على قليقية ، واستقرّ في طرسوس ينتظر المساعدة من الاسبتارية الذي ارتبط معهم بعلاقات ودية ، لأنه جعل قلعة انطاكية في رعايتهم . غير ان نبلاء ارمينية حققوا رغبات ملكهم الراحل (ليو الثاني) فقبلوا ابنته الصغيرة ، ايزابيللا

ملكة عليهم ،بوصاية آدم سيد بغراس . ولم تنقض بضعة شهور على آدم في الحكم ، حتى لقي مصرعه على أيدي الحشيشية ، ولا شك انه جرى ذلك بتحريض الاسبتارية . فخلفه في الوصاية على عرش ارمينية ، قنسطنطين رأس بيت هيثوم . والمعروف ان بيت هيثوم كان في الماضي يمثل في ارمينية الحزب الموالي لبيزنطة .فأضحى أمراء بيت هيثوم يعتبرون عندئذ ابطال الروح القومية إزاء ما غلب على الأسرة الحاكمة من ميول لاتينية . فزحف قنسطنطين على طرسوس في اوائل سنة ١٢٢١ ، واستولى عليها ، ووقع في أسره الامير ريموند روبين وأمه ، ولم يلبث ان مات ريموند روبين بالسجن بعد فترة وجيزة . وبزواله أضحت ايزابيللا مطمئنة على عرش ارمينية ، وصار بوهمند كونت طرابلس اميراً على انطاكية [١] .

حذّر البابا بأن يلتزم بيلاجيوس الحرص في تصرفه ، إذ لا جدوى من مساندة دعاوى طفلتي ريموند روبين اللتين لجأتا الى قبرص مع امهما من بيت لوزجنان . غير ان بوهمند كان ابناً عاقاً للكنيسة . إذ دبّر انتزاع قلعة انطاكية من الاسبتارية ، وحرمهم ايضاً من الوعد الذي قطعه لهم ريموند روبين بأن يجعل لهم جبلة ، اذا استولوا عليها ، بأن منح الداوية هذا الحق. وأوشك وقتذاك أن تقع حرب صريحة بين الطائفتين الاسبتارية والداوية، وحاول بيلاجيوس ان يقنع كلا منهما بقبول نصف المدينة . على ان بوهمند لم يرفض فحسب بأن يسمح مرة اخرى للاسبتارية بدخول انطاكية ،بل

---

(١) انظر : Cahen' La Syrie du Nord, pp. 628 - 632.
حيث اورد التفاصيل والمصادر .

استولى ايضاً على ممتلكاتهم بها ، على الرغم من ان بيلاجيوس هدده بالقطع من الكنيسة ، ونفّذ القرار فعلاً . ولكن الداوية أبقوا على مخالطته وعشرته ، وسعى الوصي على عرش ارمينية الى التحالف معه . أما كيقباذ سلطان السلاجقة في قونية فكان وقتذاك اعظم امراء آسيا الصغرى ، بعد ان احتل جبال طوروس الغربية ، واتخذ مقرّه في علايا الواقعة على الساحل ، فأضحى يهدد حدّ ارمينية بأكمله . وإذ احتاج الارمن ان يكسبوا ودّ انطاكية ، اقترح الوصي على عرش ارمينية على بوهمند بأن يرسل ابنه الرابع فيليب ، ليتزوج من الملكة الارمنية الصغيرة ، ولكنه أصرّ على ان ينتمي العريس الى كنيسة ارمينية الانفصالية . وإذ أحسّ بوهمند بمرارة قطعه من الكنيسة على يد المندوب البابوي (بيلاجيوس) ، لم يمانع في ان ينزلق ابنه الى الهرطقة ، وما حدث من تحالف بين ارمينية وانطاكية حقّق غرضه المباشر ، إذ انصرف كيقباذ عنها ، وحوّل اهتمامه الى جيرانه المسلمين في الشرق .

ولاية عرش ارمينية سنة ١٢٢٦ :

كان الارمن يأملون بأن يصير فيليب ، الذي ضاع كل امل له في ان يرث انطاكية ، ارمنياً صالحاً . غير أن ميوله كانت لاتينية خالصة ، فكان يمضي اكثر ما توفر لديه من الوقت في انطاكية . فاشتدت ثائرة بيت هيثوم وأصدقائهم . فحدث آخر الأمر ، في نهاية سنة ١٢٢٤ ان القوا القبض على فيليب ذات ليلة ، اثناء ارتحاله الى انطاكية ، وحبسوه في سيس ، حيث دسّوا له السم بعد بضعة شهور ، فقضى نحبه . فاستبد الغضب ببوهمند ، ولكن لم يكن بوسعه ان يفعل شيئاً . إذ صدّق البابا على قرار قطعه من الكنيسة ، وأنذر الداوية بألا يشاركوه او يتصلوا به .

اما الاسبتارية فانحازوا علناً الى جانب الارمن الملحدين . فلما فرّت الملكة الصغيرة ، أرملة فيليب ، مكسورة الخاطر الى سيلوقية تلتمس حماية الاسبتارية ، سلموا كل المدينة الى قنسطنطين الوصي على العرش ، كيما يتجنبوا العار الذي يلحقهم بتسليم الملكة ذاتها . فاستنجد بوهمند بالسلطان كيقباذ ، فأغار السلاجقة على قليقية . وعندئذ ألحّ قنسطنطين على بوهمند بأن يصرف السلاجقة عن قليقية بأن طلب اليه القدوم الى قليقية ، ليتسلم ابنه ويعود به الى انطاكية ، ثم اتفق قنسطنطين مع الوصي على حلب ، طغرل ، على أن يزحف على انطاكية . فلما اضحى بوهمند في قليقية ، علم ان ابنه قد مات ، ولا بدّ ان يهرع راجعاً لحماية حاضرته انطاكية من طغرل . وفي تلك الاثناء ، أرغمت الملكة ايزابيلا الصغيرة على أن تتزوج هيثوم ابن قنسطنطين . فظلت سنوات عديدة ترفض الحياة معه ، غير انها رضخت آخر الامر ، وتم تتويجها مع هيثوم في سنة ١٢٢٦ . ادرك قنسطنطين عندئذ برغم كل ما اتصف به من الروح القومية ، انه من الخير التوفيق بين ارمينيا والبابوية . فجرى انفاذ رسائل الولاء ، باسم الملكين الصغيرين ، الى البابا ، والى الامبراطور فردريك [١] .

كان من صالح المسيحيين بالشمال ، ان يستمر القتال بين اهم جارين مسلمين ، السلاجقة ، والأيوبيين في حلب والموصل ، لأن الهدنة التي عقدها الصليبيون مع الكامل لمدة ثماني سنوات لم يدخل فيها الايوبيون بحلب والموصل . وفي اقصى الجنوب ، حرص الملك يوحنا بريين على ان يفيد

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. pp. 632 - 635.
والمعروف ان المؤرخين الارمن يعرضون وجهة نظر بيت هيثوم . وأورد ابن الاثير خير تقرير موضوعي . انظر :
Ibn al - Athir, II, pp. 168 - 170.

منها في ان تخلد مملكته الى الراحة من الارهاق التي تعرّضت له ، وفي ان تنتعش بصفة خاصة التجارة مع البلاد الاسلامية الداخلية ، التي تعتبر المصدر الرئيسي لموارد مملكته . على انـه قرر في سنة ١٢٢٢ ان يقوم بزيارة الى الغرب ، إذ اراد ان يستشير البابا حول ما يبذله مستقبلاً من مساعدة لمملكته ، ولا بد ايضاً ان يلتمس زوجاً لابنته الملكة الصغيرة ، التي لم تتجاوز الحادية عشرة من عمرها ، بينما كان يوحنا بريين في السبعينات . فلا بد من تأمين وراثة الحكم . وبعد ان عيّن اودو مونبليارد نائباً عنه في حكم المملكة ، ابحر من عكا مع بيلاجيوس الذي فرغ وقتئذ باعتباره مندوباً بابوياً ، من جولة في قبرص ، قام بها مع رالف ميرنيكورث بطريرك بيت المقدس ، ومقدم الاسبتارية . امـا مقدم الفرسان التيوتون ، هرّمان سالتزا فكان وقتذاك في روما . وهبطت الجماعة الى برنديزي في نهـاية اكتوبر سنة ١٢٢٢ [١] .

توجه الملك يوحنا مباشرة الى روما ، حيث طالب بأن كل بلاد تستولي عليها كل حملة صليبية في المستقبل ، لا بدّ من بذلها لمملكة بيت المقدس ، ولعل بيلاجيوس اعترض على هذا الطلب ، غير ان البابا اتفق مع الملك يوحنا ، كما ان الامبراطور فردريك أرسل موافقته . ثم واصل الملك يوحنا رحيله الى فرنسا ، كيما يزور مرة اخرى صديقه القديم ، الملك فيليب

---

(١) انظر : Oliver, Historia Damiatana, p. 280.
Estoire d'Eracles, II, p. 355.
Ernoul, pp. 448 - 449.
Annales de Terre Sainte, p. 437.

اغسطس . وفي تلك الأثناء تقدم هرمان سالتزا باقتراح يقضي بأن تتزوج الملكة يولاندا من الامبراطور فردريك نفسه ، بعــد ان ماتت زوجته الامبراطورة منذ اربعة شهور ، وسوف تكون زيجـة متكافئة رائعة ، وأرضت الفكرة كبرياء يوحنا ، غير انه تردد حتى ظفر بوعد من هرمان سالتزا بأنه (يوحنا) سوف يحتفظ بالوصاية على العرش حتى وفاته . تحمس البابا للفكرة ، فاذا صار فردريك زوجاً لملكة بيت المقدس ، فمن المحقق أنه سوف لا يماطل او يرجىء حملته الصليبية . فلمــا وصل الملك يوحنا الى باريس ، كانت المفاوضات توشك على النهاية . لم يكن الملك فيليب راضياً عن الأنباء ، ووجه اللوم الى الملك يوحنا . إذ ان ملك فرنسا هو الذي كان ، حتى وقتذاك ، يطلب اليه ان يلتمس زوجاً لوراثة الملك في الشرق الفرنجي بل ان فيليب هو الذي رشّح يوحنا نفسه . غير أنه نظراً لصحبة الايام الخالية ، رحّب فيليب بلقاء يوحنا . وكان يوحنا حاضراً حينما مات فيليب في نانت ، في ١٤ يوليه سنة ١٢٢٣ . وفي وصيته خلّف فيليب ليوحنا مبلغ اربعمائة الف مَرْك (قطعة فضية) لصالح مملكة بيت المقدس ، كما أوصى ايضاً بمثل ذلك لكل من الاسبتارية والداوية . شهد يوحنا تشييع جنــازة الملك فيليب اغسطس ، وتتويج ابنه لويس الثامن ، ثم مضى الى سانتياجو دى كومبوستيللا في اسبانيا ليؤدي الحج . مكث يوحنا بضعة شهور في قشتالة ، حيث تزوج من برنجاريا أخت الملك فرديناند الثالث ، ثم رجع الى ايطاليا أثناء سنة ١٢٢٤ [١] .

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 449 - 450.
Estoire d'Eracles, II, pp. 355 - 356.
Richard of San Germano, M. G. H. vol. XIX, pp. 342 - 343.

زواج فردريك من يولندا سنة ١٢٢٥ :

في اغسطس من السنة التالية (١٢٢٥) ، وصل الى عكا هنري كونت مـــالطة في اربع عشرة سفينة امبراطورية ، لالتماس الملكة الصغيرة التي أضحت وقتذاك في الرابعـة عشرة من عمرهـا ، واصطحابها الى ايطاليا لعقد قرانهـا . وكان على سطح الاسطول ، جيمس رئيس اساقفة كابوا المنتخب ، الذي ما كاد يهبط الى الارض حتى تزوج من يولندا بالنيابة عن الامبراطور فردريك ، في كنيسة الصليب المقدس بعكا . ثم جرى الانتقال بها الى صور ، حيث قام بتتويجها ، نظراً للتسليم بأنها بلغت سن الرشد ، البطريرك رالف بحضور جميع نبلاء الشرق الفرنجي . استمرت الافراح نحو اسبوعين ، ثم أبحرت الملكة من صور ، وبصحبتها رئيس اساقفـة صور ، سيمون موجاستيل ، وابن عمهـا باليان سيد صيدا . مكثت بضعة ايام في قبرص لزيارة خالتها الملكة أليس . ولمـــا حان وقت الرحيل ، ترقرقت الدموع في عيون الملكتين وسائر وصيفاتهن ، اللائي سمعن يولندا تهمس بتحية وداع حزينة لبلاد الشام الحلوة ، التي لن تراها مرة اخرى [١] .

اما الامبراطور فردريك والملك يوحنا بريين فكانا ينتظران العروس

---

(١) انظر : Gesta des Chiprois, pp. 22 - 23.
Estoire d'Eracles, II, pp. 357 - 358.
Raynaldus, anno 1223, no. 7, 1, pp. 465 - 466.
وإذ كان فردريك ويولندا يعتبران ابناء عم، في الدرجة الثالثة ، أقر البابا زواجهما . انظر :
Historia Diplomatica Friderici Secundi, (ed. Huillard - Bréholles), = II, p. 375.

في برنديزي . فلقيت من الترحيب ما يليق بالأمبراطورة من فخامة . ثم جرى الاحتفال بعقد قران جديد في ٩ نوفمبر سنة ١٢٢٥ ، في الكاتدرائية في برنديزي [١] .

بلغ فردريك وقتذاك الخامسة والثلاثين من عمره . كان رجلاً وسيماً ، لم يكن طويل القامة ، ولكنه متين البناء ، يميل فعلاً الى السمْنة . اما شعره الاحمر الذي اشتهر به بيت هوهنشتاوفن فانه انسدل قليلاً خلف عنقه . وكانت تقاطيع وجهه متسقة ، بينما كان فمه ممتلئاً سريع الحساسية ، ويشعّ من تقاطيعه مـــا يعبر عن طيبة القلب ، حتى اذا لحظت عينيه الخضراوين الباردتين ، ألفيت ان نظرتها النافذة تخفي وراءهما ما بهما من قصر النظر . أما نبوغه الفكري فكان بالغ الظهور ، إذ حذق فردريك التحدث بطلاقة بست لغات : الفرنسية ، والألمانية ، والايطالية ، واللاتينية ، واليونانية ، والعربية . كان واسع الاطلاع في الفلسفة ، والعلوم ، والطب ، والتاريخ الطبيعي ، فضلاً عن درايته وعلمه بسائر البلاد . فاذا تحدث ، كان شديد الجاذبية . على انه برغم ألمعيته وعبقريته ، لم يكن مقبولاً . إذ اشتهر بالقسوة ، والأثرة ، والمكر ، لا يعتبر صديقاً يصحّ الوثوق به ، فاذا كان عدواً فلا يرحم ولا يغفر . وما انغمس فيه من المباذل الشهوانية بجميع انواعها ، تعتبر صدمة حتى عند المستويات المنحلة في الشرق الفرنجي . كان يميل الى إثارة معاصريه بما يلجأ اليه من تعليقات فاضحة عن الديانة والاخلاق . على انه لا يصح اتهامه بأنه غير متدين ، غـير ان مسيحيته كانت شبيهة بمسيحية بعض الاباطرة البيزنطيين . اعتبر نفسه خليفة الله

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, loc. cit.

على الارض ، وجعل من نفسه عالماً متبحراً في اصول الدين . لم يسمح لنفسه ان يخضع لما يمليه اسقف من الاساقفة ، ولو كان اسقف روما ذاتها . لم يرَ غضاضة في الاهتمام بديانات اخرى ، ولا سيما الاسلام ، الذي اتصل بـه طوال حياتـه . لم يعتبر اليونانيين انفصاليين ، لأنهم رفضوا سلطة البابا . ومع ذلك ما من احد من الأمراء ضارعه فـيما لجأ اليه من الوحشية في اضطهاد المتهرطقين المسيحيين امثال الكاثاريين واضرابهم . أمـا المسيحي العادي في الغرب فلا يكاد يفهم فردريك . فمع انه في دمائه نصف الماني ونصف نرماني . غير انه كان صقلياً اصيلاً في نشأته وتربيته . إذ كان ربيب جزيرة ، نصف يونانية ونصف عربية . فلو انه كان اميراً في القسطنطينية او في القاهرة ، لأضحى حاكماً بارزاً ، ولكن لن يظهر فيه عدم الاتزان . وباعتبار ملكاً على المانيا ، وامبراطوراً في الغرب ، يعتبر من الاعاجيب المخيفة . ومع ذلك فإنـه لم يفهم الشرق الفرنجي ، برغم درايته العامة بالشرق [1] .

مصير يوحنا بريين سنة ١٢٢٥ :

ظهرت أهميـة فردريك وتفوّقه غداة زفافه ، إذ انه غادر برنديزي مع الامبراطورة ، دون ان يخطر صهره (الملك يوحنا) ، فلمـا لحق به الملك العجوز ، استقبله فردريك في برود . ثم تلى ذلك وقوع شجار مكشوف ، حينما علم الملك يوحنا من ابلته الباكية ، ان زوجها راود احدى بنـات

---

(١) انظر : Kantarwicz, Fredrick II, pp. 366 - 368.
هذا الكتاب يورد ما يتسم به فردريك الثاني من المثل والعواطف . انظر ما يلي.

عمّها عن نفسها . وعندئذ أعلن فردريك في برود ، انه لم يعد مطلقاً بأن يوحنا سوف يبقى وصياً على عرش مملكة بيت المقدس . فلم يكن بينهما اتفاق مكتوب ، ولذا ليس للملك يوحنا حق شرعي ، بعد ان تزوجت ابنته . فأدرك الملك يوحنا انه أضحى مجرداً من مكانته ، بل ان عساكر فردريك انتزعوا منه المال الذي سبق للملك فيليب اغسطس ان أوصى له بـه لينفقه لمصلحة بيت المقدس [1] .

وفي غمرة اليأس ، هرب الملك يوحنا الى البلاط البابوي . على ان البابا هونوريوس الذي كان شديد الكراهية لأن يظن سوءاً في تلميذه السابق ، لم يعد ينخدع فيه ، بعد ان صدمه مـا حدث فعلاً ، غير انه لم يكن بوسعه ان يفعل شيئاً للملك يوحنا ، سوى ان جعل له حكومة ولاية توسكانيا (من الإمارات البابوية) . على ان حياة المحارب القـديم لم تلته عند هـذا الحد . إذ سبق تقديم اقتراح بتوليه عرش انجلترا . ثم حدث سنة ١٢٢٨ ان كانت الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية في حاجة الى وصي على الامير الطفل بلدوين الثاني . فقبل يوحنا الوظيفة عـن طيب

---

(١) انظر : Ernoul, pp. 451 - 452.

Estoire d'Eracles, II, pp. 358 - 360, 356.

(أشار تاريخ هرقل الى ان يوحنا كان حريصاً على ان يظل وصياً على عرش بيت المقدس حتى سنة ١٢٢٧ ، حين تبلغ يولندا وقتذاك السادسة عشرة من عمرها) .

Richard of San Germano, p. 345.

Historia Diplomatica Friderici Secundi, II, p. 392.

اتخذ فردريك لنفسه فعلاً لقب ملك بيت المقدس، في ديسمبر سنة ١٢٢٥ (Ibid, II, p. 526).

اما ابنة عم يولندا التي راودها فردريك عن نفسها ، فكانت ابنة والتر بريين .

خاطر ، برغم انه ناهز الثمانين من عمره . وتزوج بلدوين من ماريا ابنة يوحنا ، التي لم تتجاوز الرابعة من عمرها . وأدرك يوحنا في اهتمام وحرص الى ان ما حازه من لقب الامبراطور ، سوف يحمله حتى وفاته سنة ١٢٣٧ [١] .

على ان الملكة الامبراطورة يولندا كانت اسوأ حظاً من ابيها . إذ ان فردريك ارسلها الى حريمه الذي اتخذه في بالرم . فعاشت في عزلة ، تتطلع شوقاً الى حياة الشرق الفرنجي البهجة . وفي ٢٥ ابريل سنة ١٢٢٨ ، انجبت ابنها كنراد ، وبعد ان ادت واجبها ، ماتت بعد ستة ايام . ولما تبلغ سبع عشرة سنة [٢] .

سبق لفردريك ان وعد البابا بأنه سوف يتزوج عروسه في سوريا ، غير انه بناء على طلبه الذي تقدم بـه الى البابا عن طريق الملك يوحنا ومقـدم الفرسان التيوتون ، حصل على رخصة بتأجيل رحيله الى سوريا لمدة سنتين . وفي ٢٥ يوليه سنة ١٢٢٥ التقى في سان جرمانو بمندوبين بابويين فأقسم اليمين بأنه سوف يرتحل الى الشرق في اغسطس سنة ١٢٢٧ ، وأنه سوف يبادر الى إرسال الف فارس ، وأنـه سيودع في روما ١٠٠ الف اوقية من الذهب ، تصادر لصالح الكنيسة ، اذا اخلّ بوعده . ولو انـه

---

(١) عن حياة يوحنا في القسطنطينية ، انظر :
Longnon, l'Empire Latin, pp. 169 - 174.

(٢) انظر :
Ernoul, p. 454.
Estoire d'Eracles, II, p. 366.
Richard of San Germano, p. 447.
Historia Diplomatica Friderici Secundi, I, p. 858.

اخذ بما ورد من الشرق الفرنجي من نصيحة ، لتأجل رحيل الامبراطور حتى سنة ١٢٢٩ ، حين ينتهي اجل الهدنة المعقودة مع الكامل [١] .

على ان الفرسان الذين وعد الامبراطور بإرسالهم الى سوريا، توجهوا في القافلة البحرية ، التي تكفلت بإحضار الامبراطورة المقبلة . أما فردريك فإنه افاد من السلتين اللتين رخص له بهما البابا ، في محاولة توطيد حكمه في شمال ايطاليا ، وبـــذا ترتبط سوياً املاكه في المانيا وايطاليا . غير ان عداوة العصبة اللومباردية الاكيدة ، احبطت محاولته . وكل ما استطاع ان يظفر به من وفاق مع اللومبارديين ، لم يتحقق إلا بالسعي للكسب ود البابوية بإظهار الحماس مرة اخرى للقيام بحملة صليبية . غير ان مؤدبه السابق ، البابا هونوريوس مات في مارس سنة ١٢٢٧ . أما البابا الجديد ، جريجوري التاسع، فكان من طراز آخر، اذ كان أشد صرامة وقسوة. كان ابن عم انوسنت الثالث ، كان شبيهاً به فيما امتاز به من عقلية قانونية صافية ، وإيمان قوي لا يتزعزع ، بما للبابوية من سلطة إلهية . ولما اتصف به البابا من التقشف والزهد ، كره فردريك على انه رجل ، وأدرك انه لا هدنة بين ما يوده الامبراطور من استبداد سياسي ديني ، وبـين مفهومه لسلطته ، واقتضت دواعي السياسة والتقوى انه لا بدّ لفردريك ان يرتحل الى الشرق [٢] .

---

(١) انظر : Historia Diplomatica Friderici Secundi, III, pp. 36 - 48. Registra Honorii Papae, III, no, 5566, II, p. 352.

(٢) انظر : Hefel - Leclerc, Histoire des Conciles, V, II, pp. 1467 - 1468.

رحيل فردريك الى الشرق سنة ١٢٢٨ :

كان فردريك فيما يبدو مستعداً للرحيل . والمعروف انه رحل فعلاً الى الشرق جماعة من الصليبيين الانجليز والفرنسيين برئاسة اسقفي اكستر وونشستر . وظل الامبراطور طوال صيف سنة ١٢٢٧ يحشد جيشاً كثيفاً في أبوليا . على ان وباء الملاريا عصف بالجيش ، غير ان عدة آلاف من العساكر أبحروا من برنديزي في اغسطس سنة ١٢٢٧ ، بقيادة هنري الرابع دوق ليمبودج . ولحق فردريك بالجيش بعد بضعة ايام ، واستقل السفن في ٨ سبتمبر ، غير انهم ما كادوا يرفعون المراسي ، حتى خرّ مريضاً احد رفاقه ، لويس ، حاكم طرف ثورنجيا ، وإذ رست سفينتهم في اوترانتو ، مات حاكم ثورنجيا ، وانتقل المرض الى فردريك . فغادر فردريك الاسطول ، الذي ارسله الى عكا بقيادة جيرولد لوزان ، بطريرك بيت المقدس ، ثم توجه فردريك للاستشفاء في العيون المعدنية في بوتشولي ، وأنفذ رسولاً الى البابا جريجوري في اناجني ، ليشرح له ما دعا الى تأجيل لا مفر منه [1] . غير ان البابا جريجوري لم يقتنع بالقصة ، واعتقد ان الامبراطور

---

(١) انظر : Historia Diplomatica Friderici Secundi, III, p. 44, V, p. 329.

Annales Marbacenses, p. 175.

Alberic of Trois Fontaines, p. 920.

Richard of San Germano, p. 348.

والمعروف ان لويس حاكم ثورنجيا كان زوجاً لسانت اليزابيت المجرية .

Hefel - Leclerc, op. cit. pp. 1469 - 1470.

Ernoul, pp. 458 - 459.

يشير ارنول الى وصول اول حملة صليبية يلحظ فيها كثرة عدد الانجليز .

عاد الى المماطلة ، فبادر البـــابا الى قطعه من الكنيسة ، وردد الحكم في خشوع في كنيسة القديس بطرس في نوفمبر سنة ١٢٢٧ [١] . على ان فردريك مضى في استعداداته للحملة الصليبية ، بعـد ان وجّه الى أمراء اوربا بياناً متزناً ، ينكر فيه مزاعم البابا . ومع ان البابا حذره بأنه ليس بوسعه من الناحية القانونية ان يتوجه الى الحرب المقـدسة ، لوقوعه تحت حظر الكنيسة ، فإنه حشد جماعة صغيرة ، وأقلع بها من برنديزي في ٢٨ يونيـــه سنة ١٢٢٨ [٢] . على ان التأجيل غيّر وضع فردريك ، إذ ان الامبراطورة يولندا قد ماتت ، فلم يعد فردريك ملكاً على بيت المقدس ، ولم يعد زوجاً للملكة ، بل أضحى قيّماً على ابنه الملك الطفل ، كنراد . ومن حق بارونات المملكة ، اذا أرادوا ، ان يرفضوا وصايته [٣] .

على ان أمراء الشرق الفرنجي لم ينتظروا قدوم الامبراطور فردريك بسرور خالص ، وكان بوهمند امير انطاكية وطرابلس أقل الأمراء قلقاً واضطراباً ، لأنه لم يعترف فيما يبدو بالسيادة العليا إلا للامبراطور اللاتيني بالقسطنطينية ، على حين ان للامبراطور فردريك ان يزعم لنفسه حقوق السيادة على قبرص ، لأن الملك اماريك تلقى التاج من الامبراطور هنري السادس ، ومن

---

(١) انظر : Hefel - Leclerc, op. cit. pp. 1471 - 1472.

(٢) انظر : Historia Diplomatica Friderici Secundi, III, pp. 37 - 18.
اورد بيان فردريك .

(٣) انظر : Ibid, I, p. 898.
Richard of San Germano, p. 350.
Estoire d'Eracles, II, pp. 366 - 367.
Hefel - Leclerc, op. cit. p. 1477.

المحقق ايضاً انه كان ملكاً على بيت المقدس ، حتى وفـاة الامبراطورة يولندا ، التي لم يعلم بها احد في الشرق إلا قبيل وصوله [1] . لقد تدخـّل فردريك منـذ فترة قصيرة في امور بيت المقدس ، إذ انه ارسل سنة ١٢٢٦ ، توماس اكوينو ، كونت اكيّرا ، كيما يحلّ في الوصاية مكان اودو ،ونبليارد ، فأظهر توماس من النشاط والحزم في تصرفاته في المحكمة العليا ما لم يكن مقبولاً عند البارونات [2] .

امـا في قبرص فكانت أليس ملكة بيت المقدس ، وصية رسمية على ابنها الملك الطفل هنري الاول . فعهدت بالحكومة الى خالها فيليب ابلين الابن الثـاني للملكة ماريا كومنينا . ولم تكن العلاقات ودية بين الملكة ونائبها . كانت تشكو دائماً انـه يهمل رغباتها ، ووقع شقاق صريح بينهما سنة ١٢٢٣ ، حين رفض فيليب ابلين ان يجيز سرقة عشور رجال الدين الارثوذكس لمصلحة اللاتين ، حسبما أوصى الكاردينال بيلاجيوس في مجمع انعقد في ليماسول . والمعروف ان الملكة سبق ان اتفقت مع الكاردينال بيلاجيوس ، فلما لم تستطع تحقيق غرضها ، اشتد سخطها ولجأت الى طرابلس ، حيث تزوجت اكبر أبناء الامير بوهمند الباقين على قيد الحياة ، وهو الذي صار فيما بعد بوهمند الخامس [3] . ولما تحقق سنة ١٢٢٥ عزم الامبراطور فردريك على القـدوم الى الشرق ، بادر فيليب ابلين بتتويج الملك هنري الذي لم

---

(١) انظر : La Monte, Fendal Monarchy, p. 59.

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 364.

(٣) انظر : Hill, History of Cyprus, II, pp. 87 - 88.

أورد المؤرخ هيل مراجع عديدة ، وناقش تواريخ ما وقع من أحداث .

يتجاوز الثامنة من عمره ، حتى اذا بلغ هنري الخامسة عشرة من عمره ، لن يمتد على الأقل أجلُ الوصاية ، بحجة انه لم يتوج بعد . ومع ان الملكة أليس أضحت بالمنفى (طرابلس) الذي اختارته لنفسها ، فإنها ما زالت تعتبر نفسها وصية . وما قامت به من محاولة لتعيين زوجها الجديد نائباً عنها لم تلقَ إلا الفشل الذريع ، لأنه ما من احد من البارونات رضي به . وعندئذ عرضت وظيفة النيابة عنها ، على احد البارونات البارزين ، وهو المريك بارليس ، الذي بادر بقبوله ، برغم انه عارض ترشيح بوهمند زوج الملكة أليس لهذا المنصب ، ويرجع قبوله لهذا المنصب الى حد كبير ، الى كراهيته لأسرة ابلين . على ان البارونات ، باستثناء واحد منهم ، أعلنوا ان نائب الملكة لا يجوز تعيينه إلا بموافقة المحكمة العليا ، التي طلبت ان يستمر فيليب في منصبه . ولم يسع بارليس بعد شجاره الصريح مع أنصار ابلين ، إلا ان يلجأ الى طرابلس ، في انتظار قدوم فردريك ، بينما توجه احد أصدقائه ، جافين شينيشي ، للحاق بالامبراطور في ايطاليا[1] . على ان فيليب ابلين مات في سنة ١٢٢٧ ، فدعت المحكمة العليا أخاه الاكبر يوحنا سيد بيروت ، ليكون نائبـــاً للملكة مكانه . والراجح ان الملكة أليس وافقت على تعيينه[2] .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 30 - 33
Estoire d'Eracles, II, pp. 361 - 362.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 37.
Annales de Terre Sainte, p. 438.
Estoire d'Eracles, II, p. 365.

أخطأ هذا المصدر حين جعل وفاة فيليب ابلين في سنة ١٢٢٨ .

لم يرد في مصدر من المصادر ما يشير الى تعيين يوحنا ابلين نائباً للملكة في قبرص ، إنما ثبت انه كان يؤدي وظيفة النائب ، حينما وصل الامبراطور فردريك .

اضحى يوحنا ابلين وقتذاك يعتبر اعظم شخصية في الشرق الفرنجي ، إذ كان ادنى الذكور في الشرق قرابة لكل من ملك قبرص ، والملكة الامبراطورة يولندا . اشتهر بالجاه والثروة ، فكان يملك مدينة بيروت بينا تعتبر زوجته وارثة اقطاع ارسوف . اكسبته خلاله الشخصية احترام الناس . فما حازه من اصل عريق ، وثروة وافرة ، وشخصية متكاملة ، كل ذلك جعله لعشرات السنوات الزعيم الذي اجمع البارونات في الشرق الفرنجي على قبوله . وإذ امتزج فيه الدم الفرنسي الشرقي والدم اليوناني ، فهم الشرق وشعوبه ، فضلاً عن درايته الواسعة بتاريخ مملكة الفرنج وقوانينها[1] .

وأدرك الامبراطور فردريك على الفور انه بالغ الخطورة على سياسته . وعرف فردريك ايضاً الشرق وشعوبه ، بفضل تعليمه وتدريبه في صقلية . فلم تكن علاقاته بالمسلمين إلا من النوع الذي كان بوسع بارونات الفرنج في الشرق ان يميلوا الى اتباعها . غير ان مفهوم الملكية عند فردريك ليس معروفاً عندهم ، إذ يعتبر ملك بيت المقدس عرفاً ملكاً مقيّداً بدستور ، ولا يزيد كثيراً على انه رئيس المحكمة العليا والقائد الأعلى . غير ان فردريك جعل من نفسه ملكاً مستبداً على نحو ما الفه الرومان والبيزنطيون ، فكان مصدر القوة والقانون ، وولي الله في ارضه ، فضلاً عما يضفيه عليه الحق الوراثي من مزايا . فلن يسيطر على امبراطور الرومان فئة قليلة من صغار بارونات الفرنج .

الامبراطور فردريك يهبط في قبرص سنة ١٢٢٨ :

كان بارليس وشيعته فعلاً على اتصال بالامبراطور فردريك قبل وصوله

---

(١) انظر : La Monte: « John of Ibelin », in Byzantion, vol. XII.

تجاه ليماسول في ٢١ يوليه سنة ١٢٢٨ . وبناء على نصيحتهم ، بادر الى دعوة يوحنا ابلين بالقدوم مع ابنائه وملك قبرص ، للاجتماع بـه . ومع ان اصدقاء يوحنا حذروه مما اشتهر به فردريك من الغدر ، فإن يوحنا كان شجاعاً وصادقاً مستقيماً . فلم يشأ ان يرفض دعوة جاءته من سيد قبرص. فلما وصل يوحنا مع ابنائه والملك ، استقبله فردريك بكل مظاهر الشرف وصار يدعوه على انه خاله ، وغمره بالهدايا الثمينة . وجرى اخطار يوحنا بأن يطرح جانباً ما يرتديه من ثياب الحداد على اخيه فيليب ، وأن يشهد المأدبة التي اقيمت على شرفه . غير انـه حدث اثناء المأدبة ان تسلل الى القاعـة عساكر فردريك ، ووقف كل منهم خلف احد الضيوف ، شاهرين سيوفهم . ثم طلب فردريك الى يوحنا ان يتنازل عن إقطاع بيروت ، وأن يسلّم كل ما تحصل من موارد قبرص منذ وفـــاة الملك هيو . فأجاب يوحنا بأن إقطاع بيروت بذلته له اخته الملكة ايزابيللا ، وانـه سوف يدافع عن حقه فيه امام المحكمة العليا لمملكة بيت المقدس ، أما موارد قبرص فإنه هو وأخوه فيليب قاما بتسليمها الى الوصية ، الملكة اليس ، باعتبار ان ذلك اجراء مشروع . فانفجر فردريك يقذف بتهديداته ، غير ان يوحنا اصر على موقفه . وأعلن انه لم يشأ ان يقال عنه انـه رفض ان يساعد الامبراطور في حملته الصليبية ، غير انه لن ينتهك قوانين البلاد ، حتى لو تعرّض للقتل في سبيل ذلك ..ولم يتجاسر فردريك على ان يخاطر بخصومة صريحة ، إذ لم يكن لديـــه وقتذاك إلا ثلاثة او اربعة آلاف جندي . فطلب ان يبقى معه عشرون نبيلاً ، منهم ولدا يوحنا ، ليكونوا رهائن ، وأن يظل معه الملك ، وأن يمضي يوحنا ابلين معه الى فلسطين . وفي مقـابل ذلك اعترف يوحنا ابلين والبارونات القبارصة بالامبراطور فردريك سيداً على قبرص ، وكان ذلك سليماً ، فلم يعتبروه وصياً عليها ،

نظراً لأن اليس كانت الوصية الشرعية ، واعترفوا به وصياً ، لا ملكاً ، على بيت المقدس ، لأنهم علموا وقتذاك ان يولندا قد ماتت ، وإن ابنها الطفل كنراد اضحى ملكاً على بيت المقدس[1] .

وفي تلك الاثناء استدعى كبار امراء الشرق الفرنجي لموافاته بقبرص . فوصل اليها في اغسطس سنة ١٢٢٨ باليان سيد صيدا في كتيبة من العساكر جاء بها من بر الساحل ، ولم يلبث ان جاء بعده جاي امبرياكو سيد جبيل الذي كان يكره اسرة ابلين ، والذي اقترض منه فردريك مبلغاً كبيراً من المال ، مثلما فعل ليوبولد دوق اوستريا منذ بضع سنوات . وبهذه الأمداد ، زحف على نيقوسيا ، وفي اثناء الطريق اليها ، لحق به بوهمند الرابع امير انطاكية . واتخذ يوحنا ابلين حذره ، فلجأ الى القلعة التي أطلق عليها اليونانيون : العمتين التوأمتين ، ديديمي ، بينما اشتهرت عند الفرنج باسم إله الحب Dieu d'Amour ، وهي المعروفة حالياً باسم سانت هيلاريون . وكان قد ارسل اليها سيدات قصره والأطفال ؛ ومستودعات كبيرة من المؤن . ونص قانون الاقطاع ، على انه لا يجوز في اثناء زمن الوصاية ، طرد البارونات من القلاع التي عهد بها اليهم الملك . ولم يحاول فردريك وقتذاك ان يتغاضى عن القانون ، إذ كان حريصاً على المضي الى فلسطين . ويبدو ان باليان سيد صيدا ، وابن اخت يوحنا ، قام بدور الوسيط ، فتقرر ألا يبذل الملك الولاء والتبعية للأمبراطور ، بينما

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 37 - 45.
اورد مؤلف هذا الكتاب ، فيليب نوفارا ، تقريراً جلياً عن الاحداث، والراجح انه شهدها.
Estoire d'Eracles, II, pp. 367 - 368.

يحلف جميع القبارصة يمين الاخلاص للأمبراطور على انه سيد أعلى . ومع انه تمّ الاعتراف بأن أليس وحدها كانت الوصية ، فان فردريك أراد ان يعين نائباً عنه ليحكم البلاد ، وأن يتوجـه يوحنا الى فلسطين للدفاع عن حقوقه في بيروت امـام المحكمة العليا . وسوف يتم اطلاق سراح كل الرهائن . وعلى اساس هـذه الشروط ، وبعد حلف الايمان بالمحافظة على السلم ، ابحر الامبراطور من فاماجستا في ٣ سبتمبر سنة ١٢٢٨ ، وفي صحبته الملك وسادة بيت ابلين ، ومعظم بارونات قبرص . امـا المريك بارليس فتخلف في قبرص ليكون نائباً للأمبراطور بها ، يساعده جافن شنيشي وأصدقاء آخرون [١] .

وسبق لفردريك أن اقترح بأن يبـذل بوهمند الولاء له عن طرابلس وأنطاكية ، غير ان بوهمند بادر بالتظاهر بأنـــه مصاب بانهيار عصبي ، وتسلل سراً الى البيت ، حيث تماثل للشفاء [٢] .

الامبراطور فردريك الثاني في عكا سنة ١٢٢٨ :

ولما وصل الامبراطور ورفاقه الى عكا ، هرع يوحنا ابلين على الفور

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 45 - 48.
Estoire d'Eracles, II, pp. 368 - 369.

ووفقاً للقانون الالماني ، لم يبلغ الملك سن الرشد إلا في الخامسة والعشرين من عمره ، بينما كان سن الرشد خمس عشرة سنة في بيت المقـدس وقبرص . والراجح ان فردريك اعتبر الملك هنري حدثاً حتى يبلغ الخامسة والعشرين ، انظر : Hill, op. cit. II, p. 98, n. 4.

(٢) انظر : Gestes des Chiprois, p. 48.

الى بيروت ، حتى يتأكد ان بوسعها ان تقاوم ما قد تتعرض له من هجوم من قبل الامبراطور . ثم عاد الى عكا ليدافع عن نفسه أمام المحكمة العليا ، غير ان فردريك لم يعجل باتخاذ اجراء . إذ بلغ فلسطين النبأ بأن البابا قطع فردريك مرة اخرى من الكنيسة ، لأنه خرج للحرب الصليبية ، قبل ان يحصل على تحلل من قرار الحرمان الذي سبق صدوره ضده . فجرى الارتياب فيما اذا كانت الأيمان التي تمّ حلفها له ، لا زالت سليمة وصحيحة . الواقع ان كثيرين من الاتقياء الورعين ، رفضوا التعاون معه ، ومن هؤلاء البطريرك جيرولد . ولم يكن عند الداوية والاسبتارية ما يدعوهم للتعاون مع رجل تقرر قطعه من الكنيسة . فلم يسع فردريك إلا أن يستند الى تأييد الفرسان التيوتون ، إذ كان مقدمهم هرمان سالتزا صديقاً له . لم يكن معه جيش كثيف ، إذ أن عدداً كبيراً من العساكر الذين خرجوا سنة ١٢٢٧ بصحبة دوق ليمبورج ، عادوا فعلاً الى بلادهم ، إما نتيجة لقلقهم ، وإما خوفاً من ان يسيئوا الى الكنيسة . على انه ابحر الى الشرق بعد شهر ، جماعة قليلة العدد في صحبة البطريرك ؛ كما ان فردريك ارسل في ربيع سنة ١٢٢٨ خمسمائة فارس تحت قيادة خادمه الحميم ، المارشال رتشرد فيلانجييري . على انه ليس بوسعه ان يحشد من هذه الأمداد وكل جيش الشرق الفرنجي قوة لها من بالغ التأثير ما يجعلها قادرة على ان توجه ضربة حاسمة الى المسلمين . وزاد من قلق فردريك ما ورد من ايطاليا من نبأ بأن نائبه ، رينالد دوق سبوليتو ، فشل في الهجوم الذي شنه على طرف انكونا ، وأن البابا اخذ يحشد قواته لغزو مملكته بايطاليا . وإذ لم يكن بوسع فردريك أن يقوم بحملة ضخمة في

الشرق ، فلا بد ان تكون حملته الصليبية مجرد حملة دبلوماسية [1] .

المشاحنات في الأسرة الايوبية سنة ١٢٢٨ :

وواتى الامبراطور حظ طيب ، بأن دار في خلد السلطان الكامل هذه الأفكار . فما انعقد من التحالف بين الاخوة الايوبيين الثلاثة ، الكامل في مصر ، والمعظم في الشام ، والأشرف في اقليم الجزيرة ، لم يعش طويلاً بعد انتصارهم على الحملة الصليبية الخامسة . إذ كان المعظم دائمـــاً يحقد على الكامل ، وتحققت الآن مخافاته من ان الكامل والأشرف ، يُعدان لاقتسام بلاده . وإلى الشرق من الأيوبيين بلغت امبراطورية جلال الدين خوارزمشاه ذروة قوتها . إذ ردّ جلال الدين غارة مغولية على بلاده ، فأضحى يحكم البلاد المتـــدة من أذربيجان الى نهر السند ، وصار يسيطر على الخليفة العباسي في بغداد . وعلى الرغم من ان استقرار المغول في الجهات الواقعة خلف بلاده ، منعه من المخاطرة بالتوغل في الغرب ، فان جلال الدين يعتبر خطراً كبيراً يهدد الايوبيين . وحينما طلب المعظم من جلال الدين المساعدة ، لإغاظة اخويه ، ثم اعترف سنة ١٢٢٦ بسيادته ، اشتدّ جزع الكامل فعلاً . لجأ الأشرف الى اتخاذ خطة الدفاع ، بعد ان تعرّض للحصار في عاصمته أخلاط . كان المغول وقتئذ منصرفين الى القتال في الصين ، فكل استنجاد بهم ، ولو كان ذلك فكرة صائبة ، سوف لا يؤبه به . ولذا حدث في

---

(١) انظر : Röhricht, Geschichte des Konigreichs Jerusalem, pp. 776 - 777.

يناقش روريخت القوة العددية لجيش فردريك. فلم يتجاوز هذا الجيش احد عشر الف رجل، كما ان عدداً كبيراً من العساكر بادروا بالعودة الى بلادهم .

خريف سنة ١٢٢٦ ان ارسل الكامل الى صقلية اعظم من يثق به من امرائه ، وهو فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، ليطلب المساعدة من الامبراطور فردريك . ومع ان فردريك أعرب عن عطفه ، فانه لم يبذل وعوداً . إذ انه لا زال وقتذاك يفكر في إعداد حملة صليبية قوية . وكيما يبقى باب المفاوضات مفتوحاً ، أرسل الى القاهرة توماس أكيرّا ، الذي كان وقتئذ بفلسطين ، مع اسقف بالرم ، بهدايا ورسائل ودية الى السلطان . فعرض الكامل ، مثلما فعل أثناء الحملة الصليبية الخامسة ، أنه مستعد لإعادة بيت المقدس الى المسيحيين . على ان بيت المقدس كانت لسوء الحظ تابعة لأخيه المعظم ، فلما توجه اسقف بالرم الى دمشق للتصديق على الاتفاق ، أجاب المعظم في غضب انه ليس من الساعين الى السلام ، وأنه لا زال يستخدم سيفه . وفي تلك الأثناء قام فخر الدين بزيارة اخرى الى صقلية ، حيث أضحى صديقاً حميماً للامبراطور ، الذي نصّبه فارساً . فلقي بذلك رحيل فردريك الى الشرق من التشجيع من قبل البابا مثلما لقيه من السلطان [1] .

غير ان الوضع تغير قبل رحيل فردريك . إذ مات المعظم في ١١ نوفمبر سنة ١٢٢٧ ، وخلّف أملاكه لابنه الناصر داود ، وهو شاب في

---

(١) عن سياسة الكامل ، انظر :

Ibn al - Athir, II, pp. 162 - 168.
Abu'l Feda, pp. 99 - 102.
Al - Aini, pp. 183 - 186.
Makrizi, trans. Blochet, IX, pp. 470 - 511.
Histoire des Patriarches d'Alexandrie, p. 518.

الحادية والعشرين من عمره . ولما اشتهر به الامير الجديد من الضعف ، والافتقار الى الخبرة والتجربة ، بادر الكامل بالتجهز الى إضافة أملاكه الى بلاده . فسار الكامل الى فلسطين ، واستولى على بيت المقدس ونابلس . فاستنجد الناصر داود بعمه الأشرف ، الذي نهض لمساعدته ، بعد ان أعلن أنه لم يقدم إلا ليرى ان الفرنج لم يفيدوا من الوضع ، كيما يضموا اليهم فلسطين . وردّد الكامل علناً هذه الدعوى ، التي تبدو برّاقة مقبولة ، بينما كان فردريك في طريقه الى الشرق . فالتقى الاخوان ، الكامل والاشرف عند تل العجول ، قرب غزة ، واتفقا على ان يقتسما بينهما بلاد ابن اخيهما ، الذي ظلّ يحتج على ان تصرفهما يخالف مصلحة الاسلام . كان الناصر داود يعسكر بجيشه في بيسان،حيث دبّر الاشرف خطة لأسره. غير ان الشاب سمع بالمؤامرة ، فلاذ بالفرار الى دمشق ، فاقتفت أثره جيوش عميه ، وألقت الحصار على دمشق حوالي نهاية سنة ١٢٢٨ [١] .

هذه الأحوال جعلت الكامل يأسف لقدوم فردريك . إذ كان شديد التطلع لأن يحوز فلسطين بصفة دائمة ، إذ لم يُبد الخوارزمية ما يدل على نهوضهم لمساعدة الناصر داود . على ان ظهور الجيش الصليبي في عكا ليس معناه انه سوف يركز كل قواته على حصار دمشق . فلم يكن فردريك

---

(١) انظر :
Ibn Khallikan, II, p. 429.
Makrizi, IX, pp. 516 - 518.
Abu Shama, II, pp. 187 - 191.
Ibn al - Athir, II, pp. 173 - 174.
Histoire des Patriarches, p. 519.

دائماً موطناً للثقة ، إذ يصح ان يقرر التدخل لصالح الناصر داود . ولما أرسل فردريك الى الكامل توماس أكيرا ، وباليان سيد صيدا ليخطراه بوصوله ، طلب الكامل الى فخر الدين ان يزور مرة اخرى الامبراطور فردريك ، وأن يبدأ المفاوضات معه ، وأن يبذل كل جهده في ان يطوّل أمد المفاوضات ، الى ان تسقط في يده دمشق ، او يعود فردريك الى بلاده . وانقضت عدة شهور في مساومات ، في جو ساد فيه ما كان بينهما من خداع متبادل تارة ، ومن إعجاب متبادل تارة اخرى . فلم يكن كل من الامبراطور والسلطان شديد التعلّق بديانته ، إذ ان كلاً منهما كان شديد الاهتمام بأساوب الآخر في الحياة ، ولم يكن كل منهما مستعداً للسير الى القتال اذا تيسر تجنبه . غير انه كان لزاماً على كل منهما ، من اجل المحافظة على مكانته وهيبته عند قومه ، ان يبذل قصارى جهده في التشدد في المساومة . على ان فردريك تعرض للضغط فترة من الزمن ، ولم يكن جيشه من الكثافة ما يكفي للقيام بحملة كبيرة ، كما ان الكامل كان يرتاع لكل عرض للقوة ، بينما لم تسقط دمشق بعد ، فكان مستعداً لأن يبذل للمسيحيين من الامتيازات مـــا تكفل له المساعدة في المضي في سياسته الكبرى التي ترمي الى اعادة توحيد الامبراطورية الايوبية والسيطرة عليها . غير انه ينبغي ألا تتجاوز هذه الامتيازات الحدود . فلما طلب فردريك استعادة كل فلسطين ، اخبره فخر الدين بناء على تعليمات الكامل ، أنـه ليس بوسع سيده ان يسيء الى راي المسلمين الى هذا الحد الكبير .

حاول الامبراطور في نهاية نوفمبر سنة ١٢٢٨ ان يتعجل الأمور بالالتجاء الى مظاهرة عسكرية ، فـــأمر بحشد كل العساكر الذين سوف يتبعونه ، وساروا ازاء الساحل الى يافا ، التي تقدم لعمارة استحكاماتها . أما الناصر

الذي لم يضايقه الحصار بعد في دمشق ، فإنه قاد جيشاً الى نابلس ، ليقطع خطوط تموين عمه . غير ان الكامل رفض ان يتعرّض للغش والخداع . فقطع المفاوضات ، وأشار الى ان رجال فردريك نهبوا القرى الاسلامية ، ولم يستأنف المفاوضات من جديد إلا بعد ان دفع فردريك تعويضاً عن الخسائر (١) .

استعادة بيت المقدس ، سنة ١٢٢٩ :

دلّ فردريك آخر الأمر على تفوّقه في المساومة . فلم يحل شهر فبراير حتى كان الناصر داود لا يزال بدمشق لم يمسه شيء من الضرر ، بينما اخذ جلال الدين خوارزمشاه يوجّه اهتمامه من جديد صوب الغرب . أتمّ فردريك عمارة استحكامات يافا ، ثم ارسل بناء على نصيحة فخر الدين ، توماس اكيرّا وباليان سيد صيدا ، الى الكامل مرة اخرى ، فعادا في ١١ فبراير سنة ١٢٢٩ ، بالشروط النهائية للسلطان ، التي وافق عليها فردريك ، ثم وقع بعد اسبوع ، في ١٨ فبراير سنة ١٢٢٩ معاهدة الصلح مع ممثلي الكامل فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وصلاح الدين امير اربل . وشهد على المعاهدة مقدم الفرسان التيوتون ، وأسقفا اكستر ونشستر . وبمقتضى هذه المعاهدة ، تحصل مملكة بيت المقدس على مدينة القدس ذاتها وبيت لحم ، مع شريط من الارض يخترق لد وينتهي عند يافا على البحر ، فضلاً عن الناصرة

---

(١) انظر :
Estoire d'Eracles, II, pp. 369 - 372.
Ernoul, pp. 460 - 463.
Al - Aini, pp. 186 - 188.

وغرب الجليل بما اشتمل عليه من حصن مونتفورت وتبنين ، ومـا تبقى حول صيدا من المناطق الاسلامية . على ان يظل في ايدي المسلمين من بيت المقدس ، منطقة المعبد بما تحتوي عليه من قبة الصخرة والمسجد الاقصى ، وللمسلمين الحق في التردد اليها وحرية العبادة . وأضحى بوسع فردريك ان يعيد بناء اسوار بيت المقدس ، غير ان هذا الحق ، اختص بـه وحده . وقضت المعاهدة بإطلاق سراح الأسرى عنـد كلا الجانبين ، وأن يكون اجلهـا عشر سنوات بالتقويم المسيحي ، أي عشر سنوات وخمسة شهور بالتاريخ الهجري . ولكن لم تسر هذه المعاهدة على إمارة بوهمند ، انطاكية وطرابلس [١] .

وبذا اعاد الامبراطور المقطوع من الكنيسة الاماكن المقدسة الى العالم المسيحي دون ان يوجه ضربة واحدة . على ان ما من معاهدة لقيت ما لقيته هذه المعاهدة مباشرة من الرفض من المسلمين والمسيحيين ، إذ جزع العالم الاسلامي ، ففي دمشق ، لقي الناصر داود متعة ، في ان يعلن الحداد

---

(١) انظر : Historia Diplomatica Friderici Secundi, III, pp. 90 - 91, 93 - 95, 102.

(انظر رسالة هرمان سالتزا الى البـابا ، وبيان فردريك ، ورسالة البطريرك جيرولد ، التي اوردت نصوص الصلح) .

ويورد نص حرفي لهذه المعاهدة مع تعليق البطريرك ، في :

Historia Diplomatica Friderici Secundi, III, pp. 86 - 87.
Ernoul, p. 465.
Estoire d'Eracles, II, p. 374.
Al - Aini, pp. 188 - 190.
Makrizi, IX, p. 525.

العام لما تعرّض له الاسلام من خيانة . بل إن أئمة الكامل ، جهروا بأنه أساء الى الاسلام ، وما قام به الكامل من رد قاصر بأنه لم يتنازل إلا عن دور وكنائس خربة ، بينما استخلص للاسلام مشاهدة كاملة ، لم يكن إلا سلوى تافهة . كما ان قوله بأنه لا زالت للمسلمين السيادة العسكرية في الإقليم ، لم يكن فيما يبدو عذراً كافياً[1] . اما المسيحيون فانهم من ناحيتهم ادركوا الوضع العسكري ، فغلاة المسيحيين اعربوا عن حزنهم بأن بيت المقدس لم تسترد بقوة السلاح ، وامتعضوا لاحتفاظ المسلمين بمشاهدهم ، وتذكروا جميعاً ما جرى من مفاوضات في الحملة الصليبية الخامسة ، حين تقرر رفض عرض الكامل بالتنازل عن كل فلسطين ، لأن الخبراء العسكريين اشاروا الى ان بيت المقدس لم تكن لتبقى في ايدي المسيحيين ما لم يُضَف اليها اقليم ما وراء نهر الاردن . فكيف تستطيع بيت المقدس عندئذ ان تبقى ، ولم يربطها بالساحل سوى شريط ضيق من الارض ؟ فلم يحدث من الابتهاج والسرور ما كان الامبراطور فردريك يتوقعه . فما من احد اقترح رفع قرار الحرمان من الكنيسة عن الرجل الذي ادى للعالم المسيحي هذه الخدمة الكبيرة . فأعلن البطريرك جيرولد امتعاضه واستياءه ، وفرض على المدينة المقدسة الحظر والحرمان ، اذا استقبلت الامبراطور . وإذ غضب الفرسان الداوية لبقاء المعبد في ايدي المسلمين ، بادروا بالاحتجاج . وصرحوا بأنهم مع الاسبتارية لن يتعاونوا مع عدو البابا . أما النبلاء المحليون الذين سبق أن اعلنوا نفورهم لتحلل فردريك من قرار القطع والحرمان ، فانهم

---

(١) انظر : Al - Aini, pp. 190 - 191.
Abu'l Feda, p. 104.
Makrizi, X, pp. 248 - 249.

جزعوا لأن الحد الجديد ليس صالحاً من الناحية العملية . وزاد في كراهيتهم للأمبراطور ، ما اعلنه فردريك بأنه سوف يمضي الى بيت المقدس ، ليتوّج بها ملكاً . فالواقع انه ليس ملكاً عليهم ، إذ أنه لم يكن إلا وصياً على الملك ووالده [1] .

فردريك في بيت المقدس سنة ١٢٢٩ :

جرى الاحتفـــال في ١٧ مارس سنة بدخول فردريك الى بيت المقدس ، ولم يرافقه إلا عساكره من الالمان والايطاليين ، وعدد بالغ القلة من البارونات المحليين . ولم يمثل الطوائف الدينيـة العسكرية إلا الفرسان التيوتون ، ولم يصحبه من رجـال الدين سوى أساقفة صقلية ، وصديقيه الانجليزيين ، بطرس اسقف ونشستر ، ووليم اسقف اكستر . واستقبل الامبراطور عند الباب قاضي نابلس ، شمس الدين ، الذي سلمه باسم السلطان مفاتيح المدينة . ثم اجتاز الموكب الصغير الشوارع الخالية من الناس ، حتى بلغ دار الاسبتارية القديمة ، حيث اتخذها فردريك مقراً له . فلم يظهر ما يدل على الحماس ، إذ هجر المسلمون المدينـة ، ولم يترددوا إلا لمزاراتهم ، بينما نأى المسيحيون الوّطنيون بعيداً ، وبرروا خوفهم بـأن عودة اللاتين الى المدينة لن تعود عليهم بالخير . وارتبك رفـاق فردريك لقطعه من الكنيسة . وحدث في البلاط شيء من الحيرة والتردد ، حينما صار معروفاً

---

(١) انظر : Historia Diplomatica Friderici Secundi, III, pp. 101, 138 - 139.

(وردت به رسالتا هرمان سالترا والبطريرك جيرولد) .

Matthew of Paris, III, p. 177.

ان رئيس اساقفة قيسارية في طريقه الى بيت المقدس ، يحمل أوامر البطريرك بوضع المدينة تحت الحظر والحرمان . وفي صبيحة اليوم التالي ، الاحد ، ١٨ مارس سنة ١٢٢٩ توجه فردريك ليشهد القداس في كنيسة القيامة . فلم يكن بها احد من القسس ، ولم يلق بها إلا عساكره والفرسان التيوتون ، فتقدم فردريك رابط الجأش قوي الجنان ، فجعل التاج الملكي على مذبح الجلجلة ، ثم تناوله بيديه ، ووضعه على رأسه . وعندئذ القى مقدم الفرسان التيوتون ، بالألمانية اولاً ثم بالفرنسية ، خطبة أشاد فيها بالامبراطور الملك ، ووصف اعماله الباهرة ، وبرر سياسته . ثم تحرك مع رجال البلاط راجعين الى دار الاسبتارية . وعقد فردريك مجلساً لمناقشة امر الدفاع عن بيت المقدس . اما مقدم الاسبتارية ومقدم الداوية ، اللذان حملتهما حصافتهما على ان يتبعا الامبراطور عن كثب الى بيت المقدس ، فانهما رضيا بأن يشهدا المجلس مع الأسقفين الانجليزيين وهرمان سالترا . فأصدر فردريك أمراً بالمبادرة الى إصلاح برج داود وباب اصطفان ، وسلّم المقر الملكي الملاصق لبرج داود الى الفرسان التيوتون . إذ لم يتعاون معه إلا الفرسان التيوتون [1] .

أراح فردريك نفسه بأن طرح جانباً ما كان يقوم به من عمل ،

---

(١) انظر : Historia Diplomatica Friderici Secundi, loc. cit.

لم يشجع هرمان سالترا الامبراطور فردريك ، على ان يؤدي الصلاة في كنيسة القيامة . ألقى فردريك خطبته باللغة الايطالية .

Estoire d'Eracles, II, pp. 375, 385.
Ernoul, p. 465.

والتفت الى زيارة المشاهد الاسلامية . وطلب السلطان الكامل في شيء من اللباقة ألا يدعو مؤذن المسجد الاقصى للصلاة ، طالما كان الملك المسيحي في المدينة . غير ان فردريك أعلن احتجاجه ، إذ ينبغي ألا يغيّر المسلمون بسببه عاداتهم وتقاليدهم ، ثم قال انه لم يقدم الى بيت المقدس إلا ليستمع الى المؤذن ينادي للصلاة في جوف الليل . ولما دخل ساحة الحرم الشريف ، شاهد رجلاً من رجال الدين المسيحي يقتفي أثره ، فبادر بنفسه الى ان يطرده في خشونة وقسوة ، وأصدر الاوامر ان كل قسيس مسيحي يجتاز عتبة الحرم الشريف بدون إذن من المسلمين ، كان جزاؤه الموت . وبينما كان يطوف بقبة الصخرة ، شاهد ما نقشه صلاح الدين في الفسيفساء من كتابة حول القبة ، تسجل تطهير البنـاء من الملحدين . فسأل الامبراطور مبتسماً : « مَن يكون هؤلاء الملحدون ؟ » . وإذ لحظ أسياخاً بأعلى النوافذ ، أخطروه بأنها لم تثبّت إلا لتردّ العصافير . فقال : « والآن قد بعث الله لكم الخنازير » ، فاستخدم بذلك اللفظ الدارج الذي يطلقه المسلمون على المسيحيين . والملحوظ انه كان بحاشيته جماعة من المسلمين ، منهم معلمه في الفلسفة ، وهو عربي من صقلية .

ومع ان المسلمين أبدوا اهتماماً بالامبراطور ، غير انه لم يكن عميق الأثر عندهم . إذ ان مظهره خيّب ظنهم ورجاءهم ، إذ قالوا انه بوجهه الاحمر الناعم ، وعينيه قصيرتي النظر (الحولاوين) لا يساوي مائتي درهم في سوق الرقيق . أقلقهم مـــا ردده من ملاحظات عن دينه وعقيدته ، إذ انهم دأبوا على احترام المسيحي الصادق ، بينما أثار مخاوفهم الفرنجي الذي أحط من قدر المسيحية ، روجّه تحيّات ساذجة الى الاسلام . ولعلهم سمعوا ما ذاع عنه في العـــالم من إشارته الى ان موسى والمسيح ومحمد ليسوا إلا

أدعياء. وكيفما كان الامر، بدا فردريك على انه رجل مجرّد من الدين. على ان فخر الدين العالم المستنير، الذي طالما تناقش فردريك معه في الفلسفة في قصره بعكا، وقع فريسة لسحر فردريك وجاذبيته. وإذ كان تفكير الكامل وثيق الصلة بتفكير الامبراطور، صار ينظر اليه باعجاب شديد، ولا سيما حينما أنهى اليه فخر الدين بثقته بأنه لو لم تتعرّض كرامة الامبراطور للخطر لما أصرّ على تنازل الكامل عن بيت المقدس. غير ان الورعين من المسلمين والمسيحيين سواء، نظروا شذراً الى كل الحادث. فالزراية السافرة بالطبيعة البشرية لا تظفر مطلقاً بقلوب الناس [1].

وصل الى بيت المقدس، يوم الاثنين ١٩ مارس سنة ١٢٢٩، بطرس رئيس اساقفة قيسارية ليفرض عليها الحظر. وإذ استبدّ بفردريك الغضب لهذه الإهانة، بادر على الفور الى التخلي عن المضي في أعمال الدفاع عن المدينة، وعجّل بالمسير الى يافا بعد ان جمع كل رجاله. ومكث بيافا يوماً واحداً، ثم سار الى ساحل عكا، حيث وصل في ٢٣ مارس، فألفى عكا تطفح بالحقد والكراهية. فلم يغفر البارونات للامبراطور زرايته بالدستور، فعلى الرغم من انه ليس إلا مجرد وصي، فانه عقـــد معاهدة دون رضاهم وموافقتهم، كما انه قـام بتتويج نفسه. ووقعت مصادمات بين العساكر المحليين وبين حامية الامبراطور. وكره الجنويون والبنادقة ما أغدقه الامبراطور من امتيازات على البيازنة، الذين كانت مدينتهم الأصلية بيزا

---

(١) انظر: Al - Aini, pp. 192 - 193.
Makrizi, IX, pp. 525 - 526.

من المدن القليلة في ايطاليا التي حالفت فردريك . كما ان عودة الامبراطور زادت المرارة في الجو [1] .

وفي صبيحة اليوم التالي ، دعا فردريك جميع ممثلي كل مملكته للإلتقاء به ، فعرض عليهم تقريراً عن أعماله . ولم تلق كلماته سوى الرفض والغضب من قبل الحاضرين . وعندئذ لجأ الى استخدام القوة ، فأقام نطاقاً من رجال الشرطة حول قصر البطريرك ، وحول مقر الداوية . وجعل الحراس على منافذ المدينة حتى لا يخرج منها او يدخلها إلا من كان يحمل تصريحاً بذلك . وشاع أنه نوى ان يصادر حصن عثليت الكبير الذي يملكه الداوية ، غير انه علم انه مشحون بحامية بالغة القوة. وفكر الامبراطور في اختطاف يوحنا ابلين ومقدم الداوية ، وارسالهما الى ابوليا ، غير ان كلاً منهما اتخذ حراساً للمحافظة على نفسه ، فلم يحاول الأمبراطور الاقدام على هذه المخاطرة . على انه في تلك الاثناء تلقى من ايطاليا انباء خطيرة ، بأن صهره يوحنا برين قاد جيشاً بابوياً ، وأغار على ممتلكاته بايطاليا . فلم يعد بوسعه ان يؤجل رحيله من الشرق لما هو اطول من ذلك الوقت . ولم يكن في استطاعته ان يسحق اعداءه ما لم يكن لديه من القوات ما يزيد على قواته في سوريا . ولذا قبل الوفاق ، فأعلن بانه ازمع الرحيل ، وعين باليان سيد صيدا وجارنييه الألماني نائبين عنه في حكم المملكة . والمعروف ان باليان اشتهر

---

(١) انظر : Historia Diplomatica Friderici Secundi, III, p. 101.
Estoire d'Eracles, II, p. 374.

بآرائه المعتدلة ، وان امه من اسرة ابلين . اما جارنييه فكان نائباً عن الملك يوحنا برين ، على الرغم من انـــه الماني الأصل . وابقى اودو مونتبليارد كندسطبلا للمملكة ومتوليا امر الجيش .

نهاية حملة فردريك سنة ١٢٢٩ :

الواقع ان هذه التعيينات دلت على مـا لحق الامبراطور من هزيمة . إذ ادرك انه خسر ، وكيا يتجنب المناظر المهينة ، تجهز للابحار عنـد شروق الشمس في اول مـــايو سنة ١٢٢٩ ، حينما لم يخرج الناس الى الشوارع . غير ان السر لم يلبث ان انكشف . فبينما كان فردريك وحاشيته يجتازون شارع الجزارين الى المينـاء ، تزاحم الناس على ابواب دورهم واخذوا يقذفونهم بامعاء الحيوانات والروث . واذ سمع يوحنـــا ابلين واودو مونتبليارد بالجلبة والفتنة ، ركبا ليعيدا الأمن الى نصابه ، غير انهما حينما وجها الى الامبراطور تحية وداع مهذبة وهو في غليونه ، همس باللعنات حين رد عليهما[١] .

أبحر فردريك من عكا الى ليماسول ، وأقـام بقبرص نحو عشرة ايام ، حيث وافق على ان يكون نوابه بها ، المريك بارليس ، وأصدقاءه الاربعة جـافين شنيشي ، وأملريك سيد بيسان ، وهيو سيد جبيل ، ووليم سيد ريفيه ، فعهـد اليهم بشخص الملك . وفي الوقت نفسه رتب زواج الملك

---

(١) انظر :
Estoire d'Eracles, II, p. 375.
Ernoul, p. 466.
Gestes des Chiprois, p. 50.

الصغير من أليس مونتفيرات ، التي يعتبر ابوهـا من أقوى مسانديه في ايطاليا . وفي ١٠ يونيه سنة ١٢٢٩ هبط فردريك الى برنديزي [١] .

يعتبر الامبراطور فردريك الثاني من دون كبار المحاربين الصليبيين اكثرهم خيبة امل . كان رجلاً بالغ النباهة ، عرف عقلية المسلمين ، فاستطاع ان يقدر ما تتسم به دبلوماسيتهم من التعقيدات ، وأدرك انه لا بد من قيام شيء من التفاهم بين المسلمين والمسيحيين ، اذا قدر للشرق الفرنجي ان يبقى . غير انه فشل في فهم طبيعة الشرق الفرنجي . فما كان لأسلافه النرمان من تجربة ومنجزات ، فضلاً عن مزاجه الخـاص ومفهومه للأمبراطورية ، كل ذلك حمله على أن يسعى لإقامة حكومة مركزية استبدادية . فألفى ذلك عملاً عسير التحقيق خارج املاكه في ايطاليا . فقد يؤديه في قبرص ، لو انه احسن اختيار الأداة التي تحققه . ولكن كان لا بد ان تفشل التجربة في مملكة بيت المقدس المتضائلة ، إذ لم تزد المملكة على انها مجموعة من المدن والقلاع ، انتظمت سوياً في وضع محفوف بالخطر ، دون ان يكون لها حد يسهل الدفاع عنه . فلم يكن من اليسير اقامة حكومة مركزية بها . فالسلطات المحلية برغم مـا ساد بينها من منازعات وأحقاد متبادلة مضنية ، كان لا بد ان تضطلع بالحكومة ، وتخضع لزعيم لبق محترم . وليست هذه السلطات المحلية سوى البارونات العلمانيين والطوائف الدينية العسكرية . واستبعد فردريك البارونات بما داسه تحت اقدامه من الحقوق والتقاليد التي اعتزوا بها . أما الطوائف

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 50 - 51.

الدينية العسكرية فكانت اكثر أهمية ، نظراً لأنها وحدها هي التي كان بوسعها ان تبذل المحاربين للقتال في الشرق والإقامة بـه ، بعد ان آثر الفرسان العلمانيون ان يلتمسوا ارزاقهم في بلاد اليونان الفرنجية . ومع ان مقدمي هذه الطوائف الدينية العسكرية كانوا يحضرون مجلس الملك ، ويطيعونه في ساحة القتال على انه القائد الاعلى ، فانهم لم يدينوا بالولاء إلا للبابا . فلا ينتظر منهم ان يساعدوا ملكاً قطعه البـابا من الكنيسة ، ووصمه بأنـه عدو للعالم المسيحي . أمـا الفرسان التيوتون ، الذين يعتبرون اقل الفئات الدينية العسكرية الثلاثة اهمية ، فانهم وحدهم هم الذين استعدوا لتحدي قرار الحرمان الذي اصدره البابا ، نظراً لـما يربط مقدمهم بالأمبراطور من أواصر الصداقة . وما يدعو للأهمية ، ان فردريك استطاع ان يحرز من النصر الدبلوماسي ما يثير من الدهشة والارتياع ما أثارته استعادة بيت المقدس ذاتها ، برغم ضآلة رصيده ، وما تعرّض له من كراهية (١) .

تحرُّج وضع بيت المقدس سنة ١٢٢٩ :

الواقع ان استعادة بيت المقدس لم تكن بالغة الأهمية للملكة . فنظراً لرحيل فردريك العاجل ، ظلت مدينة مفتوحة . إذ كان من المستحيل حراسة الطريق المؤدي اليهـا من الساحل ، ودأب قطّاع الطرق المسلمون على السطو على الحجاج وسلبهم ، وقتلهم . ولم تمض إلا بضعة أسابيـع على

---

(١) عن الآراء المتعارضة فيا أنجزه فردريك بفلسطين من اعمال ، انظر :
Kantarowicz, op. cit. pp. 198 ff.
Grousset : Histoire des Croisades, III, pp. 322 - 323.

رحيل فردريك من البلاد ، حتى دبر أئمة المسلمين الزهاد في حبرون ونابلس شن غارة على بيت المقدس . فهرب المسيحيون على اختلاف نحلهم الى برج داود للاحتماء به ، بينما أرسل رينالد سيد حيفا الى عكا يلتمس النجدة . ولم يجبر المغيرين على الارتداد سوى قدوم نائبي الامبراطور ، باليان سيد صيدا وجارنييه على رأس جيش . وأنكر الامراء المسلمون ان لهم صلة بهذه الغارة . ولم تتم تعزيز الحامية بالمدينة ، وجرى تشييد بعض الاستحكامات الصغيرة ، ولكن لم يستتب الامن كثيراً . رفع البطريرك ما فرضه من حظر على المدينة ، وقدم ليقيم بها شطراً من السنة . غير ان الموقف كان محفوفاً بالخطر ، إذ أضحى بوسع السلطان ان يستولي على المدينة من جديد متى شاء . وفي الجليل حيث تمت عمـــارة قلعتي مونتفورت وتبنين ، لم يكن مركز المسيحيين بالغ القوة . ولم يكن في صفد وبانياس ضمان للاستقرار ، نظراً لوفرة المسلمين بهما[1] .

على ان فردريك لم يخلف في قبرص ومملكة بيت المقدس من تراث أساسي سوى الحرب الأهلية المريرة . ففي قبرص اندلعت الحرب على الفور ، اذ تلقى نواب الامبراطور الخمسة بها من التعليمات ما يقضي بنفي كل اصدقاء اسرة ابلين من الجزيرة . واتفق هؤلاء النواب على ان يؤدوا لفردريك عشرة آلاف مرك (قطعة فضية) ، فلن تسلم اليهم القلاع التي ما زالت مشحونة بعساكر الامبراطور إلا بعـــد دفع النجم الاول . واستطاعوا ان يجبوا المال المطلوب ، بما فرضوه من ضرائب باهظة ، وبما

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 303 - 305.

صادروه من أملاك الحزب الذي يساند الابليين . وتصادف ان المؤرخ الشاعر فيليب نوفارا ، الذي يعتبر من أشدّ النـــاس تعلقاً بيوحنا سيد بيروت ، كان بالجزيرة ، وبذل له النواب الأمان كيا يقدم الى نيقوسيا للمناقشة في عقـد هدنة بين نواب الامبراطور وحزب اسرة ابلين . غير انه لما وصل فيليب نوفارا الى نيقوسيا ، عدل النواب عن رأيهم ، وألقوا القبض عليه . ولم يفرجوا عنه بكفالة إلا بعد ان وقع منظر يثير الغضب امام الملك الصبي ، الذي لم يستطع ان يتدخل برغم معرفته بفيليب . وأصاب فيليب في فراره الى بيت الاسبتارية ، لأن جماعـــة من الرجال المسلحين اقتحمت داره تلك الليلة . فأرسل فيليب ملتمساً ، في لغة ركيكة ، الى يوحنا ابلين في عكا ، يطلب اليه القدوم لنجدته ، وإنقاذ أملاك كل اصدقائه . فبادر يوحنا الى إعداد حملة على نفقته الخاصة ، وحرص على ان ينزل جنـــده في جاسابريا الواقعة شمال فاماجستا . ثم تحرّك في حذر الى نيقوسيا ، حيث التقى بجيش نواب الامبراطور . وعلى الرغم من تفوّق جيشهم في العدد ، فانه لم يكن شديد الحماس . ثم أنشب الابليون المعركة في ١٤ يوليه سنة ١٢٢٩ ، بعد بضعة لقاءات أجروها مع نواب الامبراطور . وحسم المعركة ما قام به من هجوم فرسان يوحنا ابلين بقيادة ابنه باليان ، عزّزه هجوم آخر من قبل الاسبتارية ، قام على تنظيمه فيليب نوفارا . فهرب نواب الامبراطور بعساكرهم الى القلاع الثلاثة : إله الحب (سانت هيلاريون) ، والقنطرة ، وكيرينيا . فاقتفى أثرهم يوحنا ابلين وألقى الحصار على القلاع الثلاثة ، فلم تلبث كرينيا ان سقطت ، أما قلعة سانت هيلاريون ، التي نقل اليها بارليس ، الملك الصغير وأخواته ، وقلعة القنطرة ، فامتنعتا على يوحنا ابلين ، ولم تستسلما إلا في صيف سنة ١٢٣٠ ، بعد ان كادتا تهلكان جوعاً . وبذل يوحنا ابلين شروطاً سخية للصلح . والمعروف ان من نواب الامبراطور

الخمسة في قبرص ، لقي مصرعه جافن شنيشي في القنطرة ، بينما فرّ وليم ريفيه ، وهو أخ غير شقيق له ، من كريليا الى قليقية ليلتمس المساعدة فمات بها . أما النواب الثلاثة الآخرون فلم يتعرضوا للعقاب ، فأثار ذلك قلق كثير من أصدقاء يوحنا ابلين . بل ان يوحنا ابلين لم يسمح لفيليب نوفارا ان ينظم قصيدة تنطوي على ذمهم . وتقرر إنفـــاذ رسول باسم الملك الى امراء اوربا وملوكها ، لتبرير ما جرى اتخـــاذه من خطوات لمناهضة الامبراطور . وتولى يوحنا نفسه مقاليد الحكم ، حتى بلغ الملك هنري سن الرشد سنة ١٢٣٢ (١) .

الملكة أليس تطالب بعرش مملكة بيت المقدس ١٢٢٩ :

وفي تلك الاثناء ، اطمأن باليـــان سيد صيدا وجارنييه الالماني ، في تسيير حكومة مملكة بيت المقدس . على انه حدث في خريف سنة ١٢٢٩ ان قدمت الى عكا أليس ملكة قبرص لتطالب بتاج بيت المقـــدس . اذ ان وصايتها على قبرص التي ما زالت تتولاها من الناحية الاسمية ، لم تجلب لها سوى العناء والتعب . والمعروف ان أليس طلقت بوهمند الصغير امير انطاكية ، بدعوى ان ما بينهما من القرابـــة الوثيقة يحول دون زواجهما ، اذ كانا من الدرجة الثالثـــة من ابناء العم . وعندئذ اعلنت

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 50 - 76.
ورد فيه تقرير فيليب نوفارا عن الاحداث التي شهدها .
Estoire d'Eracles, II, pp. 375 - 377.
Hill, op. cit. pp. 100 - 107.

أليس ان كنراد بن فردريك ، الذي يعتبر من الناحيــة القانونية ملك بيت المقدس ، أضاع حقــه ، لأنه لم يقدم الى مملكته . ولذا ينبغي للمحكة العليا ان تسلم التاج الى الوريث الشرعي الذي يليه ، والذي لم يكن سوى أليس نفسها . غير ان المحكة العليا رفضت دعواها . إذ ان كنراد لا زال قاصراً ، ولا يعتبر قدومه الى مملكته امراً جوهرياً . على انه تم الاتفاق على انفــاذ سفارة الى ايطاليا ، تطلب ضرورة قدوم كنراد الى الشرق في فترة سنة ، كيا يتلقى بشخصه الولاء . فأجاب فردريك بأنــه سوف يفعل ما يعتقد انه خير الأمور [١] .

عقد فردريك الصلح مع البــابا ، بمعاهدة سان جرمانو ، في ٢٣ يوليه سنة ١٢٣٠ . اذ انه في الجمــلة خرج منتصراً من الحروب في ايطاليا ، وأضحى مستعداً لأن يقرّ ما للبــابا من حقوق في السيطرة على كنيسة صقلية كيا يتحلل من قرار الحرمان من الكنيسة . والواقع ان وفاقه مع البابوية زاد من قوته في الشرق ، إذ جرى إخطار البطريرك جيرولد برفع الحظر عن بيت المقدس ، كما انه تعرّض للوم لأنه فرض الحظر دون الرجوع الى روما . ولم تعد الطوائف الدينية العسكرية تحسّ باضطرارها الى اتخاذها موقف العزلة والابتعاد ، ولم يعد البارونات يعولون على مساندة الكنيسة [٢] . وترقب الامبراطور سنوح الفرصة . وإذ أخطر الامبراطور فردريك البابا بأنه لا بد ان يرسل جيشاً للدفاع عن بيت المقدس ، حشد في خريف

---

(١) انظر : Esoiret d'Eracles, II, p. 380.

La Monte, Feudal Monarchy, p. 64, n. 1.

(٢) انظر : Hefel - Leclerc, op. cit. pp. 1489 - 1390.

سنة ١٢٣١ حوالي ستمائة فارس ، ومائة من السرجندارية ، وسبعمائة من الرجالة المسلحين ، وثلاثة آلاف ملّاح ، وبعث بهم تحت قيادة مارشاله ، رتشرد فيلانجييري من نابولي ، في ثلاثين سفينة . وتقرر منح فيلانجييري لقب المندوب الامبراطوري [1] .

كان يوحنا ابلين في عكا حينما أنذره باقتراب قدوم اسطول ضخم ، عميل له ، قدم من ايطاليا على سفينة تابعة للفرسان التيوتون . فظن يوحنا ابلين انه قد تكون قبرص الهدف الاول للاسطول ، فبادر بجمع كل رجاله من بيروت ، فلم يترك بالقلعة إلا حامية صغيرة ، ثم أبحر بهم الى قبرص . فلما وصل اسطول الامبراطور قبالة ساحل قبرص ، علم فيلانجييري ان يوحنا ابلين والملك هنري ينزلان في كيتي ، وان باليان سيد صيدا يعتصم في ليماسول . فأنفذ فيلانجييري مبعوثاً الى الملك برسالة من الامبراطور فردريك ، يخطره فيها بالمبادرة الى نفي جميع انصار يوحنا ابلين ، ومصادرة أراضيهم . فردّ الملك هنري بأن يوحنا ابلين ليس إلا خاله ، وانه لن يقدم بحال من الاحوال على تجريد أتباعه من أراضيهم . اما بارليس الذي كان حاضراً ، وتحدث في صالح الامبراطور فردريك ، فانه كاد يتعرض لاعتداء العوام لولا ان نهض يوحنا ابلين لإنقاذه .

---

(١) كتب البابا يوحنا الى فردريك يخطره انه يلبغي على فيلانجييري ألا يطلق على نفسه لقب المندوب الامبراطوري ، اذ انه ليس إلا مندوب الامبراطور في بيت المقدس . ولم يقم بتزكية فيلانجييري عند اساقفة سوريا إلا على اساس هذه الشروط (انظر رسالة البابا جريجوري التاسع المؤرخة في ١٢ اغسطس سنة ١٢٣١ ، والواردة في :
M. G. H. Epistolae Saeculares, XIII, 1, p. 363).

إقامة قومون في عكا سنة ١٢٣١ :

أبحر فيلانجييري مباشرة الى بيروت عقب عودة مبعوثه . ولما لم ترابط بالمدينة (بيروت) حامية قوية ، لم يلبث اسقفها الجبـــان ان سلمها له ، فشرع في إلقاء الحصار على قلعتها . على ان فيلانجييري غادر بيروت بعد ان اشتد التضييق عليها ، واحتلّ صيدا وصور ، ثم ظهر في عكا ، فدعا الى عقـــد المحكمة العليا بها ، وعرض عليها رسائل الامبراطور فردريك بتعيينه نائباً عنه . فأقرّ البارونات تنصيبه نائباً عن فردريك ، وعنـدئذ اعلن فيلانجييري مصادرة أراضي الابلين . على ان البارونات احتجوا جميعاً على هذا القرار ، اذ لا يجوز مصادرة الضياع إلا اذا قررت المحكمة العليا ذلك ، بعـد ان تتهيأ الفرصة للمالك للدفاع عن قضيته . غير ان فيلانجييري أجاب في غطرسة ، انه نائب الامبراطور ، وانه ينفذ تعليمات الامبراطور . فبلغ انتهـاك الدستور من الفظاعة انه كان صدمة للمعتدلين امثال باليـــان سيد صيدا ، وأودو مونبليارد ، اللذين ظلا حتى وقتذاك مستعدين لمساندة الامبراطور ، فتحول كل البارونات الى جانب يوحنا ابلين ، كما ان تجار عكا الذين أولوا يوحنا محبتهم ، ونفروا من وسائل فيلانجييري القهرية ، أضافوا مؤازرتهم له . ومعظم هؤلاء التجار وفئة قليلة من النبلاء كانوا ينتمون الى طائفة دينية اتخذت القديس اندرياس راعياً لهـا . وإذ استخدموا ذلك أساساً ، أقاموا قوموناً لعكا ، يمثل كل البورجوازية المحلية ، يخضع لسلطة اثني عشر قنصلاً ، دعوا يوحنا ابلين ليكون اول عميد لهم . غير ان فيلانجييري كان رجلاً بالـغ العنف ، اذ كان تحت تصرفه جيش قوي يتألف معظمه من اللومبارديين الذين جلبهم معـه . كما ان الفرسان التيوتون وجاليـة البيازنة يعتبرون أصدقاءه المخلصين ، بينما التزم الاعتزال

البطريرك والاسبتارية والداوية . وما من احد منهم كان يحفل بالامبراطور فردريك ، غير انه منـذ ان تمّ الوفاق بينه وبين البابا ، لم يتحققوا أين يكون واجبهم .

ولمـا بلغت قبرص انباء الهجوم على بيروت ، التمس يوحنا ابلين من الملك هـنري ان ينهض بقوات الجزيرة لنجدتها . ووافق الملك الشاب ، وأمر كل جيش المملكة بالإقلاع الى بيروت . وفي تلك الاثناء سمع يوحنا ابلين بانتخابه عميداً لقومون عكا . وبرغم المخاطرة بترك قبرص مجرّدة من الحراسة والدفاع ، فإن يوحنا ابلين اعتقد انـــه لا بدّ اولاً من تخليص الساحل الفرنجي ، ومن قبيل الحيطة والحذر اجبر بارليس وأصدقاءه على ان يصحبوا الحملة . وكان يوحنا ابلين يأمل في مغادرة قبرص يوم عيد الميلاد سنة ١٢٣١ . غير انـه نظراً للمناخ العاصف لم يستطع الجيش الإبحار من فاماجستا إلا في ٢٥ فبراير سنة ١٢٣٢ ، فأسرعت السفن بالرحيل في وسط عاصفة مطيرة عاتية ، وألقت مراسيها تجـــاه ميناء بوييه دي كونيتابل الصغير ، الواقع جنوبي طرابلس مباشرة . فهبط في هـــذا الموضع خلسة بارليس ورفاقـــه الذين يبلغون في مجموعهم ثمانين فارساً ، ثم توجهوا الى طرابلس بعد ان خلفوا وراءهم معداتهم . وأرسل فيلانجييري سفينة لتقلهم الى بيروت . وهبط في اثرهم الى الساحل يوحنا ابلين ومعظم رجاله بينما اقلع الاسطول القبرصي صوب الجنوب ، غير ان الطقس العاصف ساقه الى قبـاله البترون . فتحطمت بعض السفن ، وتعرّض بعضها الآخر للضرر ، وضاع مقدار كبير من المواد . ولما اجتاز يوحنا ابلين جبيل ، تخلى عنه بعض الرجّالة . ووصل يوحنا ابلين آخر الأمر الى بيروت ، وشق طريقه الى قلعتها . ومنها وجـه الى البارونات نداء ، للنهوض الى نجدته . فقدم

كثيرون منهم ، يتصدرهم ابن اخيه ، يوحنا سيد قيسارية . غير ان باليان سيد صيدا لا زال يأمل في التوصل الى اتفاق . فهرع الى بيروت مع قسيمه السابق في النيابة ، جارنييه ، والبطريرك ، ومقدمي الاسبتارية والداوية ولكن فيلانجييري رفض مناقشة الشروط التي تبقى الابلين في تملك اراضيهم ، والمعروف ان المفاوضين لن يتفقوا على ما هو اقل من ذلك .

ثم تحرّك يوحنا ابلين الى صور ، بعد ان عزز الحامية في بيروت ، فلقي في صور استقبالاً حافلاً ، وظفر بعدد كبير من المجندين ، ولا سيا من الجنويين . وأرسل ايضاً الى طرابلس سفارة برئاسة ابنه باليان ، لتدبير زواج ايزابيللا اخت الملك هنري الصغرى ، من هنري الابن الثاني لبوهمند . ولما لم يكن بوهمند شديد الايمان بقضية الابلين ، لم يول السفارة إلا قدراً ضئيلاً من الاحترام . ومع ذلك اشتدت ثائرة فيلانجييري ، الذي سبق ان اتخذ مقر قيادته في صور ، بعد ان عهد الى اخيه لوثير بالقيادة في بيروت . ولم يلبث ان امر لوثير برفع الحصار ، واللحاق به في صور .

معركة قرية ايمبرت سنة ١٢٣٢ :

وفي نفس الوقت عبر بارليس البحر راجعاً الى قبرص ، بعد أن جاءته الأمداد من العساكر اللومباردية ، وشرع في غزو الجزيرة . فوقعت في يده القلاع ، الواحدة بعد الاخرى ، ما عدا قلعة ديبه دامور (سانت هيلاريون) ، التي لجأ اليها اخوات الملك هنري ، وقلعة بوفافنتو التي تعتبر امنع قلاع الجزيرة ، التي هربت اليها السيدة ايشيفا مونتبليارد ابنة خالة الملك هنري ، وابنة اخ اودو مونتبليارد ، متنكرة في هيئة راهب ، بما حملته من مؤن وافرة ،

فحازت القلعة باسم الملك . والمعروف ان اول زوج لها ، وهو والتر مونتايجو قتله رجال بارليس في معركة نيقوسيا ، ثم تزوجت حديثاً باليان ابلين ، على ان زواجها ظل سراً ، نظراً لأنهما من بني العمومة الوثيقة . وسمع باليان حينما كان بطرابلس ، بغزو جزيرة قبرص ، من اثنين من قادة البحر الجنويين اللذين عرضا المساعدة ، غير ان بوهمند فرض القيود على تحرك السفن الجنوية .

وافق الجنويون ، في نهـاية ابريل سنة ١٢٣٢ على ان يبذلوا المساعدة للابليين في هجوم يشنونه على فيلانجييري ، مقابل الحصول على امتيازات في جزيرة قبرص . وتحرك الجيش صوب الشمال الى قرية ايبرت ، على مسافة نحو اثني عشر ميلاً من صور . على ان يوحنا ابلين التقى في هذا الموضع ببطريرك انطاكية ، البرت رتزاتو ، الذي تقرر حديثاً تعيينه مندوباً بابوياً في الشرق ، وقد جاء الى الجنوب للتوسط بين المتنازعين . قام منذ زمن قريب بزيارة صور ، وسمع بمـا عرضه فيلانجييري من شروط جديدة . وأصاب يوحنا ابلين في قوله انـه لا بدّ من عرض هذه الشروط على المحكمة العليا ، ثم ركب يوحنا ابلين مع البطريرك راجعين الى عكا ، وقد اتخذ حرساً لمرافقته بلغ من الضخامة انه استنفد معظم رجال الجيش . وحدث في اواخر ليلة ٢ مايو سنة ١٢٣٢ ، ان خرج فيلانجييري بكل قواته من صور ، بعد ان علم برحيل يوحنا ابلين ، ولعله دبر مع البطريرك امر هذا الخروج ، فانقضّ على معسكر ابلين الذي لم تتوافر حراسته ، والذي لم يتوقع الهجوم . فاستبسل في القتال انسلم براي الذي تولى القيادة مع سادة صغار السن من الابليين . غير ان المعسكر سقط في يد فيلانجييري . وأسرع ملك قبرص الصغير شبه عريان ، يلتمس السلامة في عكا . أمـا الآخرون الذين بقوا على قيد الحياة ، فلجأوا الى قمة احد التلال .

لم يحاول فيلانجييري ان يمضي في انتصاره ، بل تراجع الى صور بكل ما حازه من غنيمة ، بعد ان خلّف كتيبة لحراسة درب درج صور . ولم يكد يوحنا ابلين يسمع بالكارثة ، حتى عجّل بالمسير من عكا ، فأنقـذ ولديه ، غير انه حينما حاول ان يلحق بالعدو بما يحمله من غنيمة ثقيلة ، جرى إيقـافه في الدرب ، ثم عاد الى عكا . وفي تلك الأثنـاء اجتاز فيلانجييري البحر الى جزيرة قبرص بأمداد لباريليس . وعندئذ صادر يوحنا ابلين كل السفن الراسية في ميناء عكا ، بينما كان الملك هنري يبـذل الاقطاعات في قبرص للفرسان المحليين ، بل وللتجار السوريين اذا انحازوا اليه ، واتفق على ان يبذل الجنويون له المساعدة مقابل الإعفاء من الرسوم ، والحق في ان يكون لهم أحيـاء ومحاكم خاصة في نيقوسيا وفاماجستا وبافوس . وإذ اخذ المال في النفاد ، بادر يوحنا سيد قيسارية ، ويوحنا ابلين الصغير ابن فيليب ابلين ، الى بيع أمـلاك في قيسارية وعـكا للداوية والاسبتارية ، وأدّيا القرض الذي يبلغ ٣١ الف بيزنته ، الذي سبق جبايته للملك .

وإذ تجهّز يوحنا والملك هنري على هذا النحو ، أبحرا من عكا في ٣٠ مايو سنة ١٢٣٢ ، ثم رسيا في صيدا فاصطحبا باليان ابلين وهو في طريق عودته من سفارته بطرابلس ، ثم اجتازوا البحر الى فاماجستا . وكان يربو عدد عساكر فيلانجييري اللومباردية في مدينة فاماجستا على الفي فارس ، بينما لم يتجاوز رجال الابليين مائتي وثلاثة وثلاثين رجلا . ومع ذلك خاطر يوحنا ابلين بإنزال معظم عساكره ، بعد حلول الظلام ، على جزيرة صخرية صغيرة تقع جنوبي الميناء مباشرة . ولم تجر حراسة هذه الجزيرة ، فما من احد يظن ان تهبط الجيـاد الى بر هـذه الجزيرة . واستطاعت سرية

صغيرة تستقلّ الزوارق ، ان تشق طريقها الى الميناء ، وبلغ صياح رجالها من الشدة ما جعل اللومبارديين يعتقدون ان جيشاً ضخماً سوف ينقضّ عليهم ، فأشعلوا النيران في سفنهم ، وعجلوا بمغادرة المدينة (فاماجستا) . ولما اجتــاز جيش الابلين الصخور الى البر ، كانت فاماجستا مدينـــة مهجورة .

أقام يوحنا ابلين في فاماجستا زمناً بلغ من الطول مــا يكفي الملك هنري للوفاء بوعده للجنويين ، بأن وقّع معهم معاهدة ، خصّتهم بحيّ في المدينـــة . ثم واصل الجيش السير الى نيقوسيا . ولم يكن اللومبارديون مقبولين بجزيرة قبرص ، لما اشتهروا به من سلوك همجي ، فخشوا ان يثور عليهم الفلاحون . ولذا حينما انسحبوا امام الابليين ، أحرقوا كل الأهراء التي اختزن بها منــذ وقت قريب المحصول الجديد . وقرروا ألا يحتفظوا بنيقوسيا ، بل تحركوا على امتداد الطريق الذي يجتاز الجبال الى كيرينيا ، حيث اتصلوا بفيلانجييري نفسه ، الذي كان يحاصر قلعـــة ديبه دامور (سانت هيلاريون) ، وحيث تحمي مؤخرتهم كيرينيا التي كانت بحوزتهم . والمعروف ان حامية قلعــة ديبه دامور (سانت هيلاريون) كادت تهلك جوعــاً ، وكانت على وشك التسليم . فلو استطاع فيلانجييري ان يوقف أعداءه حتى تصير في قبضة يده القلعة ، وشقيقتا الملك اللتان كانتا تنزلان بها ، لأضحى وضعه من القوة ما يكفي للمساومة مع الملك .

تحرّك الابليون في بطء الى نيقوسيا ، وعانوا نقص المؤن ، غير انهم عثروا في نيقوسيا ذاتها على مستودعات ضخمة لم يلتفت اليها اللومبارديون . وبلغ الارتياب في ذلك عنــد يوحنا ابلين ، أنه لم يشأ ان يعسكر في داخل المدينة ، بل قاد جيشه على الفور ، في ١٥ يونيه سنة ١٢٣٢ ، نحو

كيرينيا ، وقد عزم على ان يعسكر عند اجريدي ، التي تقع اسفل الممر مباشرة . وسار الجيش في تعبئة الحرب ، لخوفه من ان يتعرض للهجوم في كل لحظه . كان المفروض ان يتولى باليان بن يوحنا ابلين قيادة مقدمة الجيش ، غير انه سبق صدور قرار بقطعه من الكنيسة ، لأنه تزوج من ابنة عمه ايشيفا ، وهي السيدة الجميلة التي شهدت كل الحملة من منظرتها في بوفافنتو ، ولم يود ابوه يوحنا ابلين ان يجعل له قيادة عليا . ولذا تولى قيادة الجماعة الاولى ، اخوه هيو ، مع أنسلم َبراي . أما بلدوين ثالث أبناء يوحنا ، فقاد الجماعة الثانية ، وتولى يوحنا سيد قيسارية قيادة الجماعة الثالثة ، بينما قاد يوحنا ابلين نفسه مؤخرة الجيش ، وبصحبته سائر أبنائه والملك هنري . لم يكن جيشهم كبيراً ، وبلغ من افتقارهم الى الخيول ، انه كان لزاماً على غلمان الفرسان ان يقاتلوا راجلين . وتراءوا حقراء عند اللومبارديين الذين كانوا ينظرون اليهم من قمة الممر ، حيث التقى الطريق القادم من قلعة ديبه دامور (سانت هيلاريون) ، بالطريق الرئيسي . فصدر الامر بشن هجوم على جيش الابليين ، دون إمهال .

معركة اجريدي سنة ١٢٣٢ :

وأول جماعة من الفرسان اللومبارديين هبطت الى اسفل التل كانت بقيادة والتر كونت مانيوبيللا ، وقد ارتفع صياحها ، ومضت في سيرها على امتداد جناح جيش ابلين ، غير انها لم تستطع ان تخترق خطوطه . على ان قوة الاندفاع ساقت هذه الجماعة الى السهل في اسفل التل . ومنع يوحنا ابلين رجاله من مطاردتهم ، ولم يخاطر اللومبارديون بأن يعودوا ليرتقوا المنحدر شديد الهبوط ، بل ركضوا صوب الشرق ، ولم يتوقفوا إلا حينما بلغوا

جاستريا . أما الجماعة الثانية من فرسان اللومبارديين التي قادها بيرارد شقيق والتر ، فانها بادرت بالهجوم على قوات الابلين التي خضعت لقيادة هيو ابلين وأنسلم براي . غير انه قد تعذّر على الأفراس ان ترتقي جانب التل الصخري الوعر ، فتعثرت أفراس كثيرة ، وقذفت براكبيها ، الذين كانت أسلحتهم من الثقل انها منعتهم من النهوض على أقدامهم . والمعروف ان الفرسان الابليين يقاتلون أساساً راجلين ، ولم يلبثوا ان قهروا عدوهم ، برغم تفوقه عليهم في العدد . فلقي بيرارد مصرعه على يد أنسلم براي نفسه . أما فيلانجييري الذي كان ينتظر عند قمة الممر ، فانه عزم على ان يهبط لنجدة بيرارد . غير ان باليان ابلين ظهر فجأة في حفنة من الفرسان ، الذين قدموا من مؤخرة جيش ابلين ، وقد سلكوا درباً بالجبال يقع الى غرب الطريق ، وأغاروا على معسكر فيلانجييري ، وهنا تفوّق اللومبارديون ايضاً في العدد ، وتعرّض باليان لضغط شديد من قبلهم ، ورفض ابوه ان يبعث بعساكر لنجدته ، ولم يلبث فيلانجييري ان اشتدت ثائرته ، بعد ان تبين له انه لم ترجع كتائب الجيش التي يقودها كونت مانيو بيللو ، فقاد رجاله وقد اختل نظامهم ، الى كيرينيا .

وتمّ انقاذ قلعة دييه دامور (سانت هيلاريون) وتخليصها ، بعد ان ولّى محاصروها الأدبار صوب الجنوب الغربي الى السهل ، حيث بغتهم عند حلول الظلام فيليب نوفارا ، فوقعوا في اسره . ووصل والتر مانيو بيللو الى جاستريا ، غير ان الداوية الذين كانت القلعة بحوزتهم ، رفضوا السماح له بدخولها ، فأسره يوحنا بن فيليب ابلين الذي كان مختبئاً في بحرور مرحاض . وفي تلك الاثناء مضى يوحنا سيد بيروت في سيره ، فحاصر فيلانجييري في كيرينيا.

استمر حصار كيرينيا عشرة شهور ، وافتقر الابليون اول الأمر الى

السفن ، بينما حاز فيلانجييري اسطولاً ، هيأ له الاتصال بصور . ولم يتيسر للإبليين ان يفرضوا الحصار على حصن كيرينيا من البحر ، إلا بعد اغراء الجنويين يبذل المساعدة مرة اخرى . على ان فيلانجييري ، قبل ان يكتمل الحصار ، لاذ بالفرار مع الميريك بارليس ، وأماريك سيد بيسان ، وهيو سيد جبيل ، فتوجهوا اول الأمر الى ارمينيا ، وحاولوا عبثاً الحصول على مساعدة من قبل الملك هيثوم ، ثم ساروا الى صور ، ثم الى ايطاليا آخر الأمر ، لينهوا الى الامبراطور بما حدث . أما اللومبارديون في كيرينيا بقيادة فيليب شينارت فاستماتوا في الدفاع عنها . وأصابت الجراح سادة الابليين الشباب اثناء اشتباكهم في القتال ، بينما تعرّض المحارب الصلب القوي انسلم براي الذي نعته يوحنا سيد بيروت بالأسد الاحمر لضربة من قضيب حديد ، فمات متأثراً بآلامه بعد ستة شهور . ومن اللائذين بقلعة كيرينيا كانت أليس مونتفيرات الاميرة الايطالية ، التي اختارها الامبراطور فردريك عروساً للملك هنري ، على انها تزوجت بطريق الوكالة ، وما هو موضع شك انها شهدت حتى وقتذاك زوجها ، وقد وصلت الى قبرص في حراسة قوات الامبراطور ، بعد ان انحاز الملك هنري الى الابليين . وفي اثناء الحصار خرّت مريضة ثم ماتت ، وتوقف القتال حينما جرى الاحتفال بتسليم جثمانها في كامل زي الملكة ، ونقله الى نيقوسيا ، فشيع جنازتها الى المقابر الملكية زوجها الملك هنري الذي لم يعلم قط انهـا كانت على قيد الحياة .

موجاستيل نائب الامبراطور فردريك سنة ١٢٣٣ :

استسلمت كيرينيا في ابريل سنة ١٢٣٣ . وتقرر السماح للمدافعين عنها بالالتجاء الى صور بكل امتعتهم الشخصية ، امـا الاسرى الذين كانوا في

حوزة الابلين فتم تبادلهم مع الاسرى الذين وقعوا في قبضة فلانجيبري في صور . وعادت قبرص بأكملها منذئذ الى حكم الملك هنري وبنى اخواله الابلين . وكافأ الملك اتباعه المخلصين ، فتقرر تسديد ما سبق ان بذلوه من قروض[1] . ودخلت الجزيرة في فترة هـــدوء ، لم يعكر صفوه إلا محاولات هيئة الكنيسة ، برغم معارضة البارونات العلمانيين ، قمع كل رجل دين يوناني لا يعترف بسيادتهم ، ولا يتفق مع عـاداتهم وتقاليدهم . ومن امعن من الرهبان اليونانيين في العناد والعصيان تعرض للتنكيل والحرق[2] . ومع ان السلام والهدوء عادا الى قبرص ، فمـا زال بحوزة فيلانجيبري ، مدينة صور في بر الشام ، وما زال فردريك من الناحية القانونية ملكاً على بيت المقدس بالنيابة عن ابنه الصغير . ولما علم فردريك بفشل سياسته ، من فيلانجيبري نفسه ترجيحاً ، بعث الى عكا برسائل مع اسقف صيدا ،

---

(١) اورد فيليب نوفارا رواية طويلة عن الحروب اللومباردية ، من وجهة نظر الابلين ، وظهر فيها تحيزه . انظر :

Gestes des Chiprois, pp. 77 - 117.

وأسهب تاريخ هرقل في رواية الاحداث من وجهة نظر مخالفة ايضاً لرأي انصار الامبراطور.

انظر : Estoire d'Eracles, pp. 386 - 402.

انظر ايضاً : Amadi, pp. 147 - 182.

Bustron, pp. 80 - 104.

لم يحفل مؤرخو فردريك باثبات هذا الحدث .

(٢) عن تاريخ كنيسة قبرص في هذه الفترة ، انظر :

Hill, op. cit. III, pp. 1043 - 1053.

اورد ساثاس رواية عن استشهاد ثلاثة عشر راهباً يونانياً على ايدي اللاتين سنة ١٢٣١ .

انظر : Sathas, Mesaioniky Bibliothiky, vol. II, pp. 20 - 39.

الذي كان يزور روما ، بإلغاء تعيين فيلانجييري نائباً عنه ، على ان يحل مكانه فيليب موجاستيل ، من نبلاء سوريا . على انه اذا كان فردريك يأمل من وراء تعيين احد النبلاء المحليين نائباً عنه لتهدئة البارونات ، فان امله قد خاب . لأن موجاستيل لم يكن إلا شاباً مخنثاً ، أسفرت صلته بفيلانجييري عن فضيحة . على ان صور ظلت في حوزة فيلانجييري ، ولما وصل نبأ تعيين موجاستيل الى يوحنا سيد بيروت ، لم يكن قد استولى على كيرينيا . فبادر على الفور الى اجتيــاز البحر ، الى عكا . وكان باليان سيد صيدا ، وأودو مونتبليارد قد استعدا لقبول موجاستيل نائباً ، ورتبا بأن تحلف له الأيمان في كنيسة الصليب المقدس ، غير ان يوحنا سيد قيسارية اعلن عند ابتداء الاحتفال ، ان هذه الاجراءات باطـلة وليست قانونية . فليس بوسع الامبراطور أن يلغي ، بما يمليه عليه هواه ومزاجه ، ما سبق اتخاذه من تدابير امام المحكمة العليا . فاشتد الجدال ، فأنذر يوحنا قومون عكا بما يحيق به من خطر ، ودعا اعضاء القومون الى مساندته . فاندفع الى داخل الكنيسة جمهور غاضب . ولو لم يتدخل يوحنا شخصياً ، لمـــا أفلت من الموت على ايدي الساخطين ، باليان سيد صيدا وأودو مونتبليارد ، بينما فر موجاستيل الى صور . وتقررت اعادة انتخاب يوحنا عميداً لقومون عكا ، وأضحى الحاكم الفعلي للمملكة ، باستثناء صور ، التي تولى فيلانجييري حكمها باسم الامبراطور ، وعــدا بيت المقدس ايضاً التي خضعت حكومتها فيما يبدو لممثل من قِبل الامبراطور مباشرة . والراجح ان باليان سيد صيدا ظل نائباً من الناحية الاسمية ، على ان المحكمة العليا قبلت فعلاً زعامة يوحنا ابلين حتى يتم وضع ترتيب جديد . وتقرر إنفاذ مبعوثين ، هما فيليب تروي وهنري الناصري ، الى روما لشرح ما قام به البارونات والقومون من اعمال . غير ان هرمان سالتزا مقــدم الفرسان

التيوتون الذي كان وقتذاك في روما ، ادرك ان البـابا لم يستجب لهما ، فما زال البابا على علاقات ودية مع الامبراطور فردريك ، وكان حريصاً على ان يعيد له السلطة في الشرق . ففي سنة ١٢٣٥ ارسل البابا ، رئيس اساقفة رافنـا الى عكا ، ليكون مندوباً بابوياً . غير ان رئيس الاساقفة لم يوص إلا بضرورة اطاعة سلطة فيلانجييري التي لم تحظ بالقبول . فأرسل البارونات من جانبهم الى رومـا ، جيوفري لى تور ، المشهور بدرايته الواسعة بالقانون . ومع انـه بدأ الشجار من جديد بين البابا جريجوري والامبراطور فردريك ، فان البـابا عزم على أن يكون تصرفه سليماً . إذ كتب في فبراير سنة ١٢٣٦ الى فردريك والبارونات ، يخطرهم انـه لا بد من قبول فيلانجييري نائبـاً للأمبراطور ، على ان يساعده اودو مونتبليارد حتى شهر سبتمبر سنة ١٢٣٦ ، حينما يتم تعيين بوهمند امـير انطاكية نائباً . ونظراً لأن فردريك وابنه كنراد يعتبران الحاكمين الشرعيين لمملكة بيت المقدس ، فان تصرف البارونات كان خاطئاً ، غير انه ينبغي العفو عن كل البارونات باستثناء الابليين ، الذين ينبغي مثولهم امام المحكمة العليا ، وينبغي حل قومون عكا[1] .

هـــذه الشروط لم تلقَ القبول من البارونات وقومون عكا ، الذين تجاهلوها ؛ وفي هذه اللحظة الحرجة ، مات يوحنا ابلين اثر حادث تعرّض له اثناء ركوبه . والواقع ان سيد بيروت الشيخ (يوحنا ابلين) كما نعته معاصروه ، يعتبر أقوى شخصية في الشرق الفرنجي . فمـا من احد يرتاب

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 406 - 407.
Gestes des Chiprois, pp. 112 - 113.

فيما اتصف به من خِلال شخصية رفيعـــة . اشتهر بالشجاعة والشرف والاستقامة ، وأسهمت اخلاقه النقية الخالصة في توطيد مركز الباروناتِ[1]. على انه لولاه لما تحقق لفردريك النجاح في إقامة حكومة اوتوقراطية في مملكتي قبرص وبيت المقدس . ومع ان حكومة البارونات تنزع الى ان تكون حكومة طارئة ، فمن العسير كيف يصير الحكم الاوتوقراطي نوعاً من الاصلاح . إذ ان فردريك كان من البعد مـا يجعله عاجزاً عن ضبط الحكومة ، كما انه لم يحسن الحكم على الرجال . على ان أشد الحكومات استبداداً ، متى صارت الى أيدي أمثال رتشرد فيلانجييري ، لن تلبث ان تؤدي الى كارثة . ويعتبر من احسن الحلول ، مـا أوصى به البابا نفسه ، وهو اتحاد الحكومتين في بيت المقدس وجزيرة قبرص[2] . غير ان تمسُّك البارونات بالصفة الشرعية التي حملتهم على ان يقاوموا اوتوقراطية فردريك ، سوف تمنعهم من قبول ملك آخر ، سوى السيد الشرعي ، كنراد بن فردريك . على ان الاتحاد مع قبرص لا بد ان ينتظر حتى يقرّه الله . ومع ان اتجاه البارونات كان جماعياً وسليماً ، فانه في الوقت نفسه جعل للفوضى صفة مشروعة .

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٣٢١ ، حاشية رقم ١ .

(٢) اقترح البـابا جريجوري على جيوفري لى تور ان تقبل بيت المقدس سلطة ملك قبرص . انظر : Estoire d'Eracles, II, p. 407.

الفصل الرابع

الفوضى المشروعة

أضحى الشرق الفرنجي محروماً من قائده الطبيعي بعـــد وفاة سيد بيروت الشيخ (يوحنا ابلين) ، فما من احد من البارونات سوف ينعم من جديد بما نعمَ به من مكانة رفيعة . على ان يوحنا ابلين قد انجز دوره ، إذ أقـــام تحالفاً بين طبقة البارونات وقومون عكا ، وجعل لهما سياسة مشتركة تستند الى حقوقهما الشرعية . ومن أبنائه الاربعة ، بقي اثنان في بر الشام ، وهما باليان الذي خلفه على بيروت ، ويوحنا الذي ورث اقطاع امه في ارسوف ؛ امـا الابنان الآخران فحازا ضياع الاسرة في جزيرة قبرص ، وكلاهما أجريا من الزيجات السياسية مـا أعاد اتحاد طبقة النبلاء بالمملكة . فبـلدوين الذي صار صنجيلاً ، تزوج من اخت امالريك سيد بيسان ، بينما تزوج جاي الذي صار كندسطبلاً من ابنـة وورثة المريك بارليس كبير العصاة المتمردين . امـا يوحنا ، ابن أخ سيد بيروت الشيخ (يوحنا ابلين) ، والذي صار فيما بعد كونت يافا ، ومؤلف قوانين مملكة

بيت المقدس ، فيعتبر اشهر رجال القانون بمملكة بيت المقدس . ومع ان ابن عمهم ، باليان سيد صيدا ، ما زال يعمل نائباً للامبراطور بالاشتراك مع اودو مونتليليارد ، فإن سلطته تضاءلت بسبب ما تعرضت له سياسته من الفشل في التوفيق والمصالحة . على ان أقوى البارونات ، كان ابن عم آخر لهم ، وهو فيليب مونتفورت ، ابن هيلفيس ابلين من زوجها الثاني ، جاي مونتفورت ، شقيق سيمون الذي قاد الحملة الصليبية لقتال البيجنسيين . والمعروف ان فيليب تزوج حديثاً من ماريا ، الاميرة الارمنية ، ابنة ريموند روبين ، التي ورثت اقطاع تبنين عن جدة امها ، شقيقة آخر سيد لها . على ان ابن عم آخر ، هو يوحنا سيد قيسارية ابن مرجريت سيدة يبنه ، أكمل فريق الاسرة ، الذي أضحت له السيادة في الشرق الفرنجي . وخلّد شهرة سيد بيروت الشيخ (يوحنا ابلين) بعـــد وفاته ، استعداد أبنائه وأبناء اخوته لأن يعملوا معاً في محبة ووئام ، ووحّد بينهم ايضاً اشتراكهم جميعاً في كراهية فيلانجييري ، الذي ما زال يحكم صور باسم الامبراطور فردريك [1] .

ومع ذلك ، فإن الموقف في الشرق الفرنجي كان محفوفاً بالخطر ، إذ مات في مارس سنة ١٢٣٣ ، بوهمند الرابع امير انطاكية وكونت طرابلس ، بعد ان تمّ آخر الامر الوفاق بينه وبين الكنيسة . أظهر بوهمند مرونة كبيرة أثناء الحروب التي نشبت بين أنصار الامبراطور فردريك الثـاني

---

(١) ورد في الملحق الثالث بهذا الكتاب انساب اسرة ابلين وأبنـــاء عمومتهم ، نقلاً عن : Lignages d'Outremer .

وبين بارونات الشرق الفرنجي ، على ان ترحيبه اول الامر بالامبراطور فردريك يرجع أساساً الى كراهيته للابلين ، الذين عارضوا في تعيين ابنه بوهمند ، زوج الملكة أليس وصياً على عرش قبرص . ثم غيّر سياسته خوفاً من طموح فردريك . ولما تم طلاق أليس من بوهمند الصغير لما بينهما من قرابة تحرّم زواجهما ، وافق بوهمند الرابع عن طيب خاطر على اقتراح يوحنا ابلين ، بأن يتزوج هنري ، اصغر أبنائه سناً من ايزابيللا ، كبرى شقيقات هنري ملك قبرص ، ويؤدي هذا الزواج آخر الامر الى ان يتولى امير انطاكية عرش قبرص . غير انه حدث في تلك اللحظة ان انتصر فيلانجييري في معركة قرية ايبرت ، وعندئذ راوغ بوهمند ، إذ أراد ان يتخذ جانب المنتصر . فلم يتم الزواج إلا بعد هزيمة انصار الامبراطور في قبرص[1].

وحوالي ذلك الوقت تم الوفاق بين بوهمند والاسبتارية . فالكراهية المشتركة التي يكنّها الاسبتارية والداوية للامبراطور ، حملتهما على التعاون فترة من الزمن ، ولما لم يستطع بوهمند ان يوقع بين الطائفتين ، أظهر خضوعه للكنيسة ، وطلب من جيرولد ، بطريرك بيت المقدس ان ينوب عنه في المفاوضة مع الاسبتارية . وفي مقابل ما يحصل عليه الاسبتارية من ايجارات ضخمة عن الأملاك في مدينتي انطاكية وطرابلس ، وافقوا على التخلي عن دعواهم في الامتيازات التي وعدهم بها ريموند روبين ، والاعتراف بها لبوهمند

---

(١) انظر : Amadi, pp. 123 - 124.

أشار الى طلاق أليس .

Gesta des Chiprois, pp. 86 - 87.

Estoire d'Eracles, *II*, p. 360.

يذكر تاريخ هرقل زواج ايزابيللا .

من حقوق إقطاعية . وفي نفس الوقت رفع جيرولد بطريرك بيت المقدس قرار قطعه من الكنيسة ، وأرسل الى روما يطلب إقرار التسوية . غير ان موافقة البابا لم تصل إلا بعد ان مضت بضعة أسابيع على وفاة بوهمند [1] .

بوهمند الخامس امير انطاكية سنة ١٢٣٣ :

على الرغم من أخطاء بوهمند الرابع ، فانه يعتبر حاكماً قوياً ، بل ان أعداءه عجبوا لثقافته واطلاعه باعتباره من رجـــال القانون . أما ابنه بوهمند الخامس فكان رجلاً ضعيفاً ، كان من أبناء الكنيسة الصالحين ، فأجاز للبابا جريجوري التاسع ان يختار له زوجته الثانية ، لوسين سيجني الـتي تلتمي لأسرة البابا [2] .. واستطاع بوهمند الخامس بعد بضع سنوات ان يفيد من التجربة التي تعرّض لهـا ابوه سنة ١٢٣٣ بأن حصل من روما على ضمان بألا يقطعه من الكنيسة إلا البـابا نفسه [3] ، غير انه لم يكن سيداً في إمارته . إذ ان انطاكية ذاتهـا خضعت لحكم قومون ، لم يلق عنده من المحبة ما لقيه ابوه ، والراجح ان ذلك يرجع الى ان صداقته مع روما أثارت غضب العنصر اليوناني القوي بالقومون . ولذا آثر بوهمند الخامس ان يتخذ مقرّه في حاضرته الاخرى ، طرابلس . ولم يكن له

---

(١) انظر : Röhricht, Regesta Regni Hierosolymitanae, pp. 269 - 270.
Cahen, La Syrie du Nord, pp. 642 - 643.

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, *II*, p. 408.
كانت لوسين حفيدة شقيقة انوسلت الثالث ، فتعتبر بذلك ابنة خالة البابا جريجوري التاسع .

(٣) انظر : Innocent *IV*, Registres, 418, (ed. Berger), *I*, p. 75.

سيادة على الطوائف الدينية العسكرية ، ولم تكن ارمينية الخاضعة لسلطان بيت هيثوم موالية له ، كما ان اللاذقية التي تؤلف جيباً إسلامياً شطرت أملاكه قسمين ، والواقع ان حكمه كان يؤذن بانهيار سريع [١] .

واستبعد فردريك انطاكية وطرابلس من معاهدة الصلح التي عقدها مع الكامل ، لما سببه له بوهمند الرابع وقتذاك من قلق . ومع ذلك ، فإن بوهمند حافظ على السلام مع جيرانه من المسلمين ، باستثناء ما شنه من هجمات من حين الى آخر على الحشيشية الذين كرههم ، لأنهم كانوا حلفاء للاسبتارية . واشتد استياء بوهمند ، لإمعان الطوائف الدينية العسكرية في إغفال الحذر والحرص . إذ سبق للاسبتارية ان اثاروا الكامل ، فأغار على حصن الاكراد ، عند مهاجمته دمشق سنة ١٢٢٨ . على انهم ردوا على ذلك بأن هاجموا بعرين في سنة ١٢٢٩ ، ثم اشتركوا مع الداوية في انطرطوس ، وشنوا هجوماً ، سنة ١٢٣٠ على حماه ، حيث وقعوا في كمين ، وحلت بهم هزيمة ساحقة . وفي السنة التالية قامت الطائفتان بغارة مفاجئة على جبلة ، على انها لم تظل في ايديها سوى بضعة اسابيع . ثم انعقدت آخر الأمر هدنة في ربيع سنة ١٢٣١ لمدة سنتين [٢] .

لم يلبث بوهمند الخامس ان ارسل عقب توليه الحكم اخاه هنري ،

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. pp. 650 - 652, 664 - 666.
Rey, Histoire des Princes d'Antioche, p. 400.

(٢) انظر : Ibn al - Athir, *II*, p. 180.
Cahen, op. cit. p. 642, n. n. 6, 7.
(يشير كاهن الى المصادر المخطوطة) .

مع كتيبتين من عكا وقبرص ، لمساندة الاسبتارية والداوية في شن هجوم على بعرين ، لم يدراه إلا ما بذلته حماه من وعد بدفع الجزية الى الاسبتارية. وهـذه المدنة التي تجددت ظلت مستمرة حتى سنة ١٢٣٧ ، حينما انقض الداوية في بغراس على القبائل التركمانية النازلة الى الشرق من بحيرة انطاكية والتي لم تكن موطن ارتياب او خوف . وللانتقام من الداوية ، تحرّك جيش حلب بكامل قوته ، فحاصر بغراس ، التي لم ينقذها إلا قدوم بوهمند الخامس ، الذي حرص على تجديد الهدنة . غير ان مقدم الداوية في انطاكية ، وليم مونتفيرات كره هذا الإذلال ، وقرر ، على غير ما أعرب عنه بوهمند من رغبات ، ان ينقض الهدنة ولما يمض على عقدها إلا فترة وجيزة . ففي يونيه من تلك السنة ، حرض فرسانه على ان يشاركوا مع سيد جبيل وفئة قليلة من البارونات العلمانيين ، في شن هجوم على قلعة دربساك ، الواقعة الى الشمال من بغراس . وعلى الرغم من ان حامية دربساك اخذت على غرة ، فإنها بذلت مقاومة عنيفة ، بينما عجل الرسل بالتوجه الى حلب ، فبادر واليها الى إرسال جيش قوي . ولما سمع بعض الاسرى المسيحيين في دربساك بقدوم جيش لإنقـاذ القلعة ، انفذوا رسالة الى وليم مونتفيرات مقدم الداوية ، يحثونه على الانسحاب ، غير ان غطرسته حملته على تجاهل الانذار ، فأنقض عليـه الفرسان المسلمون . فحلت الهزيمة الساحقة بجيشه الصغير ، بينما لقي وليم نفسه مصرعه ، ووقـــع معظم رفاقه في الأسر . ولمــا سمع الداوية والاسبتارية بنبأ الكارثة ، كتبوا الى الغرب يطلبون النجدة ، بينما لم يمض المسلمون في انتصارهم ، بل وافقوا على تجديد الهدنة بعد ان حصلوا على وعد بأموال طائلة لافتداء الاسرى . فاستبد الخجل

بالاسبتارية والداوية ، وحافظوا على الصلح لمدة عشر سنوات وبموافقة البابا الذي كان لزاماً عليه ان يؤدي معظم الاموال اللازمة للفدية[1] .

الواقع ان السلطان الكامل يعتبر الى حد كبير مسئولاً عن افتقار المسلمين الى روح المهاجمة ، نظراً لما اشتهر به من انه رجل سلام وشرف. كان مستعداً لأن يقاتل ، وأن ينغمس في كل مؤامرة دنيئة ، في سبيل توحيد الممتلكات الايوبية تحت سلطانه ، إذ ان ما نشب من منازعات وانقسامات بين افراد الاسرة ، لم يكن ليفيد احداً ، وكان مستعداً لأن يدرأ ما تتعرض له املاكه من هجمات من قبل السلاجقة او الترك الخوارزمية . غير انه طالما لم يثر المسيحيون شيئاً من الاضطراب ، فإنه سوف يتركهم لهدوئهم . ادرك المسلمون اهمية قرب موانىء الفرنج من حدودهم ، فيما يعود عليهم من مزايا تجارية . فلم يرضوا بأن يخاطروا بقطع طريق التجارة بين الشرق والغرب ، بما يقع من عداوات حمقاء ، وحرص الكامل بصفة خاصة على ان يكفل لرعاياه الرخاء المادي . يضاف الى ذلك ان الكامل كان يضارع صديقه فردريك الثاني ، فيما اشتهر به من ميول فكرية واسعة ، وحب استطلاع شديد ، على انه فاق صديقه الهوهنشتاوفني (فردريك) في اصالة التسامح ، وازدياد العطف والرفق . ومع ان الكامل افتقر الى ما عرف به عمه صلاح الدين من سمو فروسيته وبطولته ، وعازه ما اشتهر

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, *II*, pp. 403 - 405.
Annales de Terre Sainte, p. 436.
Kemal ad - Din, trans. Blochet, pp. 85, 95 - 96.
Abu'l Feda, pp. 110 - 112.

به والده العادل من الدهاء الكبير ، فإنه فاقها في حماسه للانسانية . كان ملكاً كفئاً ، وقد ينكر عليه المسلمون المعاصرون له ميله « للرجال الشقر » غير انهم احترموا ما اتصفت به حكومته من العدالة والنظام السليم [1].

الكامل يعيد توحيد الامبراطورية الأيوبية سنة ١٢٢٩ :

نجح الكامل في طموحه لإعادة الوحدة الى العالم الأيوبي . إذ استطاع أخوه الأشرف آخر الامر ، في يونيـه سنة ١٢٢٩ ، ان ينزع دمشق من الناصر داود ابن اخيهما المعظم عيسى . وحصل النـاصر داود عوضاً عن دمشق ، على مملكة في وادي نهر الاردن واقليم مـا وراء نهر الاردن ، وعاصمتها الكرك ، على ان يتولاها تحت سيادة الكامل . واحتفظ الأشرف بدمشق ، غير انه اعترف بسيطرة الكامل ، وتنازل له عن بلاد في اقليم الجزيرة وعلى امتداد نهر الفرات الاوسط . والواقع ان هذه كانت اكثر الأقاليم الأيوبية تعرضاً للهجوم ، فأراد الكامل ان يزداد اشرافه المبـاشر عليها ، ويمثل جلال الدين خوارزشاه الخطر الفعلي الكبير الذي يهدّد هذه الأقاليم ، ومن ورائه الى الشرق ما كان للمغول من قوة غير معلومة ، بينما اشتدّ ضغط السلطان السلجوقي الكبير كيقباذ من الأناضول صوب الشرق . وبينما كان الأشرف في دمشق ، استولى جلال الدين خوارزمشاه سنة ١٢٣٠ ، على حصن أخلاط الضخم الذي يقع قرب بحيرة وان ، ثم تقدم لمهاجمـة السلاجقة ، فعجل الأشرف بالمسير صوب الشمال وتحالف مع السلطان

---

(١) انظر : Abu'l Feda, p. 114.
Ibn Khallikan, *III*, pp. 241 - 242.

كيقباذ . وأنزل الحليفان هزيمـــة ساحقة بجلال الدين خوارزمشاه قرب ارزنجان . على ان الامبراطورية الخوارزمية أخذت تتفكك بعد ان تعرضت مؤخرتها حوالي ذلك الوقت لهجوم المغول . وفي السنة التالية ، أنزل المسلمون الهزيمـة بجلال الدين نفسه . ولقي مصرعه في ١٥ اغسطس سنة ١٢٣١ أثناء فراره من المعركة ، على يد فلاح كردي ، انتقاماً لأخيه الذي قتله جلال الدين منذ زمن طويل[١] .

وترتب على زوال جلال الدين واختفائه ، ان اختلّ من جديد ميزان القوة . إذ لم يعد للسلاجقة منافس في شرق الاناضول ، وأضحى بوسع المغول ان يزحفوا في حرية نحو الغرب . وفي تلك الأثناء لم تنعم الخلافة العباسية في بغداد بالاستقلال إلا لبضعة شهور قلقة تعتبر نادرة . ولم ينقض إلا وقت قصير ، حتى تطلع كيقباذ الى بلاد الكامل الواقعة في الحوض الاوسط لنهر الفرات . ظلّ القتال مستمراً في الفترة من سنة ١٢٣٣ حتى سنة ١٢٣٥، انتقلت أثناءها الرها وسروج وغيرهما من مدن الاقليم من يد أحدهما الى يد الآخر ، حتى استطاع آخر الامر ان يوطّد مركزه من جديد . وما أحرزه الكامل من انتصارات أثار حقد أقاربه . إذ كره الاشرف وضعه الذي يجعله تابعاً للكامل . وحدث في حلب ان مات فجأة ، سنة

---

(١) انظر :

Ibn Khallikan, *III*, pp. 242, 288 - 289.
Ibn al - Athir, *II*, pp. 176 - 178.
Makrizi, X, pp. 250 - 252.
Cahen, op. cit. pp. 644 - 646.

(أشار كاهن في حواشيه الى المصادر المخطوطة) .

١٢٣٦ الملك العزيز بن الظاهر غازي ، فتولت امه ضيفة شقيقة الكامل الوصاية على حفيدها الصغير ، الظاهر الثاني ، على انها كانت تخشى طموح اخيها الكامل . وشاركها مخاوفها عدد من صغار الأمراء الايوبيين . وفي أثنـاء الشهور الاولى من سنة ١٢٣٧ جمع الاشرف حلفاءه ، واطمأن الى مساعدة كيقباذ الفعلية ، وحينما أضحت الحرب الاهلية فيما يبدو لا مفرّ منها ، حدث في اوائل الصيف ان مات كيقباذ ، ونزل بالاشرف مرض خطير . وبوفاة الاشرف في اغسطس سنة ١٢٣٧ تبددت المؤامرة ، فتولى حكومة دمشق اخوه الاصغر ، الصالح اسماعيل ، على انه حاول عبثاً إعـــادة الوحدة بين المتآمرين . وبفضل مساعدة الناصر داود صاحب الكرك ، زحف الكامل على دمشق في يناير سنة ١٢٣٨ ، فأضافها الى أملاكه ، وحاز الصالح اسماعيل عوضاً عن دمشق إقطاعاً في بعلبك . غير ان الكامل لم يعش طويلاً بعد انتصاره ، إذ مات بعد شهرين ، في دمشق ، في ٨ مارس سنة ١٢٣٨ ، وهو في الستين من عمره[١] .

الحروب الاهلية بين الايوبيين سنة ١٢٣٩ :

أدت وفاة الكامل الى انبعاث الحرب الاهلية ، إذ أن ابنـه الاكبر الصالح ايوب ، وكانت أمه جارية سودانية ، كان وقتذاك بالشمال ، غير انه

---

(١) انظر : Ibn Khallikan, *III*, pp. 242 - 244.
Kemal ad - Din, trans. Blochet, pp. 88 - 99.
Cahen, op. cit. pp. 645 - 646.

بادر بالمسير الى دمشق التي استولى على حكومتها الجواد ، ابن أخ الكامل . واستطاع الصالح ايوب طرد الجواد بمساعدة الخوارزمية الذين يطوفون بالبلاد سعياً وراء الغنيمة . وفي تلك الاثناء استقر العادل الثاني ، اخو الصالح ايوب سلطاناً في مصر . وعزم الصالح ايوب على ان يستخلص لنفسه اخصب اقاليم والده ، مصر ، غير انه حينما نهض لغزو مصر ، وقع في دمشق انقلاب مفاجىء اطاح به ، لمصلحة عمه الصالح اسماعيل ، وفي اثناء فرار الصالح ايوب صوب الجنوب وقع في يدي الناصر داود صاحب الكرك ، الذي لم يلبث ان أيّده ، وأمده بعساكر لغزو مصر . لم تكن المسألة عسيرة ، إذ أن العادل اساء الى وزرائه ، بأن عهد بالحكومة الى عبد اسود صغير تعلّق به . ونجحت المؤامرة في عزله عن العرش في يونيه سنة ١٢٤٠ ، وتقررت دعوة الصالح ايوب ليتولى عرش مصر ، فكافأ الناصر داود بأن جعله حاكماً عسكرياً على فلسطين ، غير ان الصالح اسماعيل ما زال سيداً على دمشق . وفي السنوات العشرة التالية ، مزّق العالم الايوبي ما وقع من التخاصم بين العم (الصالح اسماعيل) وابن اخيه (الصالح ايوب) . ولم يلبث ان وقع شمال الامبراطورية الايوبية في فوضى واضطراب . فالخوارزمية الذين فقدوا قائدهم جلال الدين خوارزمشاه طافوا بشمال الشام ينزلون الخراب اينما ساروا ، متذرعين بأنهم تلقوا الاوامر من الصالح ايوب . اما في الجزيرة فلم يكن للمظفر الايوبي امير ميافارقين إلا سلطة ضئيلة . وحاول توران شاه بن الصالح ايوب ان يحكم املاك جده بالجزيرة ، غير ان مدناً كثيرة وقعت في ايدي كيخسرو الثاني سلطان السلاجقة . واتخذ الناصر يوسف ، الذي خلف اخاه سنة ١٢٣٦ على حكم حلب خطة الدفاع ، بينما انصرف اميرا حماه

وحمص الى درء خطر الخوارزمية [1] .

وفي وسط هذه الاضطرابات المنيفة ، انتهى امد المعاهدة التي انعقدت بين فردريك الثاني والكامل . وللتمهيد لانقضاء اجل المعاهدة ، ارسل البابا جريجوري التاسع في صيف سنة ١٢٣٩ مندوبين من قِبله الى فرنسا وانجلترا للدعوة الى حرب صليبية . ولم يكن كل من ملكي فرنسا وانجلترا مستعداً لأن يستجيب بشخصه لنداء البابا ، غير انهما بذلا للدعاة كل تشجيع وتأييد . ففي اوائل صيف سنة ١٢٣٩ تأهبت جماعة من نخبة نبلاء فرنسا للابحار الى الشرق ، وكان على رأس هذه الجماعة تيبالد كونت شامبانيا وملك نافار ، ابن اخ هنري شامبانيا ، وبذا يعتبر ابن عمة ملوك فرنسا وانجلترا وقبرص . وصحبه هيو الرابع دوق برجنديا ، وبطرس ماوكليرك كونت بريتاني ، فضلاً عن كونتات بار ، ونيفرز ، ومونتفورت ، وجويجني ، وسانكير وكثير من صغار السادة الاقطاعيين . وكان عدد الراجلين يقل عما كان متوقعاً ، اذا قدّرنا ما للقادة من اهمية ، على ان الحملة بأسرها كانت مهيبة [2] .

---

(١) انظر : Ibn Khallikan, *II*, pp. 445 - 446.
III, pp. 245 - 246.
Makrizi, X, pp. 297 - 330.
Kemal ad - Din, trans. Blochet, loc. cit.
Cahen, op. cit. pp. 646 - 649.

(٢) انظر : Estoire d'Eracles, *II*, pp. 413 - 414.
Gestes des Chiprois, p. 118.
Potthast, Regesta, *I*, p. 906.

اورد هذا المصدر رسالة البابا جريجوري التاسع .

حملة تيبالد الصليبية سنة ١٢٣٩ :

كان تيبالد يأمل في أن يستقل مع رفاقه السفن في برنديزي ، غير ان ما نشب من الحروب بين الامبراطور والبابا جعل اجتياز ايطاليا امراً شاقاً . وإذ كانت برنديزي من املاك الامبراطور ، لم يكن راضياً عن الحملة الصليبية ، فقد اعتبر نفسه حاكماً على فلسطين بالنيابة عن ابنه الصغير ، كنراد ، فإذا نهضت حملة لمساعدة مملكته فلا بدّ ان يخضع تنظيمها لسلطته . فهو لا يوافق على ان يشارك فيها النبلاء الفرنسيون الذين لا شك ان غريزتهم سوف تحملهم على ان يساندوا عليه بارونات الشرق الفرنجي . يضاف الى ذلك انــه نظراً لإدراكه الاوضاع في العالم الاسلامي ، كان يأمل ان يعقد بالدبلوماسية صفقة رابحة لمملكته . على ان قدوم هؤلاء الفرسان القلقين سوف يدمر هذه المفاوضات . ولم يكن بوسعه ان يرسل من قبله رجالاً لضبطهم ، نظراً لمـا تعرّض له في ايطاليا من متاعب . فاستخلص منهم وعداً بألا يتمّ شيء إلا عند انقضاء اجل الهدنة في اغسطس ثم نفض يده من كل المسألة . ولذا كان لزاماً على الصليبيين ان يبحروا من ايج مورت ومرسيليا [١] .

على ان الحملة الصليبية واجهت عواصف عاتية في رحلتها في البحر المتوسط ، ساقت بعض السفن الى قبرص ، وردت سفناً اخرى الى جزيرة

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, loc. cit.
Ms. of Rothelin, p. 528.
(رسالة البابا جريجوري التاسع) . Potthast, op. cit. I, p. 910.

صقلية . ولكن تيبالد وصل الى عـــكا في اول سبتمبر سنة ١٢٣٩ ، ولم تنقض إلا بضعة ايام حتى احتشد في عكا جيش مؤلف من الف فارس . فانعقد على الفور مجلس ليقرر ، كيف تجري الإفادة من هذا الجيش على خير وجه . وشهد هذا المجلس الامراء القادمون ، فضلاً عن كبار البارونات المحليين ، وممثلين عن الطوائف الدينية العسكرية . بينما ناب بطرس سارجينس رئيس اساقفة صور عن بطريرك بيت المقدس . كانت فرصة تهيأت للقيام بحملة دبلوماسية . فما نشب من منازعات بين ذرية الكامل ، هيأت للمسيحيين الفرصة لاتخاذ قوتهم الجديدة ، نقطة للمساومة ، وللحصول على امتيازات سخية من كل من الاحزاب المتناحرة او منها جميعاً . ولكن المعروف ان الصليبيين لم يقدموا إلا من اجل القتال ، ولا يودون ان يحتذوا المثال المشين الذي اتخـــذه فردريك الثاني . وعندئذ اوصى البارونات المحليون بتوجيه الحمـــلة الى مصر . فهذا الاجراء لم يكن فحسب ليلحق الأذى بجيرانهم المسلمين في سوريا ، بل انه سوف تتهيأ له فرصة طيبة للنجاح ، نظراً لما هو معروف من كراهية الناس للسلطان العادل الثاني ، بينما ايد الآخرون اعتبار دمشق عدواً لهم ، ولا بدّ للجيش ان يحصن قلاع الجليل ، ثم يزحف على عاصمة الشام (دمشق) . غير ان تيبالد أراد ان يحقق عدداً كبيراً من الانتصارات ، فقرر ان يهاجم الجيش الصليبي اول الأمر المعقلين المصريين في عسقلان وغزه ، والراجح ان كان ذلك القرار بناء على اقتراح والتر بريين كونت يافـا ، الذي لم ينتم الى حزب اسرة ابلين ، ثم يتوجه الجيش الى مهاجمة دمشق بعد تأمين الطرف الجنوبي ، على ان الرسل هرعت ، عند سماع نبـأ قرار تيبالد ، الى حواضر الامراء الايوبيين ، لتدبير عقد

هدنة مؤقتة بين الامراء المسلمين [١] .

خرجت الحملة من عكا في ٢ نوفمبر سنة ١٢٣٩ قاصدة الحدود المصرية ، وصحب الصليبيين سرايا من فرسان الطوائف الدينية العسكرية ، وعـدد كبير من البارونات المحليين . وفي أثناء سيرهم الى يافا ، أنبأ احد الجواسيس بطرس كونت بريتاني ان قافلة إسلامية وافرة الثروة ، تتحرك إزاء نهر الاردن في طريقها الى دمشق . فبادر بطرس بالركوب على الفور ، مع رالف كونت سواسون ومائتي فارس ، ونصبوا كميناً لهذه القافلة . على ان القافلة كان يحرسها رجال أشداء مسلحون ، ولما نشبت المعركة كاد بطرس ان يلقى مصرعه ، غير ان المسلمين ولّوا الأدبار آخر الامر ، بعد ان تركوا في أيدي المسيحيين قطيعاً كبيراً من الماشية والأغنام ، فساق بطرس غنيمته وعاد منتصراً الى يافا ، التي بلغها وقتذاك زملاؤه ، ولقي انتصاره ترحيباً كبيراً ، نظراً لأن مؤونة الجيش كانت آخذة في النفاد ، غير ان هذا الانتصار أثار عداء الناصر داود صاحب الكرك [٢] .

وتقرّر على الفور إرسال جيش مصري بقيادة الأمير المملوكي ركن الدين من الدلتا الى غزة . والانباء الاولى التي بلغت المسيحيين عن وصوله ، لم تشر الى ان الجيش المصري لم يتجـاوز ألف رجـل ، وعزم هنري كونت بار الذي غاظه ما ظفر به كونت بريتاني من نجاح ، على ان يبادر بمهاجمة

---

(١) انظر : Ms. of Rothelin, pp. 531 - 532.
Estoire d'Eracles, II, pp. 413 - 414.

(٢) انظر : Ms. of Rothelin, pp. 533 - 536.

الجيش المصري حتى يتحقق له الشرف والغنيمة . ولذا أبقى خطته سراً ، فلم يطلع عليها إلا عدد قليل من اصدقائه ، أمثال دوق برجنديا وعدة سادة من شرقي فرنسا . ثم سمح بأن يلحق بهذه الجماعة ، نائبا الامبراطور على المملكة ، باليان سيد صيدا ، وأودو مونتبليار اللذان كرها قيادة تيبالد ، فضلاً عن والتر كونت يافــا ، ويوحنا سيد ارسوف وهو من الابلين . وعند حلول الظلام يوم ١٢ نوفمبر سنة ١٢٣٩ ، استعدّ للزحف على غزة كل هــذه الجماعة المؤلفة من خمسمائة فارس ، وما يزيد على الف راجل . غير ان الأنباء تسرّبت ، وبينما كانوا يمتطون أفراسهم ، قدم عليهم الملك تيبالد ومقدمو الطوائف الدينية العسكرية الثلاثة ، وكونت بريتاني ، وتوسلوا اليهم اول الامر ، ثمّ أمروهم بالعودة الى المعسكر . غير ان هنري كونت بار رفض ان ينثني عن عزمه ، بأن تحدى قيادة الملك ، بعد ان اتهمه هو وأصحابه بالجبن . وسار الركب في ليلة مقمرة ، ولم يستطع تيبالد الذي لم يدرك ما للعدو من قوة حقيقية ، ان يمنع الركب من المضي في سيره . وفي صبيحة اليوم التالي ، نقل معسكره الى تحت أسوار عسقلان حتى يكون في متناول اليد اذا اقتضت الحاجة مساعدته .

هزيمة الفرنج في غزة سنة ١٢٣٩ :

وبلغ من ثقة كونت بار في الفوز ، انه حينما اقترب من غزة ، حين لاح الفجر ، امر رجاله بالتوقف في منخفض بين التلال الرملية على ساحل البحر ، كيما ينالوا قسطاً من الراحة . على أن الجيش المصري فاق في الضخامة ما كان يعلمه ، وأحاط بــه جواسيسه من كل جانب . لم يعتقد الامير ركن الدين ان يكون عدوه على هذه الدرجة من الحماقة ، فأرسل

رماته ، ليزحفوا حول التلال الرملية ، حتى كاد يتم تطويق الفرنج . وكان والتر كونت يافا اول من فطن الى ما كان يحدث ، فأمر بالارتداد العاجل، لأنه ليس بوسع الافراس ان تتحرك في حرية في الرمــال العميقة ، بينما ركب والتر مع دوق برجنــديا ، متجهين الى الشمال ، ثم لم يلبث سائر الفرسان من الشرق الفرنجي ان اقتفوا اثرهما . غير ان هنري كونت بار لم يشأ ان يترك رجالته الذين قادهم ، يقعون في الفخ ، فلم يمكث معه إلا اقرب الاصدقاء وأخلصهم له . ولم تلبث المعركة ان انتهت ، وإذ هوى في التلال الرملية الفرنج بخيولهم ، ورجالتهم المثقلون بالأسلحة ، اضحوا عاجزين ، فلقي مصرعهم مــا يزيد على الف رجل ، منهم كونت هنري نفسه . ووقع في الأسر نحو ستمائة آخرين ، وتم نقلهم الى مصر ، ومن هؤلاء الأسرى كونت مونتفورت ، والشاعر فيليب نانتيل ، الذي امضى ايامــه في الحبس ينظم شعراً في ذم الطوائف الدينية العسكرية ، الذين وجّه اليهم اللوم ، عن عاطفة لا عن منطق ، لما اصاب هــذه الحملة التي لا مبرر لها من الفشل .

ولما وصل الفارّون الى عسقلان ، اغفل تيبالد حذره ، وأراد ان يزحف على الفور على غزة لانقاذ رفاقه ، غير ان فرسان الشرق الفرنجي لم يوافقوه . إذ كان من الحماقة المغامرة بالجيش ، ومن المحقق ان المسلمين سوف يؤثرون قتل من وقع بأيديهم من الأسرى ، على ان يضيعوهم مرة اخرى . فاستبد الغضب بتيبالد ولم يغفر ابداً لمضيفيه (فرسان الشرق الفرنجي) ما حدث . غير انه لم يكن بوسعه ان يفعل شيئاً ، فتحرك الجيش ، بعد ان تضاءل

عدده ، في بطء عائداً الى عكا [1] .

وفي تلك الاثناء ردّ الناصر داود صاحب الكرك على مهاجمة البريتون للقافلة الاسلامية ، بأن زحف على بيت المقدس . لم يكن للمدينة المقدسة من اسباب الدفاع ، سوى ذلك القطاع من السور عند باب اصطفان الذي سبق لفردريك ان شرع في عمارته ، وكذا القلعة التي تضم برج داود ، التي جرى منذ زمن قريب تدعيمها ، والمعروف ان المدينة المقدسة لم تدن بالولاء للحكومة في عكا ، بل لفيلانجييري في صور ، ولم يحفل فيلانجييري بشحنها بحامية كبيرة ، فلم يصادف الناصر داود صعوبة في احتلال بيت المقدس ، غير ان العساكر المرابطين بالقلعة ظلوا يقاومون سبعة وعشرين يوماً ، حتى نفذت مؤنهم ، فأذعنوا في ٧ ديسمبر سنة ١٢٣٩ مقابل الحصول على امان بالرحيل الى الساحل . وانسحب الناصر داود الى الكرك ، بعد

---

(١) انظر : Ms. of Rothelin, pp. 537 - 550.

(اورد رواية صادقة لما حدث) .

Gestes des Chiprois, pp. 118 - 120.

Estoire d'Eracles, II, pp. 414 - 415.

Abu Shama, II, p. 193.

Makrizi, X, p. 324.

(أخطأ المقريزي في تحديد تاريخ المعركة) .

Rothelin, pp. 548 - 549.

(اورد روثلين اقتباسات من أشعار فيليب) .

ان دمّر الاستحكامات ، بما فيها برج داود [1] . تحرك تيبالد بقواته ، بعد المعركة التي وقعت في غزة ، صوب الشمال الى طرابلس . فقدم اليه رسول من قِبل امير حماه ، المظفر الثاني ، الذي سبق ان وقع في نزاع مع سائر اقاربه من الامراء الايوبيين ، وتعرض لخطر قيام تحالف بين الوصي على حلب وأمير حمص . فعرض على الفرنج ان يتنازل لهم عن حصن او حصنين ، مقابل بذل المساعدة له ، وجعلهم يأملون في ان يتحول الى المسيحية . وقبل تيبالد هذا العرض في غبطة وسرور . غير ان مسير تيبالد الى طرابلس كان كافياً لأن يروع اعداء المظفر ، فأرسل الامير المظفر ، في ادب الى تيبالد يخطره بأنه لم يعد في حاجة الى خدماته [2] .

وحدث عند توقف الحملة الصليبية في طرابلس ، ان اضحى الصالح ايوب سلطاناً على مصر ، واندلعت الحرب بينه وبين الصالح اسماعيل امير

---

(١) انظر : Ms. Rothelin, pp. 529 - 531.

ومع ان روثلين اورد التاريخ الصحيح لتدمير الاستحكامات، فانه أخطأ حين جعل هذا العمل سابقاً على معركة غزة . اما المقريزي فجعل ٧ ديسمبر التاريخ الذي استسلمت فيه حامية بيت المقدس ، اي بعد معركة غزة . واتفق ابو الفداء مع المقريزي في تحديد التاريخ ، بينما لم يشر العيني إلا للسنة ، وبذا يصح قبول التاريخ الذي اورده المقريزي . انظر :

Makrizi, X, pp. 323 - 324.
Al - Aini, pp. 196 - 197.
Abu'l Feda, pp. 115 - 119.

(٢) انظر :

كان المؤرخ ابو الفدا حفيداً للمظفر الثاني .

Kemal ad - Din, trans. Blochet, pp. 98 - 100 - 104.
Estoire d'Eracles, II, p. 416.
Gestes des Chiprois, pp. 120 - 121.

دمشق . والواضح أنه اضحى بوسع الفرنج ان يجروا مساومة رابحة ، إذ عجّل تيبالد بالعودة الى الجنوب وعسكر بجيشه عنـد عيون صفورية في الجليل . ولم يكن لينتظر طويلاً ، إذ حدث في اوائل صيف سنة ١٢٤٠ ان اقترح الصالح اسماعيل عقد محالفة هجومية مع الفرنج ، لتخوفه من اشتراك الصالح ايوب والناصر داود في غزو بلاده . فاذا تكفل الفرنج بحراسة الطرف المصري عنـد الساحل ، وأمدوه بالأسلحة ، فانه سوف يتنازل لهم عن الحصنين الكبيرين ، هونين وصفد ، ومـــا يقع بينهما من التلال . وإذ اضحى للداوية علاقات مالية في دمشق ، أداروا المفاوضات بين الجانبين ، ونالوا مكافأة على ذلك ، بأن تملكوا صفد . على ان رعـايا الصالح اسماعيل ارتاعوا لما حدث ، فرفضت حامية هونين ان تسلم وديعتها الى باليــان سيد صيدا ابن آخر سيد مسيحي لهونين ، وكان لزامـاً على الصالح اسماعيل ان يتوجه بنفسه لحصار القلعة ليرغمها على الاذعـان . فغادر المدينة متعضين رجلان من كبار علمـــاء الدين ، أحدهما خطيب المسجد الجامع ، والتمسا لهما ملاذاً بالقاهرة [١] .

---

(١) انظر :

Estoire d'Eracles, II, pp. 417 - 418.
Ms. of Rothelin, pp. 551 - 553.
Gestes des Chiprois, p. 12.
Abu'l Feda, loc. cit.
Makrizi, X, p. 430.
Abu Shama, II, p. 193.

نهاية حملة تيبالد الصليبية سنة ١٢٤٠ :

وما كان من اشتراك الاسبتارية والداوية سوياً في كراهية الامبراطور فردريك أبقى على ما بينهما من تحالف عسير في الاثنتي عشرة سنة الاخيرة . غير ان حيازة الداوية لحصن صفد كانت أكبر من ان يتحملها الاسبتارية . فبينما توجه تيبالد بجيشه للحاق بقوات الصالح اسماعيل ، بين يافا وعسقلان ، شرع الاسبتارية في إجراء مفاوضات مع الصالح ايوب . واشتد الجدال بين الفريقين ، حينما فرّ نصف رجال الصالح اسماعيل الذين كرهوا العمل مع المسيحيين ، الى المعسكر المصري ، وكان لزاماً على الحليفين تيبالد والصالح ان يرتدا بجيوشهما . وإذ كان اول ما يهدف اليه الصالح ايوب ، هو ان يلحق الهزيمة بالصالح اسماعيل ، فانه ابتهج لأن تهيأت له الفرصة لتحطيم التحالف بين الصالح اسماعيل والفرنج . فعرض على الفرنج ان يطلق سراح الأسرى الذي وقعوا في يده في غزة ، وأن يكون لهم الحق في احتلال عسقلان وتحصينها ، مقابل التزام الحيـاد . وعندئذ وقّع مقدم الاسبتارية مع ممثلي السلطان الصالح ايوب ، الاتفاق في عسقلان ، والواقع ان ذلك كان انتصاراً دبلوماسياً للصالح ايوب ، الذي استطاع بتضحية بسيطة من جانبه ، ان يدمّر تحالفاً لم ينجزه الصالح اسماعيل إلا بعد ان أذلّ نفسه . أما تيبالد الذي فرح لإطلاق سراح أمالريك مونتفورت وغيره من الاصدقاء ، فانه ساند الاسبتارية . غير ان الرأي العام في الشرق الفرنجي ارتاع لمـا حدث من التخلي المشين عن الاتفاق مع دمشق ، التي ظلت تعتبر حتى زمن صلاح الدين الحليف التقليدي للمسيحيين . وأضحت كراهية الناس لتيبالد

من الشدة ، ما حمله على ان يقرر العودة الى اوربا ، فأبحر من عكا في نهاية سبتمبر سنة ١٢٤٠ بعـــد ان هرع الى بيت المقدس ليؤدي الحج بصفة عاجلة . وسار في اثره معظم رفاقه ، باستثناء دوق برجنديا الذي أقسم على ان يبقى حتى تكتمل عمارة استحكامات عسقلان ، وكونت نيفرز الذي انحاز الى الداوية والبارونات المحليين ، فأقام بمعسكرهم قرب يافا ، بعد ان أقسم على المحافظة على المعاهدة التي انعقدت مع دمشق ، ومقاومة كل غزو من قبل مصر .

لم تخل حملة تيبالد الصليبية من قيمة وأهمية ، إذ عاد الى حوزة المسيحيين حصون هونين ، وصفد وعسقلان . غـير ان المسلمين شهدوا مثلاً آخر من خيانة الفرنج [1] .

وحدث في ١١ اكتوبر سنة ١٢٤٠ ، ولمـا يمض على رحيل تيبالد إلا بضعة ايام ، ان وصل الى عـكا حاج بالغ الأهمية والمكانة ، وهو رتشرد ايرل كورنوال ، وشقيق هنري الثالث ملك انجلترا ، وكانت اخته زوجة للأمبراطور فردريك . كان رتشرد وقتذاك في الحادية والثلاثين من عمره ، ويعتبر من اقدر وأكفأ امراء عصره . وصادف حجه الى بيت المقدس القبول عند الامبراطور فردريك الذي جعل له كل السلطات في ان يتخذ من التدابير

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 419 - 420.
Ms. of Rothelin, pp. 553 - 555.
Gestes des Chiprois, pp. 121 - 122.
Makrizi, X, p. 342.

ما يعتقد انها في مصلحة المملكة[1] . ارتاع رتشرد لما شهده عند وصوله من الفوضى ، إذ نشب بين الداوية والاسبتارية نضال صريح ، فساند الداوية كل البارونات المحليين ما عدا والتركونت يافا ، ولذا شرع الاسبتارية في التماس مساعدة فيلانجييري وأنصار الامبراطور فردريك الثاني ، بينا اتخذت طائفة الفرسان التيوتون جانب الاعتزال ، فشحنت قلاعها بسوريا بالعساكر ، غير انهـا وجهت كل اهتمامها الى قليقيه ، حيث عهد اليهم ملك ارمينية بضياع شاسعة . أما فيلانجييري فلا زال بحوزته مدينة صور ، وكان مسئولاً عن ادارة بيت المقدس[2] .

رتشرد كورنوال سنة ١٢٤١ :

هرع رتشرد الى عسقلان عقب وصوله الى عكا . فالتقى بها برسل من

---

(١) عن رتشرد وحملته الصليبية ، انظر :

Powicke, King Henry III and the Lord Edward, I, pp. 197 - 200.

أشار الى ان البابا حث رتشرد على ان يتخلى عن حملته الصليبية ، وان يستعيض عنها بمال يبذله لحماية الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية . انظر :

Powicke, op. cit. I, p. 197, n. 2.

(٢) انظر : Matthew Paris, Chronica Majora; IV, p. 139.

(اورد ماثيو باريس رسالة رتشرد) . وأقام رتشرد في دار الاسبتارية في عكا . انظر :

Gestes des Chiprois, p. 128.

عن الفرسان التيوتون في قليقية ، انظر :

Strehlke, Tabulae Ordinis Theutonici, pp. 37 - 40, 65 - 66, 126 - 127.

Gestes des Chiprois, loc. cit.

يشير الى بنيتبايه وكيل فردريك في ادارة بيت المقدس .

قبل سلطان مصر ، الصالح ايوب ، فطلبوا اليه التصديق على المعاهدة التي عقدها الاسبتارية ، فوافق رتشرد ، غير انه كيا يسترضي بارونات الشرق الفرنجي اصر على ان يقر المصريون ما تنازل عنه الصالح اسماعيل امير دمشق من البلاد ، وأن يضيفوا اليها مـــا تبقى من الجليل ، بما في ذلك شقيف أرنون ، وجبل الطور وطبرية . وإذ انتزع الناصر داود صاحب الكرك مـا كان للصالح اسماعيل من سيطرة على شرق الجليل ، لم يعد بوسع الصالح اسماعيل ان يمتنع عن كل تنازل عن بلاد اخرى . وفي تلك الاثناء عاد الاسرى الفرنج الذين وقعوا في غزه مقابل اطلاق سراح فئة قليلة من الاسرى المسلمين الذين كانوا في حوزة الفرنج . وبـذا استعادت مملكة بيت المقدس كل ما كان لهـــا من اراضي غربي نهر الاردن ، التي امتدت جنوبـاً حتى ارباض غزة ، باستثناء نابلس وأقليم السامرة ، الذي يعتبر فالاً سيئاً . ظلت بيت المقدس مجرّدة من الاستحكامات . غـير ان اودو مونتبليارد ، الذي تعتبر زوجته وريثة لأمراء الجليل ، شرع في إعادة بناء قلعة طبرية ، واكتملت ايضاً اعمال العمارة في عسقلان . وعين رتشرد حاكـاً على عسقلان والتر بنينبايه الذي كان ممثلاً لفيلانجييري في بيت المقدس . والراجح ان الامبراطور فردريك ارسل بناء على اقتراح رتشرد سفارة لتهنئة الصالح ايوب . وجرى استقبال سفيريه بالقاهرة بكل مظاهر التشريف والابهة ، ومكث السفيران بالقاهرة حتى اوائل فصل الربيـع .

وأقام رتشرد في فلسطين حتى شهر مايو سنة ١٢٤١ ، وسلك في اعماله سبيل الحكمة والكياسة ، واستطاع ان يظفر برضي الناس ، باعتباره نائباً مؤقتاً للامبراطور في حكم المملكة . وكان الامبراطور شديد الارتياح له ، وأسف الناس في الشرق الفرنجي لرحيله . وعاد الى اوربا ليمارس حياة

حافلة بالآمال العالية ، التي لم يتحقق منها إلا النذر القليل [1] .

على ان الامن والنظام الذي وطده رتشرد كورنوال لم يستمر طويلاً بعد رحيله . كان البارونات المحليون يأملون في ان يمضوا في إقراره ، فالتمسوا من الامبراطور ان يعين احد رفاقه ، وهو سيمون مونتفورت نائباً عنه . إذ ان سيمون الذي كان زوجاً لأخت رتشرد ، وابن عم لسيد تبنين ترك عند الناس اثراً فائقاً . غير ان فردريك أغفل طلب البارونات المحليين ، وعاد سيمون ليواصل في انجلترا حياة ضخمة عاصفة [2] . ولم تلبث المنازعات ان نشبت من جديد في الارض المقدسة ، إذ رفض الداوية ان يلتزموا بالمعاهدة التي انعقدت مع الصالح ايوب ، فأغاروا في ربيع سنة ١٢٤٢ على مدينة حبرون الاسلامية . وردّ الناصر داود صاحب الكرك على هذه الغارة ، بأن أرسل العساكر لقطع الطريق المؤدي الى

---

(١) انظر رسالة رتشرد في :

Matthew of Paris, IV, pp. 139 - 145.
Estoire d'Eracles, II, pp. 421 - 422.
Ms. of Rothelin, pp. 555 - 556.
Gestes des Chiprois, pp. 123 - 124.

ليس واضحاً ما اذا كان تيبالد ابرم فعلاً معاهدة مع مصر ، صدّق عليها رتشرد (كما اشارت Gestes ، ولعل العبارة التي اشارت الى هذا النبأ أقحمت في النص)، أو ما اذا كان رتشرد أكمل المفاوضات التي بدأها تيبالد . انظر ايضاً :

Histoire des Patriarches d'Alexandrie, pp. 342 - 346.

(٢) انظر : Röhricht, Regesta, p. 286.

كانت رسالة البارونات للامبراطور فردريك مؤرخة في ٧ مايو سنة ١٢٤١ ، وكان اماريك شقيق سيمون احد الأسرى الذين تم اطلاق سراحهم منذ زمن قريب في مصر .

بيت المقدس ، ولجباية الرسوم من الحجاج والتجار الذين يجتازونه . فأثار هذا الاجراء الداوية ، وحملهم على الخروج من يافا والانقضاض على نابلس في ٣٠ اكتوبر سنة ١٢٤٢ ، واستباحتها ، فأحرقوا المسجد الجامع وقتلوا عدداً كبيراً من السكان ، ومن بينهم أعداد غفيرة من المسيحيين الوطنيين . لم يكن الصالح أيوب مستعداً للقتـال ، فاكتفى بإرسال جيش قوي ، حاصر يافا فترة من الزمن ، كيما يكون انذاراً لما يجري في المستقبل [١] . ولم تكن بالمملكة سلطة عليا ، إذ تصرفت الطوائف الدينية العسكرية على انهـا جمهوريات مستقلة ، وتولى حكم عكا قومون لم يكن بوسعه ان يمنع الداوية والاسبتارية من ان يقاتل بعضهم بعضاً في الشوارع . ولزم البارونات اقطاعاتهم ، يحكمونها كيفما شاؤوا .

وتراءى لفيلانجييري في صور ان الفوضى حافلة بالأمل . إذ كان على اتصال شخصي بالاسبتارية في عكا ، كما انه كسب ودّ اثنين من كبار البرجاسية ، وهما يوحنا فالين ووليم كونش . وحدث ذات ليلة ، في ربيع سنة ١٢٤٣ ، ان قدم فيلانجييري من صور ، وتيسّر له الدخول خلسة الى عكا ، واستعدّ لإعداد انقلاب عسكري . غير ان حضوره الى عكا لم يلبث ان صار معروفاً ، فأخطر به فيليب مونتفورت سيد تبنين ، الذي تصادف

---

(١) انظر : Histoire des Patriarches, pp. 350 - 351.
Matthew Paris, IV, p. 197.
Makrizi, X, pp. 342 - 348.
أشار المقريزي في موضعين الى وقوع معركة اخرى في غزة سنة ١٢٤٢ .
انظر ايضاً : Stevenson : The Crusaders in the East, p. 321, n. 1.

حضوره الى عكا . فبادر فيليب على الفور الى تحذير القومون و جاليتي البنادقة والجنويين . فألقى موظفوهم القبض على يوحنا فالين ووليم كونش ، وتولوا حراسة الشوارع . وتقرر إنفاذ رسالة لدعوة باليان ابلين بالقدوم من بيروت ، وأودو مونتبليارد بالحضور من قيسارية . وأدرك فيلانجييري انه قد فاته الحظ ، فتسلل في هدوء راجعاً الى صور ؛ فتجلى تواطؤ الاسبتارية واشتراكهم في المؤامرة . فلما وصل باليان ، فرض الحصار على مراكز قيادتهم في عكا ، وظل الحصار قائماً مدة ستة شهور . وكان مقدم الاسبتارية بطرس فيبى برايد وقتذاك في قلعة المرقب ، يقود حملة غير نظامية لقتال جيرانه من المسلمين ، فلم يستطع ان يعدّ من الرجال من يحاولون نجدة فرسانه في عكا . فلم يسعه آخر الامر إلا ان يصالح باليان ، بعد ان بذل الأعذار ، وأقسم انه لم تكن له يد في المؤامرة [1] .

الاعتراف بالملكة أليس وصية على العرش سنة ١٢٤٣ :

في ١٥ ابريل سنة ١٢٤٣ أضحى كنراد هوهنشتاوفن ابن الامبراطور فردريك والملكة يولندا ، في الخامسة عشرة من عمره ، فبلغ من الناحية

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 124 - 127.
Estoire d'Eracles, II, p. 422.
Annales de Terre Sainte, p. 441.
(أخطأت هذه التواريخ في تحديد زمن هذا الحادث بأن جعلته سنة ١٢٤٣) .
Richard of San Germano, p. 382.
يتحدث رتشرد جرمانو عن التمرد الذي وقع في عكا في اكتوبر سنة ١٢٤١ لمناوأة الامبراطور فردريك .

الرسمية سن الرشد . وأضحى من واجبه ان يقدم الى عكا وان يحوز بنفسه المملكة ، إذ لم يعد لوالده الحق في الوصاية . على ان كنراد لم يظهر من الدلائل ما يشير الى قدومه الى الشرق ، على الرغم من انه بادر بإرسال توماس اكيرا ليكون نائباً عنه . وعندئذ اعتبر البارونات ان من واجبهم القانوني ان يرشحوا الوريث التالي الذي في متناول ايديهم ليكون وصياً على المملكة ، ولم يكن هذا الوريث سوى أليس ملكة قبرص وخالة امه . والمعروف ان أليس تصالحت مع بني عمومتها من الابابين ، بعد طلاقها من بوهمند الخامس، ثم تزوجت بموافقتهم ، سنة ١٢٤٠ من رالف كونت سواسون، وهو شاب لم يتجاوز في العمر نصف سنها ، قـدم الى الشرق في صحبة الملك تيبالد . ودعا باليان ابلين وفيليب مونتفورت الى عقد مجلس في عكا بقصر البطريرك في ٥ يونيه سنة ١٢٤٣ . وشهد الاجتماع جميع البارونات ، وقام بتمثيل الكنيسة بطرس سارجينس ، رئيس اساقفة صور ، وأساقفة المملكة . وأرسل القومون الى المجلس موظفين من قبله ، وكان يمثل جاليتي الجنويين والبنادقـة رئيساهما . وتولى فيليب نوفارا شرح الوضع القانوني ، وأوصى بأنه لا ينبغي بذل الولاء للملك كنراد ما لم يقدم ليتلقاه بنفسه، وإنــه ينبغي ان يعهد بالوصاية ، حتى يقدم ، الى أليس وزوجها . واقترح اودو مونتبليارد انـــه ينبغي ان يطلب رسمياً الى كنراد القدوم لزيارة مملكته ، وينبغي ألا يتخذ اجراء إلا بعد ان يصل منه الردّ ، غـير ان الابلين لم يروا ما يدعو الى ذلك ، وتغلبت وجهة نظرهم . فحلف المجلس يمين الولاء لأليس ورالف ، بعد ان صان حقوق كنراد [1] .

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 128 - 130.

هذا القرار نزع من فيلانجييري كل أثر للسلطة ، التي جعلت البارونات يترددون في مهاجمته في صور . ولما تمّ تعيين توماس اكينا ، بادر الامبراطور فردريك الى استدعائه الى العودة الى ايطاليا ، فعهد الى اخيه لوثير بحكومة مدينته صور . غير ان المجلس (البرلمان) في عكا أصدر أمراً الى لوثير في ٩ يونيه ١٢٤٣ بأن يسلم مدينة صور الى الوصيين . فلما رفض لوثير ، زحف على المدينة (صور) باليان ابلين وفيليب مونتفورت بقوات من البنادقة والجنويين . ومع ان لوثير جعل ايمانه في اسوار المدينة الضخمة التي نجحت في تحدي صلاح الدين نفسه ، فإن سكان المدينة كانوا قد سئموا فيلانجييري ، فأعربوا عن استجابتهم بأن فتحوا باب المدينة الخلفي القريب من البحر ، والمعروف باسم باب الجزارين ، وفي ليلة ١٢ يونيه ، تسلق باليان ورجاله الصخور زاحفين الى الباب الخلفي ، فدخلوا منه الى المدينة ، ثم فتحوا لحلفائهم الأبواب الرئيسية . وإذ احتلوا دور الاسبتارية والفرسان التيوتون ، اضحت المدينة في قبضة ايديهم ، باستثناء القلعة التي تقع الى

= اورد رواية فيليب نوفارا الذي زعم انه هو الذي اعد هذا الامر .

Estoire d'Eracles, II, p. 240.

Amadi, pp. 190 - 191.

Assises, II, p. 399.

Tafel - Thomas, Urkunden, II, pp. 351 - 389.

(اثبت رواية شاهد عيان من البنادقة اسمه مارسيليو جيورجيو) .

يشير فيليب نوفارا الى انه كان للبيازنة ممثلون في المجلس ، وهو امر غير محتمل ، نظراً لصداقتهم مع الامبراطور فردريك ، كما ان هذه الاشارة لم ترد في مصدر آخر . انظر :

La Monte, Feudal Kingdom, pp. 71 - 78.

الجنوب ، والتي لجـأ اليها لوثير ، وكانت حصناً منيعاً ، وظلّ انصار الامبراطور يقاتلون عنها اربعة اسابيع ، غير انه حدث لسوء الحظ ان الطقس السيء ارغم السفينة التي كانت تقل فيلانجييري الى ايطاليا ، على ان تعود الى صور ، فهبط رتشرد فيلانجييري في ميناء صور دون ان يتوجس خيفة ، فوقع على الفور في قبضة اعدائه ، الذين حملوه مكبلاً في الاغلال الى باب القلعة ، وهددوا بشنقه مـا لم تذعن الحامية . ولم يقبل لوثير الاستسلام إلا بعد ان شهد الحبل يلتف حول رقبة اخيه ، وعندئذ قبل ما عرضه المنتصرون من شروط هينة ، تقضي بالسماح للأخوين بـأن يرحلا بحواشيهما وأمتعتهما ، فلجأ لوثير الى طرابلس حيث احسن بوهمند الخامس استقباله ، ولحق به في طرابلس توماس اكيرا . أما رتشرد فيلانجييري فإنه عاد بوازع من ضميره الى سيده الامبراطور فردريك الذي بادر بإلقائه في الحبس . وإذ اختفى فيلانجييري انتقلت الى ايدي الوصيين بصفة رسمية بيت المقدس وعسقلان ، فضلاً عن مدينة صور .

توقع رالف كونت سواسون ، عن ثقة وايمان ان السيطرة على المدينة المفتوحة سوف تكون للوصيين ، غير ان فيليب مونتفورت أراد ان تكون صور من نصيبه ، حتى يتيسر له تسوية حدود إقطاعه ، تبنين ، وسانده في ذلك الابليون . ولما اظهر رالف غضبه حـين طلب مدينة صور ، أجاب البارونات في مرح ساخر انهم سوف يحتفظون بالمدينة في ذمتهم حـتى يطمئنوا الى من تكون له . فأدرك رالف فجأة انهـم لم يقصدوا إلا ان يجعلوا منه سيداً اسمياً . وإذ احسّ بالمهانة والامتعاض ، بادر بمغادرة الارض

المقدسة وعاد الى فرنسا . أما الملكة أليس التي علّمتها حياتها التي تبلغ خمسين سنة الصبر ، فإنها ظلت وصية حتى ماتت في سنة ١٢٤٦ [١] .

عقد معاهدة مع الصالح اسماعيل امير دمشق سنة ١٢٤٣ :

ولم يكن انتصار البارونات سوى انتصار للداوية على سياسة الاسبتارية الخارجية . فتقرر استئناف المفاوضات من جديد مع امير دمشق . إذ وقع منذ زمن قريب شجار بين الصالح ايوب سلطان مصر ، وبين الناصر داود امير الكرك ، وأقلق الصالح ايوب تخلي الفرنج عن مساندته . ولما اقترح الصالح اسماعيل امير دمشق ، بموافقة الناصر داود ، على الفرنج ان يخلو من ساحة المعبد المشايخ المسلمون الذين كفل لهم الامبراطور فردريك الثاني البقاء بها ، بادر الصالح ايوب الى ان يبذل للفرنج هذا العرض . وإذ برع الداوية الذين تولوا امر المفاوضات في الإيقاع بين الأمراء المسلمين ، استطاعوا ان يحصلوا منهم جميعاً على الموافقة بإعادة ساحة المعبد الى العقيدة المسيحية . وكتب مقدم الداوية ارمان بريجورد رسالة مثيرة الى اوربا في نهاية سنة ١٢٤٣ يقص فيها ما جرى التوصل اليه من نتيجة سعيدة ،

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, pp. 180 - 186.
Estoire d'Eracles, II, p. 420.
Tafel - Thomas, loc. cit.

لم يحصل البنادقة على ما يستحقونه من جوائز .

Assises, II, p. 401.

ليس للوصي شيء من الحقوق ، من الناحية القانونية ، على حصن من الحصون .

ويعلن ان طائفة الاسبتارية تعكف منذئذ على إعادة تحصين المدينة المقدسة . ويعتبر ذلك آخر انتصار دبلوماسي للفرنج في الشرق الادنى [1] .

وكتب الامبراطور فردريك الى رتشرد كرنوال ، على سبيل السخرية ، معلقاً على استعداد طائفة الداوية للتوصل الى تحالف مع المسلمين ، على حين أنهم أنكروا عليه ذلك [2] .

تشجع الداوية بما أحرزوه من نجاح ، فلما اندلعت الحرب بين الصالح ايوب والصالح اسماعيل ، في ربيع سنة ١٢٤٤ ، حرّضوا البارونات على ان يتدخلوا فعلاً الى جانب الصالح اسماعيل . وسبق ان انحـاز الى الصالح اسماعيل ، كل من الناصر داود امير الكرك ، والمنصور ابراهيم ، امير حمص الصغير ، وقدم المنصور ابراهيم بنفسه الى عكا لإبرام المحالفة ، وليعرض على الفرنج بالنيابة عن الحلفاء نصيبهم في مصر ، حينما تحلّ الهزيـمة بالصالح ايوب . وجرى استقبال الامير المسلم بكل مظاهر التشريف ، وتكفل الداوية بمعظم الضيافة [3] .

على ان إنزال الهزيمة بالصالح ايوب لم يكن امراً بالغ السهولة . إذ انه عثر على حلفاء يفوقون الفرنج قوة وتأثيراً ، ذلك ان الترك الخوارزميين

---

(١) انظر : Abu'l Feda, p. 122.
Makrizi, X, pp. 355 - 357.
Al - Aini, p. 197.
Matthew Paris, IV, pp. 289 - 298.

(٢) انظر : Matthew Paris, IV, p. 419.

(٣) انظر : Joinville, (ed. de Wailly), p. 290.

ظلوا منذ وفـاة ملكهم جلال الدين خوارزمشاه يجوبون الجزيرة وشمال الشام ، يشنون الغارات ويمارسون النهب أينما ساروا . وحاول حلف مؤلف من الامراء الايوبيين بالشام ان يضطبهم سنة ١٢٤١ ، فأنزل بهم هزيمة قاسية في معركة دارت بموضع ليس بعيداً من الرها . غير ان الخوارزمية أقاموا مراكز لهم في القرى الواقعة بين الرها وحرّان ، ولا زالوا مستعدين لأن يعرضوا خدماتهم على كل من يبذل لهم الارزاق [١] . وظلّ الصالح ايوب على صلة بهم فترة من الزمن ، فدعاهم اخيراً للاغارة على بلاد دمشق وفلسطين [٢] .

ضياع بيت المقدس نهائياً من أيدي الفرنج سنة ١٢٤٤ :

حدث في يونيه سنة ١٢٤٤ ان انساب الى بلاد دمشق فرسان الخوارزمية الذين يناهز عددهم الفاً من الرجال الأشداء ، يخربون البلاد ويشعلون الحرائق في القرى . وإذ كانت دمشق من القوة ما جعلتهم عاجزين عن مهاجمتها ، مضوا في سيرهم الى الجليل ، بعـد ان تجاوزوا مدينة طبرية التي استولوا

---

(١) انظر : Abu'l Feda, p. 119.
Kemal ad - Din, (trans. Blochet), VI, pp. 3 - 6, 13.
Cahen, La Syrie du Nord, pp. 648 - 649.
Grousset, Histoire des Croisades, III, pp. 410 - 411.

(٢) انظر : Makrizi, X, p. 358.
Matthew Paris, IV, p. 301.
اورد ماثيو باريس رسالة فردريك الثاني ، الذي يؤنب فيها بارونات الشرق الفرنجي ، لأنهم هم الذين تسببوا في قيام هذا الخلاف .

عليها ، ثم اتجهوا صوب الجنوب نحو بيت المقدس ، بعد ان اجتازوا نابلس . وأدرك الفرنج فجأة ما يحيق بهم من الخطر . فعجل بالمسير الى المدينة ، البطريرك روبرت الذي تم انتخابه منذ زمن قريب ، وبصحبته مقدما الداوية والاسبتارية فعززوا الحامية المرابطة في الاستحكامات التي فرغ وقتئذ الداوية من عمارتها ، غير انهم لم يجرؤوا على البقاء بها . على ان الخوارزمية اقتحموا المدينة في ١١ يوليه سنة ١٢٤٤ ، ووقع القتال في الشوارع ، غير انهم استطاعوا ان يشقوا لهم طريقاً الى دير الارمن المعروف بدير القديس يعقوب ، فأجهزوا على الرهبان والراهبات . ولقي حاكم المدينة الفرنجي مصرعه عند قيامه بهجوم من القلعة ، وهلك معه مقدم الاسبتارية . غير ان الحامية ظلت على مقاومتها . ولما لم تقدم نجدات من الفرنج استغاثت بالناصر امير الكرك ، أقرب الحلفاء المسلمين اليهم . على ان الناصر لم يكن يميل للمسيحيين ، وكره الحاجة الى التحالف معهم . ولذا حدث بعد ان ارسل من العساكر من حمل الخوارزمية على ان يبذلوا للحامية الامان بالمسير الى الساحل اذا سلّموا القلعة ، ان تخلى الناصر داود عما ينتظر الحامية من مصير . وفي ٢٣ اغسطس سنة ١٢٤٤ غادر المدينة حوالي ستة آلاف من المسيحيين ، من الرجال والنساء والاطفال ، وتركوها للخوارزمية . وبينما كان المسيحيون يتحركون على الطريق الى يافا ، تطلعت جماعة منهم الى الوراء ، فشاهدت أعلام الفرنج ترفرف على أبراج المدينة . وإذ اعتقدوا ان نجدة قد وصلت بوسيلة من الوسائل ، أصرّ عدد كبير منهم على الرجوع الى المدينة ، غير انهم وقعوا في كمين تحت أسوار المدينة ، فهلك نحو الفين منهم ، ومن بقي على قيد الحياة ، تعرّض لهجمات قطاع الطرق من العرب ، أثناء سيرهم الى البحر ، فلم يصل الى يافا منهم سوى ثلثمائة رجل .

وبذا خرجت بيت المقدس نهائياً من ايدي الفرنج ، ولم يدخل ابوابها جيش مسيحي إلا بعد حوالي سبعة قرون . ولم يظهر الخوارزمية شيئاً من الرأفة بالمدينة ، فاقتحموا كنيسة القيامة ، ولم يرفض مغادرة المدينة إلا عدد قليل من القسس اللاتين المتقدمين في العمر ، الذين كانوا يحتفلون بإقامة القداس ، فلقوا مصرعهم مع من كان حاضراً من قسس المذاهب الدينية الوطنية ، ثم جرى اخراج عظام ملوك بيت المقدس من القبور وتحطيمها ، واشتعلت النيران بالكنيسة . وتعرضت الدور والدكاكين في جميع انحاء المدينة للنهب ، كما احترقت الكنائس . ولما اضحى جميع المكان قفراً موحشاً ، مضى الخوارزمية في انسيابهم ، فلحقوا بالجيش المصري في غزة [1] .

وبينما كان الخوارزمية ينهبون بيت المقدس ، كان فرسان الشرق الفرنجي يحتشدون خارج عكا ، فانحاز اليهم جيشا حمص ودمشق ، بقيادة المنصور ابراهيم امير حمص ، وقدم الناصر داود على رأس جيش الكرك . ثم شرعت القوات المتحالفة في المسير صوب الجنوب ، في ٤ اكتوبر سنة ١٢٤٤ ، وقد سلكت الطريق الساحلي . ومع أن الناصر داود وجيشه من البدو حرصوا على ان يكونوا في عزلة عن سائر القوات المتحالفة ، فالواقع ان الزمالة الكاملة قامت بين الفرنج والمنصور ابراهيم ورجاله .

---

(١) انظر : Chronicle of Mailros (Melrose), pp. 159 - 160.
Matthew Paris, IV, pp. 308, 338 - 340.
Ms. of Rothelin, pp. 563 - 565.
Makrizi, X, pp. 358 - 359.
Al - Aini, p. 198.

على ان الجيش المسيحي يعتبر اضخم جيش قذف بـه الشرق الفرنجي في ساحة القتال ، منذ يوم حطين الذي قرر مصير الفرنج . إذ تألف الجيش المسيحي من ستمائة فارس علماني بقيـادة فيليب مونتفورت ، سيد تبنين وصور ، ووالتر برين كونت يافا . وبعث الداوية والاسبتارية من رجـال الطائفتين ما يزيد على ثلاثمائة فارس ، بقيادة مقدمي الفئتين ، أرمان بريجورد ووليم شاتونيف . واشترك ايضاً في هذا الجيش المسيحي كتيبة من الفرسان التيوتون ، وأرسل بوهمند امير انطاكية ، من ابناء اعمامه يوحنا ووليم سيدي البترون ، ويوحنا سيد هام ، كندسطبل طرابلس . وصحب الجيش البطريرك روبرت ، ورافقـه رئيس اساقفة صور ورالف اسقف الرملة . واشترك في الجيش من السرجندارية والرجالة مـــا يتناسب مع عدد الجيش . والراجح ان القوات التي قادها المنصور ابراهيم تفوقت في عددها ، ولكنها تقاصرت في تسليحها ، وأمدّهم الناصر داود ، فيما يبدو بفرسان البدو .

معركة الحربية (غزة) سنة ١٢٤٤ :

اتخذ الجيش المصري موضعه امـام غزة ، بقيادة امير مملوكي صغير ، وهو ركن الدين بيبرس ، وتألف هـذا الجيش من خمسة آلاف من نخبـة العساكر المصرية ، فضلاً عن جموع الخوارزمية . ووقع الالتحام بين الجيوش المتعادية في يوم ١٧ اكتوبر سنة ١٢٤٤ ، عند قرية الحربية ، المعروفة عند مؤرخي الحروب الصليبية باسم La Forbie ، والواقعة في السهل الرملي على مسافة بضعة اميال الى الشمال الشرقي من غزة . فبادر الحلفـاء الى عقد مجلس حرب ، فأوصى المنصور ابراهيم بأنه ينبغي البقاء بمكانهم ، على

ان يحصنوا معسكرهم ازاء كل هجوم من قِبل الخوارزمية ، وقدّر انــه لن يلبث الخوارزمية ان يزدادوا قلقاً ، لأنهم يكرهون مهاجمة كل موضع منيع ، وليس بوسع الجيش المصري أن يستغني عنهم فيما يشنه من هجوم . وقد يواتيهم الحظ الطيب فيبادر الجيش المصري بأكمله الى الانسحاب الى مصر . ووافقه عدد كبير من المسيحيين . أما والتر بريين فانه اشتدّ في الالحاح على القيام بهجوم مباشر ، إذ كانت قواتهم تفوق في العدد الجيش المصري ، وقــد حانت الفرصة للقضاء على تهديد الخوارزمية ، ولإذلال الصالح ايوب . فاتخذ والتر طريقه ، وتحرك الجيش بأكمله للهجوم . وكان الفرنج يؤلفون ميمنة الجيش ، بينما اتخذ الدماشقة ورجال حمص مواقعهم من قلب الجيش ، وكان الناصر داود في الميسرة .

وبينما كانت العساكر المصرية ترد هجوم الفرنج ، حمل الخوارزمية على المسلمين المحــالفين للفرنج ، وصمد في القتال المنصور ابراهيم وعساكره من حمص ، وحافظوا على مراكزهم ، ولكن عساكر دمشق لم تستطع ان تتحمل الصدمة ، فاستدارت وولت الأدبار ، وحذا حذوهم الناصر داود وجيشه . وبينما كان المنصور ابراهيم يشق طريقه للخروج ، تحول الخوارزمية فانقضوا على جنــاح المسيحيين فساقوهم الى القوات المصرية . واستبسل الفرنج في القتال ولكن دون جدوى . ففي ساعات قليلة تحطم كل جيشهم . ومن الذين لقوا مصرعهم مقـــدم الداوية ومارشالهم ، ورئيس اساقفة صور ، وأسقف الرملة ، وسيدا البترون . ووقع في الأسر ، كونت يافــا ، ومقدم الاسبتارية ، وكندسطبل طرابلس . ولاذ بالفرار الى عسقلان ، فيليب مونتفورت والبطريرك ، ولحق بهما من بقي على قيـــد الحياة من فرسان الطوائف الدينية العسكرية ، منهم ثلاثة وثلاثون من الداوية ، وستة وعشرون

من الاسبتارية ، وثلاثة من الفرسان التيوتون . فأبحروا الى يافـا ، وجرى تقدير عدد القتلى بأنهم لم يقـــلوا عن خمسة آلاف قتيل ، والراجح انهم يزيدون على ذلك . ونقل نحو ثمانمائة اسير الى مصر (١) .

وبادر الجيش المصري المظفر بالزحف على عسقلان التي شحنها الاسبتارية بحامية عسكرية . وأثبتت استحكاماتها أهميتها وقيمتها ، إذ فشلت هجمات المصريين ، فقرروا فرض الحصار عليها . بعـد ان جلبوا السفن من مصر لمراقبة الساحل . وفي تلك الاثناء هرع الخوارزمية الى يافا يحملون كونت يافا الاسير ، وهددوا بشنقه ما لم تستسلم الحامية . غير ان الكونت الاسير صاح برجاله بأن يثبتوا في القتال . وكانت استحكامات يافا من المناعة ما يعجز الخوارزمية عن مهاجمتها ، فانسحبوا بأسيرهم الذي ابقوا على حياته ، على انه مات فيما بعد ، بعد شجار نشب بينه وبين امير مصري ، كان يلاعبه الشطرنج (٢) .

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 427 - 431.
Ms. of Rothelin, pp. 562 - 566.
Gestes des Chiprois, pp. 145 - 146.
Chronicle of Mailors, pp. 159 - 160.
Joinville, pp. 293 - 295.
Matthew Paris, IV, pp. 301, 307 - 311.
Makrizi, X, p. 360.
Abu Shama, II, p. 193.

(٢) انظر : Joinville, loc. cit.
Amadi, pp. 201 - 202.

الواقع ان هزيمة غزة سلبت الفرنج كل مـا أحرزته لهم الدبلوماسية من مكاسب طارئة في عشرات السنين الاخيرة . إذ ليس من الراجح ان تصمد بيت المقدس والجليل لهجوم إسلامي خطير . غير ان الخسارة في القوة البشرية جعلت الشرق الفرنجي من العجز ما لم يجعله يدافع إلا عن المناطق الساحلية وبعض القلاع الداخلية المنيعة ، ولم يفق معركة غزة في كثرة الخسائر سوى معركة حطين ، ومع ذلك فقد كان بين حطين وغزة شيء من الاختلاف ، إذ ان صلاح الدين الذي أحرز النصر في حطين كان فعلاً سيداً على مصر والشام ، على حين ان الصالح ايوب سلطان مصر كان لا بدّ له ان يتغلب على خصمه في دمشق ، قبل ان يخاطر بالتخلص من المسيحيين ، وهذا الارجاء هو الذي أنقذ الشرق الفرنجي .

كان الخوارزمية يأملون في ان الصالح سوف يكافأهم على ما بذلوه له من مساعدة بأن ينزلهم في اراضي مصر الخصيبة . غير انه رفض السماح لهم باجتياز الحدود المصرية ، التي أقام بها عسكراً ليلاحظوا ان الخوارزمية لا زالوا بالشام . فاستدار الخوارزمية وأغاروا على فلسطين ، ومضوا في طريقهم حتى بلغوا أرباض عكا ، ثم تحركوا الى داخل البلاد لينحازوا الى المصريين في حصار دمشق . فالمعروف ان الجيش المصري بقيادة الامير معين الدين ، ساراً مجتازاً جوف فلسطين ، فحرم بذلك الناصر داود امير الكرك من كل بلاده الواقعة غربي نهر الاردن ، ثم وصلوا آخر الامر الى دمشق في ابريل سنة ١٢٤٥ ، فاستمر حصارهم لدمشق ستة شهور ، فأمر الصالح اسماعيل امير دمشق بقطع الجسور التي تحفظ مياه نهر بردى ، فأضحت الارض الواقعـة خارج أسوار دمشق مستنقعاً يتعذر اختراقه . غير ان الحصار الشديد الذي فرضه المصريون أثار قلق التجـار وأرباب

الحوانيت . وفي اوائـل اكتوبر سنة ١٢٤٥ قبل الصالح اسماعيل شروط الصلح ، فتخلى عن دمشق مقابل الحصول على إمارة باعتباره تابعاً ، تتألف من بعلبك وحوران . ولما لم يظفر الخوارزمية بالمكافأة من قبل الصالح ايوب ، قرروا التخلي عنه ، ثم عرضوا في اوائل سنة ١٢٤٦ خدماتهم على الصالح اسماعيل ، وبفضل مساعدتهم عاد الصالح اسماعيل قاصداً دمشق فألقى الحصار على المدينة . وكان يأمل في ان ينحاز اليه امراء ايوبيون آخرون لقتال الصالح ايوب ، غير ان كراهيتهم للخوارزمية كانت أشد وأقوى . فأنفذ الوصي على حلب وأمير حمص ، جيشاً لإنقاذ دمشق ، بعد ان بذل لهما الصالح ايوب الاموال . فرفع الحصار الصالح اسماعيل وحلفاؤه من الخوارزمية ، وتوجهوا صوب الشمال فالتقوا في اوائل مايو سنة ١٢٤٦ بالجيش القادم لنجدة دمشق ، عنـــد موضع يقع على الطريق المؤدي من بعلبك الى حمص . فتعرّض الصالح اسماعيل لهزيمة ساحقة ، وحلّ الدمار بمعظم الخوارزمية ، فمن بقي على قيد الحياة منهم التمسوا لهم طريقاً الى الشرق ، وانحازوا الى المغول ، بينما جرى الطواف برأس زعيمهم في موكب ، في شوارع حلب . وابتهج جميع العالم العربي لاختفاء الخوارزمية ، وتأكد تملك الصالح ايوب لدمشق . وتحتم على الصالح اسماعيل ان يعود مرة اخرى الى إقطاعه في بعلبك ، واعترف الأيوبيون بشمال الشام بسيادة الصالح ايوب ، فأضحى بوسعه ان يوجه اهتمامه مرة اخرى الى الفرنج [١] .

---

(١) انظر :

Ibn Khallikan, III, p. 246.
Makrizi, X, pp. 361 - 365.
Abu Shama, II, p. 432.
Estoire d'Eracles, II, p. 432.

انتزاع عسقلان من الفرنج سنة ١٢٤٧ :

استولى جيش مصري في ١٧ يونيه سنة ١٢٤٧ على طبرية وقلعتها التي أعاد عمارتها حديثاً اودو مونتبليارد ، ولم يلبث ان احتل الجيش المصري بعدئذ جبل الطور وحصن شقيف ارنون . ثم تلى ذلك تحرك الجيش لمنازلة عسقلان . وما شيّده هيو دوق برجنديا من استحكامات في عسقلان ما زالت في حالة جيدة ، ونزل بها حامية عسكرية قوية من الاسبتارية . وتقرر استقدام نجدة اخرى من عكا وقبرص ، فبادر هنري ملك قبرص بإرسال اسطول مؤلف من ثماني شواني تحمل مائة فارس ، بقيادة الصنجيل بلدوين ابلين ، الى عكا ، حيث أعدّ قومون المدينة بمساعدة النزلاء الايطاليين سبع شواني اخرى ، وخمسين سفينة خفيفة . وجلب المصريون اسطولاً مؤلفاً من احدى وعشرين شانية ، كان يحاصر المدينة ، ثم أبحر للقاء المسيحيين . غير ان الاسطول المصري صادف عاصفة هبّت فجأة على البحر المتوسط ، قبل ان يلتحم بالسفن المسيحية ، فقذفت العاصفة بسفن كثيرة الى الشاطىء ، فتحطمت . وما لم يغرق من سفن الاسطول المصري أبحرت راجعة الى مصر . وأضحى بوسع الاسطول المسيحي ان يقلع الى عسقلان دون ان يتعرّض لشيء من الهجوم ، فأمدّ الحامية بالمؤن ، وأنزل الفرسان الى البر . على ان المناخ استمر سيئاً ، ولم تستطع السفن ان تظل راسية قبالة البلد ، دون ان تلقى شيئاً من الحماية ، فعادت الى عكا ، بعد ان تركت عسقلان تواجه مصيرها . وتوقف نشاط الجيش المصري الذي يحاصر البلد (عسقلان) ، بسبب افتقاره الى الاخشاب اللازمة لآلات الحصار ، غير ان حطام السفن المتناثرة على امتداد الشاطىء ، أمدّهم بكل ما احتاجه الجيش من مواد . واستطاع كبش ضخم من أدوات الحصار ان

يشقّ له طريقاً تحت الاسوار يؤدي مباشرة الى داخل القلعة ، تدفق منه الجيش المصري في ١٥ اكتوبر سنة ١٢٤٧ الى داخل القلعة . أما المدافعون عن القلعة فأخذوا على غرة ، فلقي معظمهم مصرعهم على الفور ، ومن تبقى منهم وقعوا في الأسر . ووفقاً لأوامر السلطان الصالح ايوب ، تقرر تدمير الحصن ، فأضحى خراباً موحشاً [١] . ولم يواصل الصالح ايوب انتصاره ، بل قام بزيارة بيت المقدس ، وأمر باعادة عمارة أسوارها ، ثم غادرها الى دمشق حيث أقام بهـــا طوال شتاء سنة ١٢٤٨ ، وربيع سنة ١٢٤٩ ، وقدم عليه كل امراء الشام يبذلون له الولاء [٢] .

ساد الهدوء مملكة الشرق الفرنجي المتضائلة ، برغم خسائرها ، وافتقارها الى حكومة مركزية . إذ ماتت الملكة أليس سنة ١٢٤٦ ، وانتقلت الوصاية الى من يليها في وراثة المملكة ، وهو ابنها هنري ملك جزيرة قبرص ، برغم احتجاج اخت غـير شقيقة لها ، وهي ميليسند اميرة انطاكية . على ان الملك هنري الذي لم يكن له من الصفات ما يتميز بـه سوى بدانته

---

(١) انظر : Estoire d'Eracles, II, pp. 432 - 435.
Gestes des Chiprois, p. 146.
Annales de Terre Sainte, p. 442.
Al - Aini, p. 200.
Makrizi, X, p. 315.

(٢) انظر : Ibn Khallikan, loc. cit.

الشديدة ، لم يكن بالرجل الذي يفرض سلطته [١] . فقام الملك هنري بتعيين باليان ابلين نائباً عنه ، وأقر فيليب مونتفورت في حيازته لمدينة صور . ولما مات باليان في سبتمبر سنة ١٢٤٧ ، خلفه في النيابة عن الملك ، اخوه يوحنا سيد ارسوف ، وفي اقطاع بيروت ابنه يوحنا [٢] .

وفي اقصى الشمال بذل بوهمند الخامس امير انطاكية وكونت طرابلس كل ما في وسعه من جهد ، كيما يبقى بعيداً عن امور جيرانه . وبفضل نفوذ زوجته الايطالية ، لوسين سيجني ، اضحى على علاقات ودية مع البابوية ، غير ان الاعداد الغفيرة من اقاربها وأصدقائها بروما الذين دعتهم للقدوم الى الشرق ازعجت بارونات انطاكية وسببت له المتاعب فيما بعد . والراجح انه بناء على طلب البابا ارسل كتيبة من قواته اشتركت في وقعة غزه الفاجعة . غير انه استطاع في الوقت نفسه ان يحافظ على علاقاته الودية مع الامبراطور فردريك الثاني ، فبذل لكل من لوثير فيلانجييري وتوماس اكيرا ملاذاً في طرابلس ، مما ازعج البابا ، غير انه رفض ان يقدم لهما مساعدة ايجابية . أما نزاعه مع مملكة ارمينيا فاستمر

---

(١) انظر : Gestes des Chiprois, p. 146.

اورد موجزاً مغرضاً للحل .

Röhricht, Regesta, pp. 315 - 316.

Innocent IV, Registres, (ed. Berger), no. 4427, II, p. 60.

عهد البابا الى يود شاتورو بأن يفحص دعوى ميليسند ، ثم سقطت الدعوى فيما بعد . انظر :

Röhricht, Gescichte des Konigreichs Jerusalem, p. 873, n. 3.

(٢) انظر : Annales de Terre Sainte, p. 442.

Amadi, p. 198.

بضع سنوات . وحاول عبثاً ان يقنع البابا بالموافقة على طلاق ايزابيللا الصغيرة وريثة بيت روبين من هيثوم ملك ارمينيا الجديد ، كما يحرم هيثوم من حقه الشرعي في ولاية العرش . غير ان البابوية منحت بصفة خاصة كلا من بوهمند الخامس امير انطاكية وكونت طرابلس ، وهنري ملك قبرص من مهاجمة الأرمن ، حينما كان هيثوم يوجه كل اهتمامه الى رد هجمات كيخسرو سلطان السلاجقة الأعظم ، فلم يكن بوسعه ان يكون معتدياً . على ان ما حدث سنة ١٢٣٧ من زواج ستيفاني اخت هيثوم بهنري ملك قبرص ، مهد الطريق رويداً رويداً الى مصالحة عامة [1] .

بطريركية الروم الكاثوليك في انطاكية سنة ١٢٤٥ :

لم يكن لبوهمند الخامس إلا سلطان ضئيل على الطوائف الدينية العسكرية المستقرة في بلاده ، غير انه اشتد حذر هذه الطوائف . إذ أن البابوية ، بموافقة بوهمند الخامس فيما يبدو ، غيّرت سياستها نحو الكنيسة الارثوذكسية بأنطاكية ، بان حاولت التوفيق بين قومون انطاكية وبين العنصر اليوناني القوي به ، وإذ كان من المستحيل وقتئذ ادماج اليونانيين واللاتين في كنيسة واحدة ، عرض البابا هونوريوس الثالث ان يكون لليونانيين كنيسة مستقلة في الداخل ، يكون لها هيئة اكليروس وشعائر خاصة بها ، طالما اعترف البطريرك اليوناني بالسلطة العليا للبابوية . فرفض رجال الدين اليونانيون هذا العرض ، والراجح ان هذا الرفض يرجع الى ما بذله بوهمند لهم سراً من تشجيع ، لأنه أدرك ان رجال الدين

---

(١) انظر : Cahen, La Syrie du Nord, pp. 650 - 652.

اليونانيين سوف يكونون اكثر طواعيـة له . فهرع البطريرك سمعان الى المجمع المعادي للاتين الذي دعا الى عقده في تيميفايوم ، الامبراطور البيزنطي في نيقيه ، وتقرر فيه قطع البابا من الكنيسة . ولكن لما مات البطريرك سمعان حوالي سنة ١٢٤٠ ، اراد البطريرك داود الذي جاء من بعده ان يدخل في مفاوضات مع البابا ، ولعل ذلك يرجع الى انـه كان للأميرة لوسين نصيب في تنصيبه بطريركاً . وفي سنة ١٢٤٥ ارسل البابا انوسنت الرابـع الى الشرق الراهب الفرنسسكاني لورنزو اورتا ، وزوّده بتعلـيمات تقضي بأن اليونانيين الذين يعترفون بالسيادة الكنسية للبابا ، سوف يكونون على قدم المساواة مع اللاتين في كل مكان . فليس مطلوباً منهم سوى ان يطيعوا الرؤساء اللاتين ، في كل مكان توافرت بـه سابقة تاريخية سليمة لذلك . وجرت دعوة البطريرك لأن يرسل بعثة الى روما على نفقة البابا لمناقشة مـا هو موضع نزاع من المسائل . وقبل البطريرك داود هـذه الشروط . وحوالي ذلك الوقت ارتحل الى فرنسا البرت البطريرك اللاتيني في انطاكية الذي لم يكن راضياً عن هذه التدابير ، ليشهد مجمعاً في ليون ، غير انه مات بها . ولم يتم تعيين البطريرك الجديد ، وهو اوبيزون فيشي ، ابن اخت البـابا إلا سنة ١٢٤٧ ، فقدم الى انطاكية في السنة التالية ، سنة ١٢٤٨ . وفي نفس الوقت كان داود هو البطريرك الوحيد الذي اقام في انطاكية . غير انه لما مات داود ، الذي لم يعرف تاريخ وفاته ، رفض خلفه ، يوثيميوس ، ما للبابوية من سيادة ، ولذا امر البطريرك اللاتيني اوبيزون بقطعه من الكنيسة ونفيه من المدينة [1] .

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. pp. 684 - 685.
Regista Honorii Papae, III, nos. 5570, II, p. 352.

والمعروف ان جانباً كبيراً من الكنيسة اليعقوبية خضع فعلاً لسلطة البابوية في روما ، ففي سنة ١٢٣٧ بينما كان بطريرك اليعاقبة بأنطاكية ، وهو اجناتيوس ، يزور بيت المقدس ، اشترك في قداس لاتيني ، فاتخذ رداء راهب دومنيكاني بعد ان أعلن أرثوذكسيته بالإيمان. وعند عودته الى انطاكية اصطحب معه كثيرين من اكليروسه ، وتقرر اخطار اللاتين رسمياً بأنه يجوز لهم ان يعترفوا امـام القسس اليعاقبة ، ما لم يتيسر العثور على قسس من اللاتين يتلقون الاعتراف . وفي سنة ١٢٤٥ قـام رسول بابوي ، اسمه اندرياس لونججيمو بزيارة اجناتيوس في ماردين ، حيث اتخذ مقره الاصلي ، فدارت بينهما المفاوضات عـن شروط ادمـاج الكنيسة اليعقوبيـة في الكنيسة اللاتينية . وأعرب اجناتيوس عن استعداده لقبول صيغة لفظية عن العقيدة والاستقلال الاداري ، مع الاعتراف بالسيادة المباشرة للبابوية ، غير ان اجناتيوس ، لسوء الحظ ، لم يتحدث إلا باسم حزب واحـد بالكنيسة اليعقوبية . إذ المعروف أنه قام فعلاً عداء بين اليعاقبة بشمال الشام وبين اليعاقبة في الاقاليم الشرقية والجنوبية ، الذين لم يعترفوا بالاتحـاد . وظل اتباع اجناتيوس اوفياء للاتين ، طوال حياته . فلما مـات سنة ١٢٥٢ ، اشتد الجدل حول من يليه في بطريركية اليعاقبة . على ان يوحنا اسقف حلب ، المرشح الذي يميل الى اللاتين انتصر مؤقتاً ، غير انـه ادرك ان

= لم يرد الدليل إلا من مصادر بابوية ، على الرغم من ان المؤرخ ابن العبري يشير الى رحـلة يوثيميوس الى بلاط المغول . انظر :

Bar Hebraeus, (trans. Budge), p. 445.

انظر ايضاً : « Lettres des Chretiens de Terre Sainte à Charles d'Anjou », in Revue de l'Orient Latin, II, p. 213.

اصدقاءه اللاتين لم يبذلوا له تأييداً كافياً ، على حين ان منافسه ، دنيس ، الذي حلّ مكانه فعلاً ، دأب باستمرار على معارضة اللاتين ، ولم يبق على الاتحاد إلا شطر صغير من كنيسة اليعاقبة ، اقتصر على طرابلس[1] .

فضائح كنيسة انطاكية سنة ١٢٥٢ :

وما بذل من جهد لتحقيق الاتحاد ، قام به اساساً الرهبان المبشرون من الدومنيكان والفرنسيسكان الذين بدأوا نشاطهم في الشرق عقب انشاء طائفتيهما مباشرة . إذ لم يلقوا لهم مجالاً كبيراً في مملكة بيت المقدس المحدودة ، غير ان نشاطهم اشتد بصفة خاصة في بطريركية انطاكية ، نظراً لأن البطريرك البرت كان راعيهم الذي تعلقوا به . ثم ازداد نزوعهم لأن يحلوا مكان رجال الدين (الاكليروس) النظاميين في الابروشيات المتناثرة في البطريركية . على ان العلاقات لم تكن طيبة بين البطاركة وطائفة الرهبان الشستريان التي نشأت حديثاً . إذ سبق لبطرس الثاني وهو رئيس دير شستريان سابق ، ان انزلهم في ديرين ، الاول وهو دير القديس جورج يجوبين قرب انطاكية ، والآخر ، وهو دير بلمونت قرب طرابلس . غير ان ظهرت فضائح كثيرة اثناء بطريركية البرت ، ولم يستتب الأمن والنظام في الاديرة ، ولم تصلح سلطة البطريرك إلا بعد رفع ملتمسات عديدة الى روما[2] .

---

(١) انظر : Cahen, op. cit. pp. 681 - 684.
وما ورد فيه من مراجع .

(٢) انظر : Cahen, op. cit. pp. 668 - 671, 680 - 681.

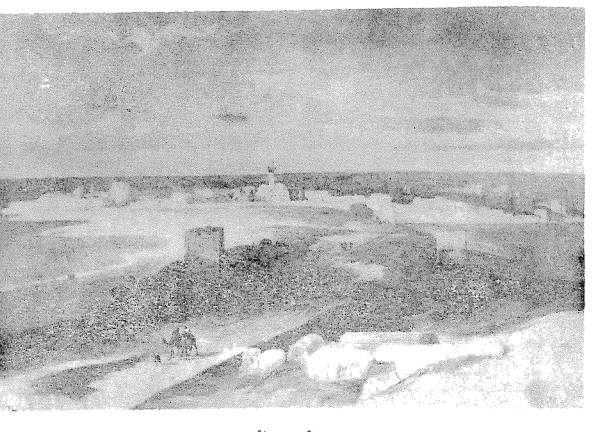
لم يحفل بوهمند الخامس إلا قليلاً بهذه الاجراءات ، إذ قلّ ان زار انطاكية ، بعد ان اتخذ طرابلس مقراً له . وحدث في املاكه مثلما جرى في مملكة بيت المقدس ، ان حرصت عناصر السكان المختلفة على ان تنأى بعيداً عن المنازعات ، ولم يمنع اختفاءها وزوالها إلا ما وقع من مخاصمات بين الايوبيين ، وظهور قوة جديدة بالغة الخطورة اخذت تثير العالم الاسلامي ، ولم تكن هذه القوة سوى امبراطورية المغول .



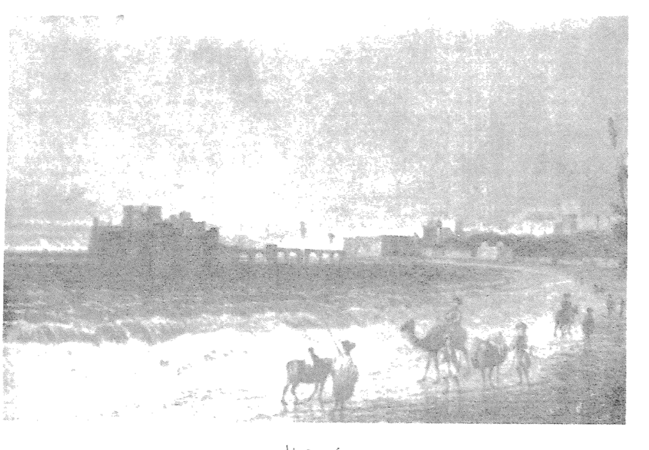
١ — الشاعر الغنائي فردريك هاوزن يخرج للاشتراك في الحملة الصليبية الثالثة



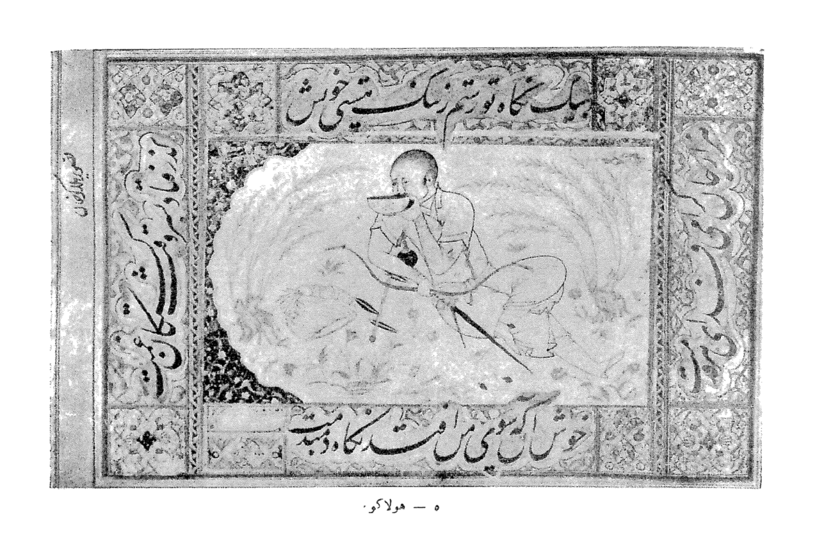
٢ — الامبراطور فردريك بربروسه وولداه هنري السادس ملك الرومان، وفردريك دوق سوابيا



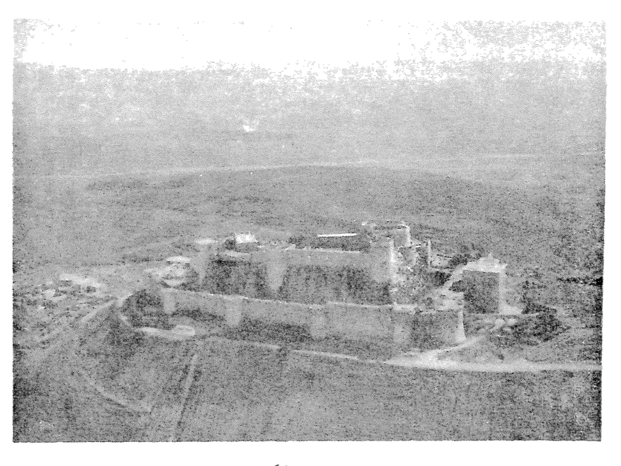
٣ — مدينة صور سنة ١٨٣٩



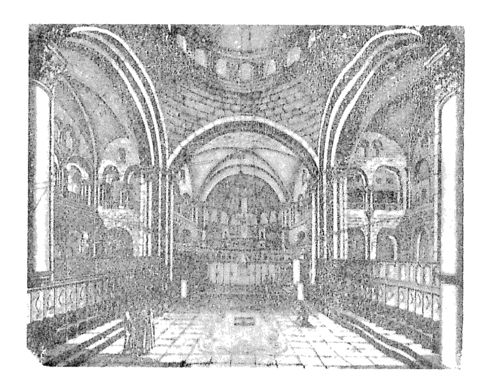
٤ — صيدا



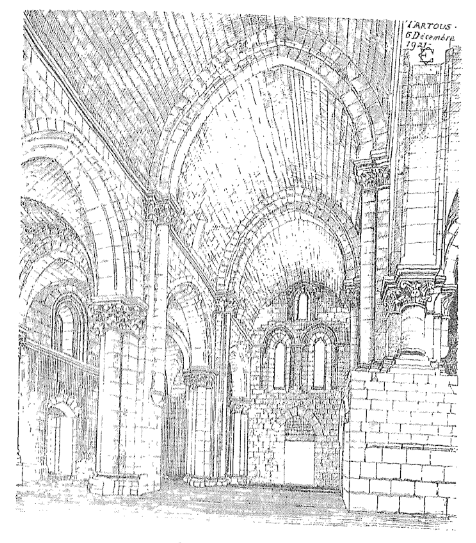
۵ — هولاکو.



٦ — حصن الاكراد



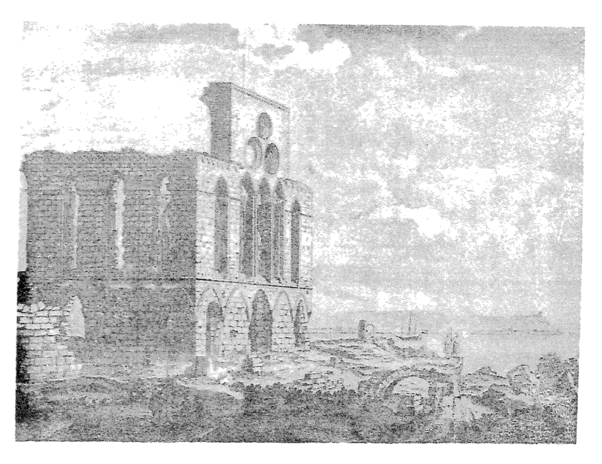
٧ — موضع المرتلين في كنيسة القيامة سنة ١٦٨١



٨ — كاتدرائية انطرطوس



٩ — فسيفساء تمثل المسيح



١٠ — كنيسة القديس اندرياس في عكا سنة ١٦٨١

